علماء الإسلام

أوصافهم النبيلة - وظائفهم الثقيلة - مواقفهم الجليلة



تأليف:
علي باپير

الطبعة الثالثة
مزيدة ومنقحة
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

دار المعراج

www.youtube.com/alibapir١

عُلَمَاءُ الإِسْلَامِ

أوصافهم النبيلة

وظائفهم الثقيلة

مواقفهم الجليلة

www.alibapir.net

علماء الإسلام..

أوصافهم النّبيلة..

وظائفهم الثقيلة..

مواقفهم الجليلة..

تأليف: علي باپير

تعريب: أسامة نصرالدين

سنة الطبع: ١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠م

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

رقم الإيداع ١٨٣ سنة ٢٠٠٦

الطبعة الثالثة

1441 هـ - 2020 م

دار المعراج

تلفاكس: 2247242 11 963 +

ص.ب: 31429 - سورية - دمشق

E-mail: meraj.press@gmail.com

علماء الإسلام

أوصافهم النبيلة

وظائفهم الثقيلة

مواقفهم الجليلة

تأليف

علي باپير

دار المعراج

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ... ﴾

فاطر: ٣٢

www.youtube.com/alibapir١

www.alibapir.net

إهداء

١/ إلى العلماء والأئمة الأصلاء الذين يدركون تماماً ماذا وَرِثوا من النبيِّ ﷺ، وأيُّ شيءٍ أهَّلهم للحصول على ميراث النبي ﷺ وتسنّم قيادة المسلمين، ولذلك تراهم يحافظون على هذا الإرث النبوي، ولا يغيب عن بالهم طرفة عين، مهما مورس معهم من إخافة وإطماع.

٢/ وإلى جميع الأئمة والعلماء والأساتذة الأعزاء:

الذين نَهَلتُ من مناهلهم العذبة -بصورة مباشرة أو غير مباشرة- من كتبهم ونتاجاتهم الرصينة، ومن كلامهم وتعليمهم ونصائحهم وتوجيهاتهم القيمة، الذين أصبحوا شموعاً في ظلمات ليل الغافلين، وسِرْتُ في ضيائهم إلى الله.

اللّهم أَجزِلْ لَهُم الثواب وارفع درجاتهم في العليين، وَنَقِّهِم من أوضار الذنوب والخطايا كما يُنقَّى الثوبُ الأبيض من الدنس.

٣/ وإلى شبابنا وطلبتنا الواعين الذين يعملون لخدمة مجتمعهم في ظل الشريعة الغراء، وهم مع شيوخهم وأساتذتهم يعملون بروح ملؤها الجدية والأدب والحياء الرفيع، فهم يُنزِلونَهم المكانة اللائقة بهم، ويأخذون من معينهم الصافي، وفي الوقت ذاته: ينافحون عنهم بوجه أعدائهم ويحافظون عليهم كأبصارهم...

مقدمة
الطبعة الثالثة (العربية)

الْحَمْـدُ لله نَحْمَـدُهُ وَنَسْـتَعِينُهُ، وَنَسْـتَغْفِرُهُ، وَنَعُـوذُ بـاللهِ مِـنْ شرُورِ أَنْفُسِـنَا، وَمِـنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَـنْ يَهْده اللهُ فَلا مُضِـلَّ لَـهُ، وَمَـنْ يُضلِـلْ فَلاَ هَـادِيَ لَـهُ، وَأَشْـهَدُ أَن لاَ إِلَـهَ إلاّ اللهُ وَحْـدَهُ لاَ شَرِيـكَ لَـهُ، وَأَشْـهَدُ أَنَّ مُحَمَّـداً عَبْـدُهُ وَرَسـولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ آل عمران ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ النسـاء ﴾،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ الأحـزاب ﴾.

أَمَّـا بَعْـدُ: فـإِنَّ أَصْـدَقَ الحَديـث كَلامُ اللهِ، وَخَـيْرَ الْهَـدِي هـدْيُ مُحَمَّـد – صَلَّى الله عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ – وَشرَّ الأُمُـورِ مُحْدَثاتُـها، وَكُلَّ مُحْدَثَـةٍ بِدْعَـة، وَكُلَّ بِدْعَـةٍ ضَلالَـةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَـةِ فِي النَّـار.

وبعد، فهـذه هي الطّبعة الثالثة (العربيـة) لكتـاب (علـماء الإسـلام...) بعـد مُضيِّ سـبعة عـشر عامـاً على الطّبعـة الأولى.

وقـد غيَّرنـا عنـوان الكتـاب في هـذه الطبعـة مـن (علـماء الإسـلام.. مـن هـم وماهـي صفاتهـم؟) إلى: (علـماء الإسـلام.. أوصافهـم النّبيلـة.. وظائفهـم الثقيلة.. مواقفهـم الجليلة).

والجدير بالذكر أننا أبقينا على الكتاب كما كان، سوى بعض الإضافات هنا وهناك، وتنقيحات وتصويبات لبعض الأفكار، لايمسُّ جوهر الكتاب.

هذا وتأتي إعادة طبع هذا الكتاب في وقتٍ اشتدَّت فيه الأزمة على الإسلام والمسلمين عموماً، والتيار الإسلامي الهادف إلى التغيير والإصلاح وروّاده العلماء والدعاة، خصوصاً.

ومما لاشك فيه أن مفتاح الخروج من التيّه الذي نحن فيه، والأزمات الخانقة التي نُعاني منها، هو تغييرنا الذاتي الجذري الشامل:

للأفكار والرؤى المخزونة في عقولنا، والمشاعر والصفات المُستكنّة في قلوبنا، والسلوكيات والأعمال التي نُزاولها بأعضائنا، وذلك طبقاً لميزان الشريعة المتّزِن، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ ..إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴿١١﴾ .. ﴾ الرعد: ١١.

إذْ ليس واقعنا السيء المرير، سوى انعكاس لواقعنا العقلي والقلبي والسلوكي الأكثر سوءاً ومرارةً!

وجَليٌّ أن العلماء المرشدين ورثة الأنبياء والمرسلين، هم أول من يجب تغيير أنفسهم وإصلاحها، وآملُ أن يَسُدَّ هذا الكتاب في هذا المجال مَسَدّاً ويُحقّق هدفاً.

والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين

المؤلّف

١٧/ جمادى الأولى / ١٤٤١ هـ

١٣/ ١/ ٢٠٢٠ م

أربيل كوردستان العراق

مقدمة
الطبعة الأولى (العربية)

الحمـدلله رب العالمـين وصلاتـه وسـلامه عـلى أنبيائـه أجمعـين، لاسـيّما سـيّدهم وخاتمهـم إمـام المتقـين وقائـد المجاهديـن، حبيبنـا محمـد وآلـه وصحبـه أجمعـين، ومـن اهتـدى بهديهـم إلى يـوم الديـن.

أما بعد:

فهـذه هـي الطبعـة الأولى لكتـاب (علماء الإسـلام... مـن هـم.. وماهـي صفاتهم؟!) باللغـة العربيـة بعـد أن ترجمـه مـن الكورديـة الأخ الفاضـل (أسـامة نصرالديـن) مشـكوراً، فجـزاهُ الله أحسـن الجـزاء، وقـد راجعتـه بنفسـي زيـادةً في الإطمئنـان عـلى سـلامته العلميّـة، وأعتقـد أنـه قـد وفـق في عملـه إلى حـد كبـير.

وأسـأل الله تبـارك وتعـالى أن يبـارك في هـذا الكتـاب وينفـع به القـرّاء الكـرام عموماً، وأهـل العلـم الشرعي منهـم خصوصاً.

والحمدلله الذي تتم الصالحات بنعمته.

المؤلف
٢٢ ربيع الثاني ١٤٢٤هـ
٢٣/ ٦/ ٢/ ٢٠٠٣م
السليمانية

www.youtube.com/alibapir١

www.alibapir.net

مقدمة
الطبعة الثانية الكوردية

قرائي الأحبة!

بعد نفاذ الطبعة الأولى من هذا السِّفر في المكتبات،[١] في مدة وجيزة - والحمد لله- ونزولاً عند رغبة كثير من إخواننا المخلصين، ها نحن نقدم الكتاب في طبعته الثانية، كما هو في الطبعة الأولى تماماً، دون تصرف أو تغيير، خلا أنني ارتأيت أن أشير -في هذه المقدمة- إلى بعض النقاط المهمة:

الأولى: آملُ في كتابي هذا، أني وُفِّقتُ في إصابة الصواب في مجال تعريف العلماء والموقف الواجب علينا اتخاذه تجاههم، وألاّ أكون واقعاً في الإفراط أو التفريط الذي يتعرض لهما كثير من طبقات المجتمع وشرائحه.[٢]

١) طبع من الطبعة الأولى (١٠٠٠) نسخة.

٢) فمثلاً: بعد انتشار الكتاب في المكتبات وصل إلى مسامعي أنباء مواقف متفاتة من الإفراط والتفريط، حول عدد من الأئمة والعلماء الذين أتيت على ذكرهم، وهنا أجد من المناسب الإشارة اليها؛ فابن تيمية الذي لا ينكر فضله وعِلمَه ونبوغَه إلاّ جاهل بالتأريخ والواقع، عندما علم البعض أنني ذكرته في هذا الكتاب، شرعوا في ذمّ الكتاب ومؤلفه!

وفي المقابل، فإن أناساً آخرين عندما بلغهم بأنه ورد في هذا الكتاب أن إبن تيمية ليس معصوماً وأنه أخطأ في عدة مسائل، أستاءَ هؤلاء أيضاً وأعرضوا، وتكونت لديهم حساسية ضد الكتاب ومؤلفه!

والشيء نفسه يُقال عن سعيد النورسي، حيث يميل بعض الذين يميلون إلى التفريط، أن النورسي لا يستحق أن يعتبر عالماً أو إماماً! والحال أنه لا ينكر علم النورسي وحكمته وأهليته، إلاّ مَن حُرِمَ الإنصاف والضمير، فلا ريب أنه واحد من عباقرة الأمة الإسلامية القليلين، وجدير به أن يُعتبر مجدداً لهذا الدين.

الثانية: اقترح عليّ بعض المخلصين من الأخوة، أن أضيف مجموعة من مواقف العلماء الآخرين إلى قائمة الكتاب، ولكن الفرصة ليست سانحة للقيام بذلك في الوقت الحاضر، وفيما سطرناه من المواقف كفاية إن شاء الله، وسنقوم لاحقاً بإذن الله تعالى، بإضافة ما تستدعيه الحاجة والضرورة، إن بقي لنا متّسعٌ في العمر.

الثالثة: أَلَحّ عليَّ بعض الأخوة-بعد أن قرؤوا السطور القليلة التي كتبتها عن أيام كوني طالباً أدرس العلم، وخطابتي-أن أكتب خلاصة عن حياتي على هيئة (مذكرات) ولكنني أرى الوقت مبكراً لذلك، ولا أعلم إن كان بإمكاني أن أتدارك ذلك العمل فيما بعد أم لا[٣].

الرابعة: انتقدني البعض بسبب ذكري لبعض الشيوخ والعلماء الذين استفدت منهم-ولو شيئاً يسيراً- وخصوصاً المعاصرين منهم، ولكنني لست نادماً على ذلك، وما من أحد يرضى عنه الجميع، وليس معنى ذكري محاسن هؤلاء، أنه لا انتقاد لي ولا ملاحظة عليهم، بل غاية ما في الأمر أنني كنت في معرض الحديث عنهم وفاءً وعرفاناً، ولم أكن في ذلك مُقيّماً ومُحقّقاً، والمثل يقول: «خُذْ مَا صَفَا دَعْ مَا كَدَرْ».

الخامسة: وانتقدني البعض الآخر بأنني ذكرت العلماء والأئمة رغم اتجاهاتهم ومشاربهم المختلفة-جامعاً بينهم- كابن تيمية وأبي حامد الغزالي، وسعيد النورسي

وهناك فئات لزموا جانب الإفراط، فشعروا بالأسى وأخذتهم الدهشة والعجب، أن سجلنا عدة ملاحظات على ذلك الأستاذ الكبير، والحق أنها موجهة إلى أتباعه أكثر منها إلى شخص النورسي، وإن كان هو أيضاً مشمولاً بها على كل حال.

٣) ثم قمت بمحاولتين في هذا المجال، تَمَخَّضتْ أُولاهما عن كتاب: (باقات من بَيْدَر عمري) باللغة الكوردية، يتضمن ذكرياتي: (١٩٦١ - ١٩٩١م)، وتمخَّضت الثانية عن الكتاب: (خلاصة: أحداث حياتي ونشاطاتي الفكرية والسياسية: ١٩٦١-٢٠١٧)، باللغات الكوردية والعربية والإنجليزية.

وسيد قطب، ولست أرى غضاضةً فيما قمت به ولا عيباً، بل العكس هو الخطأ الذي يستدعي اللوم، لأن علماء الإسلام وأئمته -لا شك- كلَّهم حريصون على مصلحة الإسلام ومخلصون له، وعلينا أن نحترمهم جميعاً، ونأخذ عنهم على قَدْر صدقهم ورصانة نتاجاتهم، وإصابتهم للأهداف المطلوبة، لا أن نُفرِّق بينهم ونُصَنِّفهم حسب أَمزِجتنا المختلفة، لأننا بِعَملنا الخاطيء هذا، سَنُبدي ما يتنافى مع الإحترام لكثير من العلماء والأئمة الأجلاء، وَنَحْرِمُ أنفسنا -بالتالي- من بحورهم المليئة بالدرر واليواقيت.

السادسة: وقد استاء البعض من جملة من تقييماتي وملاحظاتي، عن عدد من العلماء الأئمة الأفذاذ الذين ذكرتهم واخترت نَزْراً يسيراً من مواقفهم الجريئة والمتألِّقة!

وأقول جواباً على هذا: نحن ما دمنا نقول -بلا نزاع- أن العصمة منتفية عن غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونحن طالما لم نَتَعدَّ حدود الأدب والإحترام، فمن الطبيعي أن نشير إلى خطأ أو تقصير بعض أولئك الأفاضل أو كُلِّهُم، إذا قصدنا أخذ العبرة وليس تتبع العورات.

وأنا أستقبل انتقادات الأخوة وملاحظاتهم بشكر ورحابة صدر، علينا أن نُعوِّد أنفسنا اتِّباع العلماء على بينة ووعي، وأن نستفيد من نتاجاهم وتصوراتهم، لا أن تسوقنا العواطف على اتِّباعهم وتقليدهم من غير هدى.

فهذا فوق تنافيه مع مبدأ عزو العصمة إلى القرآن والسنة وحدهما، فهو يساهم أيضاً في خلق تصورات عديدة للإسلام، وليس تصوراً واحداً، وبالتالي فهو منافٍ لنصائح وتوجيهات الأئمة أنفسهم، حيث ما برحوا يؤكدون أن آراءَهم وتصوراتهم عبارة عن فهمهم للإسلام، وليس الإسلام نفسه، لأن الإسلام هو الحق المطلق الذي لا يقبل الإحتمال والخلل.

وأما تصورات البشر فهي مسألة نسبية كلٌّ بحسبه، وقد أحسن الإمام الشافعي بقوله: «**رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب**».

أخـيراً/ وقـد أشـار بعـض الإخـوة إلى ضرورة اسـتقصائنا لسـيرة هـؤلاء العلـماء والبحـث في دقائقهـا، وجـوابي إلى هـؤلاء: أنَّنـي لم أكـن في كتابتـي عـن حيـاة هـؤلاء مسـتفيضاً، وكـما يُفهـم مـن العنـوان، فقـد رميـت إلى تعريـف بالعلـماء مـن خـلال مواقفهـم.

ندعـو الله سـبحانه وتعـالى أن نخلـص لـه نياتنـا وأقوالنـا، وأن يُكرِمَنـا ويَمُـنَّ علينـا بإصابـة الحـق... آمـين..

٣/ ذي الحجة/ ١٤٢٢هـ.
١٥/ ٢/ ٢٠٠١م
أحمد آوا

تمهيد

أيها القراء الأكارم!

الكتابُ الذي في متناول أيديكم: أصلهُ خطبة من خطب الجمعة التي ألقيتها في (جامع الجهاد) في السليمانية في (٦/ صفر/ ١٤٢٠هـ) الموافق لـ(٢١/ ٥/ ١٩٩٩م) ثم أفرغه من الشريط أحد إخواننا الأعزاء، ووقع تحت بصري وأنا أُقلِّب مخطوطاتي هذه الأيام، ووجدته في مثل الأحوال التي نمر بها، جديراً أن أعده للطبع والنشر.

فنحن في الظروف الراهنة تَطْرُقُ أسماعنا بين الفينة والفينة، الدعايات المغرضة ضد الإسلاميين عموماً، وضدنا خصوصاً، بأننا نكره العلماء والأئمة ولا نُجِلُّهم[٤]

وعندما دققت النظر، ألفيتُ الأصل بحاجة إلى إضافة بعض المباحث الضرورية عليه، حتى يكون المحتوى أكثر تجسيداً للعنوان.

وبالنتيجة فقد آلتْ مواضيع الكتاب ومباحثه إلى الصورة التالية:

الفصل الأول/ أثبتُّ الخطبة بنصها مع إضافة بعض الفقرات، وتصرف يسير في بعض التعابير والجمل، يقتَضِيهِ التغاير الموجود بين أسلوب الحديث والكتابة.

وجدير بالذكر أن نص الخطبة مكون من خمسة مباحث:

٤) إن أهل الباطل منذ القدم، منهمكون بالدعاية والتلفيق والتمويه لأهل الحق، لأجل الباطل الذي معهم، كما يلاحظ في كثير من الآيات القرآنية.

الأول/ تعريف بعلماء الإسلام.

الثاني/ مَنْزِلة العلماء في القرآن والسنة.

الثالث/ صفات العلماء وأخلاقهم الباذخة.

الرابع/ ما للعلماء من حقوق على المسلمين.

الخامس/ واجب العلماء والأئمة تجاه الإسلام والمسلمين.

الفصل الثاني/ عبارة عن بعض النصائح إلى شبابنا وطلبتنا في النواحي العلمية والشرعية ومعاملاتهم مع علماء الإسلام.

وبالمحصلة فقد وجهت اثنتي عشرة نصيحة مهمة، إلى إخواننا وأخواتنا من الشبيبة المثقفة بثقافة الإسلام، حتى لا يكونوا عرضة للأخطاء، وأن يهتدوا إلى إصلاح تلك الأخطاء ويعودوا إلى جادة الصواب إذا ما وقعوا فيها.

الفصل الثالث/ بعض التوضيحات والإقتراحات الموجهة إلى العلماء، والتي بلغت اثني عشر إيضاحاً واقتراحاً، عرضتها على العلماء والأساتذة الذين يتقدمون جموع المسلمين على أمل أن يتقبَّلوها برحابة صدر، وأن يَعُدُّوا ذلك مني تضامناً ملؤه الإخلاص معهم.

الفصل الرابع/ عرضنا واحداً وعشرين نموذجاً من حياة العلماء والأئمة، من خلفاء الرسولﷺ، من خلال مواقفهم الجريئة التي شملت المناحي المختلفة، وقد جاء هذا الفصل في كتابي-من ناحيتي: المضمون والحجم- أهم وأكبر الفصول.

الفصل الخامس/ فَنَّدْتُّ فيه تهمة عدم احترام العلماء وتبجيلهم، سواء وُجِّهت إليَّ أمْ إلى غيري، وقد بحثت في الموضوع بحثاً دقيقاً، واستندت إلى البراهين الساطعة

والأدلة الواقعية، فتبيّن أن التهمة لم تكن سوى ضباب مختلق وكذب ملفّق، يصدر ممن سَوَّدَ الحِقد الدفين قَلبَهُ.(٥)

وليس بمقدورنا -ولا ريب- القيام بمهامنا خير قيام، إلاّ إذا كنا يداً واحدةً على أساس التناصح والتناصر فيما بيننا، كما ورد في المثل الكردي «لا يضرّ الأخ إذا أسنده أخاه، إلاّ القضاء من الله»، أو المثل العربي «المرء قليل بنفسه كثير بأخيه».

إذاً فلنكن إخوة على أساس العبودية لخالقنا، إخوّةً حقيقيةً على غرار قولهﷺ: ((كونوا عباد الله إخواناً.)) رواه البخاري:٥٦٠٤ ومسلم: ٤٦٤١ والترمذي: ١٨٥٨ وأبوداود: ٤٢٦٤ وابن ماجه: ٣٨٣٩.

دعونا لا نَعُدُّ بعضُنا البعضَ زيادةً لا خير فيها، لأن هذه المسيرة الإسلامية المباركة بحاجة إلينا جميعاً وليست مستغنية عن أحدنا، وعسانا أن نفلح بأن نبني عملاً يكون عليه مدار استمرار مسيرتنا الإيمانية.

وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه..

الخميس ٢٣/ شوال/ ١٤٢١هـ.
٨/ كانون الثاني/ ٢٠٠١م
أحمد آوا

٥) إنني -هنا- لا أقصد الدفاع عن بعض الأقوال البذيئة والتصرفات اللامسؤولة، التي تصدر من بعض الشباب الأغرار، أو تبريرَ تهوّرِ بعض الخطباء المتعدِّين في القول، بل أعني إزاحة التهمة عن الإسلاميين جملة، وليس عن آحادهم، فلكل قاعدة شواذ.

الفصل الأول

نص الخطبة التي ألقيت في جامع الجهاد
في السليمانية يوم الجمعة
٦/صفر/١٤٢٠هـ ٢١/٥/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألاّ إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أمّا بعد: فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون الأفاضل، إخوتي، أخواتي!

في خطبتنا اليوم سَنَتَناوَلُ الحديث عن (علماء الإسلام، من هم، وكيف يجب أن يكونوا) ونحن بعون الله سنُسَلِّط الأضواءَ على هذه المسألة من خلال خمسة جوانب:

فنأتي في الجانب الأول لنعرِّف علماءَ الإسلام، ثم نتعرض لذكر منازل العلماء وأقدارهم من منظار الكتاب والسنة، وبعد ذلك سنعرُجُ على ذكر شيء من صفات العلماء وأخلاقهم والأمارات الدالة على كونهم ورثة النبي ﷺ، وقبل الختام سنتحدث عمّا للعلماء وأئمة الإسلام، على المسلمين من حقوق، ونختم الخطبة ببيان عظيم الواجبات الملقاة على عواتق هؤلاء الأفذاذ والفطاحل من الأئمة.

ولابد-ابتداءً- أن أُقدِّم توضيحاً إلى حضراتكم وهو: أن غالبية الناس في

كوردستان-بشتى أقسامها- وفي غيرها من البقاع، لا يعرفون علماء الدين[6] الذين أُضْفيَ عليهم لقبُ (ملا)[7] إلاّ من خلال الثياب الخاصة بهم،[8] فهؤلاء في نظرهم هم العلماء المعتبرون! وليس الأمر كذلك في واقع الحال، لأن الإسلام لم يضع للعلم قيداً ولا شرطاً سوى وجود نفسه، بغض النظر عن المذاهب والمشارب والشهرة واللباس وسائر المظاهر.

فخلاصة القول إذاً:

ليس شرطاً أن يكون (الملا) وحده عالم الدين وليس ذلك حكراً عليه، فقد يكون الشخص (عالماً) ليس بـ(ملاّ) بل قد يكون الشخص (ملاّ) وليس بعالم، ولا يُغني المظهر عن الجوهر شيئاً.

نعم أيها الإخوة الأكارم والأخوات الكريمات!

ما كل من قيل عنه (مُلاّ) كان عالماً، ولا كلّ من كان عالماً، وجب أن يكون (ملاّ).

أما ما يعتقده الناس أن كل من اتّزَرَ بمِئزرٍ ولَبِسَ جُبّةً، لا مناص أن يكون عالماً ممن ورثوا علم النبي ﷺ، أو إذا اختلف مظهره عن هؤلاء، وكان حاسر الرأس، فلا يعترف به كعالم، ولو كان نابغة عصره، فكلا هذين التصورين خطأ أَحدَثَتهُ الأعراف البالية في المجتمع، ولا صلة لمثل هذه التصورات بالإسلام....

والآن هَلُمَّ نتحدث عن علماء الإسلام من هم؟

---

٦) لا إشكال في اطلاق مصطلح (علماء الدين) لأن المقصود بهم المختصون والعلماء في القضايا الدينية، ولكن مصطلح (رجال الدين) مصطلح لَهُ مدلولات خاطئة، لأسباب أهمها: أن الإسلام كما هو دين الذكور، فهو دين الإناث أيضاً، وعلى هذا يجب أن يكون ذكور الأمة وإناثها، كلهم مسئولين عن الإسلام والفقه فيه، لا الرجال فحَسْب!

٧) هناك أقوال عديدة حول أصل كلمة (ملا) ولكنني إلى الآن لم أهتدِ إلى ما تسكن النفس اليه.

٨) لم يحدد في أي نص شرعي هيئة للملابس الدينية، وما نعهده اليوم من الثياب الخاصة بعلماء الدين ليس إلاّ نتاجاً لأعراف المجتمع، ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذه الألبسة لاقت رواجاً في العصر العباسي بسبب لبس العلماء لها.

المبحث الأول

تعريف بعلماء الإسلام

لفظة (عالِم) مأخوذة من (العلم)، لأن العالم هو الذي يعلم، وقد عرّف أهل اللغة (العلم) تعريفات متعددة، أحسنها: «إدراك الشيء على ما هو به». [٩]

إذاً: عالِم الإسلام، شخص له علم وخبرة بالإسلام كما هو، أي بحقيقته.

ثم ما هو الإسلام؟!

الإسلام عبارة عن القرآن والسنة، نعم، فكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، هما المصدران الوحيدان والمعينان الصافيان للإسلام.

فما كان من كتاب الله تعالى، فهو وحي صريح وأمر إلهي لا افتراء فيه، وتأتي سنة الرسول ﷺ شارحة ومفسِّرة لكيفية تطبيق أوامر الله جلّت عظمته والتي تضمنها (القرآن الكريم)، كما يقول تعالى:

[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]النحل/ ٤٤..

ثم بِمَ وكيف بيّن رسولُ الله، القرآن للناس؟!

هذه عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، تُجِيبُ سائلاً سَأَلَها عن خلق النبي ﷺ ، بأنه [كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ]، رواه مسلم:١٢٣٢ والنسائي: ١٥٨٢ وأبوداود:١١٤٤ وابن ماجه:١٤٣٩.

فكل ما أمر به الله جل وعلا، فهو متجسِّد في شخص رسول الله ﷺ ، أما آداب

٩) يُنظر: التعريفات، للجرجاني، ص١٥٥.
وأورد الجرجاني هذه التعريفات أيضا:
١- العلم: الإعتقاد الجازم المطابق للواقع.
٢- العلم: حصولُ صورة الشيء في العقل.
٣- العلم: زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه.
يُنظر: المصدر نفسه، ص ١٥٥.

رسول الله وأخلاقه العظيمة، فيعبر عنها بـ(السنة)[١٠] وهي بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- أقواله.

٢- أفعاله.

٣- تقريراته.

وفيما يتعلق بحصر الإسلام بين دفتي القرآن والسنة، يقول الإمام الشافعي في قصيدة له رائعة:

كل العلوم سوى القرآن مشغلةٌ
إلاّ الحديث وعلم الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا
وما سوى ذاك وسواسُ الشياطين

نعم يا إخوتي!

لكي نفهم الإسلام، ونغدو عالمين به، فلابد من الفهم العميق للقرآن والسّنة.

وتجدر الإشارة إلى أن المصادر الأخرى للتشريع سواء ما تضافرت آراء العلماء عليه، واتفقت كلمتهم حوله، كالإجماع والقياس، أو المتنازع عليها كالإستصحاب، والعرف ومذهب الصحابي والإستحسان، والمصالح المرسلة، وشرع مَن قَبلنا، فإنها كلها مستنبطة من ذَيْنك المصدرين.

وعلى هذا: يكون عالم الدين -ونعني بالدين هنا: الإسلام وإلاّ فكلمة (الدين) أساساً تطلق على كل منهج متبوع، سواء كان إلهياً أم وضعياً اصطنعه الإنسان من

---

١٠) معنى لفظة السنة في مصطلح أهل الحديث هو ما أوردناه، لكنها عند الفقهاء تشمل ما دون الفرض، وهو التطوع، وعند الأصوليين: الأحكام الشرعية التي جاء بها النبي (صلى الله عليه وسلم) غير القرآن، لكنّي أُعَرِّفُ السُّنَّة بما يأتي:
السُّنّة هي تطبيق رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتاب الله تعالى وتجسيده في حياته الشخصية والأُسريّة والإجتماعية والسياسية، وعليه: فالقرآن والسنة شيئان متلازمان مرتبطان بعضهما ببعض، وليسا متغايرين، فالسنة قرآن مُطَبَّق، والقرآن جوهر السنة وروحها السارية فيها.

تلقاء نفسه، وطبقاً لهذا المعنى فاليهودية والنصرانية دين، كما أن الإسلام دين، بل العلمانية والإشتراكية والليبرالية...الخ. أيضاً أديان، لكن الفارق هو أن الإسلام هو دين الله الذي لا يرضى بغيره، والأديان الأخرى أباطيل من نسج البشر-،[11] أجل: عالم الدين وعالم الإسلام هو مَن له خبرة وعلم ورؤية واضحة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكُلّما ازداد علمُهُ وتوسّعت آفاق رؤيته، ازداد انطباق كلمة العالم عليه.

وأيُّما إنسان عجز عن السمو إلى فهم القرآن والحديث، اعتبر جاهلاً بالدين، دون أن تجدي الشهرة أو بسطة الجسم عنه فتيلاً، والتصور السائد الذي مفاده أن من أحاط علماً بالنحو والصرف واللغة والبلاغة والمنطق وأصول الفقه والفلكيات والفلسفة وعلم الكلام... الخ، مهما قَصُرَ باعُهُ في علمَي الكتاب والسنة، فإنه يُعتبر عالماً بالدين!! هذا ولاريب تصور خاطيء، لأن جميع تلك العلوم عبارة عن وسائل يُتَوصّل بها إلى فهم الكتاب والسنة.

ولذلك فقد سَمّى العلماءُ تلك العلوم بالعلوم الآلية، أي العلوم الضرورية للتوصُّل إلى فقه الكتاب والسنة.

وأنّى للإنسان أن يفقههما من غير دراية بعلوم النحو والصرف واللغة والبلاغة، أمْ أنّى له أن يستنبط الأحكام الشرعية من مصدريها، بلا دراسة لعلم أصول الفقه.

وقد أحسن أحدُ العلماء عندما قال: «أصل الدين: قال الله وقال الرسول، أمّا العلوم الأخرى فلابد أن يُنظر إليها كوسائل تؤدّي إليهما، لا أن تُجْعل غاية يُتناسى القرآن والسنة من جرّائها..»

وهنا أراهُ ضرورياً ألاّ نغفل حقيقتين مُهمَّتين:

الأولى: كما أنه بمعزل عن العلوم الآلية، لا يمكن أن يتوصَّل إلى فهم نافذ للقرآن والسنة، وخصوصاً علوم العربية، كذلك ليس معنى ذلك أن الذي حاز معرفة هذه العلوم غدا عالماً متبصراً!

١١) إن اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان السماوية، كانت في عهودها هي الأديان التي يرضاها الله تعالى، وعندما أنقضت عهودها ونسخت، طالتها يد التغيير.

نعم بإمكانه أن يدَّعي حيازته للعلوم الآلية، لكن الأداة الموصلة إلى علمٍ ما، شيءٌ، وتنفيذ الأمر نفسه، شيء آخر، كما لا يخفى، فكم من متقنٍ للعربية، ضابطٍ لقواعدها، ثم لا تراه يعرف عن الإسلام إلاّ اسمه ورسمه.

الثانية: العلم مسألة نسبية، فليس في وسع مُدَّعٍ أن يدَّعي العلم المطلق، فهذا من حق الله تعالى وحده، ثم رسول الله الذي حباه ربّه بالعلم.

فالإسلام الذي هو من وحي الله تعالى وعلمه المطلق الذي لا تَحُدُّه حدود، جاء ليساير ركب البشرية إلى آخر الزمان ونهاية المطاف.

والخلاصة:

كما أن العلم بالإسلام ليس حِكراً على طبقة معينة أو مذهب معين، فكذلك ادِّعاء معرفة حقائق الدين بأسرها، ليس ثوباً مفصّلاً يلبسه شخص معين، لأن الله جَلَّتْ قدرته هو وحده المحيط -دون غيره- بأسرار الوجود وحقائق الدين جميعاً.

وهكذا فليس في الإسلام متسع لعلمائه وعقلائه ومختصِّيه، أن يحاكوا الكهنوتية التي يمارسها رجال الدين في المسيحية -وهم يَلْوون رقابَ النصوص- بإدعائهم معرفة حقائق الدين وحدهم دون سواهم، ومن ثَمَّ سعيهم وراء نزواتهم واتخاذهم إلههم هواهم.

ولهذا لا يُثير دهشتنا -ونحن نقلب صفحات تأريخنا الإسلامي- عندما نرى عجوزاً طاعنة في السّن، تُبدي ملاحظاتها ونقدها، وتستدرك على خليفة رسول الله؛ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وختاما أقول:

يقول الله تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ] النساء/ ٥٩.

ولا تتم الطاعة لله والرسول ﷺ في حقيقة معناها إلاّ بالإنقياد التام للكتاب والسنة، فأساس الدين طاعة الله ورسوله التي تتجلّى واضحةً في الإلتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ولا اعتبار لأحد ولا طاعة له على المسلمين، إلاّ بقدر طاعته لله ورسوله ﷺ، يستوي في ذلك خليفة من الراشدين، أو صحابي من المكرمين، أو غيرهم من العلماء سلفاً وخلفاً.

ويؤيّد ما قلناه المقولة العظيمة التي قالها خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، في أول يوم وُلِّيَ فيها الخلافة:

«قَدْ وُلِّيتُ عَلَيكُمْ ، وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، إِنْ أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فأطيعوني، وَإِنْ عَصَيتُهُمَا، فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيكُمْ». [١٢]

١٢) البداية والنهاية لابن كثير، ج٦ ص٦٩٢، ٦٩٣.

المبحث الثاني

مقام العلماء ودرجاتهم

تُعتبر منْزِلة العلماء في الإسلام، منْزِلة مرموقة، تعَدَّدَ تنويه الآيات إليها مراراً، ولاريب أن الأئمة الموثوقين هم الذين يعملون بما يوافق علمهم على ما عرضناه في المبحث الأول، وكما سنتناوله لاحقاً.

وفيما يلي طائفة من نصوص الكتاب والسنة، تبيِّن درجة العلماء ورفعة أقدارهم:

١/ يقول العلي الحكيم في محكم تنزيله في سورة (المجادلة):

[يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ] المجادلة-١١-.

نعم أيها الإخوة!

إن منزلة الإنسان لتعلو بإيمانه، تَعلو عند الله وعند الناس، فتراه مهاباً موقراً في الدنيا والآخرة... ولكن الذين يكرمهم الله تعالى بالعلم في دينه، يرفع أقدارهم درجات فوق إخوانهم، لأن العلم والمعرفة والصدق في الخدمة، تكون مدعاةً لعلوِّ المقام في العاجل والآجل.

٢/ ويقول تعالى في سورة الزمر:

[قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ] الزمر-٩-

استفهام استنكاري من رب العالمين!

إن مجرد صيغة السؤال الواردة في الآية يبدو عليها عدم الرضا والمقت.

٣/ وكذلك ورد في سورة (آل عمران):

[شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ...] آل عمران-١٨-

وهنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قد ساق شهادة العلماء على وحدانيته، ضمن شهادته تعالى وشهادة ملائكته المعصومين من الخطأ والزلل.

وللرسولﷺ، بهذا المقام، أحاديث كثيرة، نكتفي باثنين منها على سبيل المثال:

٤/ فقد روى إبن ماجه بسند حسن أن النبي ﷺ، قال: ((يشفع يوم القيامة ثلاثة؛ الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء))، سنن ابن ماجه:٤٣٠٤..

٥/ كما ورد في الحديث الذي رواه مسلم:٤٨٦٧ وأحمد:٢٠٧٢٣ وأبوداود: ٣١٥٧ والترمذي: ٢٦٠٦ وابن ماجه:٢١ وحسّنه الألباني، قوله ﷺ، مشيداً بشأن العلماء: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن العالِم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب.. إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)).

في هذا الحديث بيان لفضل العلماء وعُلوِّ أقدارهم، ووصفهم بأنهم ورثة النبي ﷺ، ولا يتسع المجال لذكر ما ينطوي عليه الحديث من معانٍ، ولكن نكتفي بالإشارة الخاطفة إلى بعض معانيه:

١. إن العلم بمنهج الله ودينه، يعني الإستقرار في الجنة، لأن النبي ﷺ جعل من يلتمس طريقاً إلى العلم، باعثاً لدخولِهِ الجنة.
٢. أن مخلوقات الله قاطبة لتستغفر للعالم وتستوهب له رحمته وعطاءَهُ، وهذا يعني بأن الجميع يقف من العالم موقف الإجلال والتوقير.
٣. إنّ مئات النجوم بل آلافها لا تبلغ أضواؤها ضوء القمر، فكذلك العلماء، فضلهم على سائر الناس كامتياز نور القمر على أنوار النجوم[١٣]
٤. بما أنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، فإن منزلتهم تلي منازل الأنبياء الكرام.
٥. إن العلم هو الميراث الوحيد الذي تركه الأنبياء لورثتهم، اذاً فليس المقصود بالعلم، مطلق العلم، لأن غير الأنبياء أيضاً يشاركونهم في

١٣) وهذا بالنسبة لسكان الأرض طبعاً، وإلّا فقد أثبتت البحوث الفلكية أن النجوم شموس لا تُقارنُ بالقمر.

العلوم العامة، ولكن المقصود هو العلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته ودينه ومنهجه وكيفية العبودية والخضعان له تعالى.

٦. الذي يَعُدُّ نَفسَهُ خليفةً لرسول الله ﷺ، مشمولاً بما يَعتَبِرُهُ النبيُّ ﷺ محظوظاً، بالحظ الوافر من الحديث، ثم يستقلل علمه ولا يحترمُهُ، أو يَبيعُهُ -لا قدَّر الله- بأبخس الأثمان في أسواق الطواغيت، فقد يغدو بريئاً من ذلك الإرث وتلك الخلافة، ويجعل نفسه عرضة للهلاك وانتقام الله تعالى منه.

ولهذا يقول مُخرِجُ الخَبْءِ في السموات والأرض:

[وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ...] البقرة-٤١-، ومن نافلة القول أن الآية لا تنطوي على مفهوم المخالفة، فليس الله جلَّت حكمته ينهانا عن بيع آياته بثمن بَخسٍ، ويأمرنا ببيعه بثمنٍ باهظ! بل المقصود ألاّ يبيعوا آيات الله، ولو بُذِلت لهم الدنيا بأسرها، لأن هذه الدنيا بما فيها من مباهج تأخذ الأبصار، تُعَدُّ حقيرة لا قيمة لها، إذا ما قورنت بآيات الله ودينه.

المبحث الثالث

صفات العلماء ومكارم أخلاقهم

ما من شك بأن علامة المسلم وشعاره الذي يميزه، هو صفاته العالية وأخلاقه النبيلة وليس عبثاً أن يشيد الله من عليائه -في معرض تفنيده لمزاعم الكافرين- بسمُوِّ أخلاق رسول الله الذي ابتعثه إليهم، حيث يقول:

[نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ] القلم/ ١-٤.

ولا مناص لورثة ذلك النبي العظيم في أخلاقه، أن يكون لهم من الإنتهال من منهل أخلاقه الذي أشاد بها الله من فوق سبع سموات.

والآن، هَلُمَّ نتفكر في بعض النصوص القرآنية، لنستخرج منها أكثر الصفات والعلائم ظهوراً، الواجبة وجودها في أئمة الإسلام، كي لا نُخطيء الطريق لمعرفتهم:

أولاً: في الآية (٩) من سورة (الزمر) يقول تعالى عن عباده العلماء:

[أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ].

إن الله سبحانه وتعالى -كما ترون- يُعرِّفُ عبادَهُ المختارين ويُثني عليهم بسبعٍ من صفاتهم وسجاياهم:

١ - القنوت في آناء الليل. ٢ - السجود.

٣ - القيام. ٤ - الحذر من الآخرة.

٥ - الرجاء لرحمة الله. ٦ - العلم.

٧ - العقل.

نعم، إن عالم الدين لا ينبغي أن يكون تميزه عن المسلمين فقط -في لباسه، ولا

ينبغي أن يكون تميز أئمة الإسلام عن الآخرين بالمحاضرات والخطب فَحَسبُ، بل لابد أنْ يُزيّنوا علمَهم بالعمل، ونظرياتهم المجردة بالأخلاق الحميدة، ولا ريب أن العبادة بمعناها الخاص، والتقوى وتزكية النفس وإيثار الدار الآخرة، وعدم الإنشغال بالدنيا، من أعظم الأعمال وأفضلها.

نعم، إن علماءَ الإسلام يجب أن يكونوا قادة الناس إلى الفضائل ومحاسن الأمور، يجب أن يكون العالِمُ أهلاً لأن يسمى (إماماً) وأن يكون اسماً على مسمّى، يتقدم الناس ولكن لا لأجل المصالح والمطامع، وأن يكون ممن يَقِلُّون عند الطَّمعِ ويَكْثُرون عن الفَزَعِ.

لذا فالعالم الذي يقول:

«أطيعوني في كلامي ولا تقلِّدوني في عملي»، ليكن واثقاً أن أحداً لن يسمع قولاً لا يُجسِّده العمل، لأن الكلام الذي لا يطبقه صاحبه، كالعملة المزوّرة الّتي لا يقبلها أحد، والعالم الذي لا يحمل من العلم الحقيقي إلاّ اسمه، ويُوهِمُ نفسه فيتصورها إماماً وقدوةً، ولكن عمله يُخالِفُ قولَه، شغوف بالدنيا، كأنه ذئب في جلد ضأن، ليكن واثقاً بأنَّهُ حتى لو استفاد في حياته فائدة يسيرة، فلسوف تتكشف سريرته وتظهر خباياه:

[يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ]الطارق/ ٩، وهناك لن يجني من أقواله شيئاً، بل سَيَعَضُّ أصابِعَ الخِزي والندامة.

ثانياً: في الآيات ١٩-٢٢ من سورة الرعد، ذكر الله جلّت قدرته، عشر صفات وعلائم مما ينبغي تَوَفُّرها في العلماء من ورثة النبيّ ﷺ:

((أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾))

وكما هو واضح، فقد جعل الله هذه الصفات العشر أمارةً وشعاراً يُعرف بها العلماء:(١٤)

١ – ﴿يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾:

يعلمون أنَّ دين الله المنزَّل هو الحق الذي لا مرية فيه، وتطمئن نفوسهم بها.

٢ – ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

فهم أصحاب حِكمةٍ وعقولٍ راجحة إلى درجة أنهم يأخذون العبرة من كلّ شيءٍ، ولا يتخبَّطون في تفكيرهم تخبُّط الجاهلين.

٣ – ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾:

يوفون بعهد العبودية مع ربهم ولا ينقضونه.

٤ – ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾:

يؤدُّون الحقوق إلى أصحابها ابتداء من الأب والأم والزوجة والأبناء، ووصولاً إلى ذوي الأرحام والجيران والمسافر والضيف والفقير والمنقطع، ويصلون كل العلائق ولا يقطعونها.

٥ – ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾:

مَلأَت قلوبَهم ونفوسَهُم، خشيةُ الله والحياء منه، فَطَردتْ منها كلّ خشية وتوجُّس، من أي شخص كائناً من كان.

٦ – ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾:

تتملَّكهم خشية وإشفاق على الدوام من عاقبة أعمالهم السيئة والخاطئة.

٧ – ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾:

فهم يحلمون على جَهْلِ الآخرين ويتعالون عن الإنتقام، في حال هم قادرون على أضعافِ ما يتعرَّضون له من كلام بذيء وتصرُّفات مُشينة، ومواقف شائنة، كل ذلك في سبيل مرضاة ربهم والنظر إلى وجهه الكريم، الذي ليس كمثله شيء.

---

١٤) رغم كون هذه الصفات والسجايا تشمل جميع المؤمنين، لكنني استنبطت بأنها تخص العلماء أكثر من غيرهم، لأن الصفة الأولى فيها هي العلم، ثم إن الحكمة والوفاء بالعهود، ورد الإساءة بالإحسان، كل ذلك يتنظر من العلماء أكثر من غيرهم.

٨ - وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ :

يقيمون صلواتهم على ما قرَّره الشرعُ، وحدَّد كيفيتها ولا يضيعون شيئاً من فرائضها وسننها وهيئاتها.

٩ - وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً :

ينفقون مما منَّ الله به عليهم من الخيرات في الوقت المناسب والمكان المناسب، والمقدار الذي تدعو إليه الضرورة، جَهْراً حيث يستوجب الموقِفُ، ليقتدي به غيرُه، وسرّاً إذا اقتضت المصلحة، كمراعاة الحالة النفسية للفقير كي لا يتأذّى.

١٠ - وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ :

يتعاملون مع الناس كلهم بأحاديث مهذَّبة، وتصرُّفات مؤدَّبة، ويَردُّون على انتهاك المُنتَهِكين وإساءة المسيئين بكلام مهذَّبٍ وتصرف يُفصِحُ عن الأدب، أي لا ينزلون إلى مستوى خصومهم، ولا يقبلون أن يكونوا معهم في كفة واحدة.

ولا يَنِدُّ عنهم ما يَغُضُّ من قَدْرهم وعلمهم، لا بلسان الحال ولا بلسان المقال.

ثالثاً: في سورة الفرقان وعلى طوال أربع عشرة آية: ٦٣-٧٦، بَيَّن الله تعالى ثلاث عشرة خصلة من الخصال الحميدة التي ينبغي أن يَتحلّى بها العبادُ المحسنون، الذين سمّاهم الله بـ(عباد الرحمن)،[١٥] كما يقول تعالى:

[وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ

١٥) استنبطت هذا من تناول الآية (٧٤) بصورة خاصة الإمامة، في ختام الصفات التي لا تتأتى إلّا للصفوة من الناس.

يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾].

وإليكموها ثلاث عشرة صفة وخلقاً تضمنتها الآيات:

١ - ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا :

فهم حتى في مشيتهم، يلاحظ عليهم السكينة والوقار، يمضون هوناً في مشية ملؤها المهابة والرزانة.

٢ - وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا :

ولا يكون ردّ جوابهم على سفاهة السفهاء وجهل الجاهلين إلاّ قولهم: (سلام عليكم)، أو بقول سالمٍ مِمّا يُبدِيه المقابِلُ من البذاءة، أو يَدَعُونَهم دون أن يشتبكوا معهم، بلى، إن علماء الإسلام وعبادالله المصطفين، قبل أن يُعرفوا بالعبادة بمعناها الضيِّق- يُعرفون بجميل تعاملهم ونُبل أعمالهم، وبمواقفهم المشهودة لها، وأحاديثهم التي تتقاطر أدباً وحياءً، إضافة إلى ترفُّعهم عن شراكة الباطلِ وهُجْرِ الكلام، فإنهم يَتَنَزَّهون حتى من رد الكلام الباطل والحديث النابي...

ولو تعرَّض لهم-مرّة- سفيه، وأصابهم بشيء من سفاهته، فإنهم سرعان ما يتحايلون للخروج بأنفسهم من موقف هم أكرم من الوقوع فيه.

٣ - وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا :

لما كانت أخلاقهم باذخة في نهارهم، حقَّ أن يكون لياليهم ملأى بما وصفهم الله به، وإنَّ تَقَرُّبَهُمْ من الله زلفى، عاد عليهم وعلى من حولهم، خيراً وبركة بما حباهم الله به من أخلاق عظيمة وسجايا كريمة.

٤ - وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا:

تأمَّلْ! إنهم رغم ما هم عليه من الصفات المتميزة، من تقوى ومهابة بين الناس، وعبادة يبتغون بها وجه من عَنَتْ له الوجوه وذلّت له الرّقاب، إن كل هذا لا يحملهم على الغرور والتكبر على عباد الله، بل يزدادون إحناءً لرأس العبودية لربهم ويتضرعون إليه، من لأواء جهنم وعذابها.

وهكذا صنيع الأئمة والعلماء ممن تَدُبُّ الحياة في قلوبهم، لأن الإنسان كلما علت مرتبته في العبادة، زادت خشيته وحياؤُه من الله، كما يقول تعالى:

[إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ]فاطر/ ٢٨.

ويقول الرسول ﷺ: ((إنّي لأَخْشَاكُمْ لله))رواه البخاري:٤٦٧٥.

٥ - وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا :

إن عباد الله وأحبابه من العلماء وغيرهم، ليسوا فالحين-فقط- في صلتهم بربهم وتزكيتهم لأنفسهم، بل إنهم في سائر جوانب الحياة-كذلك- ماهرون، خبراء، حاذقون.

٦ - وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ :

لأنهم بَنَوا عقيدتهم على أساس صَلبٍ مفادُهُ، أن أحداً سوى الله لا يَستَحِقُّ العبادة.

إن تجنب الشرك كبيرهُ وصغيرهُ، جليّهُ وخفيّهُ، ما كان على مستوى الفرد أو المجتمع، في مجالات العقيدة والشريعة، لأمرٌ جَلَلٌ يَنوء بِحَمْلِهِ غيرُ هؤلاء العلماء الأَثبات، والعُبّادِ الوعاة.

٧ -٨ - وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ :

القَتلُ والزِّنا من أفدح الذنوب وأغلظها-بعد الشرك، ودعاء غير الله أحد صورِهِ، وهو ذنب غير مغتفر-: [إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ] النساء/ ١١٦.

٩ -١٠ - وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا :

وهم عِلاوةً على تنزههم عن الكذب واللَّغو[١٦] والآثام، فهم يربأون بأنفسهم

١٦) اللغو في الأصل-كما يقول راغب الأصفهاني- مأخوذٌ من (لغا) وهو صوت الطيور، وفي

عن المشاركة مع أناس هذا ديدنهم، وإذا مرّوا على مثل هؤلاء، مرُّوا كِراماً، كلهم مهابةٌ أن تطأ أقدامُهم ناحيَتَهُم.

إذا، فالذين يجعلون أفواههم محلّ قاذورات تخرج منها الكلمات البذيئة والألفاظ النابية، أولئك مهما كانت مآزرهم وجُبَبُهم فاخرة تُثيرُ الإنتباه، فهم بأفعالهم لم يبلغوا أن يكونوا مسلمين كما يجب أن يكون المسلم، بَلْهَ أن يُصبِحوا مرشدين لهم.

كما أن الذين يعتلون منبر الرسول ﷺ، كغواة الشعراء، ثم لا يربأون بأنفسهم عن قولة الزور وامتهان الخداع، والتلفُّظ بتعابير عارية عن الحياء مجردة من الأدب، أولئك مهما ذهبت بهم التصورات، أَنهم علماء أو خطباء أو حاذقون، فإنهم في ميزان الشرع كالقشة التي لا تزن شيئاً.

فكيف بالذين جعلوا من أنفسهم أبواقاً، يَخدِمون الكفر نهاراً جهاراً، ثم هم يَنزِلون بأنفسهم إلى حمأة الهوان والرذيلة في الدنيا والآخرة، فلا تُراعى لهم حرمة عند الله وعند عباده.

١١ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ :

أي إنهم لا يقفون ساكنين لا حراك بهم أمام آيات الله وأحكام الشرع، بل يستسلمون إليها قلباً وقالباً، يفقهونها ويُنشِؤون أَنفُسَهُم على هُداها، نشأةً أخرى.

فلا ينبغي للعالم -البتة- أن يأنسَ من نفسه أيّة حسّاسيةٍ أمام نصٍّ شرعيٍّ، ولا أن يتعذَّر بالمعاذير الفرعونية للإنفلات منها، بل ينبغي له -أكثر من أي إنسان آخر- أن يسارع في الخُضْعان وإحناء رأس الطاعة أمام آيات الله وسنّة نبيه ﷺ.[١٧]

الإصطلاح الشرعي يشمل اللّغو كلّ فعل يكون عبثاً لا فائدة من ورائه ولم يكن ذنباً.
يُنظَر: مفردات ألفاظ القرآن، ص٤٦٩، ٤٧٠، ط/ ٢٠١٢م، المكتبة العصرية.

١٧) مع الأسف الشديد هناك بعض أهل العلم يقعون في آثام كبيرة وأخطاء فادحة، ثم يضيق صدورهم ويكادون يجعلون أصابعهم في آذانهم، إذا سمعوا آية أو حديثاً تُندِّدُ بعيوبهم!

١٢ - ١٣ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾:

يا إخوتي وأخواتي المسلمين!

يعتبر الحرص على تنشئة الأهل والأولاد وتربيتهم على أساس الإيمان والتقوى وتزكية النفس، خصلة من الخصال المحمودة التي لا مناص من وجودها في علماء الإسلام وأئمته الكرام.

لتغدو تلك الذرّية موضع فخراً لآبائها، ونضارة يجدونها في محياهم يوم تَعنُو الوجوه للرحمن، لا أن يُهمِلوا تربيَّتَهم وتَعَهُّدَهُم، لِئَلاَّ تَنفَلِتَ زِمامُ أخلاقهم، فيغدون خَلْفاً طالحاً يُشار إلى انحرافهم بالبنان!

ومما يجلب الإنتباه: أن هؤلاء العباد الموسومين بعباد الرحمن، بعد اتصافهم باثنتي عشرة صفة، يرفعون أكُفَّ الضَّراعة إلى ربهم قائلين: [وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا].

لِيُعْلَم أن الإمامة ليست ثياباً يرتديه الغادون والرائحون جُزافاً، بل يستحقها الذين يأخذونها بحقها ويتَّصفون بهاتيك المواصفات.

كما يُستَشَفُّ من الآية، أن المسلمين من أهل التُقى، لا يحق لهم ولا ينبغي أن يخضعوا لكل من تُزَيّنُ لَهُ نفسَهُ التأَمُّر عليهم، بل عليهم أن يختاروا لقيادة أمورهم مَن يصلح لها على أساس -لا يتزعزع- من دينه.

على أن لمفهوم الإمامة مفهوماً أوسع من أن تقتصر على المسؤولية والقيادة وحدها، بلْ يُفهَم منها أن هؤلاء العباد الذين أعلى الله أقدارهم ودرجاتِهم، يستحقُّون أن يكونوا مشاعل يجعلهم الناس أُسوةً لهم في دينهم ودنياهم.

ونكتفي بهذا القدر لنتحول إلى المبحث الرابع.

المبحث الرابع

حقوق العلماء على المسلمين

إن العلماء والأئمة السائرين على منهج السلف، باعتبارهم وارثي علم النبي ﷺ، والمعتلين لمنبره ﷺ، ينبغي أن يُعامَلوا بحرمة ومهابة تليق بأقدارهم، استناداً إلى ميزاتهم التي فُضِّلوا بها، وألاّ يُنظر إليهم على قَدَمِ المساواة مع الآخرين.

ونستطيع إجمال ما لَهُمْ على المسلمين، في نقطتين رئيسيتين:

١- إكرامهم بكل صور الإكرام والإحترام والتبجيل.

٢- طاعتهم والدفاع عنهم في حدود الشرع.

ويُمكننا بهذا الصدد الإستشهاد بآيات وأحاديث كثيرة، منها:

١/ يقول سبحانه: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ...]النساء/ ٥٩.

الغالبية العظمى من العلماء منهم: النووي وابن تيمية، فسَّروا (أولي الأمر) بالعلماء والأمراء، ونحن لو دقَّقنا النظر وجدنا سلطة الأمراء وشرعيَّتهم مُستمدَّةٌ من العلماء، إذ لا يمكن أن يَتَصدَّر أحدٌ سلطة شرعية دون فتاوى هؤلاء العلماء.

ولكن مهما تكن طاعتهم وامتثال أقوالهم واجبة، فإنه حال وقوع النزاع بين الرعية والعلماء والأمراء، يجب الرجوع إلى ميزان الشرع المتمثل بالكتاب والسنة.

إن الشريعة في الإسلام يجب أن تكون مهيمنة على الجميع، ولابد لجميع الأطراف-أمراء ورعيةً، علماء وعواماً- من الإلتزام بها والإحتكام إليها، وعدم الحيدة عن جادتها.

٢/ يقول النبي ﷺ: ((إنَّ مِنْ إجْلاَلِ الله: إكْرَامَ ذِي الشَّيبَةِ الْمُسْلِم، وَحَامِل القُرآن غَيْر الغَالِي فِيهِ وَلاَ الجَافِي عَنْهُ، وَإكْرام ذي السُّلْطان المُقْسِط))رواه أبو داود:٤٢٠٣.

نعم أيها الأخوة الأكارم!

كما ترون في هذا الحديث فإن رسول الله ﷺ، يَعُدُّ احترام الطاعن في السن، وحافظ القرآن والعالم فيه، والحاكم العادل، يَعُدُّ كلَّ ذلك علامة على تعظيم الله تعالى وإجلاله.

والذي يُثير الإنتباه: أن رسول الله ﷺ، وضع لحامل القرآن، شرطين اثنين:

الأول/ (غَيْرِ الغَالِي فِيهِ) والمقصود من هذا، ألاّ يتعدّى المسلم حدودَ الشرع، ولا يتجاوز دين الله ومنهجه قيد أُنْمُلَة.

مثلاً: إن الذي يُرهِقُ نفسه بالعبادة، فينطلق صائماً، ويَحرُمُ أجفانَهُ النومَ في الليل قائماً، ويمرض آخر الأمر ويَضطرب حالُهُ، فمهما ادَّعى بأنَّ دافِعَ صنيعه ذاك، ليس سوى ابتغاءِ رضوان الله، لا ريب بأنه أخطأ طريق الشرع، ولعله أقرب من غضَبِ الله منه إلى مرضاته... لماذا؟

لأن ذلك الشخص في وهمه يريد أن يذهب أبعد مما ذهب الإسلامُ نفسه، وغاب عن علمه أن تَصَرُّفَهُ هذا أيضاً يعتبر تخطياً لحدود الشرع، وأن أي إفراط أو تشدُّد، لا يتم إلاّ على حساب الجوانب الأخرى من الواجبات الدينية، ولا يَجني صاحبُهُ إلاّ الوزر والمأثم.

وفي الحقيقة فإنّ تَعَبُّد المسلم وامتثالَه للإسلام، لا يتحقق إلاّ إذا سار وفقاً لكتاب الله وسنة نبيهﷺ، ولا يكون المسلمُ مسلماً متَّزناً إلاّ بهذا الإلتزام، وبعكسه يكون مُتَرَنِّحاً لا يَقِرُّ له قرار.

ولذلك ورد في الحديث الذي رواه البخاري أن النبي ﷺ أرشد أحد أصحابه الذين أصيبوا بلوثة الغلو والإفراط، أن يُعطي كل ذي حقٍّ حقَّه، فيعطي حق الله، وحق بدنه، وضيفه، وأهله، ثم قال: ((فَأَعْطِ كُلّ ذِي حَقٍ حَقَّهُ)) رواه البخاري:١٨٣٢.

الثاني/ ((وَلاَ الجَافِي عَنْهُ)) وهذا أيضاً من اللوازم المهمة لحافظِ القرآن وتاليه، لأن كلاً من الإفراط والتفريط بمثابة داء عُضالٍ تعاني منه الصحوة الإسلامية، وقد أُثِرَ عن أحد أئمة السلف (وأحسبه عليّ بن أبي طالبﷺ) قوله:

«قَصَمَ ظُهْرَ الدِّينِ رَجُلانِ: جَاهِلٌ مُتنسِّك، وَعَالِمٌ مُتَهَتِّكٍ».

وزبدة الكلام أن العالم حامل القرآن، إذا التزم بآياته حق الإلتزام، وكان بمنأى عن كلام الدائين المذكورين، فإن تقديرهُ وتوقيرهُ يُعَدُّ دلالةً على تعظيم الله وتقديسه، ومعلومٌ أن الإئتمار بأمره وطاعته، ضمن توقيره.

٣/ وقد ورد في حديث آخر أن النبي ﷺ قال: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيْرَنَا، وَيَرحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)) رواه الحاكم[١٨] وحسّنه الألباني.

وواضح أن معرفة حق العالم تنطوي على كثير من المعاني، بدءاً من احترامه وتقديره، وطاعته وامتثال أمره، إلى إعانته بكل أشكال الإعانة ومؤازرته وشَدِّ أَزْره.

وفي ضوء هذه الآيات والأحاديث ذات المعاني والدلالة الواضحة، فقد اتفقت كلمة العلماء وأعلام الإسلام على أن الذي يحتقر عالماً مسلماً، أو يسخر منه من أجل دينه، فإنه يكفر في الحال، وأمّا إن كانت السخرية متعلقة بشخص العالم، فهذا لا يَكفُرُ، ولكنه يُعَدُّ مرتكباً لكبيرة من الكبائر.

٤/ وفي ختام هذا المبحث نُورِدُ قول الرسول ﷺ: ((إِنَّمَا جُعِلَ الإمَامُ لِيُؤتَم بِهِ)) رواه البخاري:٣٦٥، ومسلم: ٦٢٢، والترمذي:٣٢٩٠، والنسائي:٧٨٦، وأبوداود٥٠٩، وابن ماجه:٨٣٧ وغيرهم.

فيا أيها الأخوة الأفاضل!

لابد أن نعلم كما أننا بحاجة إلى إمام يؤمُّنا في صلاتنا وعباداتنا، الخاصة، فكذلك نحن بحاجة إلى إمام يَؤُمُّنا ويحمل همومنا في سائر أعمالنا وعباداتنا العامة،

---

١٨) يُنظر: المستدرك على الصّحيحين للحاكم، كتاب العلم: ٤٢٩.
ويُنظر: المقاصد الحسنة فيما اشتهر على الألسِنة، للسّخاوي: ٨٨٢، وقال: رواه الترمذي وغيره.

كالجهاد والحكم والسياسة ومعالجة قضايانا ومشاكلنا...إلخ.

ولابد لهذا الإمام أن يكون شخصاً عالماً ذا خبرة، مستقيماً، ولا ريب بأن أيّ عالم أو إمام ينوء بحمل المسؤولية وحده، فلا أمة، بلا إمام، ولا إمام بلا أمة، لذا فعليهما أن يُنظِّما معاً ويُديرا أمور الدين والدنيا جميعاً، ولذا كان لزاماً علينا أن ننظر إلى العلماء بعين ملؤها الإعزاز التوقير: ((لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ)) الفتح/ ٩.. وبما أن العلماء ورثة الأنبياء، يجب أن نُجِلَّ العلماء وفقاً لأقدارهم.

إذ طالما أن العلماء قد ورثوا من النبي ﷺ، واجباتهم وأمانتهم وعلمهم، فإنهم- أيضاً- ورثوا منه التوقير والتعزير لأن (الغنم بالغُرم).

بلى أيها الأخوة!

إن العلماء والأئمة يجب أن يوقَّروا، وأن يُرفع عنهم الضيم والملام، وإن إماماً بلا أنصار لأمامٌ ذليل، وأمة بلا إمام أمة أسيرة، وكلاهما يزدادان معاً أَلَقاً وبَهاءً، ولا يتم لهما السيطرة على مقاليد الأمور إلا بتقوية ظهورهم ببعضهم، كيما يَستَتِبَّ الحالُ على أرضهم، وكما أن صلاة الجماعة لا تَصِحُّ بغير إمام يتقدم جموع المصلين، فيجب أن نكون على يقين جازم لا يتزعزع، بأن الجماعات الإسلامية، لا تستقيم أمورُها بغير قادةٍ وسراةٍ يسوسونهم.

وعلينا أن نكون على مستوى كافٍ من الوعي والإدراك ونسأل أنفسنا: لماذا يكدح أعداءُ الإسلام في إحكام الخِناقِ على القيادات الإسلامية، فتارة يحاولون شِراءَهم، وأخرى يَكيدون لإغوائهم، وإن أخفقوا في هذا وذاك، استجمعوا قواهم ليُشوِّهوا صورَهم ويوغِروا عليهم صدورَ الناس ويُؤلِّبوهم عليهم؟!

كل هذا يتم لأن الأعداء يعلمون علماً لا يشوبه ريب: أن أمة لا رأس لها ولا قيادة، كالقطيع بلا حادي، يمكن القضاء عليها في غَمضة عين.

والآن إلى المبحث الخامس والأخير.

المبحث الخامس

واجبات العلماء نحو المسلمين

أيها المسلمون الأعزاء!

قد يكون بإمكاننا أن نعرض الواجب الملقى على عاتق العلماء في جملة واحدة فنقول: هو عبارة عن حماية الإرث الذي تركه النبي ﷺ، ويتم ذلك عن طريقين اثنين:

١- أن يأخذوا الإسلام من منهجه الصحيح، بصورة صحيحة، ثم يُبلِّغوه للناس: [ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ]الجاثية/ ١٨.

٢- أن يُطبِّقوا الإسلام على أرض الواقع بصورة صحيحة، ويقيموا على أساسه الكيان الإسلامي: [أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ]الشورى/ ١٣.

ثم إن الضمان الوحيد لتحقيق كلا الغايتين عبارة عن الفقه الجيِّد واستساغة والتزام السبيل العلمي والعملي لسلفنا الصالح، وفي مقدمته منهج النبي ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين من بعده.

وهنا أراني بحاجة إلى تسليط الضوء على المكابدات التي تجشَّمها العلماء في سبيل إقامة الدين والكيان السياسي، ليقوم الدين على قدم وساق في أرض الواقع، ذلك لأن الكثيرين في هذه الأيام يَتعرَّضُون لحملات مُفجِعة ونكبات قاسية، بسبب الأحاديث الملفَّقة والدعايات المُغرِضة المسمومة من أناس يقولون بدهاء ومكر: يا هذا! كيف يجتمع الدين مع السياسة؟ أم كيف يجوز للعلماء والأئمة ذوي المئازر البيض الأطهار الصالحين، والأساتذة العارفين من أصحاب القلوب العامرة بالنور، أن يدخلوا مستنقع السياسة ويتوسَّخوا بِعُجاجها وأوضارها؟!

إن السياسة طافحة بالمكائد والحيل والمخادعات وعدم الإئتمان!! [19] قطعاً لا

١٩) من الواضح أن هؤلاء ينظرون بمنظار أنفسهم للسياسة، وإلّا فالسياسة المقيّدة بالدين، ليس فيها من الأكاذيب والأخاديع شيئاً، بل هي حمل لهموم الناس وإدارة صادقة لا خداع فيها للناس.

يجوز ولا يصلح للعلماء الكرام أن يَقرَبوا حماها بَلْهَ أن يَرِدوها! لأن هؤلاء الرجال الطاهرين بورودهم ذلك المستقذر، سَيَتَنجَّسون وسيعلوهم الغبار، وهذا لا يتناسب مع أقدار هؤلاء الكرام بحال!!(٢٠)

بمثل هذه الكلمات وهذه الدعايات التي كلها خداع وخطط ماكرة للأعداء، يهدفون -من وراء هذه النماذج من الكلام- أن يستعفي العلماء من ورود الحكم والسياسة، لتخلو لهم الساحة، فَيَعِيثوا فيها فساداً في سبيل أهوائهم ومصالحهم الشخصية.

انه لا ينبغي بحال من الأحوال، لعلماء الإسلام، أن يُخلوا ساحة الإهتمام بأمور المجتمع المترامية الأطراف، وتحسُّس قضاياه من قريب، لأنهم بفعلهم ذاك، سيظلمون أنفسهم ودينهم وقومهم أيضاً.

أنبئوني بعلم كيف وبأيِّ منطق يكون مَحظوراً على علماء الإسلام غَشَيان سُوحِ الحكم والسياسة وحرمانهم من الإشراف على قضايا الناس؟!

أم يا تُرى يَظُنُّون الإسلام صِلةً روحية مجرَّدةً بين العبد وربه، كما هي الحال في النصرانية المحرّفة، حتى لا تَدْعو حاجةٌ إلى تدخُّل العلماء والأئمة في مسائل الحكم والسياسة!!

---

٢٠) وهنا أستَحسِنُ إيراد هذه الطرفة التي وقعت لي:
بعد أدائي لاختبار ناجح في الخطابة بأربيل، أعفيت من العسكرية كوني (إماماً)، وبعد سنوات وبسبب مضايقات حزب البعث، انتقلت في نهاية سنة (١٩٨٥م) من قرية (سرسيان)* إلى قرية (گلوي ماخوبزنان)*، وذات يوم كنت مع أحد أصدقائي عائداً من ناحية (سنگسر) إلى البيت، وفي الطريق هجم علينا كلب وجعل ينبحنا ويقترب منا، وفي خضم انشغال صديقي بالكلب والتفاته إلى الوراء، وخشية أن يَعُضَّنا -أو على الأقل أن ينجسنا- رميته بحصياتٍ فابتعد عنا، وكان الوقت شتاءً، وفجأة جاء صاحب الأغنام، الكبير السن، غاضباً لأننا رمينا كلبه بالحصى، وعندما اقترب منّا وعرفني أبدى أندهاشاً وقال: أهو أنت أيها الشيخ! إنك رجل محترم، فكيف فعلت ذلك؟ فقلت: يا عم، وهل لأنني رجل محترم يتحتم عليّ ألاّ أطرد الكلاب عن نفسي لتعضني، أو تنجسني، إن الرجل المحترم لابد أن يكون حريصاً على نفسه أكثر من غيره، لأن وقوعه في الطين -مثلاً- أقبح من وقوع غيره فيه!
* سرسيان: قرية تابعة لناحية (بنگرد) وهي بدورها تابعة لقضاء (رانيه) التابعة لمحافظة السليمانية.
* گلوى ماخوبزنان: قرية تابعة لناحية (سنگسر) التابعة لقضاء (قلعةدزة) التابعة لمحافظة السليمانية.

أَوَ ليس الإسلامُ في الوقت الذي هو منهاج في العقيدة والشعائر، كالصلاة والصيام والحج والذكر...إلخ، منهجاً أيضاً في الأخلاق والآداب السامية، ونظاماً للحكم في السياسة والإقتصاد والحرب والسلم...إلخ.

أَوَ ليس من أهدافه العظيمة: رفعُ الظُّلم والفساد وترسيخ العدل؟!

فبأيِّ جَنان يُظَنُّ بإسلام عظيم شأنه هذا، أن يكون بلا كيان مستقل، وأن يتحقق هذا النظام، من غير إمساك بزمام الحكم والسياسة؟!

أبداً لا يجوز لأئمة الإسلام أن يكونوا سجناء محاريبهم، يكتفون بإمامة الناس والإهتمام بهم داخل المسجد، وإهمالهم خارجَهُ!

بل عليهم أن يكونوا على درب الأنبياء الذين يدَّعون حمل ميراثهم.

وعليه: إضافةً إلى تقدُّمهم لصفوف صلاتهم، عليهم كذلك أن يُولُوهم الإهتمام والرعاية، ويلعبوا دور القيادة في حياتهم كوظيفة يُحَتِّمها الشرعُ عليهم.

وإذا أحجم العلماء عن البروز إلى تلك الساحة، فمن ذا الذي سيرفع الإسلام شعاراً ونظامه دستوراً، وكيف تَسلَمُ عقيدةُ المسلمين وثقافتهم وأخلاقهم وآدابهم، بلا راعٍ يرعى شؤونهم، ويقوم على تدبير أمورهم.

أيها المسلمون!

إن من أوجب الواجبات الملقاة على عواتق العلماء والأئمة: حَمَلَةِ الإرث الثقيل الذي تُرك لهم، هو تجسيد الإسلام بصورة عملية، كي يغدوا مشاعل هداية وأئمة بحق، للناس والمجتمع، فمنهم الرعاية والإهتمام بأمور الدين والدنيا، وعلى الناس أن يحيطوهم بهالَةٍ من الإقبال عليهم والطاعة لهم في حدود الشرع.

إن على العلماء أن يَنْزِلوا بكلّيتهم إلى ميدان الواقع، وينادوا بالجماهير المسلمة مُحرِّضين لهم:

هَلُمّوا أيها الناس! نحكم بما أنزل الله، هلُمُّوا نقتفي آثار رسول الله ﷺ، وسيكون ذلك مصداقيةً لعلمهم وباعثاً لتوقيرهم واحترامهم، وعليهم أن يعلموا بِنَفسٍ طويل وعزم لا يلين، من أجل المحافظة على التراث النبوي كله، لا أن

يُجزِّئوه، ويختاروا منه أيسره وجانب غير ذات الشوكة فيه، فالذي يدَّعي خلافة النبي ﷺ، في رسالته، ليست له حرية الإختيار، يأخذ ما يشاء ويَذَرُ ما يشاء!

ثم هل ورّث النبيُّ ﷺ الصلاةَ والصيامَ فَحَسبُ، أم أورَثَنا شريعةً ومنهاجاً استأْمننا حِفظَهُ، فهو منهاج يشمل الحياة بأسرها: فرداً ومجتمعاً، فهو عبادة وطاعة، حكم وسياسة، عقل وقلب، مسجد وسوق، حكومة وعلم وتزكية، منبر ودائرة، يربط الدنيا بالآخرة، ينظم الحياة كحَبّاتِ المِسْبَحَة بخيط العبودية والإلتزام بالإسلام، يُرَبِّي رجالاً هم فرسان ميادين الطاعة للحرب والمحراب، لا يُفرِّقون بين صلاة الليل ومباغتة الأعداء فيه، ولا بين فزع القتال وتقوى القلب.

والخلاصة: ما ارتضاه الله ارتضوه، وما ردّه، ردُّوه، يَتَّبِعون الشرع ويَدَعُون جانباً مزاجِهم وطَبعهم.

نعم يا إخوتي وأخواتي!

نحن المجتمع الكوردستاني والعراقي في هذه المرحلة الحساسة التي نمرّ بها، أحوج من كل مرحلة سبقت، إلى الوفاق والإلتفاف حول بعضنا، ولا يتم لنا ذلك ولا يتحقق، إلا إذا تمركزنا جميعاً حول محور الإسلام.

وإن العلماء لأجدَرُ الناس أن يلتفَّ حولَهم الناسُ، ويجعلوهم أنوار هداية يستضيئون بهم، وإنها لجريمة لا تُغتفر، أن يلتفّ الجماهير المسلمة حول شخصٍ لا دين له، ولا يرضى بشريعة الإسلام، وليست الطامّة في أنه يجهل منهج الله ورسولِهِ ﷺ، بل الأدهى من ذلك أنه لا يؤمن بهما أصلاً! فأي باطل أبشع من أن يتصدّر مثل هذا لقيادة المسلمين؟!

إذاً فلنتعرّف إلى من يُرشدنا ويتقدّمُنا، فوالله لا يصلح لهذا إلاّ علماء الإسلام وأئمته، من حملة لواء النبي ﷺ، ألا فَلنَلتَفّ حولهم ولنقدِّرهم ونضمُّهم إلينا، ولننافح عنهم ونستمع إليهم ونأتمر بأمرهم، لأن الله لا يرضى عن أمة الإسلام، إذا اختاروا إمامهم وقائدهم من غيرهم، تأمّلوا قوله تعالى: [وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ] النساء-٥٩-. يجب أن يكون سُراتنا ورُعاتنا من أنفسنا، يخضعون لديننا ويلتزمون

بشريعتنا ومنهج نبيناﷺ، وإلاّ فلا ولن يكون لهم حق الريادة والقيادة علينا.

ولست أعني ههنا-بالطبع- أن أدعوا الناس وشعبنا المسلم إلى الإنضواء تحت راية الجماعات والحركات الإسلامية، والإنخراط في صفوفهم، لأن دائرة الأحزاب والجماعات أضيق من أن تَسَعَ الأمة بأسرِها، بل غاية ما أرمي إليه هو أن نجتمع بكل شرائحنا وطبقاتنا على علماء الإسلام[٢١] -أيّاً كان مظهرهم بشرط الأصالة- وأن نكون يداً واحدةً لإعلاء راية الإسلام، وإعادة حكم الشرع تارة أخرى، كما أَمَرَنا ربُّنا جَلَّت حكمته،[٢٢] [وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ] آل عمران-١٠٣-، لأننا بغير هذا-بلا شك- لا نستطيع أن نثبت بقاءنا على الإسلام تماماً، ولا نَقوى على حمل الأمانة الإسلامية الضخمة، ولذلك فإن الله تعالى، عَقِبَ أمرهِ لنا بإقامة الدِّين مباشرة [أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ] أَمَرَنا ألاّ نَتفرَّق فيه [وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ]الشورى/ ١٣.

لأننا اذا لم نكن جميعاً صفوفاً متراصة، فمن المحال أن نقوى أصلاً على إقامة الدين وإرساء دعائمه.

٢١) كما سبق أن قلنا، ونؤكده مراراً وتكراراً، إن ما نبغيه بعلماء الإسلام ليس شريحة خاصة كأئمة المساجد، بل هو أي شخص عالم بالإسلام، وقد وردت ألفاظ (عالم) و (فقيه) و (علماء) في القرآن والسنة، دون أي قيد أو صفة معينة.

٢٢) في يوم من الأيام وقع حديث بيني وبين أحد الملالي في بعض الأحزاب العلمانية، وكان ما ينفكّ يقول: أليس الله تعالى يقول: [وَلاَ تَفَرَّقُوا]، إذا يجب على شعبنا أن يكون متّحداً ولا يتفرّق.

فقلت له: نعم إنّ الله أمرنا بالوحدة ونهانا عن التفرقة، ولكن الله العدل، جلّت حكمته بعلمه للغيب، قبل أن يأمرنا بالوحدة، أمرنا بالإعتصام بحبله، فقال: [وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ] آل عمران-١٠٣-.

إذا فالضمانة الوحيدة من التشرذم والتفرق، هو الإلتئام على أساس دين الله ومنهاجه القويم، فالذي يريد تجنيب الشعب داء التفرقة المهلكة والتقطع إلى أحزاب (كل حزب بما لديه فرحون)، عليه أن يأمرهم بالإعتصام بدين الله المتين، قبل أن يُلقي باللآئمة عليهم بسبب فرقتهم وتشتتهم. وعلى الذي يتطلع أن يكون إماماً صالحاً للمسلمين، يكون موضع ثقتهم ومحور ٱلتفافهم، عليه أن يبادر إلى الخضوع لشرع الله تعالى، وأن يُحكّم القبضة بحبل الله ودينه الذي ارتضاه لعباده، وإلاّ فلا يلومنّ إلاّ نفسه.

وإنني على ثقة كبيرة، أن الإسلاميين كلّما تعمقت فَهمهم للإسلام وترعرعوا وتكاملوا، استحثّوا الخُطى نحو الإخاء والوحدة والتئام الشَّمل.

ولكنني وكما أكّدتُ مرات عديدة، إنني لا أجعل كلمة (الإسلاميين) مقتصرة على الجماعات والتنظيمات الإسلامية؛ بل إن أي مسلم شيخاً كان أو شاباً، رجلاً كان أو امرأة، متعلّماً أو أُميّاً، عالماً أو عاميّاً، ...إلخ، كلّ من يقول من هؤلاء: إنَّني عبدالله، مُتَّبعٌ لنبيِّه ﷺ، ولا أرضى عن الإسلام بديلاً، ولا يَدَّخِرُ وُسعاً لتطبيق شريعة الله، فإنَّ هذا الشخص الذي هذه هي صفاته هو: (إسلامي) وإن لم يكن مُنضَمّاً إلى جماعة أو حزب إسلامي.

لأن لفظة (الإسلامي) ليس معناها إلاّ اتّباع الإسلام، والإسلامي شخصٌ ولاؤه للإسلام ويعتبره منهاجاً وطريقاً له ولمجتمعه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإن الذي يَتَّبِعُ غير الإسلام ويرتضي غير الإسلام منهجاً لحياة الفرد والمجتمع، فإن مثل هذا-ولو كان (إماماً) فهو عِلاوةً على أنه ليس بإسلامي، فإنه ليس بمسلم أيضاً، وإن شخصاً كهذا أيّاً كانت صفته الدينية، إضافة إلى أنه لا يصلح لقيادة المسلمين ورعاية شؤونهم، فإنه لا يُعتبر مسلماً أصلاً.

إلاّ اللّهم إن كان مِمَّن لم تَقُم عليه الحجة-وهذا بعيد- وإلاّ فإن شخصاً كهذا-لا أقول يُطرد من المحراب والمنبر- بل يجب أن يُطرد مدحوراً من المسجد كله، وأن يعتبر خارجاً من دائرة الإسلام.

فيا إخواني وأخواتي الأحبة!

يا أهل المساجد! إذا رأيتُم أحداً من هؤلاء المشايخ والأئمة المنحرفين والتائهين الذين يُهرَعُون وراء الأنظمة الوضعية من: العلمانية والليبريالية والناسيوناليزمية والسوشياليزمية والكومونيزمية... وسائر السبل الباطلة الأخرى النابعة من الشرق والغرب.

فلا تغرَّنَّكم الألقاب المجوّفة عن معانيها ولا تغرنكم المآزر والجُبَبُ، وكونوا

على ثقة لا تلين بأن مثل تلك النماذج، ليعجزون عن الإتيان بالأدلة على إسلامهم، بَلْهَ أن يُبَرهِنوا إمامتهم لأهل الإسلام والإيمان.(٢٣)

أليس ربنا عز وجل قال في محكم تنزيله: [وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ]آل عمران/ ٨٥.

ويقول المصطفى ﷺ في حديث عظيم يضع فيه النقاط على الحروف، موضحاً بما لا يحتمل نزاعاً: ((ذَاقَ طَعْمُ الإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِالله رَبّاً وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبيّاً وَرَسُولاً، وَبِالإِسْلامِ دِيناً)) رواه مسلم: ٤٩، والترمذي: ٢٥٤٧، وأحمد:١٦٨٢.

وعليه: فالذي يفتقد إحدى هذه العلائم الثلاث، فهو ليس بمسلم أصلاً، لأنه لم يَذُق طَعْمَ الإيمان ولا يعرفه.

نرجو الله في عليائه، أن يَتولاّنا بلطفه، وأن يجعلنا مسلمين صادقين، وأن يُطَهِّرنا من وضَرِ الجاهلية ودَرَنِ الشرك والبدعة، وأن يجعلنا أمة رصينة متماسكة ذات بأس شديد، أللهم قَوِّ صفوفنا، وأدِمّ أُخوَّتنا وصِلاتنا، أللهم وطهِّر قلوبنا من أرجاس البغض واغسلها بماء الإيمان، أللّهم اشف مرضانا، وخَفِّف بَلوانا، وكُن عوناً لنا في دنيانا وأخرانا.

أللّهم اجعل علماءنا وأئمتنا أهلاً لحمل الأمانة التي وكَّلهم بها رسولُ الله ﷺ.

أللهم أحينا على الإسلام، وأمتنا على الإيمان، واحشرنا تحت لواء محمد ﷺ، واسقنا من حوض الكوثر، وأنعِم علينا بلذّةِ النظر إلى وجهك الكريم، يا رحمن يا رحيم، آمين.

---

٢٣) لو أن خطيباً دعا للروس الكفرة الغاصبين بالنصر على المسلمين الشيشان المظلومين، إذا لم يكن مُتوَغِّلاً في الجهل والسذاجة، فهل يصِحُّ أن يُسمَّى مسلماً؟ أو آخر يقول: خذوا حذركم جيداً، لئن أُفسِح المجال للإسلاميين كما كان الحال في الزمن المنصرم، لسوف لا يبقى مسجد بأيدينا!! أو شيخ آخر يبغض كل من هو إسلامي ويتمنّى الهزيمة والإفلاس لهم، أيُعَدُّ هؤلاء مسلمين؟! كلاّ وألف كلاّ، أللّهم إلاّ إذا كانوا ممَّن يُعذَرون بجهلهم!

وإن هؤلاء موجودون فعلاً، ومواقفهم تلك شوهدت وسُمِعَت!! ولكنني لا أرى كبير حاجة إلى ذكر الأسماء.

الفصل الثاني

بعض النصائح إلى الشباب والطلاّب
في مجالات العلوم الشرعية
والتعامل مع الأئمة وعلماء الإسلام

تمهيد

أيها القاريء الحبيب!

بعون الله تعالى، سنحاول في هذا الفصل -المُتَضَمِّنِ اثني عشر مبحثاً- أن نوجِّه بعض النصائح المهمة إلى الشباب الدارسين الأعزاء، الذين يريدون استحصال العلوم الشرعية والمعرفة بالله بالإسلام.

لئلاّ يكونوا عُرضةً للأخطاء، وانقطاع عروة الأدب في تعاملهم وأخلاقهم مع العلماء والأئمة، وكذلك أن يكونوا بمنأى من أن يَصدُرَ عنهم ما يعود عليهم بالعيب والمأثم.

وحريٌّ أن يقال في هذا المقام بأن هناك -بهذا الصّدد- عظات غفيرة، ونصائح كثيرة، ولكن كما قيل «ما لا يُدرك جُلّه لا يترك كله»، وقد بذلت وسعي أن أُلَخِّص ما يُحتاجُ إليه في هذه المرحلة، ضمن سياق المباحث الإثني عشر، ولعلَّنا -مستقبلاً- نوفَّق في كتابة مستقلة، أو في الطبعات الأخرى لهذا الكتاب، أن نتوسع في هذه النصائح ونُسلِّط الضوء عليها بصورة أوضح.

وهذه النصائح وإن كانت موجَّهةً بصورة مباشرة إلى إخواننا وأخواتنا الشباب، ولكن لاشك أن الإستفادة منها ليست خاصة ولا مقتصرة عليهم، بل بإمكان سائر شرائح المجتمع أن تنتفع بها بإذن الله تعالى.

وجدير أن أذكر هنا حقيقتين، فأقول:

١/ الذي أُسَطِّرُهُ في هذه الصفحات وبين ثنايا المباحث الإثني عشر، هو

خلاصة لآرائي وتصوُّراتي وموقفي بهذا الصدد، لهذا أتوجه بطلبٍ إلى الإخوة والأخوات الذين يحسبون أنفسهم قُرَباء مني، أن يلتزموا أكثر من أي شخص آخر، بتلكم النصائح، حتى لا يوجَّهَ اللَّومُ أو النقد اللاذع، دون وجه حقٍّ إلينا، بسبب التصريحات والتصرفات اللامسؤولة، ولا تتحوَّل تلك الأخطاء بالتالي إلى ذريعة يتشبَّثُ بها بعضُ ضِعاف النفوس من خصومنا.

٢/ لربَّما استعملتُ هنا بعضَ التعابير الجانحة إلى الخشونة-مدفوعاً بلهفتي- إلى الشباب والدارسين الذين كان جُلُّ الكلام موجَّهاً إليهم، وما من شكٍّ بأن شبابنا وطلبتنا ومثقفينا، ليسوا في مستوى واحد من العلم والعمل، وأحسَبْ أن كثيراً من النصائح التي وجهتها، قد طُبِّقت من قبل الكثيرين والحمد لله.

وعليه فإن هذه النصائح قد روعيَ توجيهها، بالدرجة الأساس إلى القسم الآخر من الشباب، أما الذين قطعوا مرحلة من العلم والعمل، فإنها لا تعدو أن تكون تذكرة لهم.

المبحث الأول

النصيحة الأولى

رغم أهمية العاطفة والحماس الديني، إلاّ أن العمل والنشاط الإسلامي، بل حتى الأعمال العبادية الفردية، لا يُكتب لها التمام والصحة، بغير علم وخبرة ووضوح:

يا شباب الإسلام وأبناءَهُ المضحِّين من ذوي الدماء الفائرة في شعبنا المسلم! كما أن الإنسان لا يمكنه أن يسلك طريقاً بلا دراية بها، بل حتى لو سلك سبيلاً بلا خبرة بمعالمها، فإنه أقرب إلى التيه والهيمان على وجهه منه، إلى الوصول إلى منتهاها، فكذلك الديانة فإنه لا يمكن تحقيقها بلا علم واتضاح لمدى الرؤية.

وفي هذا يقول عز من قائل: [قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ]يوسف/ ١٠٨.

وإذا تأمّلنا وركّزنا النظر فيما تنطوي عليه هذه الآية القوية الدلالة، فسيتضح لنا ما لا يقبل عن ست حقائق ناصعة، فيما نحن بصدد بحثه:

١/ [قُلْ] لا مِراء أن الخطاب في هذه الآية مُوَجّهٌ إلى الرسول ﷺ بصيغة الأمر (قل) والأمر-كما يقول علماء الأصول- يفيد الوجوب، إلاّ إذا وجدت قرينة صارفة عنه، وحيث لا توجد قرينة تصرف هذه الصيغة الآمرة، يعتبر ما تضمَّنَتْهُ الآية، فرضاً مُلزِماً دالاً على الوجوب.

٢/ [هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ]، وهذه الجملة مفسَّرةٌ بما يليها من بقية الآية: [أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...] وهذا نص على أن ما دعا إليه الرسول ﷺ، فقط هو المنهاج الحقيقي للإسلام، وكل ما قيل خلاف ذلك، ليس بمنهجه، وبالتالي فهو مباين له منفصل عنه.

٣/ [أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ...] وهي مُوَضَّحَةٌ بما قبلها [هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ]، وتُفيد أن كل دعوة لله والإسلام، تكون بلا علم وبصيرة، فهي غريبة لا صلة لها بمنهج النبي ﷺ.

٤/ [أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي] وهذا يعني: أن أيّ شخصٍ يدّعي اتِّباع النبي ﷺ، فهذه هي رسالته، وهي: أن يمارس عن علم، شعائر دينه، ويدعو الناس إليه، وما عداها لا قيمة له.

٥/ [وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ] أي: لله الواحد الذي ليس كمثله شيء، النَّزاهة والبراءة من كلِّ عيب أن يُدعى إليه الناس بغير علم ولا هدى، أو أن يُعْبَدَ على أساس الجهل والغفلة.

٦/ [وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ] إن الجهل والغفلة والتقليد الأعمى لمن أخصّ الصفات الموجودة في الكفار والمشركين، بكافة صورهم وتفرُّعاتهم، وجهلهم هو الباعث على تورُّطهم في وقوعهم في آكَدِ الآثام وأَحَطِّ الصفات، ألا وهي الشرك بالله تعالى.

فيا أيها الأخوة والطلبة الأحباب!

فلتكونوا على وعي ويقظة، كيما تتمكَّنوا من ممارسة ديانة خالصة وأن تُسْدُوا للإسلام والمسلمين خِدمةً منظمة، سواء في مجال الدعوة والتربية، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو القتال والجهاد، أو في مجال الأعمال والنشاطات الدبلوماسية والسياسية. وانشغلوا -بلا كلل ولا ملل- باستحصال العلم والمعرفة، وإلاَّ سيُصيبكم ما أصاب الرجلَ الذي يُحكى أنه كَمَنَ لتاجرٍ يهودي طَمِعَ في ماله، فلما وصل عنده، انتهره قائلاً له: أسلِمْ وإلاّ قتلتك! وهنا جعل اليهودي يترجّاه ألاّ يقتله ولكن بلا جدوى، حيث أصرّ الرجلُ أن يُسلِمَ اليهودي وإلاّ قَتَلَهُ، فلما يئس اليهودي وعلم أنْ قد سُقِطَ في يديه، قال: ماذا أقول لأُسْلِمَ؟! فقال الرجل: لا أعرف، كل الذي أعلمه أنك لابد أن تُسلِمَ... [٢٤]

٢٤) أهل الكتاب طالما يؤدون الجزية إلى الدولة الإسلامية، فيجب المحافظة على حياتهم وأموالهم وأعراضهم، وإن تصرف ذلك الرجل كان خطأ أصلاً.

هذا ما قلته سابقاً، والآن (١٩/ ٨/ ٢٠١٨م- ٨ ذي الحجة ١٤٣٩هـ) أقول: لم يكن في السابق دفع الجزية شيئاً مُلزِماً لغير المسلمين، بل كان الأساس في مواطنتهم، هو مسالمتهم مع الدولة الإسلامية، وقد تحدثت عن هذا الموضوع في كتاب (نقض التطرف) والكتاب الثاني عشر من موسوعة (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله).

المبحث الثاني

النصيحة الثانية

لا يتأتى فَهْمُ الإسلام بصورة صحيحة، إلاّ بمراعاة التدرّج والترتيب من الأهم فالمهم:

فمثلاً:

أولاً: من البديهيات البادية للعيان، أن القرآن هو متن الإسلام وأصله، والسنة مُفَسِّرةٌ لكيفية التطبيق، ولا يمكن فهم الشرح وكيفية التطبيق إلاّ إذا كان هناك فهمٌ أوَّليٌّ للمتن، والله سبحانه يقول:

[وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]النحل/ ٤٤.

ولا شك بأن كتاب الله لا يحتاج كله إلى تفسير، فأكثرُهُ يُفهَم تلقائياً ولو بصورة إجمالية، كما يقول تعالى: [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ]القمر/ ١٧.

إذاً يا إخوتي وأخواتي! إنهمكوا قبل كل شيء بالقرآن، دونكموهُ تلاوةً وحفظاً وتدبّراً وتأملاً وتفكراً، وتعمّقوا في التفكير فيه تنفيذاً لأمر الله تعالى: [كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ]ص/ ٢٩.

وبعد ذلك -من أجل فهم للقرآن أعمق وأدقّ ومعرفة كيفية تجسيده في الواقع- عليكم بسنة الرسول ﷺ، لأننا بطبيعة الحال لا نفهم بعض المواضيع في القرآن كما يجب إلاّ بعد الإستعانة بالسُّنّة، فكما أنَّ السنة ليست بديلاً عن القرآن، فكذلك القرآن ليس بديلاً عن السنة، وكلاهما بحاجة إلى الآخر، فمثلاً:

القرآن ذَكَرَ الصلاة والصيام والزكاة...إلخ، لكن أياً من هذه المسائل لا تتحقق كما حَدَّدها القرآن، إلا بعد الإغتراف من بحر السنة.

فالشباب الذين يَصبُّون جُلَّ اهتمامهم في السنة، قبل أن يتشرَّبوا فهم القرآن في قلوبهم، فيبدؤون بحفظ نصوص السنة ومعرفة أسماء الرواة...إلخ، فليكن هؤلاء

على ثقة أن منهج معرفتهم بالإسلام، منهج خاطيء ومغاير لمنهج الكتاب والسنة، فلا الله أمر بهذا، ولا كان هذا دَأْبُ الرسول ﷺ وهو يُعلِّم أصحابه.

وقد ورد في أربعة مواضع في القرآن ذكر الأعمال العظيمة التي أُنيطت بالنبي ﷺ، وهي عبارة عن:

١- تلاوة القرآن.

٢- التزكية.

٣- تعليم الكتاب.

٤- تعليم الحكمة.

وبينما جرى في الوظائف الثلاث بعض التقديم والتأخير، فقد بقيت تلاوةُ القرآن -على الدوام- في المقدمة، وفيما يلي ذكر المواضع التي تضمَّنت تلك الآيات:

١، ٢ - البقرة الآيتان: ١٢٩ و١٥١.

٣- آل عمران الآية: ١٦٤.

٤- الجمعة الآية: ٢.

ويأتي نتاج العلماء وتراثهم في المرتبة الثالثة، حيث لا يمكن بحال أن يتقدّم على الكتاب والسنة، لأن الله تعالى يقول:

[يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]الحجرات-١-.

ولا مناص من أن يُعلم بأن كلام العلماء ونتاجاتهم واجتهاداتهم- كائناً من كانوا ومهما عَلَتْ مراتبهم- لا يعدو أن يكون تفسيراً للإسلام لا الإسلام نفسه، وهو بالتالي قابلٌ لاحتمال الخطأ والصواب، لأن الحق والصواب المطلق لا يوجد إلاّ في الكتاب والسنة، وما أجمَلَ ما عَبَّرَ عنه العلماء في هذا المجال حيث قالوا: «أقوال العلماء يُستدَلُّ لَها ولا يُستدَلُّ بِها».

ثانياً: ومن المجالات الأخرى لمراعاة الترتيب، هو أن نُراعيَ ذلك في حيثيات الإسلام نفسه، فنركِّزَ الإهتمام بالأهم فالمهم، فلا يُعقَلُ -مثلاً- لمن لايزال جاهلاً بالإيمان، وهو أساس دينه، أن يُصبحَ مهموماً ومشغولاً بالقضايا الخلافية، أو من

لايزال لم يؤدِّ الفرائض والواجبات الأساسية للإسلام، ثم ينهمك ببعض النوافل والمندوبات، أو من كان مُتلبِّساً ببعض الكبائر، ثم يُجادلُ عن بعض المكروهاتِ وما هو خلاف الأولى.

ولا غَزْوَ فقد سأل أناسٌ من أهل الكوفة ابنَ عباس عن حكم الإصابة بدم البراغيث؟ فلما عَلِمَ بأنهم من أهل الكوفة، قال لهم: «تَسفِكون دم الحسين وتسألون عن دم البراغيث!».

وأنا أعرف من الإسلاميين مَنْ يُكَدِّرون -بغير وجه الحق- قلوب أصدقائهم وأقربائهم، بل يُغضِبون آباءَهم وأمهاتهم ويقاطعونهم، ومع هذا يُعِدُّ نَفسَه -وا عجبي- من المجدِّدين لهذا الدين، ويُقيم الدنيا ولا يُقعِدُها بسبب اللِّحية[٢٥] والأخذ منها.

٢٥) يُنظَر للمؤلف: (العبادة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة) ج١، ص٣١٩-٣٢١، ويُنظر رسالة: (المجاهد الإسلامي) الطبعة الثالثة، فيما يخص إعفاء اللحية.

المبحث الثالث

النصيحة الثالثة

رغـم أن الإسـلام هـو مـا بـين دفتَـيْ القـرآن والسـنة، إلاّ أنّـه لا يتيـسَّر فهمهـا بـلا معرفـة بقواعـد اللغـة العربيـة:

كـما أوضحنـا في الفصـل الأول، فـإن القـرآن والسـنة همـا المصـدران الأبلجـان الوحيدان للإسلام، ومن منطلق أن هذين المصدرين هما بلغة العرب، فجليٌّ أن من لا يُحيط باللغة العربية علماً، لا يمكن أن يفهم ذَينك المصدرين فهماً يفي بالغرض.

وطبقاً للحقيقة الآنفة، أنصح الشباب والطلبة الأعزاء، أن يربأوا بأنفسهم عن السفسطة القائلة: مادام الإسلام عبارة عما بين دفتي القرآن والسنة، فإن حفظهما كفيل بتكوين المحور الذي ستتمركز حوله، ولا حاجة بنا إلى علوم النحو والصرف والبلاغة واللغة وعلوم القرآن وعلوم الحديث وأصول الفقه.

لا إشكال أن الإسلام هو القرآن والسنة، ولكنَّهما وردانا باللغة العربية، وبلا معرفة بتلك اللغة، والعلوم التي تجعل فهم المصدرين أكثر يُسراً، بدون هذا، لا يمكننا فهم الكتاب والسنة حق فهمهما.

أَوَلَيس في أعماق البحار دُررٌ ويواقيتُ متلألئة؟

ولكن هل يستخرجها غير البحّارة الغوّاصة!!

والخلاصة أنه: ما من هدف يتحقق بلا آلة، وآلة فهم القرآن والسنة، هي المعرفة بالعلوم التي اصطلح على تسميتها بالعلوم الآلية، وأهمها اللغة العربية بجميع أقسامها.

واسمحوا لي، أن أَسرُدَ هذه اللطيفة التي وقعت معي، لبيان أهمية اللغة العربية:

في بداية الثمانينيّات جرت مناقشة بيني وبين أحد الإخوة، وكان يَعُدُّ نَفسَهُ

مجتهداً مطلقاً، ويعتقد أن مَن يُجيد اللغة العربية، بحيث يستطيع قراءة جريدة أو مجلة، يمكنه أن يُحسِنَ فَهمَ الكتاب والسنة.

وقد سَعَيتُ أن أُثبِتَ له أن الإجتهاد ليس بالسهولة التي يتصورها، وأن ما معه من العربية لا يُعينه لبلوغ درجة الإجتهاد، فقلت له:

كيف تُثبِت لي بالقرآن أن الحجّ كما هو مفروض على الرجال، مفروض على النساء أيضاً، لأن الله تعالى يقول:

[وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ]الحج/ ٢٧.،

فقال: أعرف أن الرجال هم المذكورون فقط في هذه الآية، ولكن النساء ذكرن في آيات أخرى، أو ورد ذكرهن في الأحاديث.

وكنت أعلم بأنه يتصور (رجالاً) في الآية جمع (رَجُل)، ولذا سألتُهُ ذلك السؤال! ثم أوضحتُ له: بأن كلمة (رجالاً) ههنا جمع ل (راجِلٍ) وهو الماشي على قدميه، ويشمل الرجال والنساء، وهو يُقابِل كلمة (فارس) الذي عبرت عنه الآية بـ(ضامر).

وبعد ذلك قلت له:

أرجو أن تكون الآن مُقتنِعاً بأن الإجتهاد ليس عملاً هَيِّناً إلى هذا الحد، وإن بينك وبينه أمداً بعيداً.

المبحث الرابع

النصيحة الرابعة

علماء الإسلام ليسوا ملائكة معصومين، حتى إذا ما أخطأوا، سقطوا من أعيننا، ولنأخذ ممَّا هم فيه مُتَمَكِّنون بتواضع:

لاشك أن العلماء بشر مثلنا، تَصدُر منهم الأخطاءُ العلمية والعملية، والذي يتصورهم أناساً بلا أخطاء ولا هفوات، فقد عزَّ مَطْلَبُهُ وانحرف فَهمُهُ.

يقول الرسول ﷺ: ((كُلُّ بَنْي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيرُ الخَطَّائينَ التَوَّابُون))أخرجه الترمذي: ٢٤٢٣، وابن ماجه: ٢٤٣١.

ويقول الله تبارك وتعالى:

[ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ] فاطر/ ٣٢.

كما ترى: فقد سمَّى الله تعالى الذين أنزل إليهم آخر كتبه، ابتداءً وعموماً: بالعباد المختارين، ثم يُقَسِّمُ تعالى هؤلاء العباد المصطفين الذين يأتي العلماء في مقدمتهم-ولا ريب- إلى ثلاثة أقسام:

أ- ظالم لنفسه.

ب- مقتصد.

ج- سابق بالخيرات.

ولنفرض أن عبارة [ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ] عائدة إلى [سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ] ولو أنّ الظاهر شمولها للثلاثة، وأيّاً كان الأمر، فإن عبارة: [ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا] تشمل الأصناف الثلاثة جميعاً.

وعليه فالذين يتلبَّسون ببعض الآثام والأخطاء-علماء وعواماً- هم في ميزان الله: عباد مُفضَّلون وصالحون، طالما كانوا مُتَّبِعين لكتاب ربهم ورافعين لواء نبيهم

محمدﷺ، وليس لأحد إلغاؤهم، أو وَسْمُ أعمالهم بوَسْمِ الإحباط، وقد قيل قديماً: «من فضائل الرِّجال أن تُعدَّ معايبهم».

وأحسب أن من كان ذا ضمير نابض، ينظر نظرة واقعية إلى الظروف القاسية التي كابَدَها أهلُ العلم من الشعب الكوردي –وغيرهم– إلى أن أكملوا دراساتهم، أحْسَبُ أنه بدل اللوم والنقد اللاذع، يلتمس لهم المعاذير ويدافع عنهم.

ولكن حذار! فَلَستُ أقصد كلّ (عالم) ولا كل حالة على إطلاقها، لأن الذي يرتكب الأخطاء وينحرف، على وفق منهج وخطة مرسومة، هذا لا مُبَرِّر له ولا معذرة.

إن الخيانة والعمالة والمزايدة على الإسلام، والعداء المستحكم للإتِّجاه الإسلامي، طَوامٌّ لا تُبَرَّرُ بِأَيَّةِ مُسوِّغات أو معاذير.

وإنّ الإستفادة من العلماء وأهل المعرفة والخبرة البارزين، والمتخصِّصين في مجالاتهم حسب قاعدة «خُذْ ما صفا دَعْ ما كَدَر» لمن دأب الحاذقين الفطنين.

والذي يَتَحَجَّجُ بالخطأ والقصور الموجود في بعض هؤلاء، ذريعة للإمتناع من الأخذ عنهم، فهذا ليس حاذقاً ولا فَطِناً.

وياترى، هل يقطع المزارع شجرة مثمرةً من أصلها، من أجل حبات من ثمرتها تَعَفَّنَتْ!؟

المبحث الخامس

النصيحة الخامسة

مدى الإسلام واسع فسيح، وغوره بعيد وعميق، فلا تذهبنَّ بنا الظنون أنَّ بإمكاننا الوصول إلى منتهاه في مدة وجيزة، وبقراءة عدة كتب ورسائل، وسَماعِ بعض الخطب والمحاضرات:

وعلينا أنْ نُوقِنَ -إلاّ ما رحم ربك- أننا لا نحيط علماً بالقرآن والسنة والعلوم الشرعية بلا شيخ أو أستاذ متخصص.

أحِبَّتي من الإخوة والأخوات!

كونوا صاحين واعين، ولا يَغُرنَّكم أنكم حفظتم بعض الآي من القرآن، وبعض الأحاديث من السنة وكما يقول المثل: «لا تبادِرْ بالسِّباحة في مُدٍّ من الماء».

وكونوا على ثقة بأن الأئمة والعلماء لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه، من النبوغ والشهرة بين عشية وضحاها، بل حازوا الذي حازوه، بعد صبرٍ وطولٍ نَفَسٍ وسهر ومكابدة القسوة وتجرُّع الأمرَّين، ولذلك قيل في هذا المعنى: العلم لا يُعطيك بَعضَه حتى تُعطيه كُلك.

والمحُصَّلَة:

أولاً: لا تتوهّموا انخراطكم في صفوف العلماء وفطاحل الإسلام، بكتبٍ قرأتموها، ومسائل عرفتموها، لأن هذا -لعمر الحق- هو الخيال بعينه، فأين الثَّرى من الثُّريا؟ وصَدق من قال: (مَن طار عالياً هبط سحيقاً).

ثانياً: إياكم أن تتصوروا أنكم بحفظ القرآن -كله أو بعضه- وحفظ بعض أحاديث النبي ﷺ، تتحوّلون تلقائياً إلى فقهاء، تُفتون الناس، لأن رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: ((مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرَاً يَفَقِهْهُ فِي الدّين))رواه البخاري: ٦٩، ومسلم:١٧١٨، والترمذي: ٥٦٩، وابن ماجه: ٢١٦، ومالك: ١٤٠٠، والدارمي:٢٢٦.

وعليه فالفقه في الدين يَبعَثُ على الخير والصلاح والسعادة، وليس حفظ النصوص الشرعية، ولذلك لم يقلﷺ: ((مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا، يُحَفِّظْهُ نُصُوصَ الدِّينِ))!!

وقطعاً لست أعني نهيكم عن حفظ سور القرآن ونصوص السنة، فإنَّ ذلك في حدِّ ذاته عمل عظيم وخير عميم، بل أعني: ألاّ تتوقفوا عند الحفظ، بل يجب ألاّ تدَّخروا وسعاً -على ضوء التفاسير العلماء وشروحهم وتحقيقاتهم- وإعمال عقولكم في فهم أعمق وأدق، واصرفوا جهودكم ما وسعتم القدرة، أن تأخذوا العلم على أيدي أهله من العلماء والأساتذة وذوي الإختصاص، وألاّ تكتفوا بالمطالعة وقراءة الكتب.

لأن العلم الحاصل جراء الجلوس بين أيدي العلماء، أكثر بركة ووثوقاً ويسراً، وتأخذون منهم -عدا العلم- آداباً وخصالاً كريمة.

المبحث السادس

النصيحة السادسة

لا يُثمر العلم المجرد ثماراً، وإننا لا نستطيع أن نخدم الإسلام كما ينبغي إلاّ بالسبل الشرعية والأخلاق الإسلامية:

أيها الإخوة والأخوات، والطلبة الإسلاميّون!

إن مشروعية الغايات وصِدقَها ونُبلَها، لا تُغني من شرعية الوسائل ونزاهتها، بل بالقدر الذي تعتبر الشرعية والنزاهة والإستقامة ونُبل الأهداف مهمة وواجبة في الإسلام، فكذلك الطرق والوسائل المؤدِّية إليها، فكما أنَّ المكان الذي نقصده لإقامة الصلاة فيه، يجب أن يكون صالحاً وطاهراً من النجاسة، فكذلك الطريق الذي نَسلُكُه إليه، يجب أن يكون نزيهاً بريئاً من الدنس.

والسياسة الميكيافيلية التي تُبيحُ انتهاجَ وسيلة عوجاء للوصول إلى غاية نبيلة! سياسة يرفضها الإسلام ويستقذرها.

فيا أيها الأعزاء!

إن الإسلام الذي كله صِدْق، لا يمكن أن يُخدَم بكذِبٍ.

والإسلام الذي كله حق، كيف يُدار أمره بالباطل!

والإلتزام بالإسلام في خاصة نفسك، وعلاقتك مع ربك، هو الصدق والإستقامة، ولا يمكن أن يتحقق بالنفاق والإزدواجية.

وأناس يحسبون التذبذب والتمويه والنفاق والكذب والدجل ونقض العهد حَذاقَةً وسياسة ومهارةً، يستحقون بدل الفرحة بهم والإندهاش منهم، الإشفاق عليهم والدعاء لهم بالهداية.

وهنا لابد أن نكون على حذرٍ من عدم إدراك هذه الحقائق الثلاث:

● **الأولى**: من المتعذِّر الوصول إلى الغاية النَّبيلة والهدف الحق، إلاّ بالسير على طريق الشرع والحق: [وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا] الأعراف/ ٥٨.

إذاً فالذي يعجز عن الوصول إلى غايته عن طريق الشرع، فأجدر به وأجدى له ألاّ يُجشِّم نَفسَه المصاعِبَ عبثاً، لأنه بالنتيجة سيتعرَّض للعقوبة والشقاء والفضيحة، ويكون وجهُهُ من الوجوه الموسومةِ بـ[عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ]الغاشية/ ٣.

● **الثانية**: إن الغاية النبيلة والمقصد الشرعي، تتطلَّب على الدوام، وسيلة طاهرة وطريقة نزيهة شرعية، إذاً فاجعلوا الوسائل والطرائق والأعمال والنشاطات، شعاراً وعنواناً لميزان تقييمكم للأهداف والغايات.

● **الثالثة**: إن انتهاج الوسائل الشرعية والعادلة، بحاجة إلى الدقة وبعد النظر والتحمُّل وطول النَّفس، ولذلك فلا يصلح هذا للإنسان المتهوِّر ذي الأفق الضعيف، الذي لا يرى أبعد من أنفه.

وإضافةً إلى مراعاة الطرق الشرعية والمستقيمة، فإن التحلِّي بالصفات العالية والأخلاق النبيلة، يُعدُّ عاملاً مهماً في سبيل البركة والدوام والإثمار لعلومنا وجهودنا.

وإنه ليدعو للوقوف والتأمل أنَّ الله سبحانه وتعالى، امتدح نبيّهﷺ من بين جميع صفاته بالخلق، فقال: [وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ]القلم/ ٤ . لأن الله باطِّلاعه على السرائر، يعلم الفرق بين الحق والزّيف، والصدق والكذب.

إن الكلام والثرثرة والإدِّعاء العريض، ليس وعاءً للعلم، وإنما وعاؤه الخُلُق الرفيع والصفات المحمودة، فبإمكان الكثيرين أن يُحشُّوا رؤوسهم بالمعلومات وألسنتهم بالخطب، إلاّ المؤمنين من ذوي الديانة الصحيحة، فلا يمكنهم بحال من الأحوال إلاّ مطاوعة ما يرضى به الله، ويأمر به الشرع، وعلى هذا يكون تعاملهم.

وخلاصة ما قلناه هو أن تُركِّزوا جهودَكم في أن تجعلوا ما في رؤوسكم من علم ومعرفة، إلى قناعة تستقر في قلوبكم ورؤوسكم، وأن تتحوَّلوا من القول إلى العمل ومن العلم إلى مقتضى العلم.

المبحث السابع

النصيحة السابعة

من غير اتِّخاذ الحكمة والمهارة شعاراً لنا، وخصوصاً في مجال الدعوة، نُصابُ بالإخفاق والضرر، بدل الإفادة وإيصال الخير للآخرين، ولذلك فـ(كيف تقول؟!) لا يفرق كبير فرق عن (ماذا تقول؟):

هذه النصيحة وإن كانت في ظاهرها شبيهة بسابقتها، إلاّ أن تبايناً يوجد بينهما؛ لأنني -في النصيحة السادسة- عُنيت بالناحية العلمية والشرعية، بينما كان جُلّ ما عُنيت به ههنا، الناحية العقلية والإختصاصية من الخبرة والحنكة.

ومعلوم أن كل عمل أو نشاط يحتاج إلى علم وحكمة، وكذلك يحتاج إلى فقه الدعوة وفقه الواقع.

وواضح أن العلم في الدين يُتحصَّل من القرآن والسنة والعلوم الشرعية، وأما معرفة الواقع، فتتكون من حصيلة التجربة والحركة والنشاطات، ثم إن استعمال الحكمة والدراية والحنكة، تشتمل في طيّاتها على أشياء كثيرة، مثلاً:

١- لا يجوز التحدث مع الناس في قضايا لا يمكنهم هضمها، وليس في مقدور عقولهم تحملها، يقول علي بن أبي طالب ﵁ : «حدِّثوا الناس بما يعرفون، ودَعُوا ما يُنكِرون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟!» رواه البخاري معلّقاً: ١٢٤.

ويقول عبدالله بن مسعود: «ما أنت بمحدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلاّ كان لبعضهم فتنة». رواه مسلم في خطبة صحيحة، والبيهقي في السنن الكبرى: ٤٩٠.

٢- لا ينبغي إثارة القضايا الخلافية التي تبعث على الجدل والخصومة بين الناس، لأنها سَتُنشيءُ بينهم حالةً من التردد والحيرة، وأقلّها، إنها ستُحدِثُ متاعب لا طائل من ورائها.[٢٦]

---

٢٦) بحثت هذه المسألة في كل من كتاب: ((إيضاحات إلى الإسلاميين في كوردستان)) و(العبادة

يروى أن الحسن والحسين ، شاهدا -ذات يوم- في المسجد رجلاً يتوضأ وضوءاً مخالفاً للسنة، ولأنهما كانا صبيين، فلم يرغبا أن يقولا له في الوجه أنتَ مخطيء؛ فارتئيا تعليمهُ بالحكمة! فقالا: نحن في خصومة حول: أيُّنا وضوؤه مثل وضوءِ رسول الله ﷺ، فهلاّ حكمت بيننا من فضلك! فبدأ الحسن يتوضأ وضوءاً كوضوء جَدِّهِ ﷺ وتَبِعَهُ الحسين على مِنوالِهِ، فلما رأى الرجل ما رأى، من ذكائهما ونجابتهما، عَلِم خطأه، وقال: إن كلا وضوءيكما مثل وضوء رسول الله ﷺ، لكنه تبيّن أنني إلى اليوم لا أعرف كيفية الوضوء!

على أمل أن يجعل شبابنا ودارسونا من ريحانتي النبي ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة،[٢٧] لهم قدوة وسيداً، يتعلمون منهما الحكمة في الدعوة والتعليم، وكذلك الأخلاق والأدب والإحترام، لا أن يُغفِلوا الإحترام بحجة الدعوة والصَّدع بالحق، ولا أن يُعطِّلوا الدعوة وإظهار الشريعة وقولة الحق، بذريعة الأدب مع الناس واحترامهم.

الإسلامية...)ج١/ المسألة الثانية: (الأسس المهمة للتعامل الشرعي والعقلي مع المسائل الخلافية الجزئية) ص١٩٣-٢٤٥، ط٢.

٢٧) ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)) رواه الترمذي: ٣٧٠١ وقال: حديث حسن صحيح.

المبحث الثامن

النصيحة الثامنة

لنتناول-حال تعليمنا ودعوتنا- المسائل والقضايا التي يحتاجها الناس في الصميم، لا ما نرغب فيه نحن:

وهذه إحدى الملاحظات التي تعتبر أخذها بنظر الإعتبار مهماً جداً، فهناك أناس كثيرون يتناولون ما يرونه بنظرهم مهماً، دون مراعاة أو تقييد باحتياجات الناس وظروفهم، فيأتي ليختار جانباً من الجوانب يلوكه ويكرِّره مهما كان قليل الأهمية، وأحياناً يكون الحديث عن بعض المسائل-ليس فقط لا خير فيه- بل يَنجُم عنه شرٌّ مستطير أيضاً أو قد يتسبب في تفويت مصلحة كبيرة.

وبطبيعة الحال فإن أفضل ضمانة لتلك الحكمة والمصلحة، هو أن نجعل شرع الله ميزاناً لأمزجتنا، فنحن إذا حكَّمنا شرع الله واتخذناه معياراً بدل اتِّباعنا لرغباتنا وأهوائنا، فإننا سنحرص على رضا الله تعالى وحاجات المسلمين.

فمثلاً: إذا كان أهل حي أو قرية لايزالون يجهلون ما يجب معرفته عن أمور إيمانهم وعقيدتهم، فليس من المعقول أبداً، أن نُفصِّل لهم الحديث في السنن والبدع!

أو أن نُحدِثَ نزاعات لا آخر لها، بسبب الجدل حول وصول ثواب القراءة أو عدم وصوله إلى الأموات!

أو أن يأتي شخصٌ متحمِّس إلى جماعة لا يعرفون شيئاً عن الموالاة والمعاداة في الله، فيسترسل في الحديث إليهم عن أهل البدع كالخوارج والمرجئة والمعتزلة!

أو أن يكون أهل منطقة ما، مبتلون بكبائر الذنوب الظاهرة الخفية، كالشرك والنفاق والحسد والبغض والشحناء والقتل والزنا والسرقة وقطع الطريق ومعاقرة الخمور، فيأتي من يُصوِّر لهم، القيامَ للقادم، وتحريك الأصبع في التشهُّد، وإحفاء الشوارب، والأخذ من اللحية...إلخ، كأنها أركان الإيمان والإسلام!!

المبحث التاسع

النصيحة التاسعة

التعصّب والتقليد[٢٨] الأعمى زَلّة وممارسة خاطئة، يستوي في ذلك المتعصِّب ومَن يُتعصَّبُ له:

قد أسلفنا فيما مضى من الصفحات أن الحق المطلق يَتَمثَّل في الكتاب والسنة، لأنهما نابعان من علم الله المطلق، إذاً فالتعصب للآراء والتصورات الصادرة من العلماء والأئمة، والإستسلام المطلق لهم، خطأ في إثره ندامةٌ.

وهذا لا يتناقض مع ما ينبغي إظهاره من الأدب للعلماء، لأن العلماء وأعلام هذه الأمة قد اتفقوا على أنهم غير معصومين، بل قابلون للخطأ والزلات، فـ(كل يؤخذ من قوله ويُترك، إلاّ صاحب هذا القبر).[٢٩]

وهنا تأخذنا الدهشة، لأن كثيراً من الإخوة والأخوات من الشباب المثقف، يوجِّهون باللائمة والشكوى إلى العوام، بل لكثير من أهل العلم بأنهم ليسوا من أهل التحقيق، بل هم مقلدة يتبعون أئمة المذاهب بلا دليل أو أَثارةٍ من عِلمٍ!

ويأتي هؤلاء ليُكرِّروا الشيء نفسه تارة أخرى، ولكن بأشد من سابقته، تعلمون لماذا؟

لأن كثيراً من هؤلاء الشباب -كرد فعل لتعصُّب الناس وتقليدهم للمذاهب الفقهية- يتَّبِعون تصوراتٍ وكتباً ورسائلَ، كثيراً ما تكون مستنسخة عن بعض الكُتّاب المعاصرين، دون أن يتحققوا من حقيقة وإثبات أحاديثهم وتصوراتهم، بل

---

٢٨) يجب أن يقال في هذا المقام أن اتِّباع العامي للأئمة وأخذه الفتوى عنهم، لا تعتبر تقليداً أعمى -مع أننا نذم ذلك- لأن ذلك الشخص ينطلق في عمله من منطلق الثقة بهؤلاء العلماء والإستنارة بهم، ولو أن السعي لاكتساب معرفة أكبر وتقييم الآراء ضرورية أيضاً.

٢٩) هذا قول الإمام مالك، يُنظَر: (كشف الخفا ومزيل الإلباس، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) للعجلوني ج٢ ص١٥٥-١٧٦.

حتى دون أن يعرفوا هؤلاء الكُتّاب أيضاً، فهم يتَّخذون من كلامهم واجتهاداتهم، نصوصاً شرعية يحرصون على التمسك بها بكل صلابة، دون أن يلتفتوا إلى أن التعصُّب شيء مَقيتٌ كائناً من كان الذي صدر منه، وإن كان متعلِّماً أو مثقفاً.

فالإستسلام المطلق لأي إنسان ليس شرعياً أبداً، سواءاً كان من علماء السلف أم كان باحثاً ومحقِّقاً معاصراً، على أن تعصُّب الشباب المثقف وتقليدهم، أسوأ من تقليد الآخرين ضِعفَين:

■**الأول**: أن عامة الناس يقلِّدون العلماء والأئمة المجتهدين الثقاة المعروفين، بينما يقلِّد هؤلاء الشباب بعض الكُتّاب والمؤلِّفين المعاصرين.

■**الثاني**: هؤلاء الشباب -يحسبون أنفسهم دارسين ومثقفين وأهل خبرة- أما العوام فيحسبون أنفسهم جهلاء سُذَّجاً، ولاشك أن هناك فرقاً كبيراً وبوناً شاسعاً، بين من يَحسبُ نفسه عالماً وهو جاهل، وبين من يُقرُّ بجهله ويعرفه، فالأول جهله مركّب، لأنه: لا يدري، ولايدري أنه لا يدري، والثاني جهله بسيط، لأنه: لايدري ويدري أنه لايدري!

إذاً: فلنكن واثقين وعلى وعي تام، أنّ التعصب والتقليد، حكمه واحد، أيّاً من كان ممارسهُ، وأياً من كان المُقلَّد أو المُتعصَّب له، فما من أحد أعطي حق (الڤيتو).

ولزامٌ علينا هنا أن نُفصِحَ عن هذه الحقيقة:

إن جميع الذين ابتلوا بلوثة التعصب والتقليد صدورهم حَرِجَةٌ، كأنما يصّعَّدون في السماء، وآفاقهم ضيقة، سريعو الثورة والهيجان، سواء كانوا من المُعمَّرين أو شباباً وطلبة في مقتبل أعمارهم، وسواء كانوا داخل دائرةٍ أو مؤسسةٍ أو جماعةٍ أو كانوا خارجها، لأن الشخص المتعصِّب والمقلِّد، يرى الحق -الذى لا يحتسب غيرهُ حقاً- من منظاره هو!

مثلاً:

١) هناك شخص من أهل العلم شافعي المذهب، لا يرى الدين والشريعة إلاّ من دائرة فتاوى الإمام الشافعي رحمه الله، ويُؤَطِّره في هذا الإطار،

فهذا لاشك عندما يرى أو يسمع كلاماً أو رأياً لغير الإمام الشافعي، تراه يَتَلَبَّدُ وجهه، ويصاب بالإضطراب، وإذا قيل له: إن الإمام الشافعي أخطأ في مسألةٍ ما، فسوف تَتَشنَّج أوداجُهُ، وكذلك أتباع ومقلِّدو المذاهب الأخرى.

٢) يأتي مُتَسَمٍّ بالسلفية لا يرى مواضيع الإيمان والعقيدة، إلاّ فيما عُرِض في كتاب (التوحيد) للشيخ محمد عبدالوهاب رحمه الله، فهذا عندما يدور حديث حول مسألة في الإيمان أو العقيدة، لم يَرِدْ ذكرُها في كتاب (التوحيد) أو كان تناوله لها هامشياً، فمثلاً: توحيد الحاكمية، أو شرك الطاغوت، أو الهجوم على أصحاب القصور، الذين يَرجَحون أضعافاً مضاعفة على أصحاب القبور، في إبعاد الناس عن الدين، فاستناداً إلى قاعدة (الناس أعداء ما جهلوا) ترى هذا: (السلفي) لا يُطيق أن يسمع مثل هذه القضايا بل يُقَطِّب حاجِبَيه عليها، متوهِّماً بأن من عداه لا يملك حق الحديث عن التوحيد والشرك!!

٣) كذا الحال مع شيخ طريقة ما، وغيره من الذين لا يرون الحق إلاّ كامناً في طريقتهم، أو إسلامي لا يرى الإسلام إلاّ من منظور جماعته، كل هؤلاء ينظرون من ثقب التقليد الضيِّق ومبتلون بكونهم يرون الدين محصوراً في دائرة ضيِّقة، ولا يرون الحق إلاّ في أنفسهم.

وقمين بي أن أختتم هذه النصيحة التاسعة بمقولة قيّمةٍ لابن تيمية: حيث يقول:

«وأنت تجد كثيراً من المُتفقِّهة إذا رأى المتصوِّفة والمتعبِّدة لا يراهم شيئاً، ولا يعدُّهم إلاّ جُهّالاً ضُلاّلاً، ولا يعتقد في طريقتهم من العلم والهدى شيئاً، وترى كثيراً من المتصوفة والمتفقِّرة، لا يرى الشريعة ولا العلم شيئاً، بل يرى المتمسِّك بها، منقطعاً عن الله، وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئاً.

وإنما الصواب: أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا؛ حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا؛ باطل». [٣٠]

وهذا هو الموقف الشرعي العادل الذي يجب على العلماء والأئمة أن يتَّبعوهُ في تقييمهم وتعاملهم مع كافة الجماعات والهيئات والشرائح في المجتمع، يُقبَل الصوابُ والخيرُ من أي طرف من الأطراف المذكورة، وتُردُّ الأخطاء والمخالفات الشرعية، على رؤوس أصحابها.

٣٠) يُنظَر: (إقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم) ج١ ص٧٩.

المبحث العاشر

النصيحة العاشرة

الإيمان الصحيح بجميع أركانه، والفهم السليم، وعبادة الله بما شرَّع، والأخلاق الحسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقتال والجهاد، لتكُن هذه هي المقاييس والموازين الإسلامية التي نزن بها أنفسنا، لا أن نتَّخِذ من اللَّحية والسِّواك وعدم إسبال الإزار وتحريك الأصبع في تشهّد الصلاة...إلخ، مقاييس نحكم بها على الناس:

يا أيها الشباب المتحمِّس للإسلام!

نصيحتي العاشرة التي أَوَدُّ توجيهها إليكم، أن تكونوا على حذر عظيم،وأنتم تُقيِّمون المسلمين وتُصَنِّفُونَهُم، حذار أن تتخذوا -ما ذكرناهُ آنفاً- موازين تضعون الناس في كفتها، والحال أنها مسائل جانبية[٣١] في نظر الدين.

لا تَغْفُلُنَّ الواجبات الأساسية للإسلام التي تُعَدُّ أَعمِدةً له،[٣٢] ولا يتأتّى تحقيقُها على أرض الواقع، من كل أحدٍ!

فالإنسان يجب عليه أن يتخذ مقياساً يصلح لإظهار جوهر وماهية الشيء، أو الشخص الذي يريد تقييمَهُ.

وجوهر المسلم -لاشك- كامن في إيمانه وعقيدته وفهمه للإسلام، وعبادته، وموقفه من المعروف والمنكر، واستعداده للهجرة والجهاد في سبيل الله...إلخ.

وليس في مظهره، وطول لحيته، وهيئة لباسه، وسواكه، وتحريكه لأصبعه في التشهد، ووضعه اليد على صدره في الصلاة...إلخ، لأن الشخص المسلم إنما يعرف بالأسس والأركان والواجبات للإسلام، وليس ببعض المسائل الجانبية

٣١) نعني بذلك أنها جزئية وفرعية وثانوية، وليس المقصود التحقير من شأنها.

٣٢) أي الأعمدة التي يُبْنى عليها تديّن الإنسان.

والشكلية، فالجميع بإمكانهم تطبيق المسائل البسيطة، ولكن ليس الكلّ يؤدّون واجبات الإسلام الكبرى كما يجب.

ومادام الأمر كذلك، فيا إخوتي وأخواتي!

لا تكتفوا بمسائل ثانوية كالتي ذكرناها، فتجعلوها المِحَكَّ الذي تختبرون به إيمان المسلمين، فأنتم بهذا الصنيع، واختراع هذا المحك، تُعَرِّضون أنفسكم لأخطاء قاتلة لا معنى لها، فإنّ إعفاء اللحية وحَفّ الشوارب -كما أسلفنا- أمر يستطيع الجميع القيام به، وقد يَلِجُ علينا الأعداء من هذا المَنفَذ، فيُعَرِّفون لنا أنفسهم بلحايا طويلة وشوارب قد حُفَّتْ، وادعاءات عريضة للسلفية، ثُمَّ نُؤتى من حيث لا نشعر، فتخترقنا الجواسيس وعملاء الكفر كمسلمين صالحين، ليضربوا ضربتهم ويُنفِذوا -من الخَلف- طَعنتهم.[٣٣]

بل علينا أن نجعل من آي القرآن وأقوال الرسول ﷺ مقياساً وميزاناً ومرآةً ومِحَكّاً، يُقَيَّمُ على أساسه المسلمون، وحينئذٍ لا نُصبِحُ فريسةً للأخطاء، وننجو من الوقوع في فخاخ الخديعة إلاّ ما نَدَرَ.

ولابأس أن نستشهد ببعض الشواهد كأمثلة على ما نحن في صدده:

١- ورد في صدر سورة (المؤمنون) تعريفٌ للمؤمنين:

[قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾].

٢- وفي نهاية سورة الفرقان أيضاً تعريف العباد الله المفضلين المختارين:

[وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾].

٣٣) وقعت مثل هذه الحوادث في حالات كثيرة في كوردستان والعراق وغيرهما.

٣- وهناك حديث للنبيﷺ يُعرّف فيه المسلمين:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمِ وَأَمْوَالِهِم)) رواه البخاري:٩٠، ومسلم: ٥٧، والترمذي:٢٤٢٨، والنسائي:٤٩١٠، وأبوداود:٢١٢٢.

٤- وحديث آخر للنبيﷺ تضمن ثلاث علامات لذوق حلاوة الإيمان:

((ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُنَ اللهَ وَرَسُلُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُما، وأَنْ يُحِبَ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاّ لله، وَأَنْ يَكْرَهْ أنْ يَعُودَ فِي الكُفر بَعْدَ أنْ أنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرهُ أن يُقْذَفَ فِي النَّار.)) رواه البخاري:١٥، ومسلم:٦٠، والنسائي:٤٩٠١، وابن ماجه:٣٠٢٣.

وجدير بالذكر أننا بِتَبَنِّينا لتلك المقاييس والموازين غير الصائبة للتقييم، سنكون عرضة للإنخداع، بأُناس دأْبهم المكر والدَّجل، وحتى لا نتوهَّم كثيراً من الأعداء والمقتنعين مِمَّنْ سوَّدَ الحِقدُ الدفين قلوبَهُم، أصدقاءَ صِدقٍ صالحين.

ومن جانب آخر فقد نَتَلبّس بالجور والظلم، ونحن نُقَيِّمُ بعض المسلمين عموماً، والعلماء العاملين خصوصاً.

وسآتي بمثالين توضيحاً لما نحن بصدد الحديث عنه:

أولاً: لا نِزاع أن النبيَّ ﷺ كان يُعفي لحيته، ولذلك فغالبية العلماء-إن لَمْ نقُلْ جميعهم- يعتبرون إعفاء اللحية سنة،[٣٤] ومعظمهم يعتبرون حَلقَها مُحَرَّماً، وبعضهم يعتبره مكروهاً،[٣٥] ولكن لو شاهدنا أخاً لنا في الإسلام، أو عالماً حالقاً للحيته، هل نعتبر تصرُّفه ذلك عيباً وخطيئة كبيرة، بحيث يُحبِطُ حسناته؟ هناك من يعتقد هذا، ما في هذا شك، ولكنه اعتقاد خاطيء لم يراعِ ضميراً:

إذْ بِربِّكُم، عندما ننظر إلى أشخاص كـ(سيد قطب) و(سعيد النورسي) و(أحمد مفتي زادة) رحمهم الله، وهؤلاء كانوا نوابغ وأئمة كباراً في هذا العصر، وكانوا

---

٣٤) كلمة السنة بمعناها الفقهي تعني التطوع والندب، الذي يقابل الواجب، ولكنّها في مصطلح المحدِّثين تشمل منهج النبي ﷺ بأسره، وبهذا المعنى الأخير كان إيرادنا للكلمة.

٣٥) يُنظَر: (العبادة الإسلامية) ج١، ص٣١٩-٣٢١، ط٢.

حالقين للحاهم -وفعلهم مخالف للسنة بيقين،[٣٦] فهل نُنْكِرُ مواقِفهم وتضحياتهم وخدماتهم الجليلة للإسلام، بسبب حلقهم لِلحاهم؟!

وأمر لا يحتاج إلى برهان أنّني لا أعتقد بأن حَلقَ هؤلاء للحاهم حجة لمشروعيَّتِهِ!

---

٣٦) حريٌّ بي ههنا -دفعاً عن هؤلاء الفطاحل أن يُساء بهم الظن- أن أسجِّل هذه السطور القليلة بالنيابة عن هؤلاء العلماء الأجلاء، ولاشك لو أنهم كانوا كتبوها بأنفسهم لجاءَتْ أفضل وأوفى بالغرض.

أبتداءً فنحن لو رأينا خطأً أو قصوراً من أي شخص، نبادر دون خشية أو مواربة، بردِّهِ، وكذلك فعلنا.

وبدهي أن أحداً غير رسول الله ليس معصوماً من الخطأ، فالإنسان مهما علا قدرهُ، فهو معرَّض للزلل والخطأ.

ولكن فيما يخص العلماء الثلاثة الذين ذكرناهم، غفر الله لهم، وأعلى درجاتهم في العليين، كونهم لم يكونوا مُطلِقين للحاهم، فإضافة لما قلنا، يمكن أن يضاف إليه ما سنورده قريباً، فيما يخص هؤلاء الثلاثة أو غيرهم:

[١] إمّا أنهم أخذوا برأي الذين يعتبرون إطلاق اللِّحى سنةً، والسنة إذا أدَّت إلى حصول مفسدة يكون ضررها أكبر من ثواب السنة، أو إذا أدّت إلى زوال مصلحة، نفعها أكبر من تطبيق تلك السنة، فالحكم يتغيّر في هذه الأحوال.

[٢] أو أنهم كانوا على رأي الذين يعتبرون إطلاق اللِّحى في الأصل، من قبيل الأعراف والعادات الحسنة، وبتغيُّر تلك الأعراف بين الناس يكون حكمهُ قد تغيّر.

[٣] أو أنهم كانوا من أصحاب الأعذار الشرعية كالحساسية وبعض الأمراض الجلدية.

[٤] أو كانت لهم أعذار أخرى، فهذا الأستاذ ملا سعيد النورسي الكردي، يذكر في عدة مواضع من كتابه (كليات رسائل النور) في صدد هذا الموضوع، ثلاثة أجوبة على من سأله: لماذا لا تطلق لحيتك؟

أ- حلق اللحية محرَّم لمن يطلق لحيته ثم يَحلِقُها، ولكن الذي لم يلتحِ أبتداءً، فبالنسبة إليه غير محرّم، وأنا لم ألتح أبتداءً.

ب- لو كنت مُطلِقاً للحيتي، لَحَلَقها الجنود الأتراك، ولو فعلوا ذلك لقضيتُ نَحْبِي من الحسرة والحزن.

ج- لو كنت أعفيت لحيتي، كان تلاميذي وأصحابي ينسُجون على مِنوالي فيلتزمون به، وفي مثل تلك الظروف في تركيا -ولا يزال- كانوا سَيَتَعَرَّضُون لمتاعب كثيرة.

وأنا (علي باپير) أقول: لو أنهم كانوا خسروا أعمالهم في سبيل لحاهم، لكان ربحهم آتياً على رؤوس أموالهم، ولاشك أنّ عملاً كهذا مخالف لكثير من القواعد الشرعية، مثل:

١- دَفْعُ الْمَضارِّ مُقَدَّمَ عَلَى جَلْبِ الْمَنافِعِ.

٢- إحتمال أَخَفُّ الضَّرَرَين وأهوَن الشرَّين.

كما يفعل ذلك بعض التابعين لهم، لأن صفات النبي ﷺ، وأخلاقه حجة قاطعة تقوم على الناس، وليس العكس.

أيها الإخوة والأخوات! أَوَدُّ أن أقول لكم:

ليكن اهتمامكم بشيء ثانوي -نسبياً- كإعفاء اللحى، على قَدْر الإهتمام الذي يوليه الله ورسولُهُ في القرآن والسنة لذلك الشيء.

لذا لا تجعلوا الأمور تتفاقم بحيث تتغافلوا عن ذي لحية طويلة، لكن أعماله قليلة، أو أن تنظروا بعين الإزدراء لكثير من المسلمين، كونهم للحاهم حالقين.

ونحن لو أجرينا مقارنةً بين النصوص التي تناولت قضايا؛ العلم والتقوى، أو الصلاة، والقتال والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومكارم الأخلاق أو... أو... ومراتب القائمين على هذه القضايا الهامة، مع النصوص التي تناولت مسألة إعفاء اللِّحى، لَوَجَدْنا الفرق شاسعاً والبون واسعاً.

ثانياً: لئن كانت مسألة التدخين في زمن مضى -قبل اكتشاف مضاره- تحتمل النزاع حول حِلِّه وحُرمته، لاشك أن اليوم قد باتت حرمته واضحة لا لُبسَ فيها.[٣٧]

لكن هل يصبح شرب الدخان من قبل البعض، سبباً لازدراء تديُّنهم وعبادتهم، وأن يُوضَع عليهم علامة الضرب، في أجواء الضباب والدخان الذي هم فيه!!

فهل التدخين والربا، أو التدخين وتفويت الصلوات، أو التدخين والكذب أو الغيبة والنَّميمة، أو التدخين وعقوق الوالدين، أو التدخين والسباب وبذاءة اللسان، أو التدخين وقطع صلة الرحم...إلخ، من العدل أن يوضعا معاً في كفتي الميزان؟! بالطبع لا، لأن كلاًّ من هذه الذنوب، قد تضافرت نصوص القرآن والسنة عليها، ولا نزاع أصلاً في حرمتها، ومادام الأمر كذلك، دعونا نخضع لشرع الله ولا نخضع لطباعنا، فكما أنّنا لا نَعبِسُ في وجوه من يرتكبون هذه الكبائر، ولا نُسقِطهُم من عيوننا، فليكن خوفنا من شارب الدخان أيضاً على قَدْر الإثم الذي يستحقه الدخان نفسه، لا أننا إذا رأينا مُدخِّناً، غلب على ظننا أنه شخص لا خير فيه للإسلام والمسلمين!

٣٧) في رسالتنا: (المجاهد المسلم، أو المسلم المجاهد، مَن هو وكيف يكون؟) تناولنا موضوع التدخين.

واختتم النصيحة العاشرة بإيراد هذه المقاطع الثلاثة:

١- من منطلق أنَّ الآيات القرآنية قد تناهت في الصدق والعدل: [وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا]الأنعام/ ١١٥.

واستناداً إلى علم الله المطلق الذي لا تحدُّه الحدود: [ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ]الشورى/ ١٧.

إستناداً إلى كل هذا: دعونا نجعل القرآن والسنة ميزاناً لتقييمنا لأيَّة مسألةٍ أو موضوع، نوليه من الإهتمام والإعتبار، ونخصص له مساحة لإيضاحه، بحسب ما وولي من اهتمام، وخُصِّص له من مساحة في ذَينك المصدرين، ويجب أن تكون أهميته في الواقع أيضاً بحسبه.

وواضح جِدّاً على وفق هذه القاعدة، أن أسساً ودعائم مثل الإيمان والتقوى والتزكية والأخلاق الحميدة والقتال والجهاد والأخوة والتضامن...إلخ، ما هو موقعها ومدى أهميتها، وكذلك قضايا فرعية مثل: إعفاء اللِّحى والسّواك وإسبال الإزار أيضاً، ما هو موقعها وأهميتها، من وجهة الشرع!

٢- بغية معرفة الناس وتحديد نسبة التزامهم بالإسلام، علينا أن ننظر في عقولهم وقلوبهم، لأن الإنسان بِأَصغَرَيهِ ينفصل عن الحيوان ويختلفون عن بعضهم، ويتفاضلون فيما بينهم بما يستقر في قلوبهم.

تصور في ذهنك حقيبة مليئة بالمجوهرات والذّهب، وأخرى مليئة بالثياب البالية والرثة، أو بأشياء قذرة ونتنة، كلاهما حقيبة في مظهرها الخارجي، ولكن الفارق بين مضمونيهما كالفارق بين السماء والأرض.

نعم، إن البشر يختلفون ويتفاضلون فيما بينهم باللُّبّ والجوهر، فلنتأمل نحن أيضاً في جواهرهم وألبابهم، لا في مظاهرهم وأشكالهم.

وهذا الميزان هو الذي يُصبحُ مثار اهتمام الرب تعالى، كما يقول النبي ﷺ: ((إنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إلى صُوَرِكُم وَأَجْسَامِكُم، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إلى قلوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُم)). رواه مسلم: ٣٦٥، وابن ماجه: ٤١٣٣، وأحمد: ٧٤٩٣.

ولا نعني إهمال الشكل والمظهر بطبيعة الحال، أبداً، وإنما نعني أن يُعطى كلُّ شيء ما يستحق من الاهتمام، وأن يوضع في موضعه اللائق به.

٣- عندما نُقَيِّم تديُّن الناس ومدى التزامهم بالإسلام، وفق ميزان الله تعالى، فعندئذ سنتصرف بعدل واتِّزان، ولا نجعل أنفسنا عُرضةً للمواقف الجائرة وغير الناضجة، كما يُلاحظ على بعض المسلمين السُذّج والغافلين، الذين:

* تراهم أشداءً حداداً على (أهل القبور)[٣٨] ومتساهلين خانعين أمام (أهل القصور) مع أن سيئات هؤلاء وشرورهم أخطر أضعافاً مضاعفة من أولئك، ولئن تمكّن القبوريُّ من إغواء عدد من الصوفية والدراويش من العوام والدَّهماء، فإنَّ القصوريّ بفعل المكائد التي يَحيكُها قد تطال فتنتهُ الآلاف، بل قد تؤدِّي إلى تشريد شعب بأسره وتحطيمه.

* يعلنون حرباً حماسية لا هوادة فيها على البدع الصغيرة، كقراءة الفاتحة للأموات في مجالس العزاء، والصلوات بعد الأذان، والذكر الجماعي، عَقِب الصلوات، ولكنهم لا تعنيهم -من قريب أو بعيد- بدعاً كبيرة خطيرة كـ: الحكم بغير ما أنزل الله، والإستسلام للكفار والإلتزام بسياسة الغرب بقيادة أمريكا، والدكتاتورية والإستبداد، حكم العوائل المالكة والعشائر، فهذه قضايا يتصاممون عنها!!

* يُخَصِّصُون تحقيقات قدداً ومباحث عدداً، لإيضاح مسائل كـ(ضرب الوَشْم، ونَتْفِ الشَّعر)، لكنهم يُعرِضون صَفْحاً، عن: (ضرب الناس، واقتلاع رؤوسهم)!

وزبدة القول:

ألاّ نهتزّ طَرَباً، أو نرفع الراية البيضاء، برؤية حسنة أو حسنات صغيرة، ولا أن تستميلنا الأحزان ونُستثارَ برؤية سيئات صغيرة.

ولنتأسّى بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، في حصافته ودقّة نظره في معرفة

٣٨) المقصود بهم الذين يتوجهون بدعائهم واستغاثتهم إلى قبور بعض الصالحين بدل التوجه إلى الله تعالى، فيُوقِعون أنفسهم في أخطاء عظيمة وشرك أكبر وأصغر.

الأشخاص حيث يُروى أنه سمع ذات يوم رجلاً يمدح آخر ويُثني عليه وعلى صلاحه وتقواه، فسألَهُ الخليفة: وهل تعرفه حتى تمتدحه هكذا؟

فقال الرجل: نعم أعرفه، فقال: وكيف معرفتك له، هل جمعك معه سفر، فتبيَّن لك خلقه وطباعه، أو جَرَتْ بينكما معاملة، فَخَبُرْتَ نزاهته وصِدقَهُ، أو كان جارك، وفي الجوار يظهر السِّرُّ والعلانية بين المتجاورين؟! كل هذا والرجل يقول: لا.

فقال له الخليفة: إذاً ما عرفته، ربما رأيته في المسجد يُرَنِّح رأسَهُ في صلاته، فقال: نعم، فقال: لا يُعرف المَرءُ بهذا.

ولنجعل من الأركان والأسس الإسلامية المهمة ميزاناً ومقياساً، نتبيّن على هداها معرفة أنفسنا والآخرين، ونُقَيِّم مدى تديُّننا وتديُّن الآخرين، حتى لا نُخطيء في تقييماتنا، فنضرب صفحاً عن ذكر أناس صالحين، بسبب أخطاء وهفوات هَيِّنة، ونَحتَفي بأناسٍ طالحين مُفرَّغين عن المحتوى، فنعتبرهم للحسنات أهلها وأحقّ بها!

والضمان الذي لا محيد عنه لتلاقي وقوعنا في الخطأ، أن نَتَّخِذَ من شرع الله ميزاناً نحتكم إليه، ولا نحتكم إلى أمزجتنا وطباعنا.

ندعوا الله تعالى، بِمنِّه وكَرَمهِ، أن يُرينا الحقَّ حقّاً، ويُعِيننا على اتِّباعهِ، ويُرينا الباطِلَ باطلاً، ويُعيننا على اجتنابه.

المبحث الحادي عشر

النصيحة الحادية عشرة

بعض الأداب الضرورية لطلبة العلوم الشرعية، في المجالات المتعلقة بـ(النفس والعلم والشيخ) [٣٩] :

أحبائي القراء!

سنحاول-بعون الله تعالى- أن نَعرِضَ-في هذا المبحث- أهمَّ الآداب والأخلاق والصفات الباذخة والفُضلى، والتي يحتاجها المسلمون عامة، وطلبة العلم خاصة، لأنها ضرورية، وتستحيل ظهيراً للعلم، وباعثاً على إشاعة البركة فيه، في المجالات الثلاثة المذكورة.

أولاً: في مجال العلاقة مع النفس:

١- الإخلاص وتجريد النية والقصد، والتَوَقّي من الرياء:

لاشك أن النية تعتبر الأساس للقيام بأي عمل، والنصوص على هذا متضافرة، قال تعالى: [وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ]البينة/ ٥.

كما أن الله تعالى صرّح بأنّ الإخلاص والتجرُّد، يبعث على هداية الله وتصويبه لأعمالهم: [وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ]العنكبوت/ ٦٩.

وقد أولى علماء السلف النية، الإهتمام الأعظم، وفَصَّلوا الحديث فيها:

فهذا سفيان الثوري يقول: «ما عالجت شيئاً أشدّ عليَّ من نيَّتي». [٤٠]

والإنسان معافى ومحفوظ الجانب، على قَدَرِ نيته وتجرده وبراءته من حب الظهور، لأنك إذا أيقنت برؤية الله لك، لم تُعِرْ اهتماماً أن يراك هذا وذاك.

---

٣٩) لكتابة هذا البحث، أستفدت أيَّما استفادة من كتاب: (معالم في طريق طلب العلم) لمؤلفه عبدالعزيز بن محمد السّدحان، جزاهُ الله خيراً.

٤٠) يُنظَر: (تذكرة السامع والمتكلم) لابن جماعة ص٦٨ في (معالم في طريق طالب العلم) ص١٩.

٢- تحقيقُ العبودية لله:

إن الهدف من وراء تعلُّم العلوم الشرعية، هو العبودية لله والتقرب إليه، لذلك كان لزاماً على أهل العلم، طلاباً وأساتذة، أن يُعرَفوا ويُميَّزوا بين الناس بعبادتهم الخالصة لربهم، عبادة لا تَشُوبُها شائبة أو كَدَر، ونحن نعني بالعبودية أنها غاية التعظيم والحب والخضوع لله.

هذا هو المعنى والمفهوم الواسع والحقيقي للكلمة، على غرار ما أوضحناه في عدة من كُتُبنا.[٤١]

٣- الحفاظ على الوقت والعمر من الضياع والذهاب أدراج الرياح:

حقاً إن العمر رأس مال الإنسان، وما من أحد يستطيع القيام بأيّة تجارة، دون أن يكون له رأس مال.

ولْنُمْعِنِ النَّظر في بعض الأقوال المأثورة لعلماء السلف، فياتُرى ماذا قالوا؟ ولننظر إلى بعض أعمالهم، ماذا عساهم فعلوا؟

أ) يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى:

«يابن آدم، إنما أنت أيّام، كلما ذهب يومٌ ذهب بعضُك!».

ب) ويقول خليل بن أحمد الفراهيدي:

«الوقت ثلاثة أقسام، وقت مضى عنك ولن يعود، ووقت أنت فيه، فانظر كيف يخرج عنك، ووقت أنت منتظره، وقد لا تصل إليه».

ج) لو أن ما كتبه أبوجعفر محمد بن جرير الطبري من صفحاتٍ، قُسِّمَت على أيام حياته، من يوم ولادته وحتى وفاته، كانت حصة كل يوم (٦٠) صفحة.

د) الإمام النووي، الذي عاش (٤٥) سنة فقط، بالإضافة إلى أنه كان يُلقي يومياً اثني عشر درساً، فإنه أَلَّف (المجموع: شرح المهذب) و(شرح صحيح مسلم) وكلا الكتابين يتكون من (١٠-١٥) مجلداً، وهو صاحب العديد من

٤١) يُنظَر: الكتاب العاشر من موسوعة: (الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله) والكتاب الثاني من موسوعة: (العبادة في الإسلام).

الكتب الضخمة والصغيرة الأخرى مثل: (تهذيب الأسماء واللغات) و(روضة الطالبين) و(رياض الصالحين) و(الأربعين) و(التبيان في آداب حملة القرآن) ...إلخ.

هـ) عبدالله بن محمد: فقيه العراق: قرأ كتاب المغني لابن قدامة ثلاثاً وعشرين مرة وهو ما بين ١٠-١٥ مجلداً ضخماً.

و) الإمام إسماعيل الجرجاني: كان يكتب كل ليلة (٩٠) صفحة بخط جميل وصغير.

وبطبيعة الحال، فإنَّ القيام بهذه الأعمال الكبيرة والمهمة تَتَطَلَّبُ حفاظاً على لحظات العمر الغالية، وبُخلاً في صرف الأوقات.

ثانيا/ في مجال العلاقة بالعلم:

١- السعي لطلب العلم صغيراً وفي مقتبل العمر:

لاشك أنَّ أي إنسانٍ بمقدوره التمتُّع بفرصة أكبر لاستيعاب العلم جيداً، قبل أن يدخل معترك الحياة، ويصبح مع مشاغلها وشؤون البيت والعائلة وجهاً لوجه، ولهذا يقول عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «تفقَّهوا قبل أن تُسوَّدوا» رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به، ولا يعني هذا بالبداهة، أن الإنسان الكبير في السن لا يطلب العلم، لكنَّ طَلَبُهُ صغيراً، لاشك أجدى نفعاً.

وقد قال الإمام البخاري دفعاً لأن يُساءَ الفهم لقول سيِّدنا عمر رضي الله عنه: «وبعد أن تُسَوَّدوا، وقد تعلَّم أصحابُ النبي ﷺ في كِبَرَ سنِّهم».[٤٢]

والمعلومة التي تؤخذ في سنِّ اليفاعة، أكثر استقراراً في الخاطر وثَباتاً في الفؤاد، وفي هذا المعنى يقول الحسن البصري: «طلب الحديث في الصِّغَر كالنَّقش على الحَجَرِ».[٤٣]

---

٤٢) يُنظَر: (الفتح) ج١ ص٩٩١.

٤٣) يُنظَر: جامع بيان العلم وفضله، ص٩٩.

٢/ العمل بقاعدة الأهم فالمهم:

كما أسفلنا في المبحث الثاني في هذا الفصل، فإنّ مراعاة ترتيب الأولويات لطالب العلم يعتبر من الأهمية بمكان، وبدون ذلك يكون عمله عُرضةً للبوار والخسران الشديد، وقد سبق لنا بحث هذه القضية، لذلك سنكتفي بإيراد هذه الواقعة المفعمة بالمعنى:

ذهب إبن جُريج في بواكير طلبه للعلم إلى مجلس عطاء بن السائب، وفيه أبو عمير، وكان من الأئمة، فقال له: هل قرأت القرآن؟[٤٤] قال: لا، قال: فاذهب فاقرأ القرآن، ثم اطلب العلم، يقول: فذهبت إلى أن أكملت قراءة القرآن، ثم أتيتُ عطاءً مرة أخرى، وكان في مجلسه عبدالله، فسألني: هل تعرف الفرائض؟[٤٥] فقلت: لا، قال: فاذهب وتعلَّم الفرائض ثم اطلب العلم، يقول: فذهبت زمناً أتعلَّم الفرائض ثم رجعت إليه، فقال: الآن خذ العلم، يقول: فَلَزِمتُ (عطاءَ بن السائب) سبع عشر سنة لا أُفارِقُهُ.

٣/ العمل بالعلم:

العمل والتخلُّق بأخلاق العلم، يَهَبُ له رسوخاً وجلالاً، وأمّا علم لا يرافقه عملٌ، فلا يكون إلاّ عاملاً للضعف والخور، وجالباً لغضب الله ذي الإنتقام، كما يقول تعالى:

[كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ] الصف/ ٣.

وفي هذا يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [العلم يَهتِفُ بالعمل فإنْ أجابَهُ وإلاّ ارتحل].

ويقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: [كان الرجل منّا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوِزهُنَّ حتى يعرف معانيهن والعمل بهن].

---

٤٤) المقصود هو حفظ القرآن وليست القراءة المجردة.

٤٥) المقصود بالفرائض هم معرفة الحلال والحرام وأساسيات الإسلام.

٤/ الكدُّ والسَّهَر والإصرار وعدم اليأس:

وهذه من العلائم البارزة والصفات الضرورية التي جُعِلت شرطاً لطالب العلم الشرعي، وقد قال العلماء: «العلم لا يعطيك بَعضَهُ حتى تعطيه كُلَّك».

ويقول الرسول ﷺ: ((إنَّما العِلْمُ بِالتَعَلُّمْ، وَإنَّما الحِلْمُ بِالتَحَلُّم، وَمَن يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرّ يُوقَهُ)) أخرجه الخطيب والدار قطني والطبراني وصحّحه الألباني في: صحيح الجامع: ٢٣٢٨، والسلسلة الصحيحة.

وفي قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح الذي وهِبَ علماً خاصاً -وأكثر العلماء على أنه (الخضر)[٤٦]- عبر وعظات جليلة:

فموسى عليه السلام رغم منْزلته وسنِّه، عندما يعلم بوجود شخص، له من العلم ما ليس عنده، لا يَدَّخِرُ وُسعاً ولا وقتاً، فيتزوّد بالزاد لطريقه، ويعقد العزم للوصول إليه، مهما كلَّفه من ثمن ومن مشاقّ: [وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا]الكهف-٦٠-.

٥/ الإلتزام بحضور الدروس في وقتها، وإعادة الدروس التي فاتته:

في المأثور عن السلف: «العلم يؤتى ولا يأتي».. ولهذا يلزم طالب العلم الحضور إلى الدرس وألاّ يَدَعَ درساً يفوته، فإنْ فاته، فعليه تعويضه ما أمكنه ذلك.

ويروى عن الشعبي أنه سئل: كيف حصلت على كل هذا العلم؟!

فأجاب قائلاً: «بترك الإعتماد[٤٧] والسير في البلاد، وصبر كصبر الحمار، وبكور كبكور الغراب».

٦/ كتابة رؤوس المواضيع الجوهرية والنّكات المهمة:

هذه ايضاً من الآداب الأساسية لطلبة العلوم الشرعية، وعامل مهم لنجاحهم،

٤٦) يُنظَر: تفسير القاسمي ج١١ ص٧٥.

٤٧) الإعتماد: الإستناد على شيء عند الجلوس، وهو علامة الكسل وعدم النَّشاط.

وبلوغهم الغاية المرجوة، وقد أحسن مَنْ قال: «قَيِّدوا العلم بالكتاب».[48]

ولا جرم أن تسجيل النكات الجوهرية ورؤوس النقاط، ليس خاصاً بوقت الدرس وحسب، بل يُستفاد منه أيضاً أثناء المطالعة ومدارسة الكتب والسّماع... الخ. ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي..»

٧/ التحقيق المُوَسَّع والبحث المُعَمَّق وعدم الإكتفاء بالدرس:

وهذا-كذلك- من الآداب والصفات المهمة لطالب العلم، لأن الأستاذ في الواقع إنْ هو إلاّ فاتح لباب العلم، ولابُدَّ للطالب أن يصرف جهده بنفسه في البحث والتعمق والضَّرب في الأرض، وما كان قول القائل جُزافاً: «مَنْ جَدَّ وَجَد» وأنا أقول: «من دَقَّقَ حَقَّقَ»، و «مَنْ تَحَصَّلَ وَصَلَ».

٨/ الإمساك عن الكلام دون علم:

وهذا من الآداب والصفات المهمة جداً، لأهل العلم طلاباً ومعلِّمين، وقد تضافرت عليه الآيات من جهة، وأقوال السلف من جهة أخرى، كما قال الله الحكيم:

[قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ]الأعراف/ ٣٣.

كما ترون: فإن القول في دين الله دون علم، يصنف ضمن الكبائر، ما ظهر منها وما بطن، والظلم والتعدِّي، والإشراك بالله تعالى، بل لقد عَدَّ بعض المفسِّرين الكلام في دين الله بغير علم، أَشَدَّ وأقبَح من تلك الذنوب، لأن الله-كما يقول هؤلاء العلماء- صَنَّف هذه الكبائر من الأذى إلى الأعلى.

وقد تحدَّث العلماء حول هذا بما لا مزيد عليه، ولنأخذ بعض الأمثلة:

---

٤٨) رواه الخطيب في (تأريخ بغداد)، وابن عبدالبّر في (جامع بيان العلم)، وصحّحه الألباني في (صحيح الجامع).

أ- يقول ابن جماعة:[٤٩] إذا سُئِلَ عمّا لا يعلمه قال: لا أعلمه، أو لا أدري، فَمِن العلم أن يقول: لا أعلم، وعن بعضهم: لا أدري نصف العلم.

ب- ويقول عبدالله بن عباس ﵄: «إذا أخطأ العالم (لاأدري) أُصيبت مقاتله».[٥٠]

ج- وقد أحسن أبوحامد الغزالي بقوله: لو سكت من لا يعرِف، قلَّ الإختلاف، ومَن قَصُرَ باعُه وضاق نَظَرُه عن كلام علماء الأمة والإطِّلاع عليه، فما له وللتكلُّم فيما لا يدريه والدخول فيما لا يعنيه؟ وحق مثل هذا أن يَلزَم السكوتَ.[٥١]

د- سأل رجل عمرو بن دينار عن مسألة، فَلَم يُجِبهُ، فقال الرجل: في نفسي حول هذه المسألة شيءٌ فأَجبني، فقال عمرو: إن يكن في نفسك منها مثل أبي قُبَيس، أَحبُّ إليَّ من أنْ يكون في نفسي منها مثل شعرة.[٥٢]

٩/ المثابرة والمداومة على طلب العلم:

يأمر الله نبيه ﷺ بقوله: [وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا]طه/ ١١٤. ويقول النبي ﷺ: ((مَنْهُومان لاَ يَشبَعانِ؛ طَالِبُ عِلمٍ وطَالِبُ دُنْيَا)) رواه (الطبراني في الكبير): ١٠٣٨٨، والشاشي في المسند:٦٩٢، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب.

والآن لنلقي نظرة إلى أحوال العلماء بهذا الصدد:

أ- سأل أحدهم سقراط: كيف حصلت على علمك الضخم هذا؟ فقال في الجواب: لقد استعملتُ الزَّيت بِقَدر شُربك للماء.[٥٣]

ب- وسئل عبدالله بن المبارك المزوري: لو أنّك عُدتَ حياً بعد موتك، ماذا كنت ستفعل؟ فقال: أَطلُبُ العلم حتى يأتيني مَلَكُ الموت ثانية.[٥٤]

---

٤٩) معالم في طريق طلب العلم ص٢٠٥.

٥٠) المصدر نفسه ص٢٠٥-٢٠٦.

٥١) يُنظَر: الآداب الشرعية ج٢ ص٦٤ إبن المفلح.

٥٢) يُنظَر: الحاوي للفتاوي ج٢ ص١١٦ للسيوطي.

٥٣) في ذلك الزمان كان الزيت يستعمل مكان النفط والشموع في الإنارة.

٥٤) يُنظَر: معالم في طريق طلب العلم ص٢٨٠.

ج- وعندما سئل الإمام البخاري عن علاج النسيان، قال: مداومة النظر في الكتب.(٥٥)

د- ويقول ثعلب -وهو من أئمة اللغة- في إبراهيم الحربي: ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس نحوٍ أو لغة، خمسين سنة.(٥٦)

ثالثاً/ في مجال العلاقة مع الأساتذة والشيوخ:

١- إحترامهم والتأدُّب معهم والإعتراف بفضلهم، واعتبار الطالب نفسه مُفتَقِراً لعلم الشيخ:

وهذا من أهم السجايا والآداب الواجبة مراعاتها لطالب العلم مع أستاذه وشيخه، لأن للشيخ مَنْزِلةً ومقاماً كبيرين، كيف وهو ينوبُ عن النبي ﷺ، فيجب على طُلاّب العلم أن يكونوا مع شيوخهم، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ مع نبيهم ﷺ، سوى ما كان معدوداً من خصائص النبوة.

ولنا في سيدنا موسى عليه السلام أسوةٌ حسنة، في أدبه واحترامه وإجلاله لأستاذه، في طلبه العلم الشرعي، كيما يقتفوا أثره ويَنسِجوا على مِنواله، ولْنتأمَّلهُ عليه السلام وهو يحاور الخضر:

[فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾]الكهف/ ٦٥-٧٠.

وكما يلاحظ في سياق الآية، فقد تحلَّى موسى بآداب العلم، وما ينبغي ان يكون عليه طالب العلم:(٥٧)

---

٥٥) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

٥٦) يُنظَر: معالم في طريق طلب العلم ص٢٨١.

٥٧) يُنظَر: تفسير القاسمي ج١١ ص٦٢، ٦٣.

١- (هَلْ أَتَّبِعُكَ) أي: هل تأذن لي أن أكون لك تابعاً؟! إنَّه منتهى التواضع وإظهار الإلتماس.

٢- (عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي) وهذا فيه: اظهار الحاجة للعلم، وإقرارٌ بعلم الشيخ، وبصراحة وبدون لف ودوران ولا غمغمة.

٣- (مِمَّا عُلِّمْتَ) وهذا إقرارٌ بأن علم شيخه أكبر من أن يستوعبه الطالب، لأن (مِنْ) للتبعيض.

٤- (رُشداً)[٥٨] أي: من علمك النافع والصادق والصائب، وهذا إقرارٌ بأنَّ ما عند شيخه مِن علم-بالأوصاف المذكورة- هو علم موثوق فيه.

٥- وعندما يُخبِرُه العبد الصالح بأن طريق الحصول على علمه، طريق خاص وعسير، وربما يعجز موسى أن يُحصِّلَهُ ويتحمَّل لأْواءَه، يَعرضُ عليه موسى- بأدب جم- خيارات ثلاثة:

٦- أعدُكَ أن أكون صابرا: [سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا]، والصبر مع الأستاذ يشمل في طياته أشياء كثيرة، وليس خاصاً بشأن دون شأن.

٧- [إِنْ شَاءَ اللَّهُ] فبدون مشيئة الله، لا يكون شيء ولا يتحقَّق أمرٌ، ولِزامٌ على الطالب أن يَلزَم جانِبَ الصَّمت، حتى لو رأى ما لا يقتنع به، أو ما لا يُحيطُ به عِلمهُ، ما لم يكن مخالفاً للشرع صراحةً.[٥٩]

٢- حُسنُ الإستماع إلى الأستاذ وعدم مقاطعته:

وهذه سجية أساسية أخرى يجب على طلاب العلم التحلّي بها مع أساتذتهم ومعلِّميهم، وعلى الطالب ألاّ يتشاغل بأي شيء، حال إلقاء أستاذه للدرس، وأن يتحوّل بكُلّيته إلى آذان صاغية وعيون مبصرة.

٥٨) (رشداً) إما مفعول به ثان أو مفعول لأجله أو حال.

٥٩) ولذلك أعترض موسى عليه السلام على التصُّرفات الثلاثة التي قام بها الخضر، التي خالفت في ظاهرها الشرع.

ولنتأمل حلقة درس لأحد أئمة السلف، لنعرف كيف كان أدب الطلاب فيها:

فقد روى أحمد بن سنان، عن حلقة عبدالرحمن بن مهدي: [٦٠]لم يكن أحد ليتحدَّث في حلقة عبدالرحمن بن مهدي، ولم يكن أحد يَبري قَلماً، ولا يَتَبَسَّم فيها أحد، ولا يُرى أحد قائماً، كأنَّ على رؤوسهم الطير، أو كأنّهم في صلاة، كان لو أبصر أحدَهم يَضحَك، أو يتكلَّم، يَلبس حِذاءه ويَنصرفُ من الحلقة.

وكذا عدم مقاطعة الأستاذ أو الشيخ، يُعدُّ أدباً وخُلُقاً رفيعاً يجب أن يَتَجَمَّل به طَلَبةُ العلوم الشرعية، لأن مقاطعة أي إنسان أو التحدُّث حال حديثه، أمر يُخالِفُ مقتضى الأدب والإحترام، وخصوصاً إذا كان ذلك مع العلماء والأكابر.

وفي وجوب التأدب مع العلماء واحترامهم يقول الرسول ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغيرَنَا، وَيَعْرِفُ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)) رواه أحمد: ٢١٦٩٣ والحاكم والترمذي بلفظ قريب منه.

ولذلك عندما كان رسول الله ﷺ مشغولاً في إلقاء خطبته وسأله أعرابي: متى الساعة؟! أَعرض النبيُّ ﷺ عن إجابته ومضى في خطبته، تأديباً وتعليماً، ثم قال: أين السائل عن الساعة؟.

والإمام البخاري أورد هذا الحديث في جامعه الصحيح تحت عنوان: (بابٌ: من سئل علماً وهو مشتغل في حديثه، فَأَتَمَّ الحديث). [٦١]

٣/ السؤال بمنتهى الأدب والإحترام:

ومن الصفات الضرورية والأخلاق اللازمة لطالب العلم، أن يظهر أدباً واحتراماً لائقاً وهو يسأل أُستاذه، ويحلو لي أن أَسرد لكم -بهذا الصدد- هذه الواقعة اللطيفة:

روى الذهبي أن الإمام مالك عندما كان يوماً يلقي الدرس في حلقته، وُجِّهَ إليه

---

٦٠) يُنظَر: معالم في طريق طلب العلم ص٦٢.

٦١) فتح الباري ج١ ص١٧١.

سؤال عن (الفرائض) فأجابه الإمام وفقاً لرأي (زيد بن ثابت).

وانبرى اسماعيل بن بنت السُدّي قائلاً: وما هو رأي عليّ وابن مسعود؟

فأشار مالك للحُجّاب أن يقبضوا عليه، ففرَّ إسماعيل قبل أن تطاله يد الحرس.

ثم قال الحراس لمالك: ماذا نفعل بكتابه ومحبرته التي تركها؟ فقال: أذهبوا فأعيدوه برفق، وعندما ذهبوا في أثره رجع معهم، وسأله مالك: من أي بلد أنت؟ فقال: من الكوفة، فقال مالك: فأين تركت أدبك؟ فقال: إني سألتك لأستفيد من علمك، فقال مالك: لا جرم أن عليّاً وابن مسعود، لا يُجحد فضلهما ومنزلتهما، ولكن أهل هذه البلاد-في هذه المسألة- على مذهب زيد بن ثابت، وإذا كنت في مجلس وَعَرَضْتَ لهم ما نَكِرَتهُ مسامِعُهُم، أروْك موقفاً لا يَسُرُّك.

٤/ الإستفادة من أخلاق الشيخ وتعامله إضافة إلى علمه:

لاشك أن العلماء والأساتذة، ينبغي أن يُرى عملهم باهراً فيتجسد فيهم، ولهذا فمن الواجب على الطلاب أن لا تنحصر غايتهم في تلقِّي العلم عن شيوخهم وحسب، وإنما عليهم ألاّ يَدَّخروا وسعاً من الإغتراف من معين أخلاقهم.

فالعلم قد يمكن تحصيله من الكتب، لكن الأدب والخلق الرفيع لايمكن اكتسابه بالصورة المطلوبة، إلاّ من خلال رؤيته مترجماً في تصرفات إنسانٍ بلسان الحال لا بلسان المقال، وقيل: ليس الخبر كالمعاينة.

ولذلك فكثيراً من طلبة العلم الذين كانوا يشدّون الرحال إلى الشيوخ للتتلمذ على أيديهم، كانوا يعنون أساساً الإستفادة من أدبهم وصفاتهم وسلوكهم.

وهذا الإمام السّمعاني يقول:

«كان يحضر دروس الإمام أحمد بن حنبل نحو خمسة آلاف، وإنه كان يكتب فيهم نحو خمسمئة، أما البقية فتتعلم منه الأخلاق والأدب..»

وقال أبوبكر المطوعي: «ترددت على أبي عبدالله اثنتي عشرة سنة، وهو يدرس (المسند) لأبنائه، ما كنت أكتب شيئاً، وإنما كنت أتملّى في آدابه وصفاته وأخلاقه.

٥/ الأدب مع الله تعالى، ونبيه ﷺ والصحابة والعلماء، والأئمة رحمهم الله:

ومن صفات أهل العلم وطلبته، أنهم لايذكرون الله تعالى إلاّ مع ما يليق بجلاله من ألفاظ التعظيم والحرمة والإجلال، فلا يذكرونه إلاّ مقترناً بصفة من صفاته تعالى، كقولهم: الله الخالق، الله المعطي، الله العظيم،...إلخ. أو أن يقال: تبارك وتعالى، سبحانه وتعالى، جل جلاله...إلخ.

وأن يقال صلى الله عليه وسلم أو صلى الله عليه وآله وسلم، عند ذكر النبي ﷺ أو أحد من أنبياء الله عليهم السلام، وأن يتحاشى اختصار هذه الجملة بـ(ص) أو (صلعم) قولاً وكتابة.

وكذلك الترضِّي على صحابة رسول الله ﷺ بجملة (رضي الله عنه) و (رضي الله عنها) أو (رضي الله عنهم) قولاً وكتابةً حسب المناسبة.

ومثل ذلك الترحُّم على الأئمة والعلماء والصالحين، بقول: (رحمه الله) أو (رحمة الله تعالى عليه).

ويجوز أن يذكر هذه الألفاظ بأية لغةٍ كانت، على أن تُعَبِّر عن المقصود.

المبحث الثاني عشر

النصيحة الثانية عشرة

آداب طلبة العلم وسلوكهم في مجال تعاملهم مع المجتمع والأقارب:

يتكون هذا المبحث-الأخير- من فقرتين رئيسيتين:

الأولى/ آداب طلبة العلوم الشرعية في مجال تعاملهم مع المجتمع.

الثانية/ آداب طلبة العلوم الشرعية في مجال تعاملهم مع أقاربهم ومعاشرهم.

الفقرة الأولى: السجايا والآداب اللاّزمة لطلبة العلوم الشرعية، في مجال التعامل مع المجتمع:

١- تطهير القلب من الأحقاد والضغائن:

يجب على المسلم أن يُطهّر قلبه من الحقد والضغينة، امتثالاً لقول الله تبارك وتعالى: [يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ]الشعراء/ ٨٨-٨٩.

وتطهير القلب من تلك الأرجاس آكد في حق طلبة العلم، الذين تقع على عاتقهم مسؤولية إزالة هذه الأمراض الفتاكة في نفوس الناس، وقد قيل قديماً: «كلام اللسان تتلقاه الأُذن، وكلام القلب يتلقّاه القلب»، ومهما كان مصدر الماء طاهراً وطيّباً، كان الماء عذباً وفُراتاً.

٢- التواضع:

يقول الرسول ﷺ: ((بِأَنَّهُ أُوحي إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أحدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغي أَحَدٌ عَلَى أَحَد)) رواه مسلم: ٥١٠٩.

وعرّف إبن القيِّم(٦٢) التواضع بأنه: «إنكسار القلب وخَفضُ جناح الذل والرحمة للخلق حتى لا يرى له على أحدٍ فضلاً، ولا يرى له عند أحدٍ حقاً بل يرى الحق له».

٦٢) يُنظَر: معالم في طريق طلب العلم، ص١٦٦-١٦٧.

٣- الحِلمُ والرِّفق التأنِّي:

وهذه أيضاً من السجايا والصفات الفضلى لطلبة العلم مع الناس.

وفي هـذا يقـول جلّـت عظمتـه: [خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ]الأعـراف/ ١٩٩-٢٠٠.

يقول إبن كثير في تفسير هاتين الآيتين: (٦٣)

[وقال بعض العلماء: الناس رجلان:-

أ- فرجـل مُحسِـن فَخُـذْ مـا عفـا لـك مـن إحسـان ولا تُكلِّفـهُ فـوق طاقتـه ولا مـا يُحرِجُـهُ.

ب- وإمـا مسـيئٌ، فَمُـرهُ بالمعـروف، فـإن تمـادى عـلى ضلالِـهِ واسـتعصى عليـك واسـتمرَّ في جهلـه فأعـرِض عنـه، فلعـلّ ذلـك أن يـردّ كِـبرَهُ].

وأنا أقول:

وإن ظـلَّ مسـتمراً عـلى جهلـه، واصابـك بحالـة مـن الثـورة والغضـب، فاسـتعذ بـالله، فـإن ذلـك مـن همـزات الشـيطان، لأن الله تعـالى عـالم بخديعتـه ومكـره، وسـميع لدُعائـك واسـتعاذتك بجانبـه.

يـروى أن رجـلاً وقـع في جـدال مـع الأحنـف بـن قيـس فقـال لـه: لـو قلـت لي كلمـة لأسـمعتك عـشراً، فقـال لـه الأحنـف: ولكنَّـك لـو تكلَّمـت عـليَّ بعـشر كلـمات، مـا سَـمِعتَ مِنِّـي كلمـة واحـدة. (٦٤)

٤- البشاشـة والتلطـف في الحديـث مـع النـاس برحابـة صـدر ودرايـة لمعـالم مشـاكلهم:

وممّـا ينبغـي أن يتحـلَّى بـه أهـلُ العلـم مـع النـاس، أن يكونـوا عـلى أدب وأخـلاق فاضلـة معهـم، وهكـذا كان سـلَفُنا الصالـح، ولهـذا اسـتفاد منهـم الصالـحُ والمسيءُ والقـاصي والـداني.

٦٣) يُنظَر: تفسير إبن كثير ج٢ ٢٨٩، ٢٩٠.

٦٤) يُنظَر: سير أعلام النبلاء.

فمثلاً: قيل في وصف مالك: كان الإمام مالك رحمه الله تعالى، يأتي المسجد، فيشهد الصلوات والجمعة والجنائز ويعود المرضى، ويجلس في المسجد فيجلس إليه أصحابه.

وكذلك قيل في وصف (عمرو بن الحارث المصري): كان يخرج من داره، فيرى الناس صفوفاً يسألونه عن القرآن والحديث والفقه والشعر والعربية والحساب.(٦٥)

٥- الحذر من كل ما يخدش المرؤءة:

على أهل العلم أساتذةً وتلاميذاً، أن يكونوا في القمة من الرجولة والشهامة، وأن يتجنَّبوا كلّ ما لا يتفق مع مقتضيات الشخصية الرزينة أو يلحق بها الضرر.

ولاشك أن هناك أشياء كثيرة وعديدة، تُعدُّ إخلالاً بالرجولة وخَرقاً للكرامة، وللعادات والأعراف الإجتماعية علاقة من قريب في تحديد تلك الخوارم، حيث تَتَغيَّرُ بعضها من زمان ومكان إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى.

وقد أحسن الإمام الشافعي -رحمه الله- في وصف هذا المعنى حيث يقول:(٦٦)

«والله لو علمتُ أنَّ الماء البارِدَ يثلَمُ من مروءتي شيئاً، ما شَرِبتُ إلاّ حارّاً».

٦- إنجاز أعمال الآخرين ومعالجة قضاياهم:

إن من أجلى الأخلاقيات اللازمة للمسلم عموماً ولأهل العلم بالخصوص، هي أن يكونوا سُعاة يَغُذّون السير ويَستَحِثّون الخُطى في تَضامُنهم مع الناس وإبداء الإهتمام بقضاياهم، ولا غرو، فلابدّ أن يكونوا ملاذ الناس ومَوْضِع ثقتهم، وفي هذا يقول الرسول الكريمﷺ ((إشْفَعُوا تُؤجَرُوا)) رواه البخاري: ١٣٤٢.

يقول الإمام النووي رحمه الله في كتابه الأذكار:

«ويستحب الشفاعة إلى ولاة الأمر وغيرهم من ذوي الحقوق، ما لم تكن في حد أو في أمرٍ لا يجوز تركه، ففيه حثٌّ على الشفاعة ودلالة على عِظَمِ ثوابها، والأمر للنَّدب ورُبَّما يعرض له ما يُصَيِّرُ الشفاعة واجبة».(٦٧)

---

٦٥) المصدر السابق ج٨ ص٦٤.

٦٦) يُنظَر: مناقب الشافعي للرازي.

٦٧) يُنظَر: فيض القدير ج١ ص٥٢٥.

ويقـول الرسـول ﷺ: ((مَـنْ نَفَّسَ عـنْ مُؤمِـنٍ كُرْبَـةً مِـنْ كُـرَبِ الدُنْيَـا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَـةً مِـنْ كُـرَبِ يَـوْمَ القِيَامَـة، وَمَـنْ يَـسَّرَ عَـلَى مُعْسِرٍ، يَـسَّرَ اللهُ عَلَيْـهِ فِي الدُنْيَـا والآخِـرَة)). رواه مسـلم: ٤٨٦٧، والترمـذي: ١٨٥٣، وأبـوداود:٤٢٩٥.

٧- إنتهـاجُ أوضـح الطـرق وأيسرهـا وأكثرهـا مُلاءَمـةً في نـشر العلـم وتركيـز الإهتـمام لإفهـام المقابِـلِ لا إظهـار العلـم لـه:

أمـر الله جـل في عـلاه أنبيـاءهُ عليهـم السـلام أن يخاطبـوا النـاس بصراحـةٍ ووضـوح لا لَبْـسَ فيـه، وهـم يُبَلِّغـون حقائـق هـذا الديـن؛ [وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ] النـور/ ٥٤.

إن علـماء السـلف رغـم عميـق علمهـم وتَوَغُّلهـم فيـه، فـإنَّ أُسـلوبهم في إيصـال العلـم، كان سـهلاً واضحـاً لا تعقيـد فيـه، خلافـاً لكثـير مـن المتأخِّريـن الذيـن يَغلِـبُ عليهـم طابـعُ إظهـار معرفتهـم وعلمهـم للمقابـل.(٦٨)

يقـول الأصمعـي:(٦٩) «كنـت إذا سـمعت أبـا عمـرو بـن العـلاء يَتكلَّـم، ظَنَنتُـهُ لا يعرِف شـيئاً، كان يتكلَّـم كلامـاً سَـهلاً..» هـذا مـع أنـه شـيخ القُـرّاءِ والعربيـة في زمانـه.(٧٠)

٨- التوقـي مـن الدعايـة، والقيـل والقـال والتصـدِّي للمواجهـة بـما يوافـق الشريعـة:

وهـذه لازمـة أخـرى مـن لـوازم طلبـة العلـوم الشرعيـة، وهـي أن يَلزمـوا جانِـبَ الحـذر بوجّـهِ الإشـاعات والأحاديـث التـي تُحـاك مـن قبيـل الدعايـات، وألاّ يقعـوا فريسـة لتلـك الحـرب المفروضـة عليهـم، وأن يحذروا أشـد الحذر من اتِّباع كلّ ناعـق.
والرسـول صلـوات الله وسـلامه عليـه يقـول: ((كَفَـى بِالمَـرْءِ كَذِبـاً أنْ يُحَـدِّثَ بَـكُلِّ مَـا سَـمِعَ)) رواه مسـلم:٦.

---

٦٨) فمثـلًا: تفسـير البيضـاوي، و(مختصر المعـاني) للتفتـازاني، و(جمع الجوامع) للسُّـبكي، ثـلاث نتاجـات مـن هـذا القبيـل، وقولنـا يريـدون إظهـار علمهـم، لا يتناقـض مـع أخلاقهـم، ولكـن عملهـم لم يكـن صائبـاً.
٦٩) يُنظَر: سير أعلام النبلاء ج٦ ص٤١٠.
٧٠) المصدر والجزء نفسه ص٤٠٧.

فكل دعاية لا ريب تحتاج إلى التزام الحيطة منها، ولكن ما يتعلَّق منها بالعلماء، فإنَّ الحيطة والحذر منها تكون آكد، فطالما أنَّ منْزِلة العلماء أسمى وأرفع من غيرهم، فإنَّ رعاية حرمتهم، والحفاظ على بيضتهم أوجب وأشد حاجة، ولله دَرُّ من قال: «إنَّ لُحُومَ العُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ».

وواضح أن الإنسان بإمكانه-بما لا يُكلِّفه العَنَاءَ- أن يحرك لسانه كيفما يشاء، هكذا وهكذا، وشتّان بين قولة للحق وأخرى للباطل، وما أبعد البَوْن بين أثَريهما، وإنه لمن دواعي الأسى، أن يُثلَم ويُشوَّه اسم عَلَم من أعلام الإسلام، ظُلماً وزُوراً، يفعلِ جاهلٍ أو مخطيء، أو مَنْ سَوّد الحِقدُ الدفين قَلبَهُ، فَيُحرَمُ من علمهم النافع أَناسيٌّ كثيرين.(٧١)

٩- حسن الأسلوب أثناء الحوار والمجادلة:

على أهل العلم مراعاة الآداب اللازمة أثناء المناقشة، وعدم المجادلة إلاّ بالتي هي أحسن، لأن الإنسان-إذا لم يكن منتبهاً لنفسه- أثناء المناقشات والمصادمات الكلامية- سيكون عرضةً للأخطاء والزلات.

وهذه طائفة من الآداب والسجايا المهمة والواجبة على أهل العلم مراعاتها حال النقاش والجدال حول المسائل العلمية:

١. أن يكون دافعُهُ أساساً مرضاة الله تعالى وإظهارُ الحق.
٢. أن يكون على علم بما تَتَحدَّثُ حولَه، وألاّ يكون ممن يرجم بالغيب بلا علم ودراية.

---

٧١) ما أتفه وأعوج وأبعد عن الأدب، أن يوصف رجلٌ من رجالات الإسلام، مثل (حسن البنا) بأنه مُبتَدِع، ونابغة كأبي الأعلى المودودي، بأنه رافضي، وأن يوصف تفسير (في ظلال القرآن) بأنه (ضلال)، وأن يسمى كاتب مثل (الشيخ يوسف القرضاوي) بالكلب العاوي.
ملاحظة: (إسكات الكلب العاوي) عنوان لفصل في كتاب للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، كتبه ضد الشيخ يوسف القرضاوي، وهو يرد عليه بعض آرائه وتصوراته، ولاشك بأن كلام العلماء على بعضهم ليس بدعاً ولا حدثاً جديداً، ولكنّ السبّ والمُنابَزَة بالألقاب، يخالف أدب السلف الصالح.

٣. يجب أن يعمل على إشاعة روح الأُخُوة والمودّة والإحترام، قبل بدء المناقشة وأثناءها وبعدها.

٤. ضبط النفس والإمساك بزمامها، عن الثورة والغضب والتعابير المُخِلَّة بآداب الحديث.

٥. عليه أن يَرضَخَ -دون تلكُّؤٍ- لمقابِلِهِ، إذا تَبَيَّن أن الحق معه، وأن يشكره ويمدحه.

٦. ألاّ يأخذه الغرور بكون الحق معه، وانتصاره على منافسه، والحذر كل الحذر، من التكبُّر والزهو وتخجيل المقابل.

٧. عليه أن يشكر مقابِلَه ويمتدحه ويزيد من احترامه، إذا هو أَقَرّ بالحق وعاد إلى نصابه.

٨. إذا آنس من أدلَّته ضعفاً ومجانبة للصواب، ولم يكتشف مُقابِلَهُ منه هذا، أو كان معه دليل يُعَضِّدُ رأي منافسه، فعليه عَرضُهُ دون تردُّد، وألاّ يُفسِحَ المجال لأهوائه بالسيطرة على ضميره وإيمانه.

٩. عليه أن يُغلِق باب المناشة ويُنهيَها، إذا شعر أن مُقابلَهُ لا يريد التوصل إلى الحق، أو أنَّهُ يتشبُّثُ برأيه على كل حال، إلاّ إذا كان مقابِلُهُ شخصاً غير مسلم، أو كان صاحب بدعة يَتَوجَّب إفحامُهُ ونَقضُ كلامه، فهذا له حكم آخر.[٧٢]

٧٢) يُنظَر: معالم في طريق طلب العلم ص٢٣٩-٣٤٤ بتصرف يسير.

الفقرة الثانية:

آداب طلبة العلم وأخلاقهم مع أقاربهم ومعاشرهم:

والمقصود بالأقارب والمعاشر هنا أربعة أصناف:

١- الأب والأم.
٢- الزوجة والأولاد.
٣- الأصدقاء والأصحاب.
٤- التلاميذ.

١- الأب والأم:

من نافلة القول أن نذكر أن طائفة كبيرة من نصوص القرآن والسنة، تؤكد أيما تأكيد على احترام الوالدين وطاعتهما ورعاية حقوقهما، منها:

١- [وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا]الإسراء/ ٢٣-٢٤.

٢- عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: ((قُلْتُ يَارَسُولَ الله أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: الصَلاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: بِرُّ الوَالِدَيْن. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الجِهَادُ فِي سَبيلَ الله)) رواه البخاري: ٢٥٧٤، ومسلم: ١٢٠، والترمذي: ١٥٩٤، والنسائي: ٣٠٥٢، وأبوداود: ٢١٦٧، وأحمد:٦٢٥٧.

كما ترون: فقد عدّ النبي ﷺ، الإحسان مع الوالدين من أفضل الأعمال بعد الصلاة، حتى إنه ﷺ، قدّمه على الجهاد في سبيل الله.

ج- عن عبدالله بن عمرو بن العاص، قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أُجاهِد؟ فقال النبي ﷺ: ((أَلَكَ أَبَوَانِ؟)) قال: نعم: قال: ((فَفِيهِمَا فَجَاهِد)). رواه البخاري: ٥٥١٥، ومسلم: ٤٦٢٣.

والآن لنلقي نظرة على أخلاق العلماء ومواقفهم بهذا الصدد: [٧٣]

- عندما توفيت والدة (أياس بن معاوية) جعل يبكي، فقيل له في ذلك؟ فقال: كان لي بابان إلى الجنة، وقد أُغلق اليوم أحدهما.
- كان حياة بن شُريح من أئمة المسلمين، وربما كانت أمه تناديه -وهو جالس لتعليم الناس-، يا شريح! أطعِم الشعير للدجاجات، فيقوم من ساعته ويترك الدرس.
- ويقول محمد بن المكندر: كان أخي (عمرة)، يقضي ليلَهُ بالصلاة وأنا أُدَلِّكُ رِجلَ والدتي، ووالله لا أُعوِّضُ ليلتي بليلته.
- مكث الإمام الذهبي أمداً عند شيخ، يدرس عليه، ثم عاد إلى بيته قائلاً: لقد وعدت أبي وأقسمتُ له أَلاّ يستغرِق غيابي أكثر من أربعة أشهر، وإني لأخشى أن يكون عليّ غاضباً.

إذاً: ليعلم طلبة العلم أن حقوق والديهم من أكبر الحقوق وأشَدِّها ثقلاً، وحقهما يُقدَّم بإطلاق على سائر الحقوق، ولا تذهبنَّ بهم الظنونُ أنهم بإنهماكهم في طلب العلم يُعْفَون من الحقوق والإلتزامات، بل على العكس فإن واجباتهم تزداد وتتأكد.

٢- الأهل والأولاد:

وتأتي حقوق الأهل والأولاد بعد حقوق الوالدين، في الأهمية ووجوب الرعاية، فعلى طالب العلم إن كان صاحب أسرة، [٧٤] أن يحرص على واجباته نحوهم، وبالأخص من جهة تربيتهم وتعليمهم، والله جلَّت حكمته يقول: [وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا]طه/ ١٣٢. ويقول تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ]التحريم/ ٦.

---

٧٣) يُنظَر: المصدر نفسه، ٢٣٢-٢٣٥.

٧٤) يستحسن -إذا لم يكن مضطراً- ألّا يورد على نَفسِهِ مَتاعِبَ الأسرة ومشاكلها، قبل أن يأخذ من العلم قسطاً وافراً.

٣- الأصدقاء والأصحاب:

من المعلوم أن العلاقة مع الأصدقاء والرفقاء، يجب أن تكون مَبنيَّةً على أساس الأخوة التي تستمدّ قوتها من قوة الإيمان: [إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ]الحجرات/ ١٠.

فعلى طالب العلم الشرعي أن يرعى هذا الحق ويَعُضَّ عليه بالنواجذ مع سائر المسلمين، وعلى الخصوص أصدقائه، ولاشك بأن زملاءَهُ في طلب العلم في مقدمتهم.

وحقوق الأُخوَّة لاريب كثيرة ومتنوعة، ولكن جملة واحدة في نظري، بإمكانها أن تكون جامعة لتلك الحقوق، وهي:

«أن تعتبر نفسك مساوياً لإخوانك فيما يصيبهم من ربح وضرر، وسعادة وبؤس..»

وهذه اللقاعدة تُؤخَذُ من حديث رسول اللهﷺ: ((لاَ يُؤمِنُ أَحَدَكُمْ حَتّى يُحِبُّ لأخِيهِ مَا يُحِبُ لِنُفْسِهِ)) رواه البخاري: ١٢، ومسلم: ٦٧، والترمذي: ٢٤٣٩، والنسائي: ٤٩٣٠، وأحمد: ١٣٤٥٢، والدارمي: ٢٦٢٣.

وكذلك يؤخذ من الحديث مفهوم المخالفة أيضاً كما هو معلوم.

وإنَّ داءَ الحسد لمن أخبث الأدواء وأضَرِّها على شجرة الأُخُوَّةِ، حيث تَنخَرُها كالأَرَضَةِ، ولذلك كان لِزاماً على طلبة العلم أن يحرصوا على الوقاية ما أمكنهم من هذا الداء القاتل، وإذا ما أصيبوا به، أن يُسارِعوا للتخلُّص منه بإحدى طرق المعالجة الآتية:

أ- الدعاء للشخص المحسود عن ظَهرِ الغيب، وأن يطلب من الله له ما فيه خير دنياه وأخراه.

ب- أن يُلزِمُ الحاسدُ نَفسَهُ، إظهار ما يُحَبِّبُهُ إلى المحسود من سلوك.

ج- الحديث عن صفاته المُحبَّة وزيارته والتردُّد عليه.

د- الممانعة من اغتيابه وذمِّه في مجلسه.

هـ- إحترامه واستشارته وتقديمه على نفسه.

ولاشك في صعوبة هذه الحلول وثقلها على النفس باديء الأمر، ولكنها ستصبح بالتدرُّج حالة اعتيادية، والدواء المرُّ يعالج الداء العُضال ويستأصله، وقد تتحوَّل مَرارَتُهُ وحموضته-مآلاً- إلى حلاوة عند متناوله.

وهذه طائفة من مواقف العلماء حول ما ذكرنا:[75]

* أثنى الإمام أحمد على إسحق بن راهويه فقال: «لم يَعبُرِ الجِسرَ إلى خراسان مثل إسحق، إن كان يُخالِفُنا في أشياء، فإنَّ الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضاً....» فرحمة الله على أحمد وإسحاق.

* «أحياناً، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عُلُوِّ مرتبته، يسألُ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه وقد ذكر إبن القيم، في كتابه (الروح)[76] بأنه سأل عليّاً عن ثلاث مسائل.

* وقع خصام بين سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما: فذهب شخصٌ إلى سعد وذكر خالداً بسوء، فقال له: «مَهْ! إن ما بيننا لم يصل إلى ديننا».

* جاء رجلٌ إلى إبن تيمية ونعى إليه موت خصم لدود له، فانتهره إبن تيمية قائلاً: «أتُبشِّرُني بموت مسلم؟ هذا لا يرضى به الله، ولا من كان فيه حب الإسلام والمسلمين»، ثم ذهب إلى بيت ذلك المتوفَّى، وسلَّم عليهم، وقال لهم، أنا في مكان والدكم ورهن احتياجاتكم.

٤- تلاميذه:

إنَّ على طالب العلم الشرعي-من منطلق العبادة والتمرُّس وتثبيت المعلومات التي اكتسبها- أن يجمع حوله بعض التلاميذ ليدرِّسهم.

وعليه أن يراعي معهم هذه الآداب:

١. عليه-بالإضافة إلى إلقاء الدروس- أن يشتغِلَ بنصيحتهم وتوجيههم وتربيتهم.

---

٧٥) المصدر السابق ص١٠١-١١٠.

٧٦) يُنظَر: كتاب (الروح) ٢٣٥.

٢. أَلاّ يَغُضَّ الطَّرْقَ عن أخطائهم وهفواتهم وأن يُقَوِّمها ويُسائِلهم عنها ويُحاسبهم عليها.
٣. أن يُتابِعَ أمورَ حياتهم ومعاشهم حسب وسعه وطاقته.
٤. أن يزورَهُم في دُورِهم ويسألهم عن أموالهم، وخصوصاً عند حلول مشكلة أو مرض.
٥. أن يَلزَمَ جانب الحَذَر من كل ما يمكن أن يؤدِّي إلى إنقاص هيبته وخَدشِ شخصيته، كحكاية الطرائف لإضحاكهم، مثلاً.
٦. تلبية دعواتهم.
٧. حَثُّهم وتشجيعهم على طلب العلم واستحصالهم المزيد منه والتعمق فيه.
٨. أن يُعيرَ ملاحظاتهم واقتراحاتِهم ونَقدَهم الإهتمام المناسب، وأن يقبل الحق وما أصابوا منه، وأن يوضح لهم الباطل وما أخطأوا فيه.

وختاماً:

وفي نهاية هذا الفصل أَوَدُّ إيرادَ حديث لابن مسعود، يكون بمثابة المسكِ لهذا الختام:[٧٧]

«ينبغي لحامل القرآن:
١. أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون.
٢. وبنهاره إذا الناس مُفطرون.
٣. وبِوَرعِهِ إذا الناس يَخلِطون.
٤. وبتواضعه إذا الناس يختالون.
٥. وبِحُزنه إذا الناس يفرحون.
٦. وببكائه إذا الناس يضحكون.
٧. وبِصَمتِهِ إذا الناس يخوضون..»

٧٧) معالم في طريق طلب العلم، ٢٢٢.

وأنا-نَسجاً على مِنوال ابن مسعود ومشياً على طريقه، أقول:

١. وببشاشتهِ وحُسن حديثه إذا الناس كانوا مُتَجَهِّمين.
٢. وبالقناعة وبسط اليد والكرم، إذا الناس بَخِلوا وكانوا لأَكُفِّهِم قابضين.
٣. وبالسَّماح والسكينة والتحمُّل، إذا الناس كانوا غضباناً يثرثرون.
٤. وبالشجاعة والصبر، إذا الناس فَزِعُوا وكانوا لمن دونهم مُفزِّعين.
٥. وبدأبِهِم ونشاطهم، إذا الناس عجزوا وقعدوا يائسين.
٦. وباهتمامه بأمور المسلمين وحرصه عليها، إذا الناس استجمعوا قواهم لجمع المال وكانوا بذلك منشغلين.
٧. وبالصَّدع بالحق والوقوف بوجه الباطل، إذا الناس كانوا في همِّ إرضاء الباطل وأهله ورضاهم عنهم، وحتّى لا يكونوا عليهم غاضبين.

الفصل الثالث

بعض الإرشادات والإقتراحات لأئمتنا وعلمائنا الأفاضل

أيها القراء الأحبة!

في هـذا الفصـل أتقـدم بـما يليـق بعلمائنـا وأئمتنـا مـن التقديـر والتوقـير، وأستميحهم العُـذرَ، أن أتوجّـه إليهـم ببعـض الإرشـادات والإقتراحـات، في مجـال تصدِّيهـم لِخلافـة النبـي ﷺ عـلى إرثـه، وكونهـم أُسـوة يَقتـدي بهـم المسـلمون، وآمـل أن يتقبّلوهـا ويُدَقِّقوا فيهـا، كـما هـو دأبهـم.

فـما مـن أحـد يكـون أكـبر مـن أن يحتـاج إلى مشـورة المسـلمين ونُصحهـم، ومـا مـن أحد-كذلـك- أصغـر مـن أن يُمنـعَ مـن إبـداء رأيـه ونصيحـة إخوانـه، والإنسـان عـلى قَـدرِ مـا تعلـو منزلَتُـهُ ويَثقُـلُ كاهِلُـهُ بالواجبـات والمسـؤوليات، يكـون أحـوج إلى المشـورة والوعـظ والتضامـن معـه، لأن انتصـاره وإصابتـه الهـدف يكـون أوفـر نِتاجـاً، وبخلافِهِ-لاَقَـدَر الله- فـإنّ انحرافـه وزَللهُ أيضـاً، يَكـون أخطـر وأشـدّ إضـراراً، وأقولها دون وَجَـل ولا تـردُّد:

إنَّ فَجيعـة المسـلمين ونكبتهـم، سـواء عـلى مسـتوى الأمـة في البـلاد الإسـلامية، أو عـلى المسـتوى الإقليمـي في الشـعب الكـردي وبـلاد كوردسـتان، تعتـبر فَجيعـةً ونكبـةً بـدأت مـن حيـث قَـصَّر العلـماءُ والأئمـة في واجباتهـم، وإنّ الـشروع في تقويـم تلـك الحالـة، وإيقـاظ المسـلمين تـارة أخـرى، يقـع عـلى عاتـق العلـماء أكثـر مـن غيرهـم.

وقطعـاً لا أعنـي بالعلـماء والأئمـة، شريحـة خاصـة أقْـصُر الـكلام عليهـم، وإنـما المقصـود مـن ذلـك: كلُّ مَـن توافـرتْ فيهـم السّـجايا والخصـال الخاصـة بوراثـة النبـي ﷺ، والإسـتنابة في مكانـه ﷺ مثـل: العلـم واليقـين والقـوة والأمانة...إلـخ.

إن التعريـف الحقيقـي والمعنـى الـوافي للأئمـة وورثـة النبـي ﷺ في القـرآن والسـنة، قـد بُنـيَ عـلى الأُسـس المُكوَّنـة مـن تلـك الخصـال، المشـار إليهـا قريبـاً، وليـس عـلى أسـاس المظهـر والشـهرة التـي قـد تكـون مـن معطيـات الأعـراف والتقاليـد النابعـة مـن واقـع النـاس.

وعندما أقول: إنَّ واجب تقويم الأمة وإنهاضَها يجب أن يبدأ من العلماء الحاملين لهمومها، فلست أعني أن تَترُك الأُمّةُ والمجتمعُ الإسلامَ، وتَقبَعَ جاثمةً في انتظار هِمَمِ هؤلاء العلماء!

لأن الإمام-كما مرّ معنا- ليس في مقدوره عَمَلُ شيءٍ بِمَعزِلٍ عن الناس، كما أنّ الناس لا يُحرِّكون ساكناً، دون أن يتقدَّمهم مَن يوجِّههم وينظِّم صفوفهم.

بل إن ما أرمي إليه، أنّ تقويم المعاني والمفاهيم الإسلامية وتصحيح السلوك والأخلاق الدينية لدى المسلمين، وأسلمة المجتمع وإقامة حكم الله في أرض الواقع، لابد أن يتصدّى العلماء لكل ذلك، وليتقدَّموا الجموع التي تنتظر من يقودها وعليهم أن يبدؤوا عملية التغيير من ذوات أنفسهم، لِيتمكّنوا من لَمِّ شَعَثِ الناس رويداً رويداً.

وعليهم أن يُنيروا عقولَهم وأفهامهم بشعاع هدى الله، وأن يَجِدوا قوت قلوبِهم وقُوَّتَها في عبادة الله، وتقديم حب الله ورسوله على مَن عداهما.

وإنّني على يقين بأن الذي يُفلِح في إحداث التغيير في خاصة نفسه، لابُدّ سيكون له تأثيرٌ-قلّ أو كثُرَ- على الناس كذلك، تأمّلْ في بَوتَقَةِ النار! كيف يُمَحِّصُ الحديد البارد الصَّلب من الصدأ أو الخَبَث، ويَصبِغُهُ من حُمرتها!

وليس من أحد-كائناً من كان- يقوى على التأثير في غيره، إذا كان لسان حالِهِ برودة الأعصاب والخَوَرِ في العزيمة، وقد ورد في الأمثال: (الحديدُ الباردُ لا يسخُنُ بالنَّفخ).

ندعو الله تعالى أن يجعل العلماء بلطفه، موضعاً لاقتداء الناس وحُبِّهم لهم، وأن يطيعوهم ويقتفوا آثارهم واثقين بهم، وأن يُسلِّموا إليهم-في حدود الشرع- قيادَهُم.

هذا واخترت اثني عشر(١٢) مقترحاً، نُصحاً للعلماء والأئمة الكرام، وسنُخَصِّصُ لكل منها مبحثاً.

المبحث الأول

يجب على العلماء أن يدركوا ويعوا معنى كونهم ورثة الأنبياء ومغزاه

نعم يا علماءَ الإسلام وعيون المسلمين المُبصرة! عليكم -إذ تَعُدُّون أنفسكم من ورثة المصطفى ﷺ: أن تَعُوا جيّداً معنى كونكم ورثة الأنبياء عليهم السلام، حتى تكونوا أهلاً لذلك الإرث وتلك الميزة العظيمة!

وإذ نقول: إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، فإن ذلك -في نظري- يشمل أموراً ثلاثة:

١. تلقّي الهداية الربانية وتجسيد جوهر تلك الهداية في النفس، في أحسن صورها ونستطيع أن نُعَبِّر عن ذلك بالعبادة والعبودية لله تعالى.

٢. دعوة الناس والتصدّي لِتَقدُّم صفوفهم، لعبادة الله تعالى وتحقيق عبوديتهم له،(٧٨) والتي تشمل وتعم الإنسان وسائر جوانب الحياة.

٣. إقامة دين الله ومنهاجه في حياة الناس وواقع المجتمع، كما يقول جلّت قدرته: [شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ]الشورى/ ١٣.

فأئمة الإسلام وعلماؤه -إذاً- على قَدَر:

(١) معرفتهم بالله تعالى وبدينه، ومصدر ذلك كما أسلفنا: القرآن والسنة، وتجسيد تلك المعرفة في صورة: التقوى والأخلاق والآداب والقيام بالطاعات.

(٢) واشتغالهم بدعوة الناس وتعليمهم وتربيتهم، وجعلهم عباداً أبراراً أطهاراً محسنين أوفياء.

٧٨) في كتابنا: (العبادة الإسلامية) ج١ ط٢، أشبعنا الحديث بحمدالله عن كلمة (العبودية) و(العبادة)، وكذلك في الكتاب العاشر من موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) في طبعتها الثانية، بعنوان: (إهتداء المجتمع بهدى الله).

(٣) وبَـذل وُسعهم وإعمال جُهدِهم لإرساء حكم الله وإقامة منهجه، سعياً لإيجاد كيان محكم ضارب بجذوره في أطناب الأرض.

على قَدَر ذلك كلِّه، يُعَدُّون ورثة للأنبياء عموماً ولرسولنا محمدﷺ خصوصاً، والعكس صحيح بطبيعة الحال.

المبحث الثاني

يَتَعَيَّنُ على ورثة النبي ﷺ
أن يَغْذُّوا السَّير في اتِّباع مُورِّثهم

أيها العلماء الكرام والأئمة الأعلام!

إذ تعتبرون أنفسكم من وارثي نبيّنا محمدﷺ، فعليكم أن تَتَحَرَّوا نهج نبيكم ومورِّثكم، لا في المأكل والملبس والمشرب ولوازم المعيشة وأمتعة البيع، لأن هذه الأشياء تكون-عادة- نابعة من الأعراف والبيئات وخصوصيات الأقوام والشعوب، بل في كيفية الفهم وقضايا الإيمان والعقيدة وعبادة الله تعالى، والآداب والأخلاق والتعامل...إلخ.

فالواقع أننا لا يصدُقُ علينا دعوى وراثتنا للنبيﷺ إلاّ بمقدار متابعتنا لهﷺ، وكلما أحسنّا فهم الكتاب والسنة واستقينا منهما، وأضأنا ظلمات دَربِنا الحالك بنورهما، كلما وافقنا منهج النبي ﷺ، كما قال تعالى: [وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ] النور/ ٥٤.

وهنا، بمخاطبة مِلؤها الأدب والحياء، أجدني مضطراً أن أَتوجَّه بالكلام لهؤلاء الأفاضل الذين يعتبرهم المسلمون خلفاء لنبيهمﷺ، ويَعقِدون عليهم الآمال، أن يأخذوا مكان الصدارة في انتهاج منهج رسول اللهﷺ، فأقول: أيُها الأساتذة والعلماء الأعزة!

أَترجَّاكم رَجاء المخلص، أن تكونوا واعين يقظين، لتكن كلمتكم حجة على الناس في دنياهم وأخراهم، ولتكن أدلتكم ناصعةً واضحةً أوضح من نارٍ على عَلَم، إجمعوا أمركم لتقطعوا ذرائع الناس وحججهم، وقَدِّموا للناس منهجَ الله بلسانِ مقالكم خطباً ودروساً، ولسانِ حالكم عملاً وتطبيقاً محسوساً، حتى يعرف الناس-ببركتكم- دين الله وشرعة نبيّهﷺ، وتُعَظِّموا الله في أعين الناس وقلوبهم،

وتُدخِلـوا حُـبّ النبـي ﷺ-الـذي أنتـم ورثتـه- في سـويداء قلوبهـم.

كـما يقـول تقدَّسَـت أسـماؤه: [وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا]البقرة/ ١٤٣.

فكـما أن نبـي الله ﷺ، شـاهِدٌ وحجـة عليكـم وقاطـع لمعاذيركـم، فلتكونـوا شـهداء عـلى النـاس مُبطلـين لمعاذيرهـم، وإلاّ فلـو لم تكونـوا-لا قَـدَّر الله- أهـلاً لمـا أُلقـيَ إليكـم، فَسَـتُفْضُون إلى ندامـة سـاحة الحـشر وخزيـه، وسَـيُعجَّل لكـم ندامـة الدنيـا وخِزيُهـا كذلـك، وستسـألون عـن تيـه النـاس وانحرافهـم عـن جـادة الصـواب، لأن النـاس إذا رأوكـم سـادرين حائديـن، لا تُظهِـرون موقفـاً صَلبـاً، فَسيُسـيئون فَهـمَ الإسـلام برُمّته بسـببكم! -إن لَم يكونـوا أُشرِبـوا فهـم الإسـلام في قلوبهـم- وعنـد ذاك سيسـقط الإسـلام جملـةً مـن أعينهـم.

وبـدل أن تقشـعرَّ جلودُهـم مـن سـماع اسـم النبـي ﷺ، حُبـاً وتقديـراً وأدبـاً، يَتَحَسَّسـونه في أعماقهـم، تراهـم يُبـدون الإشـمئزاز.

وآمـل ألاّ أُلام مـن علمائنـا الأُصـلاء، إذا ضَرَبـتُ مثـلاً لبعـض الذيـن هـم بثيابهـم ومظاهرهـم الخارجيـة علـماء وأسـاتذة (فضـلاء) ولكـن يـا أسـفي، هـم ذئـاب في جلـود غنـم، أنـاس لا خـير يرتجـى منهـم، وبفعـل تلـك الحثالـة المسـماة زوراً بالعلـماء، قـد وقـع في فِخـاخ الطواغيـت وسـبل الشـياطين، الكثـير والكثـير مـن السُّـذَّج والغافلـين، لأن عـوام النـاس تخدعهـم المظاهـر والديكـورات الخارجيـة، وتُبهِرُهـم العناويـن البرَّاقـة، فهـم يتوهَّمـون هـؤلاء: علـماء يَحملـون هـمَّ الإسـلام بحـق وحقيقـة، وعليـه فـإنّ مـا يقولونـه ويصـدر عنهـم مـن قـول أو فعـل، إنـما هـو تعبـير عـما يُـرضي الله ورسـوله ﷺ، بـل هـو الإسـلام نفسـه. فهـؤلاء المنتحلـين لاسـم العلـماء، مـع أولئـك الفئـام الجاهلـة مـن النـاس، ينطبـق عليهـم المثـل الكـردي: «ذهبـت إلى رائحـة الكبـاب، وإذ بهـا كـوي الحمـير».

نعم أيها الأفاضل من العلماء والأئمة وخلفاء الأنبياء وورثتهم!

إذا استقمتم، كنتم خيراً وأجلّ من سائر من عداكم، تأمَّلوا كيف ذكر الله تعالى

اسم أهل العلم مع نفسه وملائكته الأطهار؛ [شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ]آل عمران/ ١٨، من منطلق تنفيذهم لواجبهم وشهادتهم بلسان والمقال على وحدانية الله في ألوهيَّته.

ولكن إذا انحرفتم واتبعتم أهواءكم ونَزَواتكم خوفاً وطمعاً، وأخفيتم حقائِقَ دين الله، فآنئذٍ بدل أن تكونوا مشاعل هداية، ستكونون أداة إضلال وتَتْييه للناس، وفي هذه الحالة ليس تَخسِرُون مَنْزلتكم وقَدركُم ومَكانَتكُم فحسب، بل ستكونون عُرضةً للفضائح ويلعنكم اللاعنون، وستنزلون إلى مراتب الأنعام، كما يقول تعالى: [إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ]البقرة/ ١٥٩.

ويقول تعالى: [مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ]الجمعة/ ٥.

ويقول تعالى في آية أخرى: [وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ]الأعراف/ ١٧٥-١٧٧.

وما يُثيرُ الإنتباهَ، بما لا يتسع المجال للحديث عنه: أن الآية ضربت (الحمار) و(الكلب) مَثَلَينِ للعالم المنحرف، الغارق في الدنيا، والعابد لهواه!

ولكن تجب الإشارة إلى أن شيئين تكرَّر ذكرُهما في كلا الآيتين:

أ- جاء تصوير المَثَلَيْن في الآيتين بالتقبيح والتنفير منهما: ((بئس مثلاً)) و((ساء مثلاً)).

ولذلك أرى أن الشخص العالم، إن كان صالحاً مستقيماً، فهو خير الناس، وإن كان مسيئاً معوّجاً، فهو شرُّ الناس، واستناداً إلى التعبير القرآني، وتأمُّل الواقع، يُعلم أنه ما من حيوان أغبى من الحمار، ولا أنجس من الكلب.

ب- في كلا الآيتين نجد أن الّذين ضُرب المثالان لهما، كانوا ابتداء يُعرفون بأنهم من أهل العلم والمعرفة: ((ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا))، ((ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ)) ثم اعتبروا بعد ذلك كَفَرة مُكذِّبين لدين الله: ((بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ))، ((سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا)).

وواضح من سياق الآية، إن التكذيب هنا لم يكن أمراً عُبِّر عنه باللسان، لأن الله سبحانه عَرَضَ أعمالهم وسلوكهم فقط: ((فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا..))، ((أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ))، ((ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا)).

وعليه: فالمقصود بالكفر والتكذيب، هو تخطئةُ وتشويهُ دين الله من قِبل العلماء والمنحرفين والمُعاندين، سواء عبَّروا عنه بلسان المقال، أو بلسان الحال والأعمال والسلوك والأخلاق والموقف والتعامل المناهض للشرع، والركون إلى الدنيا، وكذلك التعامل الذي يعاملون به الطواغيت من أهل السياسة، فيشترون منهم دينهم بثمنٍ بخسٍ -ولو كان الثمن هو الدنيا بأسرها، لكان بخساً- كما يقول تعالى: [إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ]البقرة/ ١٧٤.

المبحث الثالث

يتوجّب على العلماء ألاّ يكتفوا بما عندهم من العلم، بل عليهم أن يواصلوا سعيهم دوماً لنيلِ المزيد من العلم والمعرفة

وثالث اقتراحاتي إليكم -يا أصحاب المعالي!- ألاّ تكتفوا بالقَدَرِ الذي أخذتموه من العلم، فأنتم تعلمون بأن العلم له بداية وليست له نهاية، والعلوم الشرعية -كونها تصدر من علم الله الذي لا تَحُدُّهُ حدود- مترامية الأطراف، بعيدة الغور، وهو في توسُّع وتعمُّق وتفرُّع على مدار الوقت، كما يقول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «تَجِدّ للناس أقضية، بقدر ما تَجِدُّ لهم من القضايا».

نحن نلاحظ أن الله سبحانه، لم يَطلُبْ مِن نبيِّهﷺ، أن يستزيدَهُ شيئاً، إلاّ العلم، كما يقول سبحانه: [وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا]طه/ ١١٤. وعليه،[٧٩] فقد توغّل في الخطأ بعض أهل العلم في مجتمعنا، عندما ظنوا أن ما عندهم من العلم فيه الكفاية، وهم في غنىً عن طلب العلم كرَّةً أخرى! لأن النبي ﷺ، ولا ريب كان في قمة العلم وذؤابته، ومع هذا يأمره ربه تبارك وتعالى أن يستزيده من العلم، فيا تُرى ما هو مستوى علمنا مقارنةً بعلم النبي ﷺ، حتى نكتفي بما عندنا، ونُلقي بعصى الترحال في طلب العلم عن عواتقنا! أَحسَبُ من كان ذا نظر في الدين والدنيا، مُتفكِّرٍ في القرآن والسنة وما تجري في ثنايا هذه الحياة من التغيُّرات، يُوقِنُ تماماً: أنّ من واجبه السعي في طلب العلم دائماً.

٧٩) ضمنني -مرّةً- مجلس مع أحد الشيوخ وأخبرته أن الكتاب الفلاني، طبع مؤخراً وهو كتاب جيد، تستفيد منه إذا قرأته! ولكن سماحة الملا سامحه الله، ردّ غاضباً: حقيقة لقد ساءني كلامك هذا، قلت له: لماذا؟ فقال: ولأنني مُلاّ.. مُلاّ! ولا أحتاج لقراءة مثل تلك الكتب! فقلت: بل لأنك (مُلاّ) تحتاج إليه أكثر من غيرك، وليس العكس.

ومادام الدِّينُ ثياباً يُناسِبُ تِفصالُهُ بَدَنَ الحياة الدنيا، وطالما أنّ الحياة والإنسان في تغيُّرٍ وحراك دائم لا يعرف التوقُّف، فلابد أن يكون الدين بالمقابل في توسُّعٍ وانفساحٍ، حتى يلحق التغيّرات الحاصلة في الدنيا ولا يَتَخلَّف عنها.

ويتبيّن لنا –بالنظر في القرآن والسنة– أن الله الذي أتقن كلّ شيءٍ خلقه، جعل طبيعة الإسلام هكذا، فوضع الأحكام الكلية الأساسية الثابتة، للجوانب الثابتة، وغير القابلة للتغيُّر في الإنسان والحياة، ووضع الأحكام الجزئية المتغيِّرة، للجوانب التي يحدث فيها التغيُّر والتطور.

المبحث الرابع

يجب أن يكون معلوماً، أنَّ منهج دراسة العلوم الشرعية المعتاد في كوردستان وغيرها، ينطوي على نقصٍ كثير

نعم أيها العلماء الأفاضل!

هذه حقيقة مهمة أخرى، يجب أن تضعوها نُصْبَ أعينكم، وهي أنَّ مناهجكم المُتَّبعة في الدروس، ومناهج من قبلكم، بل لمئات من السنين خَلَتْ، انطوت على ثغرات وقصور لا يستهان بها، والتي كانت -ولا تزال- تُشكِّل تأثيراً سلبياً بعيد المدى في توجيه الفهم نحو الإسلام، وفي كيفية قيامكم بإمامة الناس.[٨٠]

وإن ذلك -بلا أدنى ريب- لفي أمسِّ الحاجة إلى بحث خاص وتحقيق دقيق- ليس هذا موضعه- ولكنَّني سأُشير -في عجالة- إلى بعض الأمور في سبع فقرات:

أولاً/ غلبة الإهتمام بالعلوم الآلية، على الإهتمام بالقرآن والسنة:

وهذه حقيقة لا مجال لإنكارها، فطالب العلم يُقاد قَسراً لدراسة النحو والصرف والبلاغة والمنطق، ومطالعة وحفظ كتب ورسائل مختلفة في تلك المجالات، كل هذا قبل أن تكون له التفاتة للقرآن والسنة، والحال أنَّ الإسلام الحقيقي محصور في ذَينك المصدَرَين، وهما معاً يشكِّلان الغاية الكبرى لدراسة العلوم الشرعية، ولكن، بأسفٍ بالغ، قد أُغفلت هذه الغاية العظيمة في مناهج المدارس ومناهج الشيوخ في تدريسهم العلم لتلاميذهم، وهكذا غدا (الهدف) ضَحِيَّةً لـ(الوسيلة) وليس لأحد الحق أن يُفَسِّر كلامنا على أنَّنا لا نرى حاجة للعلوم الآلية، بل كما

---

٨٠) لقد ظهرت في كوردستان -وغيرها- بحمد الله، بوادر التغيير للمناهج الدراسة الشرعية والعمل على تطويرها وإصلاحها.

أسلفنا في هذا الكتاب: إن تلك العلوم ضرورية لفهم الكتاب والسنة، ولكنَّني أدعو إلى إعطاء الأهمية لكلِّ شيءٍ بحسبه.

فالهدفُ شيء والوسيلة شيءٌ آخر، وألاّ نوليِّ كلَّ الأهمية للعلوم الآلية، بحيث يُطوى ذِكرُ (العلوم العالية)، لأن قيمة الوسيلة تكمُنُ في حجم مساهمتها في تحقيق الغاية.

ثانياً/ الإنشعال بالمطالعة ومدارسة تراث العلماء المتقدِّمين فقط، وجَعلها بديلاً عن القرآن والسنة:

هناك تأثير سلبيّ جداً للفكرة الخطأ: [ما ترك الأول للآخر شيئاً]، فقد سيطرت هذه النظرية على عقول وأفهام الكثرة الكاثرة من العلماء، حتى باتوا يحسبون أن شيئاً من القرآن والسنة لم يَعُدْ في حاجة إلى تفسير أو شرح أو إيضاح.

وهكذا لم يُعد أحدٌ مقتنعاً أن يُضَيِّعَ وقته في استقاء علوم العقيدة والفقه والتزكية في القرآن والسنة!

وبالنتيجة فقد تحوَّلت نتاجات الأقدمين وتراثهم وفهمهم، هو البديل المستساغ عن القرآن والسنة، وبالتالي فقد أُقصي هذان المصدران عملياً عن مناهج العلوم الشرعية، في وقت ليس الدين بأكمله إلاّ عبارةً عنهما.

ثالثاً/ هيمنة العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة التي هي أساساً نِتاجُ اليونانيين، على العلوم الشرعية، وسعيها لجَرِّ البِساط من تحت أقدامها:

في البداية كانت قراءة القرآن والمعرفة بتفصيلاته، الجوهر الأساسي للعلوم الشرعية، ورويداً رويداً، وبتأثير المعتزلة والفلسفة اليونانية وعوامل أخرى، تغيَّر الأمر: فمن جهةٍ اكتفى كثير من أهل العلم بمدارسة تراث المتقدِّمين، وضربوا عن القرآن والسُّنَّة صفحاً، أو أَوَّلوهما في ضوء معطيات ذلك التراث، ومن جهة

أخرى أَحكمت العلوم العقلية الخِناقَ على العلوم الشرعية وحصرتها في حدود ضيقة، حتى أصبحت علوم اللغة العربية والمنطق والفلسفة ميزاناً يوزن به العلماءُ، بدل أن يعرفوا بتضلُّعهم في القرآن والسنة.

رابعاً/ قَصرَ الإيمان والعقيدة على المسائل الخلافية الثانوية(٨١) وإشغال الطلبة بالجدالات العقيمة التي جرت ما بين الجبرية والقدرية والأشاعرة والماتريدية:

إذا جاز للعلماء أن يختلفوا حول المسائل الفقهية بمعناها الواسع، فهذا ميدان فيه مجال واسع للأخذ والردّ، ولكن بما أن قضايا الإيمان والعقيدة وردت بوضوح لا لبس فيه في القرآن السنة، فإن المسلمين إذا لم يقعوا فريسة للأفكار الغريبة الوافدة واكتفوا بمصدري الإسلام، وكان ذلك حسبهم، فإنّهم حينذاك لن تعترض طريق فهمهم أيَّةُ عوائق.

ولكن بمزيد من الأسى والأسف، فإنَّ الخلافات التي وقعت بين المسلمين في العقيدة، كانت أكثر ممّا وقعت بينهم في الفروع الفقهية.

ومما يدعو إلى الأسى -أيضاً- أن الكتب والمصادر المقرَّرة في العقيدة، كمناهج دراسية في الماضي، والتي وُضعت في حقبة اشتدّ الجدال فيها بين العلماء حول القضايا الخلافية العقيدية التي كانت مظِنَّة الزَّلل والإنحراف، هي ذاتها اليوم تُدرس، كما كان بالأمس تماماً.

٨١) بعض تلك الكتب، سواءٌ في مجال العقيدة أو في مجال العلوم الشرعية الأخرى، ربما تكون لعبت دوراً في حياة المسلمين، ولكنها في هذا العصر فوق أنها لا تبلغ غاية ولا تصيب هدفاً، فإنها تحدث أضراراً جساماً، وأنا شخصياً أعرف أُناساً قالوا لي: إن كتاب (شرح العقائد) المعروف بـ(العقيدة النسفية) قد ضيّعت علي صوابي وأبعدتني عن الإسلام! وهناك عيب قادح آخر في كتب علم الكلام وهو تركيز الإهتمام وصبِّها في مجال إثبات وجود الله خالقية وربوبية، ولكنهم لم يقتربوا من مبحث الألوهية إلاّ ما نَدَر، والحال أن عناء الأنبياء وجدالهم وحيرتهم مع أقوامهم لم تكن إلاّ من أجل أُلوهية الله تعالى، وقلّما وُجدت أمة تعاني من شك في ربوبية الله تعالى؛ [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ]الزخرف/ ٨٧. [وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ] الزخرف/ ٩.

ولذلك فقد عجز طلبة العلم -ومعهم الشيوخ- أن يفهموا عقيدة نقيّةً بلا شوائب من تلك المصادر.

وإني لأدعوك أيها القاريء! أن تُحكِّمَ ضَميرك، كيف يَتمكَّن الإنسان من تلقِّي عقيدة صحيحة من كتب كـ(شرح العقائد) و(تهذيب الكلام) و(شرح المواقف) وهي أشهر كتب علم الكلام والعقيدة على الإطلاق، هل تقع عيناك منها إلاّ على نزاع وجدال جماعي، وحديث عن الفِرق التي قلَّما تكون على علم بعقيدة جمهور المسلمين. (٨٢)

خامساً/ نتيجة لغلق باب الإجتهاد والإعتماد على العلماء الأقدمين، والرؤية بمنظارهم والسمع بآذانهم لفهم هذا الدين، سنكون عُرضةً للرجوع القهقهري، والغفلة عن واقعنا المعاصر:

إن الذين شهد لَهُم النبي ﷺ بالخيرية من سلفنا، وخصوصاً القرون الثلاثة؛ ((خَيْرَ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُم ثَمَّ الَّذينَ يَلُونَهُم)) البخاري: ٣٣٧٧، ومسلم: ٤٦،٣.

حقيقة مُسَلَّمة لا مجال للجدال فيها، أنَّ أولئك كانوا على فهم أعمق وأبعد للقرآن والسنة.

ولكننا من غير مراعاة هذه الحقائق الثلاث، سنقع في خطأ جسيم:

١- النبي ﷺ شهد للأجيال الثلاثة فقط، إذاً: فليس شرطاً أن يَعُمَّ الخَيرُ الأجيال الأخرى، أو أنّ أيَّ جيل عاش قبلنا، كان أفهَمَ مِنّا للإسلام!

٢- إن خيرية تلك القرون الثلاثة، وإن كان المراد منها -قبل كل شئ- جودة الفهم للإسلام، إلاّ أنه ليس المقصود -قطعاً- أنهم كانوا على معرفة بتفاصيل الدين والحياة لعصور تأتي بعدهم.

بل المقصود أنهم استنبطوا لنا الخطوط العريضة لفهم القرآن والسنة.

---

٨٢) أُحبِّذُ أستعمال مصطلح جمهور المسلمين بدل (أهل السنة) أو (أهل السنة والجماعة)، لأن الله تعالى سَمّانا باسم واحد فقط وهو (المسلمين): [هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا] الحج-٧٨-.

٣- إن حُسنَ فهم أولئك عموماً للقرآن والسنة، لا يُفهم منه أنّنا لا نتمكَّن من فهم للإسلام، بل قد نستنبط أشياء من القرآن والسنة، لم يُحِطْ بها أسلافُنا علماً.
إذن: لابدّ أن يكون العلماء والأساتذة على وعي عظيم، لئلاّ يتخلَّفوا عن ركب زمنهم بذريعة احترام العلماء الأقدمين وتبجيلهم والإستفادة من علمهم.
ولاشك أنَّ ذلك الداء موجود فيهم في حدود معينة، وقد تَمَخَّضَ عن عدة آثارٍ سلبيةٍ:
١- عدم مقدرتهم على إقناع أبناء جيلهم.
٢- إعتبار المثقفين الواعين لهم بأنهم شريحة متخلِّفة.
٣- تسبُّبهم في ابتعاد كثيرين من الإسلام من جرّاء تصويره من قبل هؤلاء المشايخ، بأنه يمثل الرجعية والتخلُّف!

سادساً/ إنّ مراسيم إدارة المدارس الدينية وتربية الطلبة فيها، انطوتْ على أخطاء فادحة:

والذي أعنيه هنا، تلك الطريقة التي كان الطلبة يحصلون بها على ضرورات معيشتهم، وهو ما كان يسمى بـ(راتبة الطلبة). (٨٣)
فإن لم تكن لدى أولئك الطلبة عليَّ مَوجِدَةٌ -لأنّني كنت واحداً منهم ردحاً من الزمان- فإن ذلك كان نوعاً من الإستجداء المؤدَّب!
فتأملوا أيها الأساتذة الأعزاء!
إن طلبةً يحصلون على ما يُقيمُ أَوَدَ معيشتهم بتلك الطريقة، من النظر لما في أيدي الناس، فعندما يُكبَرون ويُصبِحون أئمة وخطباء، ماذا سيكون شعورهم أمام تلك الجماهير، وهل يا تُرى سيكون بإمكانهم أن يَصْدَعوا بكلمة الحق، وأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، بجرأة ورِفعَةِ رأس، دون أن يخشوا امتنان الناس عليهم؟!

٨٣) وهو ما كان يأخذه طلبة العلوم الشرعية من الناس، بعد ذهابهم إلى بيوتهم وسؤالهم وطلبهم منهم!

وهنا أجد الموضع مناسباً أن أسرُدَ عليكم إحدى ذكرياتي المريرة:

في السنة الدراسية (١٩٨١-١٩٨٢م) حيث كنت أدرس في كلية الشريعة والعلوم الإسلامية، وفي أعقاب عدم اشتراكي في (الإتحاد الوطني لطلبة العراق) و(تدريب الجيش الشعبي) الذي كان يفرضه النظام البعثي، فَرَرتُ من قبضة النظام وتوجَّهتُ نحو مناطق كوردستان إيران، ولا أطيل عليكم، فقد دخلت إحدى المدارس الدينية التي كانت تسمى بـ(الحجرة) وشَرَعتُ -في رحلة استغرقت ستة أشهر- طالباً في تلك الحجرة.[٨٤]

وطبقاً للنظام الخاص بالطلبة، فقد كان من المتعارف بينهم أن يخرج الأصغر سناً من بينهم لجمع ما يَسُدُّ الرَّمَقَ، وأنا حيث كنت بمصطلح الطلبة (مُستعِدّاً) أدرس المواد النهائية، فقد كُنتُ معفيّاً من تلك المسألة.

ولكن ذات مرة، كانت غالبية الطلبة في (الحجرة) قد سافروا، فاضطررت مع أحد الطلبة الصغار للخروج لما كُنّا نُسمِّيه بالكردية بـ(راتبة) وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة لي في جمع المؤن، وقرب إحدى الدّور قال صاحبي: «مؤونة الطلبة! رحمكم الله»، فخَرَجَتْ امرأة من البيت وقالت بلهجة فيها غضب وضجر، ودون أن تَجلِبْ لنا شيئاً: «ما هذا! أما لهذه المطاليب من آخر، اذهبا فليس عندنا شيء نعطيكم!».

وهكذا رجعنا أنا وصاحبي دون أن نَنبِسَ بِبِنتِ شَفةٍ، كأنّنا نُكِبنا بنكبة خارت لها قوانا، وعندما رجعنا إلى الحجرة، قلت لزملائي: أنا من اليوم فصاعداً، سأتناول وجبتين فقط عندما لا أكون صائماً، قالوا لماذا؟ قلت: لأن جمع الطعام بهذه الطريقة -عدا ما يَسُدُّ الرَّمَقَ- فلستُ أراه جائزاً، وقد نفَّذت قراري فيما بعد.

وسأعرض اقتراحات لمعالجة ما يسمى بـ(راتبة الطلبة) في الفقرة التالية:

---

٨٤) في قرية (بَـرْدَرَش) التابعة لقضاء (بانه) في كوردستان إيران، وعند سماحة الأستاذ مُلّا محمد البردرشي الذي لايزال متواصلاً مع إلقاء الدروس جزاه الله خيراً.
ثم توفي قبل سنوات من الآن: (٢٠١٨/٨/٢٠)، تغمَّده الله تعالى برحمة منه ورضوان.

سابعاً/ كيفية ضمان حياة (الأئمة) لم تكن منسجمة مع ما ينبغي أن يكون عليه العالم من التقدير والوقار:

بالإستناد إلى كثير من النصوص الشرعية: الذي يُوَظِّفُ نَفسَهُ لتحقيق مصالح المسلمين ويَتجرَّد لذلك، بدرجة لا يستطيع معه تحقيق المصالح الشخصية والمعاشية، له ولعائلته، فإنّه يَتوجَّب على المسلمين حينذاك أن يهتمّوا بأمره ويُلَبُّوا احتياجاته، حسب قاعدة (الغُنمُ بالغُرم) ولكن ما تعورف عليه منذ قديم الزمان -في كوردستان-، لا يتناسب مع مقام العلماء وشخصياتهم وتصدِّيهم لإمامة الناس.

واختصاراً فالمسألة عبارة عن أن (الملاّ) في بداية تعارفه مع أهل منطقة معينة أو حي معين، يبدأ بالمساومة معهم والإتفاق معهم على المقدار الذى سَيُدفَعُ إليه شهرياً أو سنوياً، وعلى الأشياء التي سَيَتَكفَّلونها له.

وهنا دعوني أروي هذه الحكاية عند بداية تجربتي كـ(إمام وخطيب) في إحدى القرى، حتى يتوضح المقصد أكثر:

في سنة ١٩٨٦م وتحت ضغوط دائرة أمن قضاء (رانيه) التي حاولت عدة مرات إلقاء القبض عليّ، لأنّني -في خطبي وزياراتي وحلقاتي- كنت أُهاجم النظام بلا ستار، فتركت قرية (سرسيان) التابعة لناحية (بنگرد) وقمت بزيارة لقرية (گلوي ماخوبزنان) على أمل أن أتعيَّن هناك إماماً وخطيباً، وعندما وصلت إلى هناك، أبدى أهل القرية سعادتهم بمقدمي ورحَّبوا بي، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث هُنيهة، قالوا:

تَفَضَّلوا بِعرضِ ما لديكم وشرح كيفية مجيئكم إلى هنا، لأن الإتفاق ابتداءً شيء حسن، وقد فَهِمتُ أن ما يقصدونه هو كم سآخذ منهم شهرياً أو سنوياً، وكم يجلبوا لي من الحطب كوقود للمدفأة، و.. و..إلخ؟

فقلت لهم: اسمعوا يا إخوتي!

طالما كنت في هذه القرية وأُذِّن للصلاة، فسأخرج إليها، فإن كان هناك من يؤمُّ المصلين، وإلاّ تقدمت للإمامة، وكذلك لصلاة الجمعة، وصلاة الميت، والتراويح

وصلاتي العيدين، وقضايا الصلح بين الناس، إن وجد لكل ذلك أحد، وإلاّ رأيت من واجبي القيام به، فليس الموضوع في حاجة إلى المساومة ووضع الشروط والإتفاق المسبق!

فقالوا بدهشة: وكيف يجوز هذا يا أستاذ؟ وكيف ستعيش؟ فقلت: معيشتي على الله، ولئن لم يرزقني الله لأجل التقوى، حيث يقول: [وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ]الطلاق/ ٢-٣، فسيرزقني لأنني كائن خلقني ويرزقني أيضاً: [وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا]هود-٦ .

نعم هكذا بدأت عملي كـ(إمام) في تلك القرية، وأثبتُّ كلامي وقراري لهم عملياً، ولم أتسامح بكوني (إماماً) حتى في أخذ الزكاة أو زكاة الفطر، ولكن والحق يقال، فإن أهالي القرية ماكانوا يَبخَلون عليَّ بشيءٍ، بل ما كانوا يحسبون أنفسهم مالكين لشيء فيما يَخُصُّني، وما كنت أقوله لهم باسم الشرع والدين، يبادرون بالعمل به، فجزاهم الله خيراً وزادهم رفعة.

والآن سآتي إلى عرض اقتراحاتي لمعالجة مشكلة الوضع المعيشي للطلبة والقائمين على تلك الحُجَر والمدارس الشرعية:

١) يقول العلماء الأثبات إنَّ الزكاة مشروعة لصنفين من الناس:

أ- صنف يحتاجون أموال المسلمين، وهم-لسبب من الأسباب- عاجزون عن توفير حاجاتهم وأمور معيشتهم-، وهذا يشمل:

١-الفقراء ٢-والمساكين

٣-وفي الرقاب ٤-والغارمين

٥-وابن السبيل.

ب- وصنف يحتاجهم مجتمع المسلمين، لأنهم يقومون بخدمات وأعمال تُؤدِّي إلى عجزهم عن الكسب، وهذا يشمل:

٦-العاملين عليها، ٧-والمؤلفة قلوبهم

٨-وفي سبيل الله.

والأساتذة المدرِّسون وطلبتهم بطبيعة الحال، مشمولون -إلاّ ما نَدَر- بكلا الصنفين، لأنهم من جهة: فقراء ومساكين و غارمون، ومن جهة أخرى: بسبب طلبهم للعلم ونشرهم له، وهو من فروض الكفاية، فإنَّ عملهم يَقَعُ في دائرة (في سبيل الله)[٨٥]، فلماذا إذاً، لا يقوم الأساتذة الكرام بجمع الزكاة وتوزيعها كواجب شرعي، يضعونه على عاتقهم ويُشرِفون عليه، ويَضمَنُوا معيشتهم وأعباء مدارسهم واحتياجات طلبتهم، من وراء ذلك، دون أن يحملوا مِنّة أحدٍ أو يمتنّ عليهم أحد.[٨٦]

٢) لاشك أن الأوقاف -على مرِّ التأريخ الإسلامي- سدَّ العلماءُ به ثغراتٍ مختلفة، وكانت مصدراً ووارداً حلالاً جيداً، ولكن في العراق وغيرها، منذ فترات طويلة -مع شديد الأسف- سَلَبَتِ الأنظمةُ العلمانية الطاغوتية الأوقاف من أصحابها، ويتصرَّفون فيها على ما يشتهون وما تهوى أنفسهم، ولا مناص لعلماء الإسلام، أن يحملوا هم مسؤولية إعادة تلك الأوقاف المغتصبة إلى أهلها الشرعيين، والمقاصد المشروعة التي وُقِفَت من أجلها.

٣) وهناك حلٌّ آخر: هو إقدام طلبة العلم والعلماء على أعمال يستحصلون بها معاشهم كما حدث في تأريخ المسلمين، فهناك علماء كُثُر مارسوا التجارة والحِرف الأخرى، ولو في داخل بيوتهم، أو في ورشات خاصة، لقد كان من العلماء: (الدبّاغ، والإسكافي، والنجّار، والباقلاّني، والورّاق، والزجّاج، والحَطّاب، والصَّباغ، والبزاز، والدقّاق، والصّفّار)، فلم يتعرضوا لمنّة الناس الذين لم يبلغوا درجة لا يمنّون على العلماء أو الطلبة.

---

٨٥) في الجزء الثاني من (العبادة الإسلامية) المخصص بالمبحث (الزكاة) بحثت هذه المسائل بدقة وإسهاب، وبالذات ما يخص مفهوم (في سبيل الله).

٨٦) وليس المقصود هنا أن يتحول (المدرِّسون) إلى جامعين للزكاة وعاملين عليها، بل المقصود أن يُعيروها الأهمية المناسبة بصورة شرعية صحيحة، وأن يشكّلوا اللِّجان للإشراف عليها، ولاشك أن الزكاة إذا نال ما يستحق من الإهتمام والإشراف، لن يحقق احتياجات أساتذة المدارس وطلبتها فحسب، بل سيتعدَّى نفعُ ذلك إلى أطراف أخرى عديدة.

كما أن الإختلاط مع الناس عن طريق العمل والكسب يُعرِّفهم بنفوسهم وأخطائهم وبما عليه الواقع الإنساني، ويُمتِّنون صلاتهم بالآخرين، إلى أن تتأسّس الدولة المؤمنة ويتغير الحال، وتأخذ التخصصات مجراها، ويُنظِّمُ أمر الزكاة وغيرها من مصادر المال..

وإلى أن تتم هذه الأمور، فإن على الجمعيات الخيرية أن تسُدّ بعض حاجات أهل العلم الضرورية وترفع عنهم الحيف، وأن تتابعَ حاجات المتعففين.[٨٧]

هذا وقد أوردت الفقرتين السادسة والسابعة في هذا المبحث الرابع الذي يتحدث عن مناهج الدراسة لدى الطلبة والأئمة، لأن كيفية الوضع المعيشي للطلبة والمدرّسين، كانت جزءاً من المنهج الذي ساروا عليه وتربَّوا على أساسه، ولاشك قد كانت -ولا تزال- ذات تأثير بالغ على شخصياتهم.

---

٨٧) هذا المقترح الثالث أتحفنيهِ أحد الأخوة الذين راجعوا الكتاب قبل الطبع، فجزاه الله خيراً.

المبحث الخامس

لِزامٌ على العلماء أن يُحيطوا علماً بواقعهم المعاصر، وأن تكون لديهم معرفة جيدة بالتيارات الفكرية والسياسية المعاصرة

أيها الأساتذة وهُداة المسلمين!

هـذه المسألة أكبر من أختها، إذ لا ينتهي واجبكم بمجرد المعرفة بالدين، بل لابُدَّ من معرفة واقع الحياة وشؤونها، ولا يمكنكم الإستفادة المُثلى من الفقه في الدين، حتى تكتسبوا فقه الواقع معه، فكما أن للحق أهمية كبرى، فكذلك معرفة الواقع الذي يُعلَنُ فيه الحق وتُرسى دعائِمُهُ فيه أيضاً من الأهمية بمكان،[٨٨] ولو تأمَّلتَ حياةَ علماء السلف، ترى أنهم كانوا على درجة كبيرة من الوعي وفقه الواقع، وكانوا على معرفة جَيِّدَةٍ بالتيارات الفكرية والسياسية الإسلامية وغيرها في زمنهم والأزمنة التي سبقتهم.

فمثلاً: تأمَّل في حال كل من: أبي الحسن الأشعري،[٨٩] وأبي حامد الغزالي،[٩٠] وابن الجوزي،[٩١] والشهرستاني،[٩٢] وابن حزم،[٩٣] وابن تيمية،[٩٤] كيف كانوا مدققين دعاةً عارفين، وكيف أنهم تعمَّقوا في معرفة الأصدقاء والأعداء، والجماعات والتكتلات الموجودة في زمنهم، وواضح أنّ عدم إلمام العلماء بالواقع

٨٨) المبحث الأول والثاني في كتابنا: (إرشادات لإسلامي كوردستان) مخصص لبحث هذه المسألة، بعنوان: (الفهم الأحسن للدين والمعرفة الجيدة بالواقع).

٨٩) في كتابه: (مقالات الإسلاميين).

٩٠) في كتبه: (تهافت الفلاسفة)، (المنقذ من الضلال)، (فضائح الباطنية) وعديد من كتبه الأخرى.

٩١) في كتابيه: (تبليس إبليس)، (صيد الخاطر).

٩٢) في كتابه: (الملل والنحل).

٩٣) في كتابه: (الملل والنحل)، الذي طبع مع كتاب الشهرستاني السابق.

٩٤) في كتبه: (المنهاج السنة)، (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، (اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم)، وكثير من كتبه الأخرى.

المعاصر، وعدم معرفتهم بأصدقائِهم من أعدائهم، قد نجم عنه كثيرٌ من الأضرار والسلبيات المتعددة، وكثيراً ما أُتي العلماء من جانب غفلتهم عن الواقع وعدم معرفتهم به، وقد لُدِغ بعضهم من ذلك الجُحرِ مراراً، وما أحسن ما قال الشاعر:

عرفت الشرّ لا للشرّ لكن لتوقِّيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

وليس المقصود أن يكون الأساتذة على معرفة بكل شيء وبكل شخصٍ، فهذا مستحيل، ولكن من غير المعقول أيضاً، أن يجهل عالِمٌ معنى ومغزى الديمقراطية، أو السوشياليزمية، أو الناسيوناليزمية، أو الليبرالية، أو السوشيال ديمقراطية، أو العلمانية.. وألاّ يعرف ماهية الأحزاب العلمانية على ساحة كوردستان والعراق، في أي ظروف تأسّست، ومن هم قادتها ومُنَظِّرُوها؟

وكذلك لا يعقل أن يجهل الأساتذة والعلماء، تقدّم العلم والتغييرات النوعية الكبيرة الحاصلة فيه.

والآن لأسرُدَ عليكم إحدى ذكرياتي:

في فترة (١٩٨٢-١٩٨٣م)، عندما كنت فارّاً من السلطة (نظام البعث البائد)، في إحدى الليالي كنت في المجمَّع القسري (بستستين)[٩٥] فألقيتُ محاضرة في مسجد كان يقع في زاوية بعيدة فيه، وتحدثت فيها عن الماركسية واللينينية، فقام أحد الأئمة، بعد انتهائي من المحاضرة، فتحدث هُنيَهةً ثم شكرني وقال بعدها: فيما يَخُصُّ ذَينك الشخصين اللَّذَين تحدَّث الأستاذ عنهما، (يعني ماركس ولينين) في الحقيقة فإنّني لستُ على سابق المعرفة بهما، ولكنني أثِقُ بكلام الأستاذ، لذا ينبغي أن يكونا شِرِّيرَين.

وعليه: أضُمُّ صوتي إلى صوت الأستاذ قائلاً: اجتنبوهما ولا تتَّبِعوهما.[٩٦]

٩٥) كان مُجمَّعاً تابعاً لناحية (سنگسر) التابعة لقضاء (قلعةدزة).

٩٦) الأستاذ كان يتصوّر أنهما شخصان على قيد الحياة!

المبحث السادس

على العلماء أن يبلغوا غاية التواضع للحق، وأن يأخذوا الصواب كائناً من كان قائلُهُ

ما من موجود-خلا الله سبحانه- يحيط بكل شيء علماً، ولا يكون بحاجة إلى نصيحة أو تذكير أو معونة من أحدٍ، وعليه: فلابدَّ لعلماء الإسلام ألاّ يمتعضوا من الإستدراك عليهم أو حتى نَقدِهم، بل عليهم أن يتلقَّوا ذلك بصدر رحب وتواضع تام، وأن يُظهِروا الإحترام للناقد والمُستَدرِك، وقد قيل: «أُنظر إلى ما يقال ولا تنظر إلى من قال»، وأخُصُّ بالذكر أن هذا الجيل من الشباب والذي- ولله الحمد- قد أَوْلَوا القرآن والسنة الأهمية الكبرى، فلا غَروَ أن يعلموا أشياءً لا يعلمها بعض الأئمة، وفي هذه الحالة على الشباب أن يَعرِض ما عنده بأدبٍ جمٍّ وأسلوب جميل، كما أنَّ على الشيخ أن يتلقّى ذلك بالعرفان والتواضع ورحابة الصدر، وأن يُحاكوا موقف عمر رضي الله عنه عندما قال: «رحم الله امرءاً أهدى إليّ عيوبي.»

ولِئَلاّ تنطبق عليه الآية القرآنية: [وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ] البقرة- ٢٠٦.

المبحث السابع

على علماء الإسلام -ما وسعهم- أن يزهدوا مما في أيدي الناس، وأن يتوكَّلوا على اللّه وحده، ثم يعتمدوا على أنفسهم

ومع أننا أَشَّرنا إلى هذا المعنى في المبحث الرابع، إلاّ أننا آثرنا تخصيص هذا المبحث للمعنى ذاته.

وقد أسلفنا أن الذي يقوم بخدمة للمسلمين، ويَشغُلُ وقتَهُ بها، بحيث لا يتمكن من الوفاء بمتطلبات معيشته وحياته، فآنئذٍ يتوجّب على الحكومة أو على المجتمع، أن يضمنوا حاجاته المعيشية، ولا فرق في ذلك أن يكون من الزكاة أو غيرها من المصادر الشرعية. ولكن الأهم من ذلك -إذا كان ممكناً- أن يَعتمِدوا في كسب قوتهم وتدبير أمور حياتهم، على كَدِّهم وعَرَق جبينهم، فحينها يقومون بعمل عظيم، ويُقَدِّمون خدمةً كبرى لأنفسهم ودينهم... ولذلك كان الأنبياء عليهم السلام تلهَجُ ألسِنَتَهُم بـ[وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ]الشعراء-١٠٩.

وهذا ما كان يردده أنبياء الله الكرام (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) عليهم السلام، قد أَمَرَ الله تعالى نبيَّهُ الخاتم بالأمر ذاته: [قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ] ص/ ٨٦. وللعلّه نفسها، تَرفَّع العلماءُ الأجلاّء عن أخذ الرواتب، وحتى الهبات والهدايا، وكانت لهم حِرَف يقتاتون من ورائها، أو كانوا قنوعين بحياة مِلْؤها الزُّهد والتقشُّف، تأمل في الألقاب التي عُرِفوا بها، يتبيَّن لك ما كانوا يتضلَّعون بها من مِهَن، وإليكم طائفة من أسماء الشهرة التي عرف بها عالم أو أكثر من علماء الإسلام: الجصّاص، البزّاز، الزجّاج، الورّاق، التمّار، الدقّاق، الزيّات، النحّاس، النجّار... إلخ.

وقد تناولنا الحديث ههنا بصورة عامة، وإلا فإنّ الله جلَّت قدرته، يرزق عبادَهُ بطرائق متنوعة، على أن النقطة الأهم، أنّ على المسلم -وبالأخص العالم- أن يحفظ شخصيَّته ولا يعطي الدنيَّة في دينه لأجل عَرَضٍ تافهٍ من الدنيا.

المبحث الثامن

على العلماء أن يكونوا على جانب عظيم من الوعي والحذر، وأن يُفَوِّتوا الفرصة على أهل السياسة والدنيا أن يَستغِلُّوهم ويُحيلوهم أداةً بأيديهم

إنَّ أهل الكفر والنفاق، من الساسة والحُكّام الظلمة والمؤمنين بالدنيا وحدها، ما يَنفكُّون يسعون لتحسين وجوههم الدميمة عن طريق التقرُّب من العلماء ومصاحبتهم وكَسبِ تأييدهم، وانتزاع الفتاوى منهم، وهكذا يقومون بتمويه الناس والإيقاع بهم.

فهم يرفعون عقيرتهم: أيها الناس! ألا ترون العالم الفلاني، والشيخ العلاني معنا، يؤيد مسعانا ويدعو لدنيانا وأُخرانا، فَلْتعلموا بأننا أناسٌ صالحون، نمشي على الصراط المستقيم!

وليس ذلك بِدَعاً من المحاولات التي تُمارَسُ مع العلماء لاستمالتهم، فهذه عادة موروثة منذ القدم، توخّاها أهلُ السياسة المنحرفة والحكم الباطل.

وقد مورس ذلك مع الأنبياء أيضاً، كما أخبرنا الله تعالى: [وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا]الإسراء-٧٣.

ولعل من نافلة القول أن نذكر أنَّ العلماء، وسائر المسلمين، بمقدار ثباتهم في عقيدتهم وحبهم لله وحيائِهم منه، والزهد في الدنيا، واختيارهم الآجل على العاجل، ومتابعة الرسول ﷺ، واقتفاء آثاره أمام العواصف الهوجاء من مطامع الدنيا، بمقدار ذلك يكون ثباتهم وحنكتهم في دينهم ودنياهم، كما أَرشَدَ الله جل في علاه نَبيَّهُ الكريم ﷺ: [فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ

عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ]طه/ ١٣٠-١٣٢.

أجل إنَّ الزهد في الدنيا والقناعة بِشَظَفِ العيش، أحسن رادع ومانع عن الإنحراف والزَّلل، وهو الضمان الأقوى في ذلك المجال.

ورحم الله الإمام الشافعي حيث يقول عن رثاثة ملبسه وعزة نفسه:

عليَّ ثياب لو تُباعُ جميعها بفلس[٩٧]
لكان الفِلسُ أكثرا
وفيهن نَفسٌ لو تُقاس ببعضها
نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وإن هذه العزة والحفاظ على حرمة النفس[٩٨] وهيبتها في مقابل الدنيا وأطماعها، لمن أجل الأعمال وأجمل الخصال التي تجذب إليها النفوس، وقد قيل قديماً: «لكل مقام مقال، ولكل ميدان رجال».

---

٩٧) لم تكن القوة الشرائية للفَلس في ذلك الزمان مثل أيامنا، لكنه على كل حالٍ كان شيئاً تافِهاً.

٩٨) ويقول الإمام الشافعي أيضاً: «لو علمتُ أن شُربَ الماء البارد يَثلَم من مروءتي لما شربت إلّا حارّاً». وهكذا فليكن العلماء والأئمة، لا أن يلهث أحدهم ساعياً وراء مظانِّ المطامع.

المبحث التاسع

لاينبغي للعلماء بحال من الأحوال،
أن يُستَدرَجوا للعداء ضِدّ التيار الإسلامي

يا علماء الإسلام وأئمة المسلمين!

لا يفتِنَنَّكُم الناس، تحت أي عذر من الأعذار، أو بتحريض أية جهة معينة، مهما ادَّعت التجرُّد والإخلاص، أن تشتبكوا مع مسيرة العمل الإسلامي ومساره، لأن الذي يبصق إلى أعلى، سيرجِعُ بُصاقُهُ عليه.

وإنّ مما تتقطّع له الأَحشاء، أن يقتل الشقيق شقيقه، والأب فِلذَة كَبِده، وأن يحرق الإنسان حصيلة عمره بيديه.

أن الذين يُؤَجِّجون نار الفُرقَة والتناحر بين الشباب والشيوخ، وأهل المدارس الشرعية، والمثقفين، أولئك يكذبون معهم، ويريدون أن يُنَفِّذوا المواجهة-التي لا يرغبون القيام بها بأنفسهم- بالمسلمين أنفسهم، ضد الإسلام والعمل الإسلامي.

أيها العلماء المخلصون لإسلامكم!

إعتبروا الشباب المجتمع في المساجد مِلكاً لكم، واعتبروا أنفسكم مِلكاً لهم، وصابروا وتعايشوا معاً، إلى أن يَنضُجوا وتتكامل أفهامهم أكثر، وتَسنَحُ الفُرصَةُ لكم وتتداركوا القيام بما عليكم، وتقوموا بتأدية ما عليكم من واجب العلم، وواجب الإمامة-كما يجب- وأن تتمكّنوا من تربية هؤلاء الشباب بصورة أجدى وأنفع وأدق وأعمق.

واعلموا علماً لا يخالطه ريب، بأن أي اشتباك لكم مع الإسلاميين لا يستفيد من ورائه أحد إلاّ خصوم الإسلام الذين سيُمَتِّعون أبصارهم بالتفرُّج عليكم، ومعركة كهذه لن يكون منها غالب ومغلوب، لأن الهزيمة سَتَلحَقُ الجميع، وسيكون مصيركم كمصير الذي يعمل في قطع الجِذع الذي هو نفسه واقف عليه، ومعلوم ما يؤول إليه عمله!

وختاماً أقول:

أولاً: عُدُّوا أنفسكم أطباء والشباب مرضى،[99] وبدل أن تُغْلِظُوا لهم في القول، تغتابوهم، عالجوهم وامسحوا-بيد الحنان- على رؤوسهم.

ثانياً: لا تنظروا بمنظار صفائكم، فتعتبروا أن كل من أظهر الإخلاص للإسلام كان مخلصاً، لأن هناك صنفاً يشاركون الغنم العزاء، ويأكلون اللحم مع الذئب.

أرأيت كيف أن فرعون أظهر نفسه مخلصاً لديانة أهل مصر، في وقت هو لا يؤمن بالله تعالى، بل ويدّعي الألوهية أيضاً: [أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ]النازعات-٢٤. [لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ]الشعراء-٢٩.

إنَّ فرعون المُدَّعي للأُلوهية، تمويهاً للناس وشدّاً على عيونهم، يُظهِر الحميّة والإخلاص للدين، بدرجة يصل إلى الإستعداد لقتل نبي الله موسى من أجله!!

[وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ]غافر-٢٦.

ويبدو أن هناك-اليوم أيضاً- إخلاصاً فرعونياً للإسلام، ولكن يا حسرتاه، إخلاصاً يصل إلى درجة قتل الأنبياء![100]

---

٩٩) هذا بالنسبة لمن يغلب عليه الخطأ والتسّرع، وإلّا فمن الشباب من يُعدُّ كنْزاً للإسلام، والذي يريد شَطبَهُ وعدم أخذ شيء عنه، فهو إمّا جائر أوجاهل.

١٠٠) يُنظَر: الطبعة الرابعة من كتاب: (العاطفة القومية والفكر الناسيونالي) هناك بحث بعنوان: (التدين وحب الكرد بين الإسلاميين والعلمانيين) يتكون من (١١) حديثاً مقتضباً له علاقة بهذا الموضوع من قريب أو بعيد.

المبحث العاشر

إنّ على العلماء، أن يبذلوا جهودهم في الإختلاط والتفاعل الجِدّي مع جميع طبقات المجتمع وشرائِحِهِ، لكي يكونوا ذوي تأثيرٍ بالغٍ عليهم

١) لئن جازت العُزلَة والإنطوائية لأي شخص، فلا تجوز ذلك للعالم بحالٍ من الأحوال، فإذا اراد العلماءُ أن يُصبِحوا قادة الناس والقائمين على شؤونهم، فلا ينبغي لهم -حينئذٍ- أن يَنقَطعوا عن أخبارهم أو ينعزلوا عن تجمُّعاتهم، وعليهم -بالتالي- أن يتحسَّسوا أحوالَهم من قريب، ويختلطوا بهم، ليكونوا على علم بما يقومون به وما ترنُوا أعينهم إليه، وبذلك يُوَضِّحون لهم خَيْرَهُم من شَرِّهم، فيُبارِكُونَهم ويَشُدّون على أيديهم للخير، ويحذرونهم من الشّرّ ويلومونهم عليه، هذا من جهة.

٢) ومن جهة أخرى: فلو قَبِعَ العلماءُ في زاوية بمعزلٍ عن أفراح الأمة وأتراحها، ومعاناتها ومشكلاتها، بل لو لم يتقدَّموا الصفوف في ذلك كلِّها، لا تعتبرهم جماهير الأُمّة، سادَتَها، إذْ كما يقول المثل الكردي: «أقول لك يا خالي، كي تصطاد لي العصافير».

٣) ومن جهة ثالثة: إذا لم يُجسِّدِ العلماء في أنفسهم حقائِقَ الكتاب وأخلاقيات الرسول ﷺ، فمحالٌ أن يستمِع الناس إلى خُطبهم ومواعظهم.

إن دين الله سبحانه وتعالى، بالقَدَرِ الذي تُساهِم الخُطَب والمواعظ في إظهاره، لابَدَّ أن يُساهِم التطبيقُ العمليُّ السلوكيُّ، سبعة أضعاف ذلك.

ورغم بُعد الشُّقة وطول المسار، فإنَّ نخبةً قد حباهُم الله من الناس، يُظهِرون الحقَّ بارزاً للعيان، بعد أن سُمِعَ بالآذان، ولهذا بعد أن قال الله سبحانه: [ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ] قال عزّ وجل: [صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ] حتى يترسَّخ في الآذان أن الله سبحانه لم يُنْزِّل دينه حقاً نظرياً يَضيعُ بين صفحات الكتب، وإنّما أنزله ليتحوّل واقعاً حيّاً مُجَسَّداً في خِضَمِّ حياة الإنسان المتلاطم.

المبحث الحادي عشر

إن من واجب العلماء أن يُرَسِّخوا أواصِرَ الأُخُوَّة فيما بينهم ويُعَمِّقوها، ولكن على أساس الإيمان والعلم والتقوى، وليس التعصُّب والتحزُّب

إن علماء الإسلام أعرفُ الناس، بضرورة الأُخوَّة ووحدة الصَّف والكلمة والكيان، والأهمية الناجمة من كل ذلك.

لذلك يتوجَّبُ عليهم أن يأخذوا حِذْرَهُم -أكثر من غيرهم- لئلاّ يتغاضوا عن حق من حقوق الأخوة فيما بينهم، كأهل العلم خصوصاً، ومع سائر أهل الإيمان والإسلام عموماً.

فإذا لم يُراعَ الإحترام بين أهل العلم أنفسهم -وهم أئمة المسلمين وسُراتهم- ولم يُحِبُّوا لإخوتهم ما يحبونه لأنفسهم، ويكرهوا لهم ما يكرهونه لأنفسهم، ولم يكونوا فيما بينهم إخوةً صادقين على الحق متفقين، فمن ذا الذي سيعظهم ويُعلِّمهم؟!

يا علماء الإسلام يا ملح البلد! ماذا يُصلِحُ الملح اذا الملح فسد!

وإن صفاتٍ كالغيبة، والحقد، والبغض، والطعن في الآخرين، لهي صفات سوءٍ، إذا مارسها أي شخص، كان ذلك عيباً وخَدشاً يَلحَقُ دينه، أما إذا شوهدت تلك الصفات في العلماء، فتلك الطامة بعينها، والهوان بعينه.

وطبقاً لما أسلفنا، فإنه ينبغي للعلماء والأساتذة وأئمة المسلمين، أن لا يُغفِلوا -فيما يخص اجتماعهم ووفاقهم- هذه النقاط المهمة الثلاث:

١) عليهم أن يرفعوا بناء لَمِّ شملهم ونُصرَتَهم لبعضهم -كما هي الحال مع سائر المسلمين- على أساس الإيمان والتقوى والإلتزام بشريعة الله، وليس على شيءٍ سوى ذلك البتة.

٢) وأن ينتبهوا ويحذروا أشد الحَذَر -في أُخوَّتهم- من داء التعصُّب والتحزب والدفاع والتناصر فيما بينهم بالباطل.

٣) وأن يحذروا كذلك ألاّ تَغدَو أُخوتهم وتكاتفهم واجتماع شملهم، باعثاً على انعزالهم عن الناس والمسلمين، وألاّ يَتحوَّلُوا بالنتيجة إلى حزب وجماعة أو شريحة خاصة، كما يلاحظ ذلك في النَّصرانية، حيث إن علماءَهم يُشَكِّلون طبقة مستقلة تختلف عن الناس كلَّ الإختلاف، ونتيجة لذلك ظَهَرَ مصطلح (رجال الدين)(١٠١) ولا مكان لتلك الرذائل في الإسلام، فإضافةً إلى ما يُوليه هذا الدين من احترام للعلماء وأهل الخبرة والمعرفة بالشرع، فإنَّه يقطع كلَّ الطرق على انعزال العلماء كطبقة متميِّزةٍ وشريحةٍ يُذكرون بالخصوص،(١٠٢) ولهذا لم يخاطب الله تعالى العلماءَ خطاباً خاصاً في القرآن، وإنما كان الخطاب دَوماً موجَّهاً إلى أهل الإسلام بِسِمَةِ الإيمان: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ] الذي يعد الأساس الأقوى للأخوة والبوتقة التي ينصهرون فيها..

ولاشك أنّ عزلة العلماء وانقطاعهم عن ميادين الناس، قبل أن يكون ضرره عائداً على الناس، فإنه عائد إلى أنفسهم، والدين متضرّرٌ ابتداءً.

لأن العلماء بمعزل عن الجماهير، يغدون أقليةً ليس بإمكانهم القيام بأية حركة أو نشاط، مالم يأنسوا من الناس تضامناً أو يداً تمتدُّ لتقديم المعونة لهم، وتحدث

١٠١) إن مصطلح (الروحانية) المنتشرة بين الشيعة -للأسف- أيضاً يعطي مفهوم مصطلح (رجال الدين) في المسيحية، وإن علماءَهم من عامة الشيعة، يتمتَّعون بالخصوصية التامة في مؤسساتهم وأمورهم المالية وسائر شؤونهم الأخرى، مما تسبَّب في ظهور موجة من الحساسية والنقد واللوم عليهم، من قبل جميع طبقات المجتمع وشرائحه.

١٠٢) إنّ الثياب الخاصة التي تختلف عن الناس -في نظري- والتي لا نص من الشرع حولها، لها تأثير كبير في خلق جدارٍ نفسي بين (العالم) وبين الناس.

ولعل من الخير أن يلبس كلُّ عالمٍ الزِّيَّ الخاص بقومه، ما لم يكن مخالفاً للشرع، والواضح أنّ النبيﷺ سلك النهج ذاته في زيّه ولباسه، بدليل سؤال الشخص الغريب: «أيكم رسولُ الله؟!» لأنهﷺ لم يكن لباسه متميزاً عمن حوله في شيء، ولا كان يجلس مجلساً خاصاً دونهم فيُعرَفُ به .

ولكنَّني أسترعي الإنتباه، حيث لم أقُل -ولا أقول- إن لبس زيّ خاص بالعالم غير جائز، ولكنَّني قلت: (من الأفضل)، ولا أدَّعي أنَّ مشكلة الإسلام ستنقضي إذا قُضِيَ على الملابس الخاصة بالعلماء، ومن ضمن ذلك، الأحزمة الخضراء (للسادة) والمآزر الصفراء للحجّاج، أبداً، ليس الأمر كذلك، ولكن الزيادة والنقصان والإبتداع، بأسم الدين عمل له أضراره وسَلبيّاته، ونُلام عليه لا محالة.

الطامَّةُ لا محالة، إذا فقد الناس الإحساس بالمسؤولية والتَّبِعة أمام دين الله وشرعة الإسلام، كما حدث في كوردستان والعراق وغيرهما إلى حد بعيد، حيث تضرَّر الإسلامُ ونالَهُ ما ناله من العَناء الشديد.

المبحث الثاني عشر

لا يحل للعلماء من ورثة النبي ﷺ ن يُفسحوا الطريق ويُخلوا الساحة للأنظمة والأحزاب ورؤساء العشائر، أن يَسلبوهم الحكم والسياسة، وأن يسلبهم شيوخ الطريقة، الرِّيادة الروحية والمعنوية، فلا يتبقّى لهم -بالنتيجة- إلاّ علم مجردٌ باردٌ فارقه الروح

إقتراحي الثاني عشر -والأخير- إليكم أيها الأحباء المحترمون، يا أيها العلماء وأئمة المسلمين، في أيّ ثيابٍ ومظهر كنتم! هو:

طالما أُلقي على كواهلكم أمانة التركة الثقيلة، وطالما أنَّ التركة لم تكن حكمة بلا حكم، أو عبادة بلا سياسة، لأن النبي ﷺ وخلفاءَهُ من بعده، قد أحكموا الرَّبطَ بين الحكم والحكمة، والعبادة والسياسة، والسوق والمسجد، والعلم والأخلاق، والتقوى والتضحية، والإلتزام بالدين والقيام بشؤون الدنيا، ومادام الأمر كذلك، فإيّاكم أن تَقبلوا أن يسلبكم المُتَسلِّطون من أهل الحكومات والأحزاب والأمراء ورؤساء العشائر، حق القيادة والريادة في الحكم والسياسة، والقيام على مصالح المجتمع فتكونون كَمَنْ أُكِلَ ثَمَرُهُ وعُصي أمرُهُ.

والحَذَرَ كلَّ الحذر -من جهة أخرى- أن يستولي بعضُ الشيوخ[١٠٣] والمتفقِّرة باسم التصوف والجانب الروحي والعاطفي على قلوب الناس، فيستميلوها إليهم عن طريق مؤسساتهم وقدراتهم وترجِعوا أدراجَكم كما رجع حُنينٌ بِخُفَّيه!

١٠٣) إن الشيخ الذي يدّعي التصوف وإرشاد الناس، لو كان صادقاً كـ(عبدالقادرالگيلاني) و(مولانا خالد) و(كاك أحمد الشيخ...الخ، فهؤلاء كانوا أهل علم قبل أن يكونوا شيوخ طريقة يقعدون لإرشاد الناس، بل إن علمهم هو الذي أهَّلَهُم لإرشاد المسلمين، وكان هؤلاء بحق هم العلماء المستقيمون على النهج القويم، أما الذين نعنيهم هنا، فهم الذين آثروا الدنيا على الدين، وإن طريقتهم أشبه بتجارة دنيوية يقتاتون من ورائها، وهم في الوقت ذاته جهلة بدين الله تعالى، وهم في أحسن أحوالهم -إذا أحسنّا بهم الظن- تُحيطُ بهم السَّذاجة من أطرافهم.

نعم أيها الأساتذة الأكارم وعلماء أمة الإسلام!

إن الحالة السليمة المتناغمة مع نداء الفطرة: أن يكون العلماءُ عُيونَ هذه الأمة التي يبصرون بها، وعقولهم التي يسوسون بها شؤون هذه الحياة المتشابكة، لا أن يصنع الغادون والرائحون من أنفسهم -زُوراً- قادة وسادة لهم.

ولكن هناك حقيقةً تُشَكِّلُ أمراً جللاً، لابد أن تعلموها، وألاّ تغفلوا عنها، وإنما أرجأنا الكلام عنها، لأن تحقيقها متوقف على تحقيق الإقتراحات السابقة بِرُمَّتها، ألا وهي:

أن العلماء ينبغي عليهم أن يكونوا قادة بأعمالهم في أرض الواقع، وأئمة قائمين على شؤون الناس معهم، وأن يُحَقِّقوا في ذواتهم كافة مُقَوِّمات القيادة والسيادة والعوامل المطلوبة لتلك الصدارة، وأن يَتَحَوَّلُوا إلى مرشدين ومشاعل هداية، بتجسيدهم لنواحي العلم والمعرفة والروح والأخلاق والسياسة والإجتماع.

وحينها، وبدون أن تنِدَّ عنهم كلمة واحدة، أو يطلبوا من الجماهير شيئاً، فإنَّهم سَيَلتَفُّون حولهم من تلقاء أنفسهم، ويلتمسون منهم التصدُّر للإمامة.

ولا نعني هنا ألاّ يبيّن العلماء للناس حقائق الإسلام من كل جوانبه، ولكنهم بلا كفاءة واستحقاق لتبوُّءِ تلك المكانة المرموقة، لا يستطيعون القيام بشيءٍ، ولا يقتنع الناس بهم في شيء.

تأمل قوله تعالى مُخبِراً عن إمامة إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

[وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ]البقرة-١٢٤.

وتأمل -أيضاً- كيف جعل الله تعالى صفتي: (الصبر واليقين) سبباً لاختيار ملأ من بني إسرائيل للإمامة في زمانه:

[وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ]السجدة/ ٢٣-٢٤.

ولهذا قال العلماء: بالصبر واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدين، إذ للإنسان نوعان

من القوة، يعرف بإحداها الحق والخير ويكشفه، وتُسمّى القوة العلمية أو النظرية، ويُجسِّدُ بالقوة الأخرى، ما عَرَفَه من الحق والخير على أرض الواقع؛ ويُسَمّى هذا النوع بالقوة العملية، فالقوة الأولى تصل بـ(اليقين) إلى قِمَّة كمالها، وتبلغ القوة الثانية أوجها وقِمَّتها بحيازتها للصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى المصيبة.

ندعو الله تعالى أن يهدي علماءَنا بِمنِّه وكَرَمه، ويوفِّقهم -بعد الفقه في دينه- وبسبب تقوى الله وطاعته وذكره، أن يَسكِبَ على نفوسهم وقلوبهم من السكينة والجاذبية، ما يجعلهم القُطبَ الذي يَتَمَحوَرُ عليه الناسُ، ويتمركز حوله المسلمون، ثِقةً بهم وسكوناً للنفس إليهم، بحيث لا يَدَعُوا ثغرةً يلج منها المتلاعبون بعقول الناس من غير الأكفّاء، ليتقدّموا الجموع ظُلماً ويظهروا في ثياب القادة والسادة، ويُقْصي الذين كانوا أحق بها وأهلها.

ولا يتأتى ذلك إلاّ في أعقاب اقتحام الزِّحام الذي يَعُجُّ به المجتمع، ومن خلال التفاعل مع مشاكل الناس ومعاناتهم، بوعي ثابت وعقلية مُدرِكةٍ للقضايا السياسية والإجتماعية، والإنطلاق على أساس الخبرة والتجربة.

www.youtube.com/alibapir1

الفصل الرابع

باقة مختارة من المواقف البطولية لطائفة من العلماء والأئمة

www.alibapir.net

تمهيد

أيها القُرّآء الأعِزّاء!

في هذا الفصل من الكتاب- بإذن الله تعالى- سنقتطف من كل حديقة زهرة، ونختار عدداً من العلماء-كنماذج- نتحدث عن بعض مواقفهم الجريئة، وأعمالهم الخيّرة، لأن الله تعالى يقول في سورة الفاتحة: [ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ].

فصراط الله المستقيم، دائماً-وعلى مرِّ التأريخ- شوهد عَبر أُناس أكرمهم الله وأنعم عليهم، وإن السَّبيل الأوحد لظهور الحق وهيمنته، أن يرى مُتجَسِّداً في أيدي وسواعد أهله رافعين لواءه بدمائهم، ليُنكِّسوا به راية الباطل.

وبعد أن بيّنا في الفصل الثالث: كيف يجب أن يكون العلماء، سنحاول جهدنا- في ضوء مواقف العلماء وأحاديثهم وأعمالهم السامية المُنبِئَةِ عن إمامتهم وعلوِّ هِمَّتهم- أن تُرى تلك المباديء المعروضة سَلَفاً، مُجَسَّدةً في الواقع المشاهد للعيان، وحتى يتبيّن أنَّ ورثة النبي ﷺ حقَّقوا في أنفسهم-بلسان الحال قبل المقال- الخصال الحميدة والأخلاق الكريمة التي حكى فَضلَها القرآن والسنة، وبذلك استحقوا أن يكونوا قدوات ونماذج يُقتدى بهم، كما كان رسول الله ﷺ القائد والقدوة، كما قال الله الحكيم سبحانه وتعالى: [وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا]البقرة-١٤٣.

ولكن لابُدَّ في هذا التمهيد من الإشارة إلى خمسة أمور:

١/ العلماء والأئمة الذين تحدثنا عنهم، يُمثِّلون غالبية الشرائح في المجتمع الإسلامي، ولم يكونوا من شريحة معينةٍ أو اتجاه خاص، لأن (العالِمِيّة)-كما سلَّطنا

الضوء على ذلك في الفصل الأول وعرَّفناها- ليست مُعَلَّقة بأية قيود أو شروط محددة، عدا التخصُّص والمعرفة في القرآن والسنة، والتحلِّي بالسجايا والأخلاق المشروطة وجودها في العلماء.

والنماذج التي ذكرناها جاءت شاملة لكل المناحي، ففيها الحاكم صاحب السلطة، وإمام المحراب، والمجتهد في الفقه، وأستاذ التربية وتزكية النفس، والداعية الحكيم، والمؤلف القدير، والمثقف الأديب النابغة، والخطيب والمحاضر المؤثر.

٢/ العُلماء الذين ذكرناهم، استشهدنا بموقف-أو بعض مواقف- لهم، وليس بجميع مواقفهم المشرِّفة والعظيمة، فلا يظننَّ أحدٌ أننا أَفرَغنا ما في جعبتنا عن هؤلاء الأفذاذ.

٣/ وكما نوَّهنا آنفاً، فإنّ العلماء الذين أتينا على ذكرهم العَطِر ههنا، يُعدُّون نُخبةً اخترناهم من أئمة الإسلام لا كلِّهم، وإنّ أمثال هؤلاء الفطاحل-حقاً-لكثير.

٤/ الأقوال والأفعال التي حكيناها عنهم، كمواقف جريئة، كانت متنوِّعة ومختلفة، ولكنَّ الذي يَربِطُها جميعاً، هو الجرأة والشهامة وقولة الحق والإلتزام بشرع الله.

والظاهر أنَّ نوعية المواقف الصادرة من العلماء والأئمة، تُحَدِّدها الزَّمانُ والمكان والمرحلة وحاجات المسلمين، إذ كما قيل «لكل مقام مقال».

٥/ ومقصودنا في عَرضِ تلك المواقف الرائعة للعلماء والأئمة الأعلام، هو تسليط مزيد من الإيضاح على مفهوم العلماء في الإسلام وورثة رسول الله ﷺ، وحتى يَغدو من يريد اتخاذهم قدوةً، على بيّنة من أمره ووضوح في رؤيته.

وكما حكى الله لفخر الإنسانية محمد ﷺ، سِيَرَ حياة الأنبياء السابقين عليهم السلام، لِيتَّخِذَهم له قدوة يقتدي بهداهم: [أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ]الأنعام- ٩٠.

والعلماء المعاصرون-في كل عصر- عليهم بالإضافة إلى الأنبياء لاسيّما سيدهم وخاتمهم: محمد، صلوات الله وسلامه عليهم، أن يتخذوا العلماء الصادقين والأئمة

البارعين، الماضين على نهج الأوائل، طليعة لهم ومرشدين، وإلاّ فإن الإدعاء المجرّد لاتّباع السلف الصالح،[١٠٤] ادعاءٌ، والإدِّعاءٌ بلا شاهدٍ[١٠٥] من احترام العلماء المتقدِّمين، لا يُسمنُ ولا يُغني من جوع، بل يُصبح كلاماً محسوباً على قائله ويُصبِحُ هو مديناً على التلفُّظ به، كما قال الشاعر:

وكلّ يَدّعي وصلاً بليلى
وليلى لا تُقرُّ لهم بذاكا
إذا اجتمعت دموع في جفونٍ
تبيّن الباكي مِمَّن تباكا

ولا يتم اتباع سلفنا الصالح واحترام العلماء والأئمة، رحمهم الله وأجزل ثوابهم، إلاّ بِسَيرِنا على نهج هؤلاء العلماء في أخلاقهم العظيمة وسلوكهم القويم، وبذلك نُحَقِّق في ذواتنا مواقفهم الإسلامية تارة أخرى.

١٠٤) هناك كثيرون يدَّعون اتباع السّلف الصالح، لكن لم ينالوا من اتِّباع السلف إلا الإسم.

١٠٥) هنالك الكثير من الأئمة والمحسوبين من زمرة العلماء، ليس احترامهم للعلماء إلّا أدعاء، وهم أبعد الناس عن أخلاق أولئك وآدابهم.

العلماء والأئمة الذين اخترناهم

أيها القرّاء الأعزاء!

هـذا الفصـل الـذي يكـوِّن الشـطر الأكـبر للكتـاب، خَصَّصناهُ لعـرض مقتطفـات مـن مواقـف المُتَأَلِّقـة لأئمـة الإسـلام وعلمائـه، والـذي اخترنـا منهـم:

١. الحسن البصري.
٢. علي بن الحسن بن علي (زين العابدين).
٣. عمر بن عبدالعزيز.
٤. زيد بن علي (الإمام زيد).
٥. سفيان الثوري.
٦. أبو حنيفة (الإمام الأعظم).
٧. الإمام جعفر الصادق.
٨. الإمام مالك بن أنس
٩. الإمام الشافعي.
١٠. الإمام أحمد بن حنبل.
١١. الإمام أبو الحسن الأشعري.
١٢. الإمام الغزالي.
١٣. الشيخ عبدالقادر الگيلاني.
١٤. الإمام النووي.
١٥. الشيخ العزُّ بن عبدالسلام.
١٦. شيخ الإسلام إبن تيمية.
١٧. الأستاذ سعيد النورسي.
١٨. الشيخ أمجد الزهاوي.

١٩. الأستاذ حسن البنا.
٢٠. الأستاذ أبو الأعلى المودودي.
٢١. الأستاذ سيد قطب.

وكما قلنا في التمهيد ونعيده هنا: فإنَّ الذين كتبنا عنهم، هم نماذج، ويوجد من أمثالهم جموع غفيرة، وقد يكون من غيرهم، مَن هم أعلم وأفضل منهم، ولكنّنا على كل حال وفي المُحصَّلة، اخترنا مواقف هذه الثُّلَّة المباركة من العلماء، سواء بسبب غلبة ظنِّنا أنهم أكثر تجسيداً للعلم من غيرهم، أو بسبب مواقف بعينها، كُنّا في حاجةٍ إلى إظهارها خصوصاً، وكانت ألمع وأشد ظهوراً من غيرها، أو بسبب يُسرِ المصادر المتاحة التي تناولَتْ حياة الذين اخترنا الحديث عنهم، ولاشك أنه كان لكلٍ من هذه الأسباب تأثيرٌ بحسبه.

وأجدني في حاجة أن أمُرَّ على بعض الأسماء -ولو مرور الكرام- والتي ظهرت بعد زمن إبن تيمية وإلى ما قبيل القرن الرابع عشر الهجري، وكان لهم دور بارز، كلٌّ بحسبه، في حماية المجتمع الإسلامي من الإنحراف والتِّيه، وهؤلاء أيضاً لم نَستعرِضهم على سبيل التقصِّي:

١. أبو إسحق الشاطبي، صاحب الكتابين الممتازين: (الموافقات) و(الإعتصام).
٢. عبدالرحمن ابن خلدون، صاحب كتاب: (المقدمة).
٣. ابن الوزير اليماني، صاحب كتاب: (العواصم والقواصم في الذبِّ عن سنة أبي القاسم).
٤. ابن حجر العسقلاني، صاحب الكتاب القيِّم: (فتح الباري: شرح صحيح البخاري).
٥. السيوطي، صاحب عشرات الكتب المتنوعة في جميع مجالات العلوم الشرعية.
٦. السيد أحمد السرهندي، المعروف بـ(الإمام الرباني ومُجدِّد الألف الثاني) وصاحب كتاب: (المكتوبات).
٧. محمد بن علي الشوكاني، صاحب تفسير: (فتح القدير) والموسوعة الفقهية: (نيل الأوطار).

٨. الشاه ولي الله الدهلوي، صاحب كتاب: (حجة الله البالغة) و(إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء).
٩. الصنعاني، صاحب كتاب: (سبل السلام شرح بلوغ المرام).
١٠. الآلوسي، صاحب تفسير: (روح المعاني).

ومن الضروري كذلك، أن أذكر طائفة أخرى من العلماء والأئمة العاملين المعاصرين من أصحاب المواقف البطولية، وعددهم سبعة عشر عالماً، وجدير بالذكر أن الأئمة والعلماء المعاصرين الذين آثرنا ذكرهم، والتنويه بهم، كان بسبب تأثيرهم المتفاوت في اليقظة الإسلامية التي عمَّت العالم الإسلامي، وفي سائر الحركات الإسلامية على اختلاف مشاربها وأشكالها، ولاشك بأننا في هذه المرة كذلك، كنا مقتطفين لا مستقصين:

١. جمال الدين الأفغاني: صاحب الفضل في إيقاظ المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأواخر القرن الثالث عشر الهجرى وبدايات القرن الرابع عشر.
٢. السلطان عبدالحميد الثاني: آخر رمز للخلافة الإسلامية، صاحب المواقف المهمة في استعداده لاعتزال الخلافة، وعدم استعداده لتسليم فلسطين لليهود.
٣. الشيخ عبدالرحمن الكواكبي: صاحب كتاب: (طبائع الإستبداد ومصارع الإستعباد).
٤. الشيخ محمد عبده، المصلح الإجتماعي المعروف، تلميذ جمال الدين الأفغاني.
٥. الشيخ رشيد رضا، صاحب مؤسسة المنار المعروفة، تلميذ الشيخ محمد عبده.
٦. عبدالحميد باديس، العالم والإمام الجزائري الكبير.
٧. الشيخ جمال الدين القاسمي، صاحب تفسير: (محاسن التأويل) المعروف بتفسير القاسمي.
٨. الأمير شكيب أرسلان، المعروف بـ(أمير البيان) المؤرخ والأديب الألمعي.
٩. الأستاذ محمد إقبال اللاهوري الشاعر والمفكر الإسلامي البارع.

١٠. محمد الطاهر بن عاشور، صاحب تفسير (التحرير والتنوير)، وكتب أخرى.
١١. الأستاذ مالك بن نبي، الكاتب والمفكر الجزائري المعروف.
١٢. الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المحدث المعروف، صاحل العديد من الكتب والرسائل.
١٣. الشيخ تقي الدين النبهاني، مؤسس حزب التحرير، وصاحب العديد من الكتب والرسائل الإسلامية.
١٤. الدكتور علي شريعتي، صاحب العديد من الكتب، الذي عمل على صحوة مسلمي إيران.
١٥. الأستاذ سعيد حوى، صاحب: (الأساس في التفسير) و(الأساس في السنة) والعديد من الكتب الأخرى.
١٦. الدكتور عبدالله عزام، العالم والمجاهد، الذي أذكى روح الجهاد والتضحية بين كثير من الشباب العربي المسلم.
١٧. أبو الحسن الندوي، العالم والداعية والمؤرخ والنابغة الهندي، الذي ألّف العديد من الكتب الإسلامية المهمة والمؤثرة مثل: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) و(رجال الفكر والدعوة في الإسلام).

أللّهم بمنك وكرمك، اغفر لهؤلاء العلماء الأعلام، والأئمة الكرام، ولأمثالهم ونظرائهم، وأجزل لهم الثواب يا أرحم الراحمين، وأعلي درجاتهم في العليين، إنك سميع الدعاء.[١٠٦]

١٠٦) لاشك أن أحداً من هؤلاء ليس معصوماً من الخطأ والتقصير، وكما يقول الكرد «العبد لا يكون بلا عيب»، ونحن علينا أن نتعلّم من حسناتهم، وأن نأخذ العبرة من أخطائهم، ولكن البحث وراء الدنس أينما كان هو عادة الذباب، فحذار من هذه العادة.

وأناس يعتبرون (جمال الدين الأفغاني) و (محمد عبده) عملاء وكفرة، أو (حسن البنا) مبتدعاً، و(أبو الأعلى المودودي) رافضياً، و(في ظلال القرآن) للشهيد سيد قطب ضلالاً، لا يسعني في هذه العجالة إلاّ أن أدعو لهم بالشفاء من الله تعالى.

١- الحسن البصري[١٠٧] رحمه الله

ولـد الحسـن البـصري سـنة (٢١) للهجـرة، في المدينـة، وتـوفي في (١١٠هـ)، كان أبـوه (يسـار)، وأمـه (خـيرة) عبديـن أُعتقـا.

كان الحسـن أجـل وأكـبر عـالمٍ في زمانـه، وكان لـه مـن الإحـترام والمهابـة مـا ليس لغـيره، لمـا كان يقـوم بـه مـن أمـرٍ بالمعـروف ونهـيٍ عـن المنكـر، مـع الأمـراء والـولاة، وسَـنَتَعَرَّضُ -هنا- لذكـر موقـفٍ واحـد مـن مواقفـه:

«لمّـا وُلِّيَ (عمـر بـن هبـيرة الفـزاري) العـراق، وأضيفـت إليـه خراسـان، وذلـك في أيـام يزيـد بـن عبدالملـك، استدعى: الحَسَـن البـصري، ومحمـد بـن سـيرين، والشـعبي، وذلـك في سـنة ثـلاثٍ ومئـة (١٠٣هـ)، فقـال لهـم: إن يزيـد خليفـة الله، استخلفه على عبـاده، وأخـذ عليهـم الميثـاق بطاعتـه، وأخـذ عهدنـا بالسـمع والطاعـة، وقـد ولاّني مـا تـرون، فيكتـب إليّ بالأمـر مـن أمـره، فأُقَلِّـده مـا تَقَلَّدَهُ مـن ذلـك الأمـر، فـما تـرون؟

فقـال إبـن سـيرين والشـعبي قـولاً فيـه تِقِيّـةٌ، فقـال إبـن هبـيرة: مـا تقـول يـا أبـا سـعيد؟ فقـال: يـا ابـن هبـيرة! خَـفِ الله في يزيـد، ولا تَخَـف يزيـد في الله، إن الله يمنعـك مـن يزيـد، وإن يزيـد لا يمنعـك مـن الله، وأوشـك أن يبعـث إليـك مَلَـكاً فيزيلـك عـن سريـرك، ويُخرِجَـك مـن سـعة قـصرك إلى ضيـق قـبرك، ثـم لا يُنجيـك عَمَلُـك.

يـا إبـن هبـيرة! إن تعـص الله، فإنّـما جعـل الله هـذا السـلطان نـاصراً لديـن الله وعباده، فـلا تركبـنَّ ديـن الله وعبـاده لسـلطان الله؛ فإنّـه لا طاعـة لمخلـوق في معصيـة الخالـق..»

فأجازهـم ابـن هبـيرة، وأَضعَـف جائِـزَة الحسـن، فقـال الشـعبي لابـن سـيرين: سَفْسَـفْنا لـه فَسَفسَـفَ لنـا.

---

١٠٧) إعتمدنا في كتابة هذا الموضوع على:

١- (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، لأبي الحسن الندوي ج١ ص٦٦-٧٢.

٢- (إقتضاء الصراط المستقيم)، لابن تيمية ج١ ص١٠٢، هامش المحقق.

٢- علي بن الحسين (زين العابدين)[108] رضي الله عنهما

إسمه: (علي بن حسين بن علي بن أبي طالب)، رضي الله عنه وعن أبيه وجده وأمه وجدته، كان معروفاً بـ(زين العابدين) ولد في سنة (٥٠) أو (٣٣) للهجرة، في المدينة المنورة، وتوفي فيها سنة (٩٤) أو (٩٢هـ)، أحد العلماء العاملين الأفذاذ، من طبقة التابعين، قال عنه الزهري: «لم أُدرِك بالمدينة أفضل منه».

وجدير بالقول أنَّ (زين العابدين) هو الإبن الوحيد للحسين بن علي بن أبي طالب، الذي لولاه لانقطع نسل رسول الله ﷺ، لأنه الوحيد الذي نجا من فاجعة كربلاء المشؤومة، تلك المذبحة التي أقامها جنود يزيد لآل الحسين، حتى ما أبقت منهم غير علي.

ولهذا كان (زين العابدين) حزيناً صامتاً، كثير البكاء والحسرات، وقد سُئِل عن حزنه وأساه، فقال: لقد بكى يعقوب على يوسف حتى ابيضت عيناه، وهو يعلم أنه حي يرزق، ولكنّي شهدتُ مصارع خمسة عشر نفراً من عائلتي في غداة واحدة، فهل ياترى تزولُ عن قلبي وطَأةُ حُزنهم يوماً؟!

وسنختار من مواقف هذا الإمام الكريم مَنبَتُه، ثلاثة مواقف فقط:

أولاً/ ذكر النووي في كتابه (تهذيب الأسماءِ واللغات) أن شيبة بن نعامة، قال: لما توفي علي بن الحسين وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة في السِّرّ.

تأمل وقارِن بين هذا الموقف الإسلامي العظيم من (زين العابدين) مع صدقة مُحسِنيّ زماننا، فبعضهم إذا أنفق دريهمات في سبيل الله عَلِم الجميعُ بأمره، ولكن علي بن الحسين-بقية نسل رسول الله ﷺ- كان يقيم شؤون، ليس بيتٍ أو بيتين، بل مئة بيت، ولم يعلم أحد بهذا حتى ارتحل عن هذه الدنيا، فعليك شآبيب رحمة ربي إنك لعمر الحق كنت جديراً بلقب (زين العابدين).

١٠٨) إعتمدت في هذا المبحث على هذه المصادر الثلاثة:

١- (تهذيب الأسماء واللغات) للنووي ج١ ص٣٤٧.

٢- (تأريخ المذاهب الإسلامية) لمحمد أبو زهرة ص٦٥٠-٦٥٢.

٣- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٨ ص٢٥.

ثانياً/ كانت ذات يوم تسكُب إحدى الجواري الماء على يدي (زين العابدين) للوضوء، وفجأةً يقعُ الإبريق من يدها وينجرح وجهُهُ، فيرفعُ إليها رأسَهُ مُعاتِباً، فتقول الجارية في الحال: قال الله تعالى: [والكاظمين الغيظ]، فيقول: قد كظمت غيظي، فتقول: (والعافين عن الناس)، فيقول: عفا الله عنك، ثم تقول: (والله يحب المحسنين)، فيقول زين العابدين: إذهبي فأنت حُرّة لوجه الله تعالى!

ثالثاً/ كانت الشيعة عند مبدأ ظهورهم في أيام (زين العابدين) لا يُلاحظُ كبير فرق بينهم وبين جمهور المسلمين[109]، سوى الإنحياز القليل والميل إلى علّي وبنيه، إلى أن ظهر بينهم -بالتدرّج- طائفة حادَت عن الطريق، عُرِفوا فيما بعد بـ(الرافضة).

جاءت جماعة من هؤلاء يوماً إليه، فذكروا وزيري رسول الله ﷺ أبا بكر، وعمر رضي الله عنهما، بالسوء، فسألهم تبكيتاً ونُصحاً لهم: هل أنتم من الذين قال الله تعالى فيهم: [لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ]الحشر/ ٨. فقالوا: لا.

قال: فهل أنتم من الذين قال فيهم: [وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ]الحشر/ ٩. فقالوا: لا.

قال: فقد شهدتم على أنفسكم بأنّكم لا من الأنصار ولا من المهاجرين، وأنا أشهد بأنكم لستم من الجماعة الثالثة أيضاً، الذين قال الله تعالى عنهم: [وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟]الحشر/ ١٠. !!

ثم طردهم قائلاً: فقوموا عنّي لا بارك الله فيكم ولا قرّب دُوركم، أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله.

١٠٩) كما قلت سابقاً: أُحَبِّذ آستعمال لفظ (جمهور المسلمين) بدل (أهل السنة والجماعة)، وقد وضَّحت حكمة هذا في الكتاب الثاني من موسوعة: (التفكير الإسلامي بين الوحي والواقع)، وعنوان الكتاب: (الخطوط العامة لجمهور المسلمين).

وغَنيٌّ عن البيان، أن هذا الإمام الكريم بن الكرام، كان يعني أن الله سبحانه امتدح ثلاث جماعات من المسلمين:

١- المهاجرون الصادقون.

٢- الأنصار المفلحون.

٣- التابعون الأوفياء.

فهؤلاء الذين أساءوا الأدب مع خليفتين راشدين رضي الله عنهما، هم أقرُّوا بألسنتهم بأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، وأخبرهم (زين العابدين) بأنهم ليسوا من الفئة الثالثة أيضاً، الذين يدعون لأصحاب رسول الله ﷺ حباً ووفاءً لهؤلاء الأعزاء، رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

٣- عمر بن عبدالعزيز رحمه الله

(عمر بن عبدالعزيز)، الذي يعرف عند كثير من المؤرِّخين بأنه خامس الراشدين، ولد سنة (٦١هـ)، وتوفي سنة (١٠١) لهجرة المصطفىﷺ عند عمر يناهز التاسعة والثلاثين وبضعة أشهر.[١١٠]

لم تستغرق فترة خلافته أكثر من ثلاثين (٣٠) شهراً، أي سنتين وستة أشهر، ولكنه في تلك المدة الوجيزة، أحدث تغييراً حارت فيه العقول إلى يوم الناس هذا.

وفيما يلي سنختار قطوفاً من مواقفه وأخلاقه وأعماله، عددُها أربعة:[١١١]

أولاً/ الشروع بالثورة والتغيير من الذات:

إن عمر -رحمه الله- في سبيل إعادة المجتمع الإسلامي إلى الصِّراط المستقيم، الذي كان الأمويون -بزمن قبله- قد أمالوهُ نحو الجاهلية من اتجاهات مختلفة، ابتدأ من نفسه وعائلته:

١. ابتداءً أعاد كلّ الأموال والأمتعة التي سُلِّم إليه، كميراث وتركات ثمينة، وفق تقاليد الأمويين، إلى بيت المال.
٢. وأعاد كل الجواري والوصيفات، كلٌّ إلى أهلها ووطنها.
٣. والمجالس التي تحوَّلت إلى ما يشبه مجالس الإمبراطورية الفارسية أو الرومية، غَيَّرها وأعادَها إلى الحالة الإسلامية الطبيعية، فمنع القيام، وكان يُسلِّم ابتداءً، وسمح للدخول عليه بلا استئذان.
٤. أعاد ما كان في حيازته من الدور والعقار، وكذلك الذهب والمجوهرات التي كانت عند زوجته فاطمة، إلى بيت المال.
٥. كان يعيش عيشةً مُوغِلَةً في البساطة من ناحية ملبسه ومأكَلِهِ، هو وأهله على السواء، ولربما كان يتأخر عن شهود صلاة الجمعة لأن ثوبه الوحيد كان مغسولاً لما يَنشَف، وكثيراً ما كان العدس والبصل طعامهم.

---

١١٠) أي عاش بين عامي: ٦٨١-٧٢٠م.
١١١) (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) ج١ ص٣٢-٦٢.

ثانياً/ تطهير وتقويم المؤسسات الحكومية:

١- بادر إلى عزل بعض الولاة الذين كان الناس يعانون من ظلمهم وتَسلُّطهم.

٢- ثم بدأ بإزالة المظالم التي كانت تراكمت طوال العهد الأموي، فَخَصَّصَ من ١٠٠-٣٠٠ دينار هِبةً ومكافأةً لمن يأتي إليه بمشكلة خاصة أو عامة للمسلمين ليعالجها! وفي هذا يقول عمر:

أما بعد، فأيُّما رجل قَدِم إلينا في رد مظلمة، أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين، فَلَهُ مِئةُ دينار إلى ثلاثمائة، بقدر ما يُرى من الحِسبة وبعد السفر.

٣- ألغى جميع الضرائب والمكوس المختلفة الموضوعة ظلماً على رقاب الناس بكل طبقاتهم وشرائحهم، إلاّ ما كان يأمر به الشرع فيما هو في مقدور الناس.

فمثلاً: شكا إليه بعض العُمّال، بأنه إذا أُعفي كلُّ مَن أَسلم من أهل الذمة من الجزية فإنَّ ميزانية الدولة الإسلامية سَتَخسر خسارةً باهظة، ولذلك اقترح أن يبقى دفعُ الجزية واجبة حتى بعد أن يُسلِموا!

فردَّ عليه عمر اقتراحه السياسي المخالف للشرع، وقال كلاماً جديرٌ بنا أن نكتبه بماء الذهب، لما فيه من جوهر الخلافة الراشدة متألِّقاً متلألأً:

«إن الله جل ثناؤه بعث محمداًﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً».

٤- ثم قام بإبطال التبذير والمبالغات التي كانت تمارس في نظام الحكم وفي حياة المسؤولين من بني أُمية، ليعلِّمهم الإعتدال والإقتصاد، حتى لا تذهب أموال المسلمين هدراً وهي ملك لجميعهم.

كتب في رسالة إلى أحد عامليه وقد طلب منه أوراقاً وقرطاسية كثيرة لأداء عمله، يأمره بالإقتصاد والإختصار ودقّة الخط حتى لا يُثقِلَ على بيت المال بباطل القول عبثاً، جاء في رسالته رحمه الله: «فإذا جاءك كتابي هذا فأرِقَّ القَلَم، واجمع الخَطّ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم، والسلام عليكم..»[١١٢]

١١٢) سيرة عمر بن عبدالعزيز، لابن عبدالحكيم، ص٦٤.

ثالثاً/ الإهتمام بالعلوم الشرعية واحترام العلماء وإعانتهم:

١- كان عمر بن عبدالعزيز، باعتراف العلماء والأئمة، أحد العلماء الربانيين الراسخين.

قال الذهبي في كتابه (تذكرة الحفاظ): «كان يُقرَنُ بالزهري في علمه».(١١٣)

ويقول عنه المجاهد: «أتيناه لنُعلِّمه، فما بَرِحنا حتى تعلَّمنا منه».

ولولا واجبات الخلافة وكثرة انشغاله بها، لكان واحداً من أئمة الإسلام وعلمائه الأعلام.

٢- والعمل العظيم الذي قام به في هذا المقام: أنه أمر أبابكر محمد بن حزم- وكان من كبار العلماء في ذلك الزمن- بجمع وكتابة أحاديث رسول الله ﷺ قائلاً له: «أنظر فيما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإنِّي خِفت دروس العلم وذهاب العلماء».

وكذلك كتب إلى جميع ولاته قائلاً: «أُنظُروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه».

٣- والخدمة الأخرى التي قدَّمها لأهل العلم، أنه خصَّص لهم رواتب وعطاءات من بيت مال المسلمين حتى يتفرغوا لنشر العلم.

روى محمد بن الحكم عن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله:

أنه بعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية، أن يعلِّما الناس السُّنَّة، وأجرى عليهم الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث، وقال: «ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً»، فذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز فقال: «ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثَر الله فينا مثل الحارث».

رابعاً/ إهتمامه بالدعوة ونداء الناس إلى الإسلام:

لم يقتصر عمر بن عبدالعزيز على إصلاح المسلمين وتطبيق الشريعة الإسلامية على الدولة الإسلامية، بل عُنيَ بالدعوة إلى الإسلام في غير المسلمين، وكان لها تأثير كبير لإخلاصه وصدقه وحُسن تمثيله للإسلام بحياته وأخلاقه، وقد أسلم

١١٣) تذكرة الحفاظ، ص١٠٦.

كثير من أولئك في ذلك العهد، بتأثير رسائله التي كان يدعوهم فيها إلى الإسلام.

قال البلاذري في كتابه (فتوح البلدان):

وقد كتب عمر بن عبدالعزيز إلى ملوك الهند يدعوهم فيها إلى الإسلام على أن يُبقِيَهُم ملوكاً على بلدانهم، وأن يتساووا مع باقي المسلمين في الحقوق والواجبات، وكانوا قد سمِعوا بشهرة عمر قبل ذلك، فأَسلموا وتسمَّوا بأسماء العرب.

وأسلم في عهده أيضاً كثير من شعوب البربر وأهل المغرب، بعد أن كتب رسالة إلى واليها (إسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر) فقرأها عليهم في مجالسه.

وكذلك أسلم كثير من أمراء وملوك (ما وراء النهر) بتأثير رسائله الداعية لهم لدخول الإسلام، وإعفائهم من الضرائب والخراج.[١١٤]

رحم الله عمر بن عبدالعزيز بوافر رحمته ورضي الله عنه بواسع كرمه.

١١٤) الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ج٢ ص١٨٩.

٤- الإمام زيد بن علي[115] رحمة الله تعالى عليه

إسمه: (زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب)ﷺ، ولد سنة (١٨٠هـ) في مدينة رسول اللهﷺ، واستشهد سنة (١٤٢هـ) في عهد هشام بن عبدالملك بن مروان، في معركة غير متكافئة خاض غمارها في سبيل الحق.

هو مؤسِّس المذهب الزيدي، وأحد العلماء المجاهدين البارزين من أهل بيت الرسول ﷺ، وسنختار من سيرة هذا العالم صاحب المراس الصعب، ثلاثة من مواقفه الجريئة والعظيمة، نتحدَّث عنها باختصار:

الموقف الأول:

كان هشام بن عبدالملك يجد خشية من (زيد بن علي) ولذلك وضعه تحت المراقبة الشديدة ولم يكتف بذلك، بل أراد أن يُهينه أمام الناس وأن يُظهِرَ أن هناك نزاعاً بينه وبين أقربائه، لأن زيداً كان على خلاف مع أبناء عمِّه: الحسن بن عليﷺ، على وقف لعلي بن أبي طالبﷺ: أيُّهم يشرف عليه؟

فأرسل هشام إلى والي المدينة -وكان اسمه خالد- أن يحاول جاهداً في تحويل أمر النِزاع إلى هشام نفسه حتى يستغرق أمداً طويلاً، فيصبح حديثاً على كل الألسنة.

وكان زيد على علم بما يُبطِنُه هشام وخالد، ولذلك عندما اجتمع الناس في المسجد بأمر الوالي ليشهدوا نزاع زيد مع بني عمه، وكان عبدالله يتحدث باسم آل الحسنﷺ، فدعاه زيد قائلاً له: «لا تعجل يا أبا محمد، أعتق زيدٌ ما يملك، إن خاصمك إلى خالد أبداً»، ثم توجَّه إلى خالد قائلاً له: «أَجَمَعتَ ذريّة رسول اللهﷺ لأمرٍ ما كان يجمعهم عليه أبوبكر ولا عمر»؟!

---

١١٥) إعتمدنا في كتابة هذا البحث على المصادر الآتية:

١- تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٥٧-٦٥٨.

٢- الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ج٩، ص٣٠٣.

٣- الكامل في التأريخ، لابن الأثير.

٤- البداية والنهاية، لابن كثير، ج٩، ص٣٠٣.

٥- مروج الذهب، للمسعودي، ج٢، ص١٨٢.

وهكـذا أَفشَـلَ زيـدٌ خِطَّـة قَـذِرَة كان هشـام يعتـزم تنفيذهـا، ولم يَبـقَ أمـام الـوالي شيءٌ إلاّ أن يستعدي بعـض الأغـرار عـلى زيـد ليَسُـبُّوه، ولكـن الإمـام زيـد صاحـب الأخـلاق الباذخـة، ترفَّـع عـن الإجابـة قائـلاً: «إنّـا لا نجيـب مثلـك».

الموقف الثاني:

إن هشام بن عبدالملك كان يضايق زيداً أشدَّ المضايقة ومن ذلك:

أن زيـداً ذهـب ذات مـرّة إلى العـراق ثـم عـاد إلى المدينـة، فاسـتقبله الـوالي وكان يومهـا خالـد بـن عبـدالله القسـري، وحاطـه بالحفـاوة والإحـترام، وقـد عُـزِل الـوالي بسـبب صنيعـه مـع زيـد، واسـتبدل بـوالٍ آخـر.

وقـد أُتُّهِـم زيـدٌ وأقربـاؤه زُوراً، بـأنَّ خالـداً وضـع عندهـم أمـوالاً كأمانـات يحفظونهـا، وتـذرَّع بهـذه الذريعـة في اتِّهامهـم ليسـتدعيهم جميعـاً إلى العـراق ليبحـث معهـم الأمـر.

ولأن زيـداً كان مُرغَـماً أن يحاول تخفيف مـا أَلَمَّ بهـم مـن التضييق والإيـذاء والحصار، فقـد جمع أمـره للسـفر إلى الشـام ليقابل هِشـاماً بنفسـه، ليبثَّهُ شـكواهم.

وإمعانـاً في تذليلـه يمنعـه هشـام مـن مقابلتـه بأعصابـه البـاردة وجهلـه المقيـت، فيكتـب زيـد ورقـة يكتـب فيهـا مقابلتـه، فيكتـب لـه الخليفـة في أسـفل الورقـة نفسـها: «إرجـع إلى مَنْزِلـك في المدينـة.».

وبعـد محـاولات وَلأْيٍ يأذنـون لـه في مقابلتـه، ولكنَّـه عندمـا يدخـل عـلى هشـام لا يحترمـه، فيجلـس زيـد في فسـحة مـن المجلـس ويقـول:

«يا أمير المؤمنين، ليس أحد يكبر على تقوى الله، ولا يصغر دون تقوى الله أحد».

فـردَّ عليـه هشـام: «أسـكت لا أُمَّ لـك، أنـت الـذي تُنازعـك نَفسُـك في الخلافـة، وأنـت ابـن أمـة؟!!

فيجيبه زيد جواباً يُفحِمهُ ويُرغِمُ أَنفَه، فيقول:

إنَّـه ليـس أحـدٌ أولى بـالله ولا أرفـع درجـةً عنـده مـن نبـيٍ بعثـه، وقـد كان إسـماعيل

إبن أمة وأخوه إبن صريحة، فاختاره الله وأخرج منه خير البشر، وما كان على أحد من ذلك إذا كان جدّه رسول اللهﷺ وأبوه علي إبن أبي طالب كرم الله وجهه».[١١٦]

وعند ذلك أُسقِطَ في يد هشام، فصاح به «أُخرج»، فقال زيد: «أَخرجُ، ثم لا أكون إلاّ حيث تكره».

الموقف الثالث:

وبعد أن لم يبق أمام زيد طريقةٌ يسلكه أو عاصمٌ يعصمه، وبعد أن رأي تمادي بني أُميّة في إيذائه وإهانته، وردِّ هشام لشكواه، شرع باسم الله رافعاً شعاره «إمّا النصر وإما الشهادة»، فاختار ميتةً عزيزة على حياة ذليلة، فبدأ ثورته على حكّام بني أمية الجائرين، وشَمَّر عن ساعد الجِدِّ لإعلاء شريعة الله وتخليص الأمة منهم.

ولنسمع إلى المؤرخ الشهير (إبن الأثير) ترى ماذا كتب عن هذا الموضوع وماذا كان هدف زيد في ثورته، وكيف أخذ البيعة على الناس؟!

يقول ابن الأثير إنَّ كيفية أخذ زيد البيعة على أتباعه كانت كما يلي:

«إنَّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيهﷺ وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسّواء، ورد المظالم ونصر أهل البيت، أتُبايعون على ذلك؟»، فإذا قال المبايع: نعم، كان زيد يصافحه قائلاً له:

«عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله لَتَفِينَّ ببيعتي، ولَتُقاتِلَنَّ على عدوِّي ولتنصحنَّ لي في السِّر والعلانية».

وقد بايعه خمسة عشر ألف (١٥,٠٠٠) في الكوفة، ثم انضمّ إليهم شيعة الأطراف والمدن الأخرى، فوصل عددهم إلى أربعين ألف (٤٠,٠٠٠) رجل.

---

١١٦) ليس هناك دليل شرعي على تخصيص علي بن أبي طالب ﷺ بقول (كرم الله وجهه) أو (عليه السلام)، أو تقدم كلمة الإمام على اسمه دون الأصحاب، لذا يستحسن أن يسترضى عنه، كسائر الصحابة. يُنظَر: تفسير إبن كثير ج٣ ص٥٣٩.

وقد حذَّر زيداً كثيرٌ من وجهاء آل البيت وأئمتهم، وخوَّفوه من عاقبة ثقته بأهل الكوفة، وإنهم ليسوا موضع ثقة أحد، ولكنه كان عاقد العزم على الموت برفعة رأس؛ فمضى في طريقه لا يَلوي على شيء، وقد حدَّدوا شهر (صفر) من سنة (١٢٢هـ) موعداً لبدء الهجوم والإنقضاض، وهشام الذي كانت الخشية تُساوِرُه من عمل يقوم به زيد، كان قد بثَّ عيونه وجواسيسه بكل الإتجاهات لِتَحَسُّس الأخبار، فلما علم هشام بأمر زيد، أرسل إلى والي الكوفة أن يعطي زيد الأمان، فإن قبل ذلك، وإلاّ قاتله.

وبينما تُعِدُّ بنو أُميَّة جيوشها لحرب زيد وجماعته، وفي هذا الوضع الحسّاس والصعب، نادى زيدٌ أتباعه من العراقيين أن يَفُوا بالبيعة التي في أعناقهم ويَحمُوا ظَهرَه.

ولكنهم كَدَأبِهم مع جَدِّه الحسين رضي الله عنه، بدؤوا بالتسلُّل لِواذاً وإنشاء المعاذير، إلاّ أن حجَّتهم التي أجمعوا عليها جميعاً، يتَّضِح في هذا الحوار الذي أَجرَوه مع زيد:

قالوا: رحمك الله، ما تقول في أبي بكر وعمر وعثمان؟!

فقال: غفر الله لهم، لم أَسمعْ أحداً من آل البيت يَتَبرَّأُ منهم أو يذكرهم بسوء.

فقالوا: فأيَّ ثأْرٍ تريده لأهل البيت؟

فقال: إن أقصى ما أقول عَمَّن ذكرتم، أنَّا كنّا نرى أنفسنا أحق بخلافة النبي ﷺ وأَجدَر بها، ولكن الناس سَلَبُونا حَقَّنا ودفعونا عنها،[117] وإن عَمَلَهم لم يبلغ الكفر، والذين تولَّوا أمر الخلافة، كانوا عدولاً أخذوها بحقِّها وساروا بها على منهج القرآن والسنة.

قالوا: فلماذا تُحاربهم (أي لماذا تحارب بني أمية).

فقال: لكن هؤلاء ليسوا كهؤلاء، يَظلمون أنفسهم والناس جميعاً، وأنا أدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإحياء السنن وإماتة البدع، فإذا صبرتم كان خيراً لي ولكم، وإن تولَّيتُم، فَلَست عليكم بشهيد، فرفضوه وانصرفوا ونقضوا بيعته وأعلنوا أن الإمام هو جعفر الصادق.

١١٧) غفر الله لزيد، ليس هناك دليل شرعي من كتاب ولا سنة على ذلك، ومُحال أن يغتصب هؤلاء الأصحاب الأطهار حقاً لأهل البيت، وإن وقوع زيدٍ وبعض أقربائه في الخطأ، أَجدَرُ من وقوع جميع الصَّحب في الخطأ.

وعندما اشتدَّتْ هجمات بني أُمية، أعلن زيد الحرب قبل حلول الموعد بشهر، ونادى أصحابه بشعار (يا منصور يا منصور)، فلم يُلَبِّ دعوته غير (٤٠٠) رجل، وقد دعاهم زيد قائلاً: «أُخرجوا من الذِّل إلى العِزِّ، أُخرجوا إلى الدين والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا دنيا».

فلم يجبه أحد، ولما علم أنه إلى هزيمة، قال:

«أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية، أما والله لأقاتلن حتى الموت».

وعندما حمي الوطيسُ، بقي مع زيد من المقاتلين كعدد المسلمين يوم بدر، وكانت عدة جيش الأمويين كثيرة جداً، ويصله المدد تباعاً.

ولكن هذا الجيش الهادر الجرّار لم يصمد أمام هجمات زيد وأصحابه، فانهزموا من ميمنتهم وقُتل منهم سبعون رجلاً، وعندما رأى الجيش الشامي هذا، أيقنوا أنه لا انتصار لهم بحرب السيوف، لذا غَيَّروا خطتهم وأمطروهم بوابلٍ من السهام، وأصاب سهم جبهة زيد، فمات شهيداً وهو يُحاول استخراج السَّهم من رأسه.

تماماً كشهادة جَدِّه الحسين: لما عجزا وجُبِنوا عن مقاتلته وجهاً لوجه، أو قتال رجل لرجل في الميدان، قتلوه رمياً بالسهام من بعيد.

ومما يذوب له القلبُ حسرةً وكَمَداً، أنَّ هشام بن عبدالملك بن مروان بن حكم، أعاد ذات التصرف والموقف المُخزي الذي فعله سلفه (يزيد بن معاوية) و(عبيدالله بن زياد) مع سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي رضي الله عنهما، حيث قاموا بهتك جسده ميتاً، وأمر هشام باستخراج جثته الدامية من قبره، ورَمُوا به في كناسة الكوفة وعلَّقوها، ثم حرَّقوها، وذَرَوا رَمادَها في الهواء.

غفر الله لزيد، ورضي الله عنه وأرضاه، وأعلى مقامه، وصَبَّ غَضَبَهُ وانتقامه وسَخَطَهُ على الذين يريقون دماء أحباب الله، من أجل حطام الدنيا، وبقاء عرشٍ طاغوتي، ما تربَّعوا عليه بأمر من الشرع ورضاه.

قال الله العزيز الحكيم بهذا الصدد:

[إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقٍّ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ] آل عمران:٢١-٢٢.

لقد قُتلَ زيدٌ وحُرِّقَ وذُرَّ رَمادهُ في الهواء، لأنه كان يقول للأمويين: «أُحكموا بالكتاب والسنة، ولا تلتهموا الدنيا باسم الإسلام، وكفاكم ظلماً للمسلمين...»

وكما أدّى مقتل جَدِّه الحُسَين إلى انتقال الحكم من آل أبي سفيان إلى آل مروان، كذلك بعد عشر سنوات من فاجعة زيد وأتباعه الأوفياء، في سنة ١٣٢هـ، انتهى حكم الأمويين على يد العباسيين، وقد ذكر المسعودي في (مروج الذهب) أن العباسيين لم يستخرجوا جثة هشام وحسب، وإنما نَبَشُوا قبور معظم أمراء بني أمية الجائرين، وجَلَدوا عِظامِهم الرميمة وأحرقوهم[١١٨].

١١٨) رغم كون تصرف العباسيين جاء كرد فعل، ولكنه على كل حال تصرُّف مخالفٌ للشرع ولا ريب..

٥- سفيان الثوري[119] رحمه الله

ولـد سـفيان الثـوري سـنة (٩٧) للهجـرة النبويـة، وتـوفي سـنة (١٧١) في مدينـة البصرة، وهـو أحـد الأئمـة الكبـار، وصفـه (يحيـى بـن معـين) وغـيره بـ(أمـير المؤمنين في الحديـث)، ونحـن سنسـجل لـه ههنـا، موقفـين ومقولـة فقـط:

أولاً: حكى سفيان عن نفسه قائلاً:

ذهبـت عنـد (مِنـى) إلى جعفـر المنصـور-وهـو ثـاني خلفـاء بنـي العبـاس- فقـال لي: هـل لـك حاجـة فأَقضيهـا لـك؟ فقلـت: اتـقِ الله، فلقد مـلأت الأرض مظـالِم، فخفـض رأسـه ثـم رفعـه قائـلاً: هـل لـك حاجـة فأقضيهـا لـك؟ فقلـت: إنـك لم تَبلُـغِ الـذي بلغتـه إلاّ بسـيوف المهاجريـن والأنصـار، ومـع ذلـك فأبناؤهـم يموتـون جوعـاً، فاتـقِ الله وأَدِّ إليهـم حقوقهـم، ومـرة أخـرى خفـض رأسـه ورفعـه ثانيـة قائـلاً: هـل لـك حاجـة فَنَقضِيهـا لـك، فقلـت: حـجّ عمـر بـن الخطـاب «رضي الله عنـه» فقـال لعامـل بيـت المـال: كـم صَرَفـتَ؟ قـال: (١٠-١٥) درهمـاً، وإنَّنـي أرى الآن أشـياء لا تطيـق حَمْلَهـا الجِـمالُ!

ثانيـاً: عندمـا أَلزَمـه (المهـدي) وهـو ثالـث الخلفـاء العباسـيين، أن يتـولّى قضـاء الكوفـة، خـرج مـن ديـوان الخليفـة ومـزَّق كتابَـهُ، واختفـى بنفسـه، فبحثـوا عنـه في الأطـراف والمـدن، إلى أن مـات مسـتخفياً في البـصرة سـنة (١٦١هـ).

ثالثاً: قـال يحيى بـن يـمان: سـمعت سـفياناً يقـول: «العـالم طبيـب الديـن، والدِّرهـم داء الديـن، فـإذا اجـترَّهُ الطبيـب إليـه، متـى يـداوي غـيره؟!».

ومـن الجـليّ أنـه ليـس المقصـود هنـا المـال الحـلال المكتسـب بِعَـرق الجبـين، بـل يعنـي مـا يكتسـب عـلى حسـاب الديـن وكرامـة الإنسـان، ومـا يـأتي عـن طريـق أهـل الدنيـا رِشـوةً للعـالِم.

---

١١٩) أخـذت الموقفـين والمقولـة مـن كتـاب: (العلـماء وأمانـة الكلمـة) لمحمـد سرور زيـن العابديـن، ص٢٦-٢٧، وأمـا سـنة ولادتـه ووفاتـه ولقبـه، فأخذتهـا مـن كتـاب: (إقتضـاء الـصراط المسـتقيم) ج١ ص١١٨، مـن هامـش المحقـق.

٦- الإمام أبو حنيفة[120] رحمه الله تعالى

إسمه (نعمان بن ثابت زوطي)، ولد سنة (٨٠هـ) في الكوفة، وتوفي في بغداد سنة (١٥٠هـ)، هو أحد الأئمة الكبار في الإسلام، كان بالإضافة إلى علمه، ثريّاً بسبب تجارته للحرير، فارسي الأصل، وكان جَدُّه من الوجهاء المعروفين بخدمة الضيوف في (كابل) في أفغانستان.

وقد اخترنا سبعة متألّقةً من المواقف العظيمة في حياة الإمام الأعظم:[١٢١]

أولاً: عبادة أبي حنيفة وتقواه:

أبو حنيفة، كدأب سائر العلماء والأئمة والنوابغ في الإسلام، كان عابداً تَقياً ورعاً، ويُحكى في هذا عنه الأعاجيب، وقد يكون مبالَغاً فيها، ولكنَّها بالنتيجة، دليل على أن عبادته وتقواه، قد بلغت شأواً بعيداً، ولنا أن نُمثِّل ببعض الأمثلة:

١. يقول أبو عاصم النبيل: كان يسمى أبو حنيفة (وَتَداً) لكثرة صلاته.
٢. ويقول زافر بن سليمان: كان أبو حنيفة يقضي ليله بركعة واحدة، يختم فيها القرآن![١٢٢]
٣. ويقول أسد بن عمر: صلّى أبو حنيفة أربعين سنة صلاة الفجر بوضوء العشاء.[١٢٣]
٤. ويقول تلميذه أبو يوسف: رافقتُ أبا حنيفة يوماً، فسمع رجلاً يقول: هذا أبو حنيفة الذي لا ينام الليل قط؟ فقال والله لا يُتحدَّث عنّي بما لم أَفعل، ومن ذلك اليوم أحيا لياليه بالصلاة والتضرُّع والدعاء.

وقال عبدالله بن المبارك في أبي حنيفة: ما رأيت أروع من أبي حنيفة، قد جُرِّبَ بالسياط والأموال.

---

١٢٠) لكتابة هذا المبحث استفدت من هذين المصدرين:
(تهذيب الأسماء واللغات) للنووي، القسم الأول، ج٢ ص٢١٦-٢٢٣
(تأريخ المذاهب الإسلامية)، ص٣٤٨-٣٧٤.

١٢١) هذا هو لَقَبُ أبو حنيفة الذي أشتهر به.

١٢٢) هذا ما أستعبِدهُ لتصادمِهِ مع الواقع وبعده عن السنة.

١٢٣) إستغراق الليل كلّه بالصلاة، بعيد عقلًا ونقلًا.

ثانياً: ثبات أبي حنيفة وجرأته:

كان أبو حنيفة شجاعاً جريئاً شهماً ثابتاً، وقد ظهرت شجاعته وجرأته في كثير من مواقفه ومعاملاته:

١/ روى عبدالله بن المبارك أنهم ذات يوم كانوا في المسجد، فسَقَطَت من السقف حية وقعت في حضن أبي حنيفة، ففرَّ الناس جميعاً إلاّ أبو حنيفة، الذي لم يفعل شيئاً سوى أنه نفض جُبَّتَهُ ورمى بالحيَّة وجلس في مكانه.

٢/ أراد ابن هبيرة -والي العراق من قبل الأمويين- أن يُولِّي أباحنيفة على قضاء الكوفة فأبى، فضربه مائة سوط، في كل يوم عشرة أسواط وهو مصرٌّ على الإمتناع، فلما رأى ذلك خلّى سبيله، وعندما خرج من السجن قال: لَحُزنُ أُمّي أشدُّ عليّ من ضرب السياط.

٣/ ولما كان زمن المنصور، الخليفة العباسي، أشخص أباحنيفة من الكوفة إلى بغداد، وأراد أن يولِّيه القضاء فأبى، فحلف عليه ليفعلنّ، فحلف أبو حنيفة ألاّ يفعل، فقال الربيع الحاجب: ألا ترى أمير المؤمنين يَحلِفُ؟ فقال: أمير المؤمنين أقدر على كفّارة أَيمانـهِ مِنّي، وسجن بعد ذلك، ويقول النووي: «الصحيح أنه توفِّي وهو في السجن».

ويُروى عن الربيع بن يوسف أنه قال:

رأيت أمير المؤمنين المنصور ينازِلُ أباحنيفة في أمر القضاء، وأبوحنيفة يقول: «اتَّقِ الله ولا تُشرِكْ في أَمانتك إلاّ مَنْ يخاف الله، والله ما أنا بمأمون الرِّضا، فكيف أكون مأمون الغضب، وإني لا أصلح لذلك، فقال له: كَذَبتَ، أنت تصلُحُ، فقال: قد حكمت على نفسك، فكيف يَحِلَّ لك أن تُوَلِّي قاضياً على أمانتك وهو كذّاب.

ثالثاً/ أبوحنيفة لم يكن يقبل الهدايا والأموال من الأمراء والمسؤولين:

قال المنصور يوماً لأبي حنيفة: لماذا ترفُض هَديَّتي ومَدِّي لك يد العون؟ فقال: إنّ أمير المؤمنين لم يُعطِ شيئاً من ماله، وإنّما أعطاني من بيت المال ولا حقّ لي فيه، فَلَستُ مُقاتِلاً فأَتقاضى عطاءَ المجاهدِ، ولست صغيراً أو يتيماً، فأَستحق حقَّها، ولستُ فقيراً، فآخذ ما يأخذه الفقراء.

رابعاً/ سخاؤه وكرمه رحمه الله:

يقول قيس بن الربيع:

«كان أبوحنيفة عالِماً تَقياً سخيّاً كريماً، لكل من وقعت له حاجة عنده، وكان كثير الإعانة لإخوانه، كان تاجراً يرسل البضائع إلى بغداد، ثم يشتري بثمنها ثياباً وحاجات للعلماء، وكان يعطيهم فَضلَ ما يتبقّى من الأموال ليشتروا حاجاتهم الأخرى، وكان يأمرهم ألاّ يشكروا غير الله سبحانه، لأن هذا المال مالُهُ، يَهَبُها لهم على يد أبي حنيفة، وليس من رزّاق سوى الله سبحانه وتعالى».

وقال أبو يوسف: «كان أبوحنيفة لا يكاد يُسأل حاجة ألاّ قضاها».

خامساً/ ذكاؤه وفطنته رحمه الله:

يقول علي بن عاصم: لو وزن عقل أبي حنيفة بشطر أهل الأرض لَرَجَحَهُم، ومما يظهر رجاحة عقله وفطنته، أنه كان رجل يُدعى (أبو عباس الطوسي) له رأي سيء في أبي حنيفة، فكان أبوحنيفة-يوماً- عند أبي جعفر المنصور، فقال الطوسي: سأجعل اليوم يوم أبي حنيفة، فسأل أباحنيفة: إذا أَمَرَنا أمير المؤمنين أن نضرب عُنُقَ رجل لا نعرفه، فهل يحل لنا ذلك؟

فقال أبوحنيفة: يا أبا عباس، وهل يأمر أمير المؤمنين بالحق أم بالباطل؟

فقال: بل بالحق.

فقال أبو حنيفة: إذاً فاتّبع الحقَّ ولا تسأل.

فقال أبو حنيفة مع نفسه بعد ذلك: لقد أراد أن يوثِقَني فَوَثَقتُهُ.

سادساً/ أبو حنيفة يؤيِّد ثوّار أهل البيت ضِدَّ حُكّام بني أمية وبني العباس الجائرين:

عندما خرج زيد بن علي على هشام بن عبدالملك، قال أبو حنيفة: «ضاهأ خروجُهُ خروجَ رسول الله ﷺ يوم بدر».

وعندما سُئل: فلماذا لم تَخرُج معه؟ قال:

«كانت عندي ودائع للمسلمين، وقد ألْحَحتُ على إبن أبي ليلى، أن يأخذها ولكنه أبى».

ويروى أنه قال: لو كنت أعلم أن الناس لا يتركونه كما تركوا جَدَّه، لخرجت معه، لأنه إمامُ الحق، ولكنَّني أُعينُهُ بالمال، فبعث إليه بعشرة آلاف درهم.[١٢٤]

وقد أيّد أبو حنيفة -في عصر العباسيين أيضاً- ثورة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، المعروف بـ(ذو النفس الزكيّة) وشقيقه إبراهيم، وكان محمد في المدينة وإبراهيم في البصرة.

ولكن ثورتهما كثورات مَن قبلهما، باءت بالفشل، واستشهدا في أعقابها، فجزاهما الله خيراً وأعلى مقامَهما في العِلِّيين.

وجدير بالذكر أن السبب الأساسي لتدهور العلاقة بين أبي حنيفة وأبي جعفر المنصور، كان هذا الموقف الذي وقفه مع تلك الثورة، ولكن إماماً جليلاً كأبي حنيفة النعمان، لا يأبه أن يدفع ضريبة مواقفه ما دامت في سبيل الله تعالى.

سابعاً/ منهج أبي الحنيفة في الإجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية:

يروى عن أبي حنيفة أنه قال عن منهجه واجتهاده:

«آخذ بكتاب الله، فإنْ لم أجدْ، فَبِسُنَّة رسول اللهﷺ، فإنْ لم أجِدْ في كتاب الله تعالى ولا سنة رسوله ﷺ، أخذتُ بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت منهم وأَدَعُ مَنْ شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فأما إذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي وابن السيرين والحسن والعطاء وسعيد بن المسيب، فقوم اجتهدوا، فأجتهد كما اجتهدوا».

١٢٤) وكذلك في سنة ١٢٧هـ قام يحيى بن زيد في خراسان وقتل، وفي سنة ١٢٠هـ أشعل عبدالله بن يحيى الثورة في اليمن، فأُخمدت ثورته وقُتل في خِضَمِّها، يُنظَر: تأريخ المذاهب الإسلامية، محمد أبو زهرة، ص٣٧٥.

ولكـن بالتأمـل في جملـة الآثـار التـي تركهـا أبـو حنيفـة، يتضـح أنـه كان يعتمـد في اجتهاداتـه عـلى سـبع قواعـد:

١/ كتاب الله تعالى.

٢/ سنة النبي ﷺ.

٣/ أقوال الصحابة.

٤/ القياس. (١٢٥)

٥/ الإستحسان. (١٢٦)

٦/ الإجماع. (١٢٧)

٧/ العرف. (١٢٨)

هـذا هـو أبـو حنيفـة، سـلوكاً ومواقـف مِلْؤهـا الجـرأة والشـجاعة، تسـتعصي-كما يَسْـتَعصي مواقـف العلـماء الآخريـن- عـن الحـصر والإسـتيفاء في هـذه الوريقـات القليلـة، ولذلـك فقـد استعملنا ابتـداءً لفظـة (باقـة مختـارة) كعنـوان لمواقـف وسـلوك هـذه المجموعـة التـي اخترناهـا مـن العلـماء والأئمـة.

سـلام الله عـلى هـذه الـروح العزيـزة والعاليـة للنعـمان بـن ثابـت، وجميـع تلامذتـه الأوفيـاء، هـذا العـالِمِ الـذي حتـى في وصيَّتِـهِ عـن دفنـه كان عنوانـاً للشَّـجاعة والحريـة والعـزَّة، أَقَـضَّ مضاجـع الطغـاة، وأَقلَـقَ بالهَـم حتـى بعـد أن قـضى نَحبَـهُ. (١٢٩)

١٢٥) القيـاس: هـو إلحـاق أمـرٍ غـير منصـوصٍ عـلى حكمـهِ، بأمـر منصـوصٍ عـلى حكمـه لعلـة جامعـة بينهـما. يُنظـر: تيسـير أصـول الفقـه، ص١٦٠، عبـدالله بـن يوسـف الجديـع.

١٢٦) الإستحسـان:ترك وجـه مـن وجـوه الإجتهـاد الجاريـة مـع القواعـد، كالقيـاس أو القاعـدة الشرعيـة الكلّيـة لوجـهٍ بـدا للمجتهـد أنـه أقـوى. المصـدر نفسـه، ص١٧٨.

١٢٧) الإجماع: إتفـاق مجتهـدي أُمّـة محمـد بعـد وفاتـه في عـصر مـن العصـور عـلى حكـم شرعـي. المصـدر نفسـه، ص١٤٩.

١٢٨) العـرف الصحيـح: هـو العـادة التـي لا تخُالِـفُ نصّـاً مـن نصـوص الكتـاب والسـنة، ولا تُفـوِّت مصلحـةً معتـبرة، ولا تجَلِـب مفسـدةً راجحـة. المصـدر نفسـه، ص١٩٥.

١٢٩) لأن أبـا حنيفـة أوصى ألّا يدفـن في مقـبرة أرضهـا مغصوبـة، أو اتهِّـمَ أهـل السـلطة بالإسـتيلاء عليهـا، ولذلـك قـال أبوجعفـر المنصـور: «مـن يعـذرني مـن أبي حنيفـة حيـاً وميتـاً؟!».

٧- الإمام جعفر الصادق[130] رحمة اللّه عليه

إسمه: (جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالبﷺ)، وأمه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق،ﷺ، ولد في سنة (٨٠) للهجرة، وتوفي سنة (١٤٨هـ)، وهو أحد الأئمة الأعلام، كان أنموذجاً يُحتذى في العبادة والأخلاق والعلم والجرأة والغيرة.

وقد وقع اختيارنا على أربعة من مواقفه الخالدة كيما نسردها هنا:

أولاً/ علمه ومعرفته:

كان الإمام جعفر صاحب علمٍ غزير ومعرفة واسعة، فهو بالإضافة إلى علم والده، (محمد الباقر)، فقد جمع علماً كلٍّ من: (القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديقﷺ) الذي كان جَدَّه لأُمِّه، وكذلك أخذ علم (عائشة) رضي الله عنها، وعلم جَدِّه: (علي: زين العابدين).

وهذه القصة تبين مدى علم الإمام جعفر بوضوح:

روي عن أبي حنيفة أنه قال: قال لي أبو جعفر المنصور: لقد دُهش الناس من علم جعفر بن محمد، فَهيِّئ له من الأسئلة ما يُحيّره، يقول: فأَعدَدتُ أربعين سؤالاً صعباً، كلّما سألته سؤالاً قال: أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ورأينا كذا، فكان رأيه ربما وافقنا أو وافق أهل المدينة، أو كان له رأي آخر، إلى أن انتهيت من توجيه الأسئلة، وأجاب عن جميعها، فأَقَرَّ له أبو حنيفة بالعالِمِيَّة قائلاً: «إن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس».

ثانياً/ ردُّه على المنحرفين:

في زمن الإمام جعفر الصادق، نشطت مَوجةٌ من الإنحراف عن سنة رسول اللهﷺ

١٣٠) اقتبسنا ما أوردناه هنا عن كل من: (تهذيب الأسماء واللغات) ج١ ص١٤٩-١٥٠.
(تأريخ المذاهب الإسلامية) ص٦٨٩-٧١٦.

تحت ستار التشيّع وحب آل البيت، وظهرت في أثناء ذلك اتجاه مُغالٍ داخل التشيُّع نفسه.

فبدأ جعفر كدأب آبائه وأجداده، بالدفاع عن منهج السلف الصالح والوقوف بوجه البدع الحادثة، ومن الأفضل أن نستشهد ابتداءً بقصة لأبيه محمد الباقر رحمه الله، ثم نسير إلى مواقف جعفر فيما بعد:

قال الإمام محمد الباقر لجابر الجعفي يوماً:

«بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنَّهُم يُحبُّوننا ويتناولون أبابكر وعمر رضي الله عنهما، ويزعمون أنَّني أمرتهم بذلك، فأبلِغهُم أنِّي إلى الله منهم بريء، والذي نفس محمد بيده: لو وُلِّيتُ لتقرَّبتُ إلى الله بدمائهم، لا نالتني شفاعة محمدﷺ إن لم أستغفرْ لهما وأتَرَحَّم عليهما، إنّ أعداء الله لغافلون عنهما».

ولا ريب أنَّ الإمام جعفر الصادق سار على نهج أبيه وآل جَدِّه الكرام: فكان موقفه واضحاً بوجه المتشايعين لهم، والحق أنه كان بينهم زنادقة ومنحرفون ومخدوعون.

وعندما بدأ ذا الأصل الفارسي، محمد بن زينب الأجدع الأسدي، المعروف بـ(أبو الخطاب) ينشر دعوته الإلحادية، وأسقَطَ الفرائِضَ عن أتباعه، وأحلَّ لهم المحرَّمات كما قال ذلك قاضي الدولة الفاطمية (أبوحنيفة النعمان التميمي) في كتاب (دعائم الإسلام)، وعندما بلغت هذه الدعوة الشيعية في ظاهرها، جعفر الصادق، انبرى بجرأة وشجاعة يردُّ على تلك الدعوة المسمومة.

كتب صاحب كتاب (دعائم الإسلام):

«فبلغ الأمرُ جعفرَ بن محمد، فلم يقدِر عليه بأكثر أن لَعَنَهُ وتَبَرَّأَ منه، وجمع أصحابه فعرَّفهم بذلك، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه».

وكتب الإمام جعفر الصادق رسالة إلى أحد الدعاة من أتباعه، بعد أنْ كتب ذلك الداعية إليه رسالة، يُخبره فيها بأحوال تلك الكتلة المنحرفة، وبعد أن تحدَّث الإمام مَليّاً عن تلك الجماعة الضالة التي ابتلي الناس بهم، قال في ختام الرسالة:

«ومن قال به، فهو عندي مشركٌ بَيِّن الشرك، فلا يَسَعُ أحداً أن يَشُكَّ فيه».

ثالثا/ جرأته وإقدامه:

١- شهد شخص على الإمام جعفر أمام أبي جعفر المنصور بأن (المعيّ بن خنيس) يجمع الأموال لجعفر الصادق، فأَنكر ذلك الإمام وأبدى استعداده أن يَحلِفَ على كَذِب ذلك الإدِّعاء، ولكن المنصور أَصَرَّ عليه أن يَحلِفَ بالطَّلاق أيضاً، فأبى ذلك ولم يَقبَل به، فجِيء بالشاهد وبقي مُصِرّاً على شهادة الزُّور، فقال له الإمام جعفر: قُل في قَسَمِكَ:

«أبرَأُ إلى الله من حَوله وقوَّتِهِ، وأَلجَأُ إلى حولي وقوَّتي إنِّي صادق فيما أقول».

فلمّا حَلَفَ الرجلُ بهذه الصيغة وقع من ساعته ومات، فلما رأى المنصور ذلك، دَخَلَهُ الفَزَع وارتعدت فَرائِصُهُ وتوجَّه نحو الإمام قائلاً: «إن شِئتَ ذَهَبتَ إلى مدينة جَدِّك غداً، وإن مكثت عندنا، فلن نَدَّخِرَ وُسعاً في تقديرك، ولن نَسمَع بعد اليوم لكلام أحدٍ فيك».

٢- يُقال أنّ ذبابةً جعلت تحومُ حول رأس أبي جعفر يوماً، فأَزعَجه وتَضَجَّر منه، ثم سألَ الإمامَ جعفر الصادق، وكان حاضِراً: يا أبا عبدالله! لماذا خَلق الله الذُّباب، فأجابه: ليُذِلَّ به الجبابرة.

٣- وكتب مرة جواباً على رسالة للمنصور يستفسر فيها عن إبطائه في زيارته:

«ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنئك، ولا نراها نقمةً فنُعزِّيك».

وكتب في آخر رسالة إلى المنصور وكان قد طلب زيارته أيضاً:

«من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك».

٤- وسَمِعَ يوماً أَحَدَ المسؤولين يَسُبُّ عليّاً بن أبي طالب رضي الله عنه، فَواجَهَهُ الإمامُ ورَدَّ عليه قائلاً:

«ألا أُنَبِّئُكُم بأخلى الناس ميزاناً يوم القيامة وأبينهم خُسراناً! من باع آخرته بدنيا غيره، وهو هذا الفاسق».

رابعا/ لماذا لم يَثُر الإمامُ جعفر على مظالم الأُمويين والعباسيين؟!

ربما انقدح هذا السؤال في ذهن الكثيرين، لماذا لم يَقُم جعفر الصادق بوجه خلفاء بني أُمَيَّة وبني العبّاس وهو صاحب تلك الشخصية الطاهرة القويّة، لماذا لم يَنسُج على مِنوال أقاربه، فيقتحم ميادين القتال ويجابه الجائرين؟!

والجواب في نظري: أن جعفر الصادق لم يكنْ أقلَّ شجاعةً وإقداماً ممن أعلنوا الثورات، ولكن الظاهر أنهم كانوا أقلّ فِراسةً وحساباً ودِقَّةً وواقعية منه، وخصوصاً بعد أن تَبيَّن لعليّ بن أبي طالب وابنه الحسين رضي الله عنهما حال شيعتهم من أهل الكوفة، وما تمَخَّضَتْ عنها الحوادِثُ من آثار أليمة. لم يكن من الرَّشاد أن يعتمد أبناؤهم على أهل الكوفة، أو يُجرِّبوهم تارةً أخرى؛ «ومن جَرّب المجرَّب حلَّت به الندامة».

هذا، ولاريب بأن أولئك الثوار الأحرار والأئمة الكبار، سيأخذون جزاء الضِّعف بما عَمِلوا من حسنات-حَسبَ نيّاتهم- ولَئِن عَجَزَت محاولاتُهم في الأمد القريب، عن الإتيان بالنتيجة المُثْلِجةِ للصَّدر، وباءَت في خواتمها بالفشل، فلقد كانت لتلك المحاولات تأثيراً كبيراً في إيقاظ الضمائر الرّاقدة، وإثارة المجتمع الذي جمَّدتْها المظالِمُ والمخالفات الشرعية، حتى بات هامداً لا حِراك فيه.

لقد أصاب الإمام جعفر كَبِدَ الصّواب، عندما لم يقتحم خِضَمَّ الثورة قبل تأمين المستلزمات الكافية لها، لأن وجود الإمام والقائد وحده، ليس كافياً في إنجاح الثورات، وإنما بالإضافة إلى ذلك، تحتاج الثورات إلى جماعة صامِدَة مُجَرَّبة موثوقة من جانب إخلاصها، تكون على قَلب رجلٍ واحدٍ، وكذلك تحتاج إلى ظروفٍ ومناخ طبيعي، تنمو فيه نبتَةُ الثورة وتَتَرَعرَعُ.

نعم، كان الإمام جعفر شجاعاً أبيّاً جريئاً، ولكنَّه كان يعرف نواميس الدنيا وقوانينها، ويعرف ما يجري حوله وما يصلح له، ولِلعِلَّةِ ذاتِها، عندما دُعيَ لقيادة الدعوة الشيعية التي مَهَّدت الطريق للدولة العباسية، أبى ذلك قائلاً: «إنها ليست لنا».

أَللَّهُمَ أَعلِي درجة هذا الإمام وارفع مقامَهُ، وأَجزِل له ولأهله الثواب، بكرمك يا أرحم الراحمين.

٨- الإمام مالك[131] رحمه اللّه تعالى

إسـمه: (مالـك بـن أنـس بـن مالـك بـن أبي عامـر الأصبحـي)، المعـروف بـ(إمـام دار الهجـرة)، ولـد سـنة (٩٣هـ) وتـوفّي فيهـا سـنة (١٧٩هـ)، ويعتبر أحـد أكـبر علـماء الإسـلام وأئمتـه، وهـو صاحـب (المُوَطَّأ) الـذي يُعَـدُّ أقـدم كتـاب في الحديـث والفقـه.

وستكون لنا سِت من الوقفات مع مواقف هذا الإمام النادرة:

الأولى: متى جلس مالك لتدريس الحديث والفقه؟!

بعـد حفظـه القـرآن ورسـوخ قدمـه في معانيـه، بـدأ الإمـام مالـك في تحصيـل وإتقـان علـوم الحديـث والفقـه وصـار أهـلاً للفتـوى، حينهـا جلـس في مسـجد النبـي ﷺ، وقـال: «ليـس كل مَـن أحـبَّ أن يجلـس في المسـجد للحديـث والفتيـا، جَلَـسَ، حتـى يُشـاوِرَ أهـلَ الصَّـلاح والفضـل والجـاه مـن المسـجد، فـإنْ رأوه لذلـك أهـلاً، جَلَـس، ومـا جَلَسـتُ حتـى شَـهِدَ لي سـبعون شـيخاً مـن أهـل العلـم، أنّي مَوضِـعٌ لذلـك».

وكان هـذا مـن عـادة سـلفنا الصالـح، فلنَقتَفِ سـلوكهم وأعمالهـم، وإلاّ فلـن تُغنـي عنّـا الشـعارات والدّعـاوى المفرّغـة الجوفـاء شـيئاً، ولـن تجدينـا فتيـلاً إن ادَّعينـا أنّنـا كـذا وكذا.

الثانية: طريقة تدريس مالك بن أنس:

كان حلقـة درسـه طافحـة بالإحـترام والمهابـة والوقـار، ولم يكـن يُسـمع فيهـا مِـزاحٌ ولا ضَحِـكٌ ولا شيءٌ يُخالِـفُ هَيبـةَ الـدروس، وخصوصـاً إذا كان الـدرس في أحاديـث الرسـول ﷺ، كان يغتسـل الإمـام مالـك ويتعطّـر ويَلبَـسُ أحسـنَ ثيابـهِ فيجلـس عـلى كـرسي يضعونـه لـه ويُشـعلون أعـوادَ البخـور، ثـم يجلسـون بخضـوع وسـكينة، فيبـدأ الإمـام في إلقـاء درسـه.

---

١٣١) كل الذي أوردناه عن الإمام المالك اقتبسناه من :
(تهذيب الأسماء واللغات) القسم الأول ج٢ ٧٥-٧٩ .
(تأريخ المذاهب الإسلامية) ٣٩٠-٤١٨ .

وكان يقول عن طلبته:

«حقّاً على من طلب العلم، أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية، وأن يكون مُتَّبِعاً لآثار مَنْ مَضى، وينبغي لأهل العلم أن يُخْلُوا أَنفُسَهُم من المزاح، وبخاصة إذا ذكروا العلم».

والّذي نَصَحَ به تلاميذَه، كان قد حقَّقه في نفسه ابتداءً، فهو عندما يقول: «ومن آداب العالم ألاّ يضحك إلاّ مُبتَسِماً»، فقد طبَّق هذا الكلام على نفسه تماماً، حيث لم يُرَ ضاحِكاً -ولو لمرّة واحدة- خلال خمسين عاماً من إلقائه الدروس.

الثالثة: الإمام مالك عندما لا يعلم شيئاً يقول لا أعلم:

كما أسلفنا في الفصل الأول من هذا الكتاب: إن إحدى الآداب والأخلاق الضرورية لأهل العلم، ألاّ يَتَرَفَّعوا عن قول: لا أدري، إذا اعترضهم ما يجهلونه، وكان الإمام مالك يعمل بهذا الأدب، ويطبِّقه على نفسه، فمثلاً: روى الإمام النووي رحمه الله عنه، هذه القصة:

«روى عبدالرحمن بن مهدي فقال: كُنّا عند مالك بن أنس، فجاء رجلٌ وقال يا أبا عبدالله، لقد قطعتُ إليك مسافة سِتّةِ أشهرٍ، وقد أَرشَدَني أهلُ بلادي أن أسألك، فقال: إسألْ: وعندما سأل الرجل سؤاله، قال مالك: لا أدري، فَدُهِشَ الرجلُ عِند سَماعِهِ ذلك وقال: ماذا أقول لأهل بلادي؟ قال: قُلْ قال: لا أدري».

الرابعة: كيف كانت حياة الإمام مالك ومعيشته:

يقول (ابن القاسم) وهو تلميذ الإمام مالك:

«إنه كان لمالك أربعمائة دينار يتَّجِرُ فيها، فمنها كان قِوامُ معيشته.

واستناداً إلى أساس القاعدة الشرعية التي يُبيحُ لمن يتفرَّغ لأعمال المسلمين، أن يأخذ كفايته من بيت المال، فإنه كان يقبل هدايا وإعانات الخلفاء له، فكان يقضي بها حاجاته، وحاجاتِ عَدَدٍ من أهل العلم أساتيذاً وتلاميذ».

والشافعي رحمه الله كان مِمَّن تكفَّله الإمام مالك من التلاميذ، وبقي في كنفه تِسعَ (٩) سنوات.

والإمام مالك كان مُرَفَّها نوعاً ما، من ناحية مأكله وملبسه ومسكنه، وكان يتعطَّر ويلبس الحسن من الثياب، ومعلومٌ أن هذه الأشياء إن كان مصدرها حلالاً، ولم تكن على حساب الدين والكرامة والقيامة، فلا يُعاب بها مالك ولا غيره، لأن النبيَّ ﷺ، وخلفاءَهُ الراشدين لم يردُّوا الطعام الشهيَّ ولا الثياب الفاخرة، حال وجودها، والله سبحانه يقول: [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ]الأعراف/ ٣٢.

وكان الإمام مالك يُحِبُّ (الموز) كثيراً ويقول في ذلك: «إنّك لا تطلبه في شتاءٍ ولا صيف إلاّ وجدته، فليس شيء أشبَهَ بِثَمَرِ الجنة منه»، قال تعالى [أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا]الرعد-٣٥-.

الخامسة: محنة الإمام مالك:

في ١٤٦هـ، اشتبك الإمام مالك مع الخليفة أبوجعفر المنصور، وتَعَرَّضَ للضرب، والتعذيب حتى خُلِعَ كَتِفُهُ، ويُرجِعُ بعض المؤرِّخين عامِلَ هذه المحنة، إلى أن الإمام مالك أفتى بحرمة نكاح المتعة وقال بعضهم: كان بسبب تفضيله علياً على عثمانرضي الله عنهما.

والحقيقة أن السبب لا كان هذا ولا ذاك، كما صرَّح كثيرٌ من المؤرخين: بأن سَبَبَها كان يَكمُنُ في الثورة الَّتي أشعلها: (محمد ذو النفس الزَّكيَّة) مع أخيه إبراهيم، ضد ثاني خلفاء بني العباس الخليفة أبوجعفر المنصور، وعندما استشار أهلُ المدينة مالكاً في تأييد إبراهيم ومحمد، ومن معهما، كما يقول (ابن الأثير) في تأريخه، قال لهم مالك: نعم أُنصروهم، فقال الناس: ولكن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر، فقال مالك: (ليس على مُستكرَهٍ بيعة).

وقد اجتمع الناس حشوداً حول إبراهيم بعد فتوى الإمام مالك، ولكن ثورتهما باءت بالفشل، وتَمَخَّضَتْ عن استشهادهما.

السادسة: أَدَبُه في الصَّبر على المرض:

ونختتم مواقفه المنتقاة، بهذا الموقف المُحيِّر:

كان الإمام مالك يُلقي دروسَه في مسجد رسول اللهﷺ، ثم حوَّلها إلى دارِه لأجل مرض لم يَعرِف ماهيَّته أحدٌ، وعندما سُئِل عن ذلك، قال: ليس كلُّ الناس يذكر عُذرَه.

ولكنه قال يوم وفاته:

«لولا أنّني في آخر من أيام حياتي ما أَخبَرتُكُم، مرضي سَلِسَ البَولِ، كَرِهتُ أَن آتي مَسجِدَ رسولِ الله بغير وضوءٍ كاملٍ، وكَرِهتُ أن أَذكُر علَّتي فأشكو ربّي!!»

٩- الإمام الشافعيّ [132] رحمة اللّه تعالى عليه

إسمه: (محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع بن سائب بن عبدالعزيز بن هاشم بن عبدالمطلب).

ولد في غزة بفلسطين سنة (١٥٠هـ)، وتوفي في مصر سنة (٢٠٤هـ)، والإمام الشافعي كما هو معلوم، يعتبر من أكابر أئمة الإسلام، وهو مُؤسِّس عِلمِ (أصول الفقه) وصاحب كتابين مُهِمَّين للغاية:

١- (الرسالة) في أصول الفقه.

٢- (الأم) في الفقه.

إشتهر الشافعي في العراق بـ(ناصر الحديث) أو (ناصر السنّة)، يقول الحسن بن محمد الزعفراني: «كان أصحاب الحديث رُقوداً، فَأَيقَظهم الشافعي فتيقَّظوا».

وسَنُلَخِّصُ مَواقِفَ الإمام-في هذه العجالة- في سبعة مواقف:

أولاً/ الصبر وطُول النَّفَس وراءَ طلب العلم:

مع أنَّ الإمام الشافعي تربَّى يتيماً فقيراً بعيداً عن أهله، إلاّ أَنَّ أيّاً من هذه المآسي، لم تُصبِحْ عائقاً أمامه في طَلَبِ العلم، فَحَفِظَ القرآن في السابعة من عمره، وحَفِظَ موطَّأ مالك وهو إبن عشر سنين، وعندما بلغ الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره، جلس للناس للفتيا، وكان فقير الحال إلى درجةٍ يجمع الجلود ويكتب عليها.

---

١٣٢) إستفدت لكتابة المواقف السبعة الواردة في هذا المبحث عن (الإمام الشافعي) من هذه المصادر:
(منهج الشافعي في إثبات العقيدة)ج١، ص١٩-٥٠.
(ديوان الإمام الشافعي) سواء ما ورد في مقدمة المحقق، أو الأشعار التي وردت في الديوان نفسه.
(تهذيب الأسماء واللغات) للنووي.
المناقب، للبيهقي، ج١، ص٤٧١-٤٧٢.
الأم، للشافعي، ج٧، ص٢٦٥.
الرسالة المنيرية، ج٣، ص٩٨.

وقد جاب الشافعي وراء طلب العلم أكثر البلدان التي استقرَّ فيها العلماء، مثل: مكة، وبغداد، والأناضول، وفلسطين، والمدينة، وانتهاءً بِمصر، وقد ذكر ذلك في قصيدة له:

سَأَضْرِبُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعُرْضِهَا   أنالُ مرادي أو أموتُ غريبا
فإن تَلِفَت نفسي فَلِلّهِ دَرُّها   وَإنْ سَلِمَتْ كانَ الرُّجوعُ قَرِيباً

ثانياً/ تَعَرُّضه للإعتداء والمحنة وخروجه منها منتصراً:

من منطلق أن الأمويّين والعباسيِّين كانو يحكمون على أساس الإستخلاف، كانت الخشية تُساوِرُهم من أصحاب الشخصيات القوية والغيورة.

ولذلك فعندما ذاع صِيتُ الإمام الشافعي في اليمن والحجاز، بدأت الجواسيس والعيون تَنشُطُ في كتابة التقارير عنه، وبالنتيجة فقد اعتقل الإمام الشافعي مع مجموعة من العَلَويّين، واقتيدوا مُكَبَّلين إلى هارون الرشيد في بغداد.

وكان العلويّون يُدخَلون على هارون الرشيد، في أغلالهم، عشرة عشرة، وبعد استجواب قصير يأمر بقطع رِقابهم، إلى أنْ وصل الدَّور إلى الإمام الشافعي، وعندما دخل عليه، قرأ آية: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ]الحجرات-٦-، وبعد محاورة بينهما، أمر الرشيد بِفَكِّ قيوده وأجلسه إلى جانبه، وعندما أراد أن يُكرِمَهُ ببعض المال أبى عليهم الإمام ذلك قائلاً: «كلاّ والله يا أمير المؤمنين لا يراني الله عزّ وجل وقد سوَّدْتُ وجه موعظتي بِأخذِ الجزاء عنها».

ثم استأذن و انصرف، وارتحل بعد مدة إلى مصر حيث استقرَّ هناك.

ثالثاً/ فِرارُه وهجرته إلى مصر:

بعد أن شاعت نظرية (خَلق القرآن) واقتنع بها المأمون، وبَدأ في تعذيب العلماء للقول به، ارتحل الإمام الشافعي إلى مصر، لأنه لم يكن يقول بهذه البدعة، فاضطرَّ حِفاظاً على دينه وفراراً به، أن يترك العراق، حيث يقول:

لَقَـد أَصبَحَـت نَفسي تَتـوقُ إلى مِـصرِ وَمِـن دونِهـا أَرضُ المَهامَـةِ وَالقَفـرِ
فَـوَاللهِ لا أَدري أَلِلفَـوزِ وَالغِنـى أُسـاقُ إِلَيهـا أَم أُسـاقُ إلى القَـبرِ!

رابعاً/ كان منهجه الإلتزام بالكتاب والسنة، والسعي الدائب للفقه فيهما:

يقول الشافعي عن منهجه:

«والعلم طبقاتٌ شتّى:

الأول: الكتاب والسنة، إذا ثَبَتتِ السُّنّةُ.

الثاني: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سُنة.

الثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي ﷺ قولاً، لا نعلم له مخالفاً.

الرابعة: اختلاف أصحاب النبي ﷺ في ذلك.

الخامسة: القياسُ ولا يُصار إلى غير الكتاب والسنة وهما موجودان، وإنّما يُؤخَذُ العِلمُ من أعلى». (١٣٣)

وقد روي الكثير عن الشافعي في اعتبار القرآن والسنة، فوق كلّ شيءٍ، منها:

١. كلُّ ما قلت، وقال النبي ﷺ خلاف قولي، ممّا يَصِحُّ، فحديث النبي ﷺ أَوْلى ولا تُقَلِّدُوني. (١٣٤)

٢. إذا وجدتم في كتبي خلافَ سنة رسول الله ﷺ، فقولوا بِسُنَّةِ رسول الله ﷺ ودَعُوا ما قلتُ. (١٣٥)

٣. إذا صَحَّ الحديث فهو مذهبي. (١٣٦)

وكان الشافعي على الدوام خاضِعاً للأَدلَّة الشرعية، يدور في مدارها، ولذلك عندما ذهب إلى مصر، وتَوَسَّعَت معارفه واختلف الحال والمكان، غَيَّر كثيراً من آرائه، وصار للشافعي في كثيرٍ من المسائل، قول قديم وقول جديد.

١٣٣) يُنظَر: الأم ج٧، ص٢٦٥.

١٣٤) يُنظَر: المناقب ج١، ص٤٧٣ للبيهقي.

١٣٥) يُنظَر: المناقب ج١، ص٤٧٢.

١٣٦) يُنظَر: (الرسالة المنيرية) ج٣ ص٩٨.

وجدير بالذكر أنَّ الإمام الشافعي -حالُهُ حالَ كثير من العلماء والأئمة- وبسبب اتبّاعه للدليل وعدم تقليده، انتُقِدَ واتُّهِمَ بأنه إنَّما يفعل ذلك لأجل الدنيا، لذلك ردَّ تلك التهمة بصراحة وأدلة قوية قائلاً:

«يقولون: إنّي إنَّما أُخالِفُ أبا فلانٍ رحمه الله، للدنيا! وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟! وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه، وقد مُنِعتُ ما أَلُذُّ من المطاعم، ولا سبيل إلى النكاح -يعني لعلة البواسير- ولكن لست أُخالِفُه إلاّ لخلافه سنّة رسول الله ﷺ..»[137]

خامساً/ قناعته وإباؤه:

الإمام الشافعي كأي عالم وإمام متقٍ عارف بالله، كان عزيزاً قنوعاً، وله في ذلك أشعار كثيرة، منها:

رَأَيتُ القَناعَةَ رَأسَ الغِنى ... فَصِرتُ بِأَذيالِهِ مُتَمَسِّكِ

فَلا ذا يَراني بِبابِهِ ... وَلا ذا يَراني بِهِ مُنهَمِكِ

فَصِرتُ غَنيّاً بِلا دِرهَمٍ ... أَمُرُّ عَلى الناسِ شِبهَ المَلِكِ

فعليك وعلى المَنبِت الذي أَنبتك هذا النبات الحَسَنْ، الرحمة والرضوان.

سادساً/ أَخلاقُه رحمه الله:

كان الشافعي -رحمه الله- ذا أخلاق عالية وصفات باذخة، ومن أشعاره يتبيّن أيُّ رجُلٍ عظيم ووقور قدير كان هذا الإمام، ولكن قبل أن نستشهد في ذلك ببعض قصائده، نشير إلى بعض أخلاقه -رحمه الله-.

١/ كان قد بلغ الغاية والمنتهى في الإخلاص والتجرُّد، يَتَّضِح ذلك من قوله: «وَدِدتُ أن الخلق تَعلَّموا هذا العلم على ألاّ يُنسَبُ إليّ منه حرف»، وكذلك في قوله: «وَدِدتُ إذا ناظرتُ أحداً، أن يَظهَرَ الحقُّ على يديه».

١٣٧) يُنظَر: (منهج الإمام الشافعي في إثبات العقيدة) ج١ ص١٢٧.

٢/ الإمام الشافعي كان صادِقاً بكل معاني الصدق، يقول رحمه الله: «ما كَذَبتُ قَطُّ ولا حَلَفتُ بالله لا صادِقاً ولا كاذِباً.».

٣/ وكذلك كان سَخِيّاً مِعطاءً، ويرون فيه من ذلك الكثير الكثير، فمثلاً: قال الحميدى: «جاء الشافعي رحمه الله من صنعاء إلى مكة وكان معه عشرة آلاف دينار، فنصب خيمة خارج مكة، وَوَزَّعَها على الناس.

٤/ وكان شهماً عزيزاً، يصون شخصيته مما يخدشها، وخصوصاً شخصيته كعالم وإمام للمسلمين، ويَرْوون عنه في ذلك أقوالاً كثيرة، كما أشرنا إلى بعضها في الفقرة الخامسة وقوله أيضاً: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ شُربَ الْمَاءِ الْبَارِدَ، يَثْلَمُ مِنْ مُرُوءَتِي، لَمَا شَرِبْتُ إلا حَارًّا».

٥/ الإمام الشافعي كان محسناً وفيّاً للصحبة: يقول أبو سعد: «كان الشافعي سَخيّاً كريماً، كان يشتري الجارية الماهرة في الطبخ وصنع الحَلوى ويقول لنا: اشتريت جاريةً تصنع لكم ما تشتهون..»

وهذا نماذج من شعره عن بعض أخلاقه الرائعة:

١- يقول عن السكوت في مقابل الجاهل وذي الأَدَبِ السَّيِءِ:

يُخَاطِبني السَّفيهُ بِكُلِّ قُبْحٍ ... فأكرهُ أن أكونَ له مجيبا
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حلماً ... كعودٍ زادهُ الإحراقُ طيبا

٢- وقال عن حُبِّه للسَّخاء والكَرَم:

يا لهْفَ نفسي على مالٍ أُفَرِّقُهُ ... عَلَى الْمُقِلِّين مِن أهلِ المروءَاتِ
إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليسَ عِندِي لَمِنْ إحْدى المصيباتِ

٣- ويقول عن قبول عُذرِ أصحاب الأَعذار، حتى ولو لم يَصدُقُوا:

إِقبَل مَعاذيرَ مَن يَأتيكَ مُعتَذِراً ... إِن بَرَّ عِندَكَ فيما قالَ، أَو فَجَرا
لَقَد أَطاعَكَ مَن يُرضيكَ ظاهِرُهُ ... وَقَد أَجَلَّكَ مَن يَعصيكَ مُستَتِرا

٤- وقال عن التوَكُّل على الله وعدم طلب شيءٍ من الناس:

ما حكَّ جلدكَ مثلُ ظُفرِكَ ... فَتَوَلَّ أنتَ جميعَ أمرِكْ
وإذا قصدْتَ لحاجَةٍ ... فاقْصِدْ لِمعترفٍ بقدْرِكْ

سابعاً/ كلام الشافعي في حال اختضاره:

روى المزني وهو من أشهر تلاميذ الشافعي، فقال:

«دخلت على الشّافِعِي فِي مرضه الَّذِي مَاتَ فيه، فَقُلْتُ لَهُ: كيف أصبَحتَ؟ قَالَ: أصبَحتُ من الدُّنْيَا راحلاً، وللإِخْوَان مفارقاً، ولكأس المنية شارِباً، وعلى الله جَلَّ ذِكرهُ وارداً، ووالله لا أدري أروحي تصير إلى الجَنَّة فأُهنِّيها، أَوْ إلى النار فأُعَزِّيها.

ثم بكى وأنشد:

إليك إله الخلق أرفَعُ رغبتي وإنْ كنتُ- ياذا المَنِّ والجُود- مُجرِماً

ولَمَّا قسا قلبي، وضاقت مذاهبي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

تعاظَمَني ذنبي فلَمَّا قَرَنتهُ بعفوكَ ربِّي كانَ عفوكَ أَعظَما

فَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

فلولاكَ لم يَصمُد لإبليسَ عابدٌ فكيفَ وقد أَغوى صفيَّكَ آدما

فإن تَعفُ عنِّي تَعفُ عن مُتمرّدٍ ظَلُوم غَشُوم لا يزايلُ مَأثما

وإن تنتقمْ منّي فلستُ بآيسٍ ولو أَدخلتَ نفسي بجُرْم جَهَنَّما

فَجُرمي عظيم من قديم وحادث وعفوك يا ذا العفو أعلى وأجسما

١٠ - الإمام أحمد بن حنبل رحمه اللّه

هـو: (أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني)، ولد في بغداد سنة (١٦٤هـ)، وتوفي بها سنة (٢٤١هـ). هو أحد أبرز أئمة الإسلام الجامعين بين الحديث والفقه، وهو صاحب عدة كتب، أشهرها (المُسنَد) ويحتوي على قرابة (٤٠,٠٠٠) حديثاً.

ونحن سنذكر للإمام أحمد، موقفه النادِر المِثال، ووقفته العظيمة الّتي وقفها بِوَجهِ فتنة خلق القرآن، الذي كان هو بطلها المغوار.

ولكنّنا قبل ذلك، سَنُشير إلى خصلتين من الخصال الحميدة لهذا الإمام الأوحد، وهما: عِلمُهُ وزُهدُه، إذنْ: سَنَتَحَدَّث عن الإمام أحمد في ثلاث فقرات: [١٣٨]

الأولى: علم الإمام أحمد:

توفي والد الإمام أحمد وهو لايزال صغيراً، فقامت أُمُّه على نشأته: فَحَفِظَ القرآنَ وتعلَّم القراءة والكتابة صغيراً، وكان أولُ من كتب عنه الحديث، أبا يوسف، ومكث في بغداد منشغلاً بأخذ الحديث، تفرّغ لطلب العلم بِجِدٍّ ونشاط، من سنة (١٧٩هـ) وحتى سنة (١٨٦هـ)، كما قال هو عن نفسه: «أحياناً كنت أخرج من البكور لطلب الحديث، فَتَجُرُّ أُمِّي ردائي قائلةً: اصبر حتى يحين وقت الأذان ويَطلَع الفَجر».

وبعد ذلك ذهب أحمد إلى البصرة في سنة (١٨٦هـ)، وذهب بعدها إلى الحجاز، ثم إلى اليمن، فالكوفة، ولم يستطع الوصول إلى (الرَّي) لِقِلَّةِ ذات يده، كما روى بنفسه «لو كان لي خمسون درهماً لَرَحَلت إلى جريج بن عبدالحميد» الذي كان بالرَّي.

١٣٨) إستفدت في كتابة هذه الفقرات الثلاث عن سيرة الإمام أحمد بن حنبل، من هذه المصادر:
(رجال الفكر والدعوة في الإسلام) ج١، ص١١٩-١٣٨.
(العلماء وأمانة الكلمة) محمد بن سرور بن نايف زين العابدين.
(تاريخ المذاهب الإسلامية..) محمد أبوزهرة، ص٤٨٣-٥٤٣.

وفي سنة (١٨٧ هـ) إلتقى أحمد بالإمام الشافعي وأخذ عنه الفقه وأصوله وعلم الناسخ والمنسوخ.

واستمرَّ على هذه الحال في طلب العلم، وخصوصاً في طلب الحديث حتى صارت إليه الإمامة في ذلك.

روى ابنه عبدالله فقال: سمعت (أبو زرعة) يقول: كان أبوك يحفظ ألف ألف (١٠٠٠,٠٠٠)حديث.

وقال إبراهيم الحربي: «رأيتُ أحمد، كأنّ الله جمع له علم الأوّلين والآخرين».

وقال أبو عبيدة: «ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة من أحمد».

وعندما خرج الشافعي إلى مصر قال: «خرجت من بغداد وما خَلَفتُ بها أفقه وأَتقى من ابن حنبل».

بدأ الإمام أحمد في إلقاء الدروس والفتوى في سن الأربعين، وكانت حلقات دَرسِهِ مُشوِّقَة تسترعي الإهتمام، يحضُرُها قرابة خمسة آلاف (٥٠٠٠) شخص، يكتب الدرس منهم (٥٠٠)، وكانت دروسه تمتاز بالوفاء والسكينة وحُسنِ الإنصات وإجلال العلم، وكانت بعيدة عن الدُّعابة والهَزْلِ وكلِّ ما يُذهِبُ رَواءَ العلم وروعة الدين، وكان للفقراء تقديم على الأمراء والأغنياء، نَقَلَ الذهبي عن المروزي، قال: «لم أر الفقير في مجلسٍ أعزَّ منه في مجلس أبي عبدالله، كان مائلاً إليهم، مُقصِّراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حِلمٌ، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع تَعلُوه السكينة والوَقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا، لا يتكلَّم حتى يُسأَلَ، وإذا خرج إلى مسجده، لم يتصدَّر، قعد حيث انتهى به المجلس.

الثانية: زهده واحتقاره للدنيا:

كان الإمام أحمد يعيش عَيشةً ساذجة بسيطة يقتنع بها، فحياته كانت كحياة السَّلف الصالح، يأبى أَخذَ الهدايا والعطايا من أهل السلطة، وكان إذا اضطر لأَخذِها، وَزَّعها -في الحال- على مَن حَولَهُ.

وكان لا يرى حُرمةَ هذه الأموال، ولكنه يرى أنَّها أُخِذَت مِن غَيرِ حِلٍّ، وقد تَعَلَّقت بها حقوق المسلمين وقلوبُهم، فكان يَتَحاشى أَخذَها ويتأثَّم من قبولها، وقد قال مرَّةً لأولاده:

«لِمَ تَأخُذونه، والثغور مُعطَّلةٌ غير مشحونة، والفيءُ غير مقسوم بين أهله؟!».

وكان مع هذه القناعة والزهد والعيشة البسيطة، سَخِيّاً مُتَطامِناً للناس، وفي ذلك يقول:

«يُؤكَلُ الطعامُ بثلاث: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة».

وقال أيضاً: «لو أنَّ الدنيا تَصغُرُ حتى تكون في مِقدارَ لقمةٍ، ثم أَخَذَها امرؤٌ مُسلمٌ فوضعها في فم أخيه المسلم، ما كان مُسرفاً.

الثالثة: موقفه العظيم أمام فتنة خلق القرآن:

أصدر الخليفة العباسي المأمون سنة (٢١٨هـ) رسالة إلى والي بغداد (إسحق بن إبراهيم) أمر فيها بجمع القضاة وامتحانهم في عقيدة خَلقِ القرآن، وعَزل من لا يقول بذلك منهم، وإسقاط شهادة مَن لا يراها من الشهود.

وشدَّد المأمون -في هذه المسألة- رويداً رويداً، حتى وصل الأمر إلى ضرب رقاب مَن لا يقولون بخلق القرآن.

وامتثل الوالي أمر الخليفة، وجمعهم ثانية، وقرأ عليهم كتاب المأمون، فَأَقرُّوا جميعاً بأن القرآن مخلوق، إلاّ أربعة أَبَوا أن يُقِرُّوا بذلك، وهم:

١-أحمد بن حنبل.

٢- محمد بن نوح.

٣- سجادة.

٤- القواريري.

وأُمِرَ بهم فَشُدُّوا في الحديد، واعترف سجادة بخلق القرآن، فأُطلِقَ صَراحُهُ،

وأجاب القواريري بعد يوم آخر، فأُطلِقَ صراحه، وانحصر الأمر بين اثنين: أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح، فَشَدَّهُما في الحديد ووجَّهَهُما إلى المأمون، ثم أَرسَلَ البقيّة من الممتحنين بأمر المأمون، وبلغتهم وفاة المأمون وهو بالرَّقَّة، فخلّى والي بغداد سبيل أكثرهم، ومات محمد بن نوح وهو عائد إلى بغداد، وهكذا تركَّزَت رياسَةُ المعارضة في أحمد بن حنبل، فكان زعيمها وعَلَمَها ومُتَّجَه الأنظار إليها.

ووصل أحمد بن حنبل إلى بغداد مُقَيَّداً، وحُبِسَ في دار عُمارة ببغداد، ثم حُوِّل إلى سجن العامة، ومكث في السجن نحواً من ثلاثين شهراً، قال ابنه حنبل، كنّا نأتيه، وقرأ عليّ كتاب (الإرجاء) وغيره في الحبس، ورأيتُه يُصَلِّي بأهل الحبس وعليه قيدٌ، فكان يخرج من حلقة القيد وقت الصلاة والنوم.

والآن هَلُمّ نسمع إلى أحمد-رحمه الله- ليحكي لنا قصته:

«فلما كان في الليلة الرابعة وجّه-يعني المعتصم- ربيعاً الذي كان يقال له (الكبير أبو إسحاق)، فأمره أن يَحمِلَني إليه، فأُدخِلتُ على إسحق، فقال: يا أحمد! إنها والله نفسك، إنَّهُ لا يقتلك بالسيف، إنَّهُ قد آلى إنْ لم تُجِبهُ أن يضربك ضرباً بعد ضرب، وأن يقتلك في موضع لا تُرى فيه شمس ولا قمراً فلمّا صرنا إلى الموضع المعروف بباب البستان، أُخرِجتُ، وجِيءَ بدابّةٍ، فَحُمِلتُ عليها وعَليّ الأَقياد، وما معي أحد يُمسِكُني، فكِدتُ غيرَ مَرَّة أن أَخِرَّ على وجهي، لِثِقَل القيود، فجيءَ بي إلى دار المعتصم، فَأُدخِلتُ حُجرَةً وأُدخِلت إلى بيت، وأُقفِلَ البابُ عليَّ، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سِراجٌ، فأَرَدتُ أن أَتَمَسَّح للصلاة، فَمَدَدْتُ يدي، فإذا أنا بإناءٍ فيه ماءٌ وطَستٌ موضوع، فتَوَضّأت وصَلَّيت، فلما كان من الغَدِ أَخرَجتُ تِكَّتي من سراويلي وشَدَدتُ بها الأَقياد أَحمِلُها، وعَطَفتُ سراويلي، فجاءَ رسول المعتصم: أَجِب، فَأَخَذَ بيدي وأَدخَلَني عليه، والتِكّة في يدي أَحمِلُ بها الأقياد، وإذا هو جالسٌ وابن أبي دؤاد حاضر، وقد جمع خَلقاً كثيراً من أصحابه، فقال لي:-يعني المعتصم- أُدنهُ، فلم يَزَلْ يُدنيني حتى قَرُبتُ منه، ثم قال لي: إجلِسْ، فَجلستُ، وقد أَثقَلَني الأقيادُ، فمكثتُ قليلاً، ثم قلت: أَتَأذَنُ لي بالكلام؟ فقال:

تَكَلَّمْ، فقُلت: إلى مَ دعا الله ورسولُه؟ فسكت هُنيهةً، ثم قال: إلى شهادة ألاّ إله إلا الله، فقُلت: فأنا أشهدُ ألاّ إله إلا الله، ثم قلت: إنَّ جَدَّك إبن عباس يقول: لما قَدِم وفد عبدالقيس على رسول الله ﷺ، سألوه عن الإيمان، فقال: أتدرون ما الإيمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تُعطوا الخُمس من المغنم.. قال أحمد: قال-يعني معتصم- لو لا أنّي وجدتك في يد مَن كان قبلي، ما عَرَضتُ لك..»

ويذكر أحمد بن حنبل ما جرى بينه وبين علماء البلاط والمناظرة، ثم يقول: وجعل إبن أبي دؤاد يقول:

«يا أمير المؤمنين! لئن أجابَكَ، فهو أَحَبُّ إليَّ من مائة ألف دينار، ومائة ألف دينار...، فَيَعُدُّ من ذلك ما شاء الله أن يَعُدَّ، فقال المعتصم: والله لئن أجابني لأُطلِقَنَّ عنه بيدي ولأركبن معه بجندي ولأَطَأَنَّ عَقِبَهُ.

ثم قال: يا أحمد! والله إنّي عليك لَشفيق، وإنّي لأُشفِقُ عليك كشفقتي على هارون ابني، فما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله، فلما طال المجلس ضَجَرَ وقال: قوموا، وحَبَسَني-يعني عنده-.

قال: فلما كان في الليلة الثالثة قلت: خليق أن يَحدُث غداً من أمري شيءٌ، فقلت لبعض من كان معي، الموكَّل بي: ارتُب لي خيطاً، فجاءني بخيط، فَشَدَدتُ به الأقياد ورددتُ التِّكَّة إلى سراويلي مخافة أن يحدث من أمري شيءٌ فأتعرَّى عند الضرب، فلما كان من الغد في اليوم الثالث وجّه إليَّ، فأُدخِلْتُ والدّارُ غاصّة، فجعلتُ أَدخل من موضع إلى موضع، وقوم معهم السيوف، وقوم معهم السياط وغير ذلك، ولم يكن في اليومين الماضيين كبيرُ عددٍ من هؤلاء، فلما انتهيتُ إليه قال: أُقعُد، ثم قال: ناظِروه! كَلِّموه! فجعلوا يناظرونني، ويَتكلَّم هذا، فأَرُدَّ عليه، ويتكلَّم هذا، فأرُدَّ عليه، وجعل صوتي يعلو أصواتهم، فجعل بعض مَن على رأسه قائِمٌ، يوميءُ إليّ بيده، فلما طال المجلس نحّاني ثم خلى بهم، ثم نحّاني وردَّني إلى عنده، فقال: ويحك يا أحمد! أجبني حتى أُطلِقَ عنك بيدي.

فَرَدَدتُ عليه نحواً مما كنت أَرُدُّ، فقال لي: عليك الَّلعنة، وقال: خذوه واسحبوه واخلعوه، قال: فسُحِبتُ ثم خُلِعتُ..»

ثـم يتحدث الإمام أحمد -بالتفصيل- عن كيفية تعذيبه، وأنّهُ ضُرِب حتى أُغمِيَ عليه، وأنّهم بعد ذلك أكَبُّوه على وجهه، وطرحوا على ظَهرِهِ باريةً وداسوُه، وأنّهم أتوه بسويق إذْ كان صائماً، ولكنه لم يُفطِر.

ثم قال:

«ثم جيء بي إلى دار إسحق بن إبراهيم، فَحَضَرَتِ صلاةُ الظهر، فتقدَّم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من الصلاة قال لي: صلَّيت والدَّمُ يسيل من ثوبك؟ فقلت: قد صلّى عُمَرُ وجُرحُهُ يَثعُب دماً..»

وجدير بالذكر، أنَّ مجموع السِّياط التي ضُرِبَها الأمام أحمد، قد جاوزت الألف (١٠٠٠) سوط، وأنهُ سُجِنَ في أيام المأمون، والمعتصم، والواثق، تِباعاً، وأنَّه في أيام (الواثق) منع من التدريس وأُجبِرَ على الإقامة في بيته، وانتهت محنة الإمام أحمد في عهد المتوكِّل، وعجزت السلطات العباسية أن تنال من العزيمة الفولاذية للإمام أحمد، الذي اضطرَّهم أن يعودوا إلى منهج جمهرة المسلمين،[١٣٩] وأن يَتخَلَّوا عن بدعة (خلق القرآن) التي استحدثتها المعتزلة، وهي فرقة مُبتَدِعة كسائر أهل البدع من المرجئة، والخوارج، والروافض، والناصبة، والجبرية، والقدرية.

ونُنهي هذه المواقف البطولية الخالدة للإمام أحمد، بمقولتين قَيِّمَتَين له:

١/ في جواب لعمِّه (إسحق بن حنبل) وقد طَلَبَ منه أن يُبدي اللِّين لينجو بنفسه، قال الإمام أحمد: «يا عم، إذا أجاب العالم تَقِيَّةً والجاهل يجهل، فمتى يَتبيَّن الحق؟!.»

٢/ في مرضه الذي مات فيه، زاره يحيى بن معين، وسلّم عليه، ولكن الإمام أحمد لم يردَّ عليه السَّلام، واعتذر إبن معين بالآية القرآنية: [إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ

١٣٩) وهذا في مسألة القرآن فقط، وإلّا فقد أستمروا في أخطائهم ومخالفاتهم الشرعية الأخرى، حتى سنة (٦٥٦هـ) عندما أنتهى حكمهم على يد الجيش المغولي بقيادة (هولاكو).

مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ]النحل-١٠٦-، وبحديث عمار الذي نطق بما يُرضي المشركين، لِما رآه من تعذيبِ أَبَوَيه، ولكن الإمام أحمد أعرض عنه، فقال يحيى: إنَّهُ لا يَقبَلُ المعاذير.

وعندما خرج يحيى من عنده، قال الإمام أحمد: يحتج بحديث عمار، وإنما مرّ عمار بالمشركين يَسُبُّون رسولَ الله ﷺ فأراد منعهم، فضربوه، ولكنَّكم قيل لكم: نريد أن نضربكم! فقال يحيى: «والله لَم أرَ تحت أديم السماءِ أعلَمَ بدين الله منك».

تلك كانت شخصية الإمام الأحمد، ومواقفه العظيمة واللّامعة من فتنة (خلق القرآن)، وهكذا كان التزامُ الإمام أحمد بالقرآن وسنة رسول الله ﷺ، وعَدَمُ الحِياد عنهما تحت أي ضغط من الضغوط، ولذلك يقول (علي بن المديني) وهو من كبار أئمة الحديث وهو شيخ البخاري:

«إن الله أعزَّ هذا الدِّين بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة».

ولذلك عندما تُوَفِّي الإمام أحمد، حضر جِنازَتَهُ وَدَفنَهُ من الرجال حوالي المليون (١٠٠٠,٠٠٠)، ومن النساء ستون ألفاً (٦٠,٠٠٠)، شاركوا في الصلاة على جِثمانه![١٤٠]

١٤٠) إستفدت لكتابة هذا المبحث من:

(رجال الفكر والدعوة) ج١ ص١٤١-١٥١.

(تأريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتأريخ المذاهب الفقهية)، محمد أبو زهرة، ص١٦٠-١٧٢.

١١- أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى

هو: (أبو الحسن بن إسماعيل)، من ذرية أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ، ولد بالبصرة عام (٢٧٠هـ)، تزوَّجت أمُّهُ -بعد وفاة والده اسماعيل- بأبي علي الجُبّائي، شيخ المعتزلة في عصره، وحامل راية الإعتزال، توفي أبو الحسن الأشعري عام (٣٢٤هـ)، ودفن في بغداد، ونودي على جنازته: «اليوم مات ناصر السنة».

وسَنَتَعَرَّضُ لذكر أهمِّ موقف من مواقف هذا العلامة الكبير، جزاه الله عن الإسلام خير الجزاء:

كما أسلفنا فقد تزوَّجت أُمُّه بعد وفاة أبيه من أبي علي الجُبّائي، وبذلك نشأ أبو الحسن في بيت كبير المعتزلة، وتَلَقّى عُلُومَهُ حتى صار نائِبَهُ وموضع ثقته، وعلى هذا قضى أربعين عاماً من عمره.

ولكنه -بالنتيجة- صحا ضميرُهُ، وصَحَّت فطرته، وأدرك بعقله الكبير كثيراً من جوانب التفاهة في نظرية الإعتزال، وبعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يوماً مختلياً بنفسه، متفكراً متأملاً، يطالع الكتب، ويستخير ربَّه، انتهى إلى الإقتناع التام والإطمئنان الكامل أن المنهج الأوفى والأكمل للإسلام، هو ما كان عليه السلف الصالح، ومع أن أبا الحسن كان ذا مكانة اجتماعية مرموقة، لكن السكوت على الباطل، إذا كان ثمناً للبقاء في تلك المكانة التي لم يحصل عليها إلاّ عن طريق تلك الفكرة المُبتَدَعَةِ، ذَنبٌ وأيُّ ذنب، كما قال الشاعر:

إذا كُنتَ ذا رأيٍ فكُنْ ذا عَزيمَةٍ ... فإنَّ فَســادَ الرأيِ أنْ تَتردّدا

ولهذا كله، انتهى أبو الحسن إلى أن دخل المسجد الجامع في البصرة، ورقى على كرسي مُنادياً:

من منكم عَرَفَني فهو يعرفني، والذي لا يعرفني، أُعَرِّفه نفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول: إنَّ القرآن مخلوق، وكنت أقول: إنَّ الله لا يُرى بالأعيان يوم القيامة، وكنت أقول: بأن سيّئاتي من صُنع يدي، وأنا نادِمٌ على كل هذا، مُقلِعٌ عنه، واعتقادي أن أرد على المعتزلة وأُبَيِّن معايبهم.

وأصبح أبو الحسن بعد هذا، إماماً من أشد الأئمة محاماةً عن أهل السنة والجماعة، وأكثرهم رداً على الأفكار المُحَدَثَةِ، وصنَّف كتابه: (الإبانة عن أصول الديانة) الذي ضمنه عقيدة جمهور المسلمين، وابتدأهُ بقوله:

«وقولنا الذي نقولُ به وديننا التي نَدِينُ به، التمسُّك بكتاب ربِّنا عزَّ وجل وسُنَّةِ نبيناﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول أبو عبدالله أحمد بن حنبل نضَّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته، قائلون، ولما خَالَفَ قولَهُ مخالفون...».

فهذا هو أبو الحسن الأشعري، وهذا هو منهجه في العقيدة: إلتزامٌ بعقيدة الإسلام الذي ورد في القرآن والسنة، والذي كان عليه الأصحاب وأتباعهم من السلف الصالح.

لكن الذي يدعو إلى الأسى: أن صنفين من الناس في هذا الزمان، يُخطِئون فهمَ هذا الرجل العظيم:

١- كثير من الشُّبان والدارسين، يَخلُطون بين منهج الأشاعرة ومنهج الأشعري، ويعدُّونَهما شيئاً واحداً، رغم ما أحدثتها الأشاعرة -من بعد الإمام الأشعري- من أفكار بدعيّة كقصر صفات الله تعالى على سبع صفات، ونفي أكثر صفاته تعالى، بذريعة التأويل وتفريغها من معانيها ومفهوماتها الحقيقية...الخ.

٢- وكثيرٌ من الأئمة الذين يعتبرون أنفسَهُم أتْباعاً لأبي الحسن الأشعري، في الإيمان والعقيدة، ويحملون لقب (الأشعري) أحياناً كثيرة، ولكن إذا جاز الإنتساب لمذهب من المذاهب الفقهية، فلا يجوز له ذلك الإنتساب في العقيدة، لأن المذهب الفقهي عبارة عن تصور وفهم إنسانٍ لمسائل تحتمل أكثر من رأي، ولكن العقيدة مُبَيَّنة من قبل الله تعالى ونبيه محمدﷺ في القرآن والسنة، وقد وُضِع فيهما النِّقاط على الحروف جليّاً، وعلى هذا فلا يجوز أن تكون هناك مذاهب عقيدية: كالأشعرية والماتريدية والمعتزلة والسلفية والخَلَفيَّة والصوفية.

لأن العقيدة هي أساس الدِّين ولا تَطرأ عليها التغيّرات، وهي واحدة وليست طرائق شتى.

أجلْ إن العقيدة الإسلامية هي عقيدة القرآن والسنة، ولا شيء غير ذلك.

وعوداً على البَدءِ أقول:

إنَّ كثيراً من العلماء الذين يَحسبون أنفسهم أَتباعاً لأبي الحسن الأشعري، تراهم في كثير من القضايا الأساسية يُخالِفون رأيَهُ فيها، وهم في ذلك يقولون بالآراء البِدعيّة التي قال بها بعض العلماء المتأخرين، من مدرسة الأشاعرة،[١٤١] ولا يَمُتُّون إلى الإمام الأشعري بصلة، سوى الإنتساب المجرَّد إلى كُنيَّتِهِ.

وقد يكون هذا عاملاً مهماً ورئيسياً في سوء الفهم الذي عليه كثير من الطلبة والشباب الإسلامي، الذين يظنون أنَّ ما ورد في كتب كـ(شرح العقائد) و (تهذيب الكلام) و(شرح المواقف)، كلها من آراء أبو الحسن الأشعري والحق خلاف هذا، فلقد تسرَّبت كثير من الأفكار البدعية إلى الأشاعرة، من طريق المعتزلة والمرجئة والفلاسفة.

وأقول في ختام هذا المبحث:

ليكن كلُّ من يُكِنُّ حُبّاً لهذا الرجل النابغة والعالم الألمعي، الذي نَصَّب نَفسَه مُدافِعاً عن عقيدة جمهور المسلمين، مثله:

أولاً: رابط الجأش، جريئاً، إذا تَبَيَّنَ له وَجهُ الحق قال به، وتَبِعَهُ دون تردُّدٍ أو مماطلة، فإن لم يستطع أن يرفع به عقيرته كالإمام، فليَقُلْهُ ولو خافِضاً به صَوتَهُ.

ثانياً: ألاّ يَسلُكَ طريقاً غير الطريق الأَبلَج اللاحب للكتاب والسنة في كل مجالات العقيدة والعبادة والحكم والسياسة...الخ.

١٤١) وكذلك الحكم في الكتب التي صنَّفها أبو الحسن الأشعري قبل رجوعه إلى عقيدة جمهور المسلمين، وقد يكون خَطَأُ بعض أتباعِهِ ناجماً عن عدم إدراك هذه الحقيقة.

١٢- الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

هو: (محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، أبو حامد الغزالي)، ولد سنة: (٤٥٠هـ) في طابران، من ناحية طوس، وهي مقاطعة إيرانية تُسمَّى الآن (مشهد)، كان أبوه رجلاً فقيراً، صالحاً لا يأكل إلاّ من كسب يده في عمل غَزْل الصُّوف، تُوفِّي الغزالي سنة: (٥٠٥هـ)، ودُفِنَ في طابران.

والحق-أيها القراء الأعزاء!- إنَّني لَحَائِرٌ أيَّ مواقف الإمام المشرِّفة أختار وأيَّها أَذَر؟!

١- أَأَروي قِصَّته الرائعة في بحثه وراء اليقين الذي سَرَدها في كتابه: (المنقذ من الضلال)؟ [١٤٢]

٢- أم أَتَكَلَّم عن اليقظة التي حدثت في أعماق نفسه، فاضطره إلى ترك إدارة مدرسة النظامية، وفيها كان يدرس ثلاثمائة (٣٠٠) طالب علم، فَحَرَمَ نَفسَهُ الطَّعام والمنام يجوب الصحاري والوهاد والمدن والبلاد؟

٣- أو أَتَحدَّث عن مواقفه المشحونة بالجرأة، وهو يرُدُّ على الأفكار البِدْعيَّة والتصورات التافهة لـ(المُتكلِّمين) [١٤٣] و(المُتَصوِّفة) [١٤٤] و(الباطنية) [١٤٥] و(الفلاسفة) [١٤٦] وأخص بالذكر هذه الأخيرة، حيث كانت سُوقُها رائجة بحيث أبعَدَت الناس عن القرآن والسنة.

---

١٤٢) يُنظَر: المنقذ من الضلال.

١٤٣) له مصنفات بهذا الصدد منها:

(إلجام العوام عن علم الكلام).

(فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة).

١٤٤) ورغم أنَّ الغزالي أعتبر التصوف حَلاًّ في كتابه: (المنقذ من الضَّلال)، إلّا أنَّه لَهُ على التصوف أستدراكات كثيرة.

١٤٥) له عدة كتب عنهم كـ(المستظهري) أو (فضائح الباطنية).

١٤٦) بكتابه: (تهافت الفلاسفة) حَطَّم ظَهرَهُم.

٤- أو عن موقفه الشجاع الجريء، المليء بالإحساس بالمسؤولية أمام جميع شرائح المجتمع وطبقاته، ووضع الأصبع على الجرح النازف ووصف الدواء الناجع لها، ابتداءً من الخليفة والمسؤولين، وانتهاءً بالفقراء والمساكين.[١٤٧]

ولكن لا، سأعرِضُ عن ذكر كل ذلك صفحاً، ونذهب معاً نقرأ سطوراً من كتابه (إحياء علوم القرآن) لنستوضح موقفاً من المواقف العظيمة للغزالي، أمام قضية هي من الأهمية بالمكان الأسنى، وهي:

تردُّد العلماء على الأمراء والخِلطَةِ بهم، وأَخذُ مُكافآتهم وجوائزهم وهداياهم، يقول الإمام الغزالى بهذا الصدد:

[إنَّ الظلمة في العصر الأول لِقُرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين، كانوا مستشعرين من ظلمهم ومُتَشَوِّقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين، وحريصين على قبول عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يَبعَثون بها إليهم من غير سؤال ولا إذلال، بل كانوا يَتَقَلَّدون المِنَّة بقبولهم إيّاها ويفرحون به، وكانوا يأخذونها منهم ويُفرِّقونها، ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يَغْشون مَجالِسَهُم، ولا يُكثِرون جَمعَهُم، ولا يُحِبُّون بقاءَهم، بل يدعون عليهم ويُطلِقون اللِّسان فيهم، ويُنكِرون المنكرات عليهم، فما كان يُحذَرُ أن يُصيبوا من دينهم، بِقَدَر ما اصابوا مِن دنياهم، ولم يكن يَأخُذُهم بَأسٌ، فأمّا الآن، فلا تَسمَحُ نفوسُ السلاطين بعطية إلاّ لمن طَمِعوا في استخدامهم والتكثُّر بهم، أو الإستعانة بهم على أغراضهم-غير الشرعية-[١٤٨] والتَجمُّل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية والإطراء في حضورهم ومغيبهم.

١/ فلو لم يُذِلّ الآخِذُ نَفسَهُ بالسؤال.

٢/ وبالتردُّد في الخدمة.

٣/ وبالثناء والدعاء.

١٤٧) عنده رسالة بعنوان: (الكَشفُ والتبيين عن غرور خلق الله أجمعين) كما أنه تحدث عن ذلك في كثير من مواضع كتابه: (إحياء علوم الدين).

١٤٨) زدتُ هذه الكلمة من عندي، لأن السياق يدلُّ عليها، ويَتِمُّ بها المعنى.

٤/ وبالمساعدة له على أغراضِهِ.

٥/ وتكثير جَمعِهِ في مجلسه وموكبه.

٦/ وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه.

٧/ وبالستر على ظلمه، ومساويء أعماله.

لَم يُنعِم عليه بِدِرهمٍ واحد، ولو كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلاً، فإذاً لا يجوز أن يُؤخَذَ منهم في هذا الزمان، ما يُعلَمُ أنه حَلالٌ لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يُعلَمُ أنه حرام أو يُشَكُّ فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم، وشَبَّهَ نفسه بالصحابة والتابعين، فقد قاس الملائكة بالحدّادين.][149]

رحمة الله عليك أيها الإمام الغزالي، وملأ قَبرَكَ نوراً، لقد عَرَفت -حقاً وصدقاً- الحكّام الظلمة والطامعين والمعاندين، وقدَّمتَ النُّصحَ للعلماء والأئمة أيضاً، إذا هُم أرادوا أن يحافظوا على سمعتهم وشَخصِيَّتهم وحرمتهم.

١٤٩) يُنظَر: (إحياء علوم الدين) ج٢ ص١٢٢-١٢٣.

١٣- الشيخ عبدالقادر الجيلاني[١٥٠] رحمه الله

هـو: (الشـيخ عبدالقـادر الجيـلاني)، ولـد سـنة (٤٧٠هـ) في جيـلان، دخـل بغداد سـنة (٤٨٨هـ) ولـه ثـمان عـشرة سـنة، وأقبـل إلى العلـم بهمـة عاليـة وجِـدٍّ وحِـرص، وبعـد إكمالـه دراسـته والحصـول عـلى الإجـازة، اشـتغل بإلقـاء الـدروس والدعـوة وتربيـة النـاس وتزكيتهـم إلى أن تـوفي في بغـداد سـنة (٥٦١هـ).

وسـنحاول جاهديـن أن نسـجل خلاصـة لعـشرة مـن المواقـف للشـيخ عبدالقـادر، في عـشرة بنـود قصـيرة:

البند الأول/ علمه:

الشـيخ عبدالقـادر قبـل أن يكـون شـيخاً وأُسـتاذاً في التربيـة وتزكيـة الطلبـة والمريديـن، كان عالمـاً بارعـاً وأُسـتاذاً عارفـاً.

فقـد قـرأ العلـوم السـائدة في عـصره عـلى أَسـاتذتها الُمبرَّزيـن فيهـا، وأَتقَنَهـا ومَهَـر فيهـا وحصلـت لـه فيهـا اليـد الطـولى، ومـن شـيوخه؛ أبـو الوفـاء بـن عقيـل، ومحمـد بـن الحسـن الباقـلاني، وأبـو زكريـا التبريـزي، وأخـذ الطريقـة عـن الشـيخ أبي الخـير بـن مسـلم الدبّـاس، وأكملهـا عنـد القـاضي أبي سـعيد المخرّمـي وحصلـت لـه الإجـازة.

وقـد كان قـوي الإشـتغال بالتدريـس، وكان عالمـاً متفنِّنـاً، قالـوا: كان يتكلـم في ثلاثـة عـشر علـماً، وكانـوا يقـرؤون عليـه في مدرسـته: درسـاً في التفسـير، ودرسـاً في الحديـث، ودرسـاً في المذهـب، ودرسـاً في الخـلاف، وكانـوا يقـرؤون عليـه طـرفي النهـار التفسـير وعلـوم الحديـث، والمذهـب، والخـلاف، والأصـول، والنحـو، وكان رحمـه الله يقـرأ القـرآن بالقـراءات بعـد الظُّهـر، وكان يُفتـي عـلى مذهـب الإمـام الشـافعي والإمـام أحمـد بـن حنبـل رحمهـا الله.

١٥٠) إسـتفدت لكتابـة حيـاة الشـيخ عبدالقـادر رحمـه الله مـن كتـاب: (رجـال الفكـر والدعـوة) ج١ ص٢٣٩-٢٦٥.

هـذا هـو علـم الأستاذ عبدالقـادر الجيـلاني ومعرفتـه، فـلا يغـترنَّ أحـدٌ بحـالٍ مُـدَّعٍ جاهـلٍ يدَّعـي اتِّبـاع الشـيخ، فيتصـوَّره أنـه كان مثـل هـذا المدَّعـي! كلاّ، ليـس بينهـما نقطـة اشـتراك إلاّ الـ(شـيخية) المزعومـة.

البند الثاني/ سلوكه وأخلاقه:

كان عبدالقـادر نموذجـاً يُحتَـذى في آدابـه وصفاتـه وأخلاقـه: [وكان مـن أخلاقِـهِ أن يقـف مـع جلالـة قَدره مـع الصغـير والجاريـة، ويجالـس الفقـراء ويُفَلِّي لهـم ثيابهـم، وكان لا يقـوم قـط لأحـد مـن العظـماء وأعيـان الدولـة، ولم يُلِـمَّ قـطُّ ببـاب وزيـر ولا سـلطان]، (١٥١) وقـد اتَفَقـت أَلسـنة وشـهادات المعاصريـن، عـلى حُسـنِ خُلقـه وعُلـوِّ هِمَّتـه، وتواضعـه لله تعـالى، وسـخائه، وإيثـاره الغـير عـلى نفسـه.

كان أبعـد النـاس عـن الفُحـش، وأقـرب النـاس إلى الحـق، شـديد البـأس، إذا انتهكـت محـارم الله ﷻ، ولا يغضـب لنفسـه، ولا ينتـصر إلاّ لغـيره، وكان لـه غَـرامٌ بإطعـام الطعـام والإنفـاق عـلى ذوي الحاجـة والعاهـة.

البند الثالث/ تأكيده على الإلتزام بالشرع وعدم الحياد عن السنة:

في تلـك المرحلـة التـي عاشـها الشـيخ، كان العـوام الجهلـة يبتعـدون عـن الـشرع في أحيـان كثـيرة بذريعـة جعـلِ الطريقـة بديـلاً عـن الشريعـة. (١٥٢)

وكانـت سـوق هـذه النظريـة رائجـة في القـرن الخامـس الهجـري، ولهـذا فقـد كان الشـيخ عبدالقـادر آكَـدُ مـا يؤكِّـد عليـه: أنَّ الإلتـزام بالشريعـة هـو كلُّ شيء، ومـا مـن شيء يمكـن أن يكـون بديـلاً عـن الشريعـة.

وقد نقل عنه في هذا الصدد كلمات قيمة ومقولات ثمينة، مثل:

---

١٥١) يُنظر: (الغُنية لطالبي طريق الحق) للشيخ عبدالقادر الجيلاني، (ترجمة المؤلف)، ص٥.

١٥٢) تـم نقـضُ هـذه النظريـة مـع مسـائل خاطئـة أخـرى، بصـورة وافيـة في كتابنـا: (طريـق الصّـلاح والسـير إلى الله).

١- «إتَّبعوا ولا تَبتَدِعوا، وأَطيعوا ولا تُخالِفوا». [١٥٣]

٢- «كلُّ حقيقة لا تَشهَد لها الشريعة، فهي زندقة، طِرْ إلى الحق بجناحي الكتاب والسنة، أُدخل عليه ويَدُك في يد رسول الله ﷺ.» [١٥٤]

البند الرابع / تأكيده على التوحيد:

للشيخ مواقف صارمة وصريحة فيما يخص التوحيد، وقَلَّما رأيتُ عالماً من علماء الإسلام، يستفرغ وسعه-هكذا- في نُصرَة التوحيد، فهو يقول:

«العبد إذا عرف الله ﷻ سَقَطَ الخَلقُ من قلبه، وتناثر عنه، كما يتناثر الوَرَقُ اليابس». [١٥٥]

ويقول أيضاً: «أنت مُعتَمِدٌ عليك، وعلى الخلق، دنانيرك ودراهمك، وعلى بيعك وشرائك، وعلى سلطان بلدك، كلُّ مَنْ اعتمدت عليه فهو إلهك، وكل من خِفْتَهُ ورَجَوْتَهُ فهو إلهك، كل مَن رأيتَهُ في الضُّرِّ والنفع، ولم تَرَ أَنَّ الحق ﷻ يُجري ذلك على يديه، فهو إلهك». [١٥٦]

البند الخامس / الشفقة واللَّهفةَ على المسلمين:

قِلَّةٌ هم الحريصون والمتلهِّفون-كما كان الشيخ رحمه الله- متلهفاً وحريصاً على الإسلام، مداوِماً على البكاء له، تأمل كلماته هذه، أليس منبعثاً منها الحرص والتلهف والشفقة على الإسلام والمسلمين؟:

يقول: «دين محمد تتواقع حيطانه ويتناثر أساسُهُ، هَلُمُّوا يا أهل الأرض نُشَيِّدُ ما انهدم ونقيم ما وقع، هذا شيء ما يتم، يا شمس ويا قمر ويا نهار تعالُوا». [١٥٧]

١٥٣) يُنظر: الطبقات الكبرى، للشعراني، ص١٢٩.

١٥٤) يُنظر: الفتح الرباني والفيض الرحماني، عبدالقار الجيلاني، المجلس (٤٤)، ص١٤٣.

١٥٥) يُنظَر: الطبقات الكبرى للشعراني ص١٢٩.

١٥٦) يُنظَر: (الفتح الرباني) المجلس ١٥، ص٥٦.

١٥٧) المصدر السابق، المجلس: ٦٢، ص٣٠١.

ويقـول: «يـا قـوم، الإسـلام يبكـي ويسـتغيث، يـده مـن رأسـه مـن هـؤلاء الفجـار، مـن هـؤلاء الفسـاق، مـن هـؤلاء أهـل البـدع والضـلال، مـن الظلمـة مـن اللابسـين ثيـاب الـزور، ومـن المدَّعـين مـا ليـس فيهـم!». (١٥٨)

البند السادس/ شفقته على الخلق:

كان عبدالقـادر الگيـلاني عطوفـاً شـفيقاً، رفيقـاً بالأمـة المحمديـة وعامـة النـاس، دائـم الدعـوة لهـم، يَـرُقُّ قَلبُـه، ويتأثَّـر لضعفائهـم والمشـتغلين بـما لا ينفعهـم في الآخـرة، ولنسـتمع إليـه كيـف يُبـدي حِرصَـهُ ويصوغـه:

«يـا خَلـقَ الله، إني أَطلـب صلاحَكـم ومنفعتكـم بالجملـة، أَتَمَنَّـي غَلـقَ أبـواب النـار وعدمهـا بالكُلِّيَّـة، وألاّ يدخلهـا أحـدٌ مـن خلـق الله ﷻ، وفتـح أبـواب الجنـة، وأنْ لا يُمنَـع مـن دخولهـا أحـدٌ مـن خلـق الله ﷻ، وإنَّـما تَمَنَّيـت هـذه الأمنيـة لاطِّلاعـي عـلى رحمـة الله وشـفقته عـلى خلقـه..» (١٥٩)

وقال أيضاً عن شفقة العلماء وحرصهم على الناس عموماً والمذنبين خصوصاً:

«كيـف لا يرحمـون العصـاة وهـم موضـع الرحمـة، مقـام التوبـة والإعتـذار، العـارف خُلُقُـه مـن أخـلاق الحـق ﷻ، فهـو يجتهـد في تخليـص العـاصي مـن الشـيطان والنفـس والهـوى، إذا رأى أحدكـم ولـده أسـيراً في يـد الكافـر، أَليـس يجتهـد في تخليصـه، فهكـذا الخلـق جميعهـم كالأولاد». (١٦٠)

البند السابع/ نقده للخلفاء والأمراء وتقويمه لأخطائهم:

لم يكـن الشـيخ عبدالقـادر يَقـصِر عـلى وعـظ العامـة ودعوتهـم، ويـترك ميـدان الأمـر والنهـي والحكـم والسياسـة للحـكّام المتأَمِّريـن، وكان يتنـاول الخليفـة والملـوك والأمـراء بالنقـد والملامـة، ويَـذُمُّ ظُلمَهـم، ولا يحـابي في ذلـك أحـداً ولا تمنعـه منـه وجاهـة أو سـلطان.

---

١٥٨) المصدر السابق، المجلس: ٤٩، ص١٦٢.

١٥٩) المصدر السابق، المجلس: ٥٣، ص١٧، ١٨٠.

١٦٠) المصدر نفسه.

قال إبن كثير: «كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للخلفاء والوزراء والسلاطين والقضاة والخاصة والعامة، يَصدَعُهم بذلك على رؤوس الأشهاد وعلى رؤوس المنابر، وفي المحافل، وينكر على مَن يُوَلِّي الظَّلَمَةَ، ولا تأخذه في الله لومة لائم».[١٦١]

ويقول صاحب (قلائد الجوهر):

«ولما أصدر المقتفي لأمر الله (أمير المؤمنين) للقاضي أبي الوفاء ويحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر، المشهور بابن مزاحم، أمراً ليكون مسؤول المظالم، قال عبدالقادر الكيلاني على المنبر: ولَّيتَ على المسلمين أظلَم الظالمين، ما جوابُك غداً عند رب العالمين وأرحم الراحمين؟

فارتعد الخليفة وبكى، وعَزَل القاضي المذكور لوقته».[١٦٢]

البند الثامن/ إنكاره على علماء البلاط والعلماء الرسميين:

وكان الشيخ عبدالقادر يُنكِرُ على العلماء الذين التزموا صحبة السلطان والأمراء، وأصبحوا ندماءهم ورجالَ حاشيتهم، يوافقونهم على كل ما يراه هؤلاء الملوك، وينفذونه من أحكام جائرة، ويُخضِعُون لهم الشريعةَ ونصوصها، ويؤوِّلون لهم أحكام الشرع، وقد كان الشيخ يُشَنِّعُ عليهم ويُغلِظُ لهم القولَ.

يقول في المجلس الحادي وخمسين من مجالسه الكثيرة لأهل بغداد:

«أين أنتم وهم؟! يا خَوَنَة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله ﷻ، أنتم في ظلم ظاهر، ونفاق ظاهر، هذا النفاق إلى متى؟ يا علماء يا زهاد! كم تنافقون الملوك والسلاطين، حتى تأخذوا منهم حُطام الدنيا وشهواتها ولذاتها، أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في مال الله ﷻ في عباده، أللّهم اكسِر شوكَةَ المنافقين واخذُلْهم أو تُب عنهم، واقمَعِ الظلمة وطَهِّر الأرضَ منهم، أو أَصلِحهُم آمين».[١٦٣]

١٦١) رجال الفكر والدعوة.. ج١، ص٢٦١-٢٦٢، من (البداية والنهاية).

١٦٢) قلائد الجواهر، ص٨.

١٦٣) المصدر السابق، المجلس: ٥١، ص١٧٣.

البند التاسع / تربية التلاميذ والمريدين وتزكيتهم وأخذ البيعة منهم:

لئن كان العقل أداةً للكشف والمعرفة والعلم، فالقلب مركز القبول والرفض والحب والبغض وتحريك الإنسان، ولهذا فقد كان للعلماء والمرشدين -إضافة إلى العقل- وقفات مع القلب لأنهم علموا أن الإنسان ليس وعاءً يُملأُ بالعلم والمعرفة ويترك بعد ذلك.

والشيخ عبدالقادر الگيلاني كباقي الأساتذة السابقين عليه كـ(الحسن البصري، وجعفر الصادق، ومعروف الكرخي، وجُنَيد البغدادي، وفضيل بن العياض، وأبو حامد الغزالي) فقد كان بالإضافة إلى الإنهماك بتعليم طلبته ومريديه، كان يشتغل بتربيتهم أيضاً، وكان يؤدّي كِلا مشروعي التعليم والتربية معاً، واللّذين يُشكّلان التزكية في نهاية المطاف.

وكان يُحكِمُ رَبطَ تلامذته وأَتباعه بنفسه، من خلال أخذه البيعة منهم والمراقبة الشديدة لهم، كي يكونوا بمأمنٍ من الإنزلاق والذِّهابِ بعيداً، فيمضي بهم إلى الله صاحب الملكوت والرحمة.

وفي هذا الموقف والسلوك النبوي لعبدالقادر الگيلاني رحمه الله وأمثاله، أبلغ موعظة وعبرة لأولئك العلماء الذين يظنون أنّ الناس قد يمكن إصلاحهم وتربيتهم عن طريق عقولهم وأذهانهم فقط، وهو دَأب الفلاسفة وعلماء الكلام، وليس دأب الأنبياء عليهم السلام ولا ورثتهم الكرام.

البند العاشر/ دعوة الشيخ عبدالقادر للإسلام وإحياء القلوب الميّتة؟

إتّفق المؤرِّخون على كثرة كرامات الشيخ عبدالقادر، قال الشيخ موفق الدين صاحب (المغني):

«لم أَسمَع عن أحدٍ يُحكى عنه من كرامات، أكثر مما يحكى عن الشيخ عبدالقادر».

وذكر الشيخ عزالدين بن عبدالسلام:[١٦٤]

١٦٤) يُنظَر: ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.

«إنّه لم تتوافر كرامات أحد من المشايخ إلا الشيخ عبدالقادر، فان كراماته نُقلت بالتواتر».

وكذلك قال شيخ الإسلام إبن تيمية. (١٦٥)

ولكنَّ أَجلَّ كراماته هي إحياء موات النفوس والقلوب، وزرع الإيمان وخشية الله وَحدَهُ فيها، وإشعال مجامر القلوب التي انطفأت.

فقد أعاد الله به إلى قلوب لا يحصيها إلا الله، حياةً وإيماناً، ولنستمع إليه يَسرُدُ علينا تجربته ونتاج دعوته إلى الله: (١٦٦)

«كان يجلس عندي رجلان وثلاثة يسمعون كلامي، ثم تسامع بي الناس وازدحم عليّ الخلق.. وكان الناس يجيئون في الليل على الشمع والمشاعل يأخذون لهم مواضع، ثم ضاق على الناس الموضع فحمل الكرسي إلى خارج البلد، وكان يجيئون على الخيل والبغال والحمير والجمال، وكان يحضر المجلس نحواً من سبعين ألفاً».

ويقول أيضاً: (١٦٧)

أَتَمَنَّى أن أكون في الصحاري والبراري كما كنت في الأول، لا أرى الخلق ولا يرونني، ولكن الله ﷻ أرادَ مِنِّي منفعة الخلق. فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف (٥٠٠٠) من اليهود والنصارى، وتاب على يدي من العيّارين والمَسالِحة، أكثر من مائة ألف (١٠٠٠٠٠) وهذا خير كثير».

وليكن الجميع على يقين، أنَّ الذين أسلموا على يد الشيخ، والذين أقلعوا عن المعاصي والسيئات ورجعوا إلى الله تعالى، ببركته لم يكونوا كالمتصوفة والدراويش في زماننا، لأن هؤلاء -إلاّ ما رحم ربي- يُشرِكون بالله -شرطاً أكبر أو أصغر- بَدَل أن يُوَحِّدوه، وَيَبتَدِعون ولا يَتَّبِعون، ويُحَشُّونَ رؤوسَهم بالأباطيل والأساطير، بَدَلَ أن يملؤوها علماً بالقرآن والسنة...إلخ.

١٦٥) يُنظَر: (جلاء العينين) للآلوسي.
١٦٦) يُنظَر: (قلائد الجواهر) ١٥-١٦.
١٦٧) يُنظَر: (قلائد الجواهر)ص٢٢.

لأن شيخاً كعبدالقادر –ما من شك– أن تلاميذه ومريدوه أيضاً كانوا يَنسُجُون على مِنوالِهِ ويُشبِهونه.

كما أن المتصوفة والدراويش يُشبِهون شيوخَهم في هذا الزمان، وقد أحسن من قال: الإناء يَنضَح بما فيه.

١٤- الإمام النووي رحمه الله تعالى

هو: (أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرا بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام النووي).

ولد في المحرم سنة (٦٣١هـ) في قرية (نوى) بجولان التابعة لدمشق، وتُوَفِّي في رجب عام (٦٧٦هـ) في (نوى) عن خمسة وأربعين عاماً.

وغَنِيٌّ عن البيان أن الإمام النووي يُعَدُّ أحد العلماء الأعلام والأئمة النوابغ في الإسلام، فقد جمع بين الحديث والفقه، إضافةً إلى زهده وعبادته وتقواه الظاهر، وكان رحمه الله قَوّالاً للحق جريئاً لا يخشى غير الله، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مع سائر الناس عموماً ومع الحكام وأهل السلطة خصوصاً.[١٦٨]

ويروى عن محي الدين النووي كرامات كثيرة، وقد اختار العزوبة في حياته، فهو من العلماء العُزّاب، وقد يكون انشغاله الشديد بالعلم، جَعلَه يُفَضِّل عدم الزواج، أو ربَّما لم يكن لديه الوقت الكافي لذلك.

موقِفُه المشرِّف: الدّفاع عن الشعب المظلوم:

والإمام النووي، يمكن أن يكتب عنه الكثير والكثير، لأن له من المواقف المُشَرِّفة والبطولية ما يطول ذكرها، ولكننا -ههنا- سنكتفي بإيراد موقف واحد، وهو دفاعه عن الفقراء والمساكين، ومواجهة الحكام والظالمين، ولنستمع إلى (علاء الدين بن العطّار) الذي يعتبر أحد التلاميذ المقرَّبين للإمام النووي، وقد وضع مُصَنَّفاً خاصاً عن حياة هذا العالم القدير والإمام الكبير، سَمَّاهُ: (تحفة الطالبين في ترجمة الإمام مُحي الدين)، يقول ابن العطار عن هذه الناحية من حياة شيخه وموقفه الحازم من الدفاع عن الشعب الفقير:

«كان مواجِهاً للملوك والجبابرة بالإنكار، ولا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل وتوصَّل إلى إبلاغها، فمِمَّا كَتَبَهُ وأرسلني في

١٦٨) يُنظَر: (شرح صحيح مسلم) المقدمة، ٥١، ٥٢.

السعي إليه: كتابٌ يتضمَّن العَدلَ في الرعية وإزالة المكوس عنهم، وكتب مَعه في ذلك: ١-شيخ الحنابلة، ٢-وشيخ المالكية، ٣-والشيخ أبوبكر محمد بن أحمد الشربيني المالكي، ٤- والشيخ إبراهيم المعروف بابن الأرضي، ٥-والشيخ محمد خطيب دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون...»

ثم أورد ابن العطّار نصَّ رسالة النووي، ومضمونُها أن أهل الشام في هذه السنة يشكون من الفقر وضيق ذات اليد بسبب قِلَّة الأمطار والثِّمار، وعلى الحكام أن يُشفِقُوا على الرعية، وأن يَمُدُّوا لهم يَدَ العون، عندما تصيبهم مصيبة أو حادثة، لا أن يُضَيِّقوا عليهم بأخذ الضرائب والمكوس، وقال في خاتمة رسالته:

«والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، مِمّا إذا فعلتموه وجدتموه عند الله: [إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ]النحل/ ١٢٨».

ويَبدو أنَّ الرسالة وُجِّهت إلى السلطان الظاهر التركي، الذي كان يُعرَف بالظاهر بيبرس، عن طريق الأمير بدرالدين بليبك الخزندار، ولكنه-مع الأسف- عندما وَصَلَتْ رِسَالَةُ النووي وإخوانه إلى السلطان، بعث عليهم ردّاً شديداً غير مهذَّبٍ، مشحونة عن آخره بالتهديد والوعيد!!

ولكن هل النووي، العالم المِقدَام، صاحب الإيمان الراسخ الذي لم يَحنِ رأسَهُ لغير الله يوماً، هل تراه يَنسَحِبُ ويأخذ جانِبَ الصَّمت، وهَل يَشرَعُ بالتوسل والإلتماس والإعتذار وتخليص النفس، بتهديد من الظاهر، كلاّ وألفُ كلاّ، تأملوا كيف حافظ على رباطة جأشه ولم يُبدِ أيَّ لِينٍ، وهو العالم الثابت الألمعي، فهو يرد على السلطان ظاهر وينقض جميع كلامه وصخبه، ولكن بأسلوبٍ مِلؤه السكينة والوقار، ولأن الرسالة مُسهِبَةٌ فسأكتفي بإيراد فقرات متسلسلة منها:

١/ في الفقرة الأولى من رسالته، يشير مندهشاً إلى الجواب اللاذع الغاضب والحامل لطابع التهديد.

٢/ ثُمَّ يُوَضِّح له أنَّ السلطان كان مخطئاً ومخالفاً للشرع في حديثه عن القتال

والجهاد، وصَرَّحَ كذلك أن السكوت على خطأ المُقابِل واعوجاجه، حَرامٌ على العلماء، كما أنَّ إظهار الحق واجب عليهم.

٣/ ثم يُبيّن خطأ (الظاهر) وهو عبارة عن توهُّمه أنَّ النَووي وعلماء الشام يعتبرون الجهاد فرضاً على الجنود فقط، ويُوَضِّح له أيضاً أنهم لم يدّعوا هذا أصلاً، ولكن، مادام الجهاد في الأصل فرضاً على الكفاية، فحين ذلك إذا اتَّخذ الحاكم جيشاً للجهاد وخُصِّصَت له الرواتب من بيت المال -كما هو الواقع- فإنَّ باقي الرعية يقومون على إدارة البلاد وأعمالها، كالزراعة والصناعة وباقي الصناعات الأخرى، في حالة كهذه يكون جهاد الجيش مقابل تأمين احتياجاتهم المعيشية.

٤/ ثم يأتي بعد ذلك إلى بيت القصيد، ويقول:

«ما دام المقرَّر أن معيشة الجنود وتأمين احتياجاتهم يقع على عاتق الدولة، فقد اتفقت كلمة العلماء بأجمعهم على أنه: لا يَحِلُّ أَخذُ شيءٍ من الرَّعيّة لهذا المقصد، ما بقي في بيت المال نَقدٌ، أو أي مالٍ أو عقارٍ آخر.»

٥/ ثم يوضِّح أن بيت المال عامر الآن -أي في عهد النووي- ولله الحمد، وعليه فلا يَحِلُّ أن تؤخذ الأموال من الناس بذريعة الإعداد للقتال والجهاد، أو أيّةِ ذريعةٍ أخرى.

٦/ ثم يُعلِنُ حقيقةً على درجة من الأهمية، وهي أن الإنتصار في الحرب أو أي عمل آخر، يجب أن يكون باللجوء إلى الله تعالى واتِّباع النبي ﷺ والإلتزام بأحكام الشرع الحنيف.

٧/ ويؤكد في فقرات رسالته، أن الذي كتبه كان صادراً من إخلاصه وحرصه للسلطان والرعية.

٨/ ثم يأتي إلى عتاب ونقد وجيه للسلطان الظاهر، على انتقاده الإمامَ النووي وإخوانَهُ العلماء: لماذا لم يُوَجِّهوا اللَّومَ والتقريع إلى الحكام الكفرة!

فيقول: «كيف يُقاس حُكّام الإسلام وسلاطينه مع طواغيت الكفر ومُجرِميه، أم

كيف نعظ طواغيتاً لا يؤمنون بديننا؟!»

٩/ ثم يقول رداً على تهديد السلطان لأهل الشام أن يعاقبهم وينتقم منهم، فيقول: «ما ذنب الناس أن يُعاقَبوا على رسالة ما كتبت بأمرهم ولا اختيارهم، وحتى لو كانوا على علم بكتابتها، فليس فيها ما يدعو إلى اللّوم أصلاً».

١٠/ وقال في ختام الرسالة: «وأما أنا في نفسي فلا يَضُرُّني التهديد وأكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإنني أعتقد أن هذا واجب عليّ وعلى غيري، وما ترتَّب على الواجب، فهو خير وزيادة عند الله: [إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ]غافر/ ٣٩، [وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ]غافر/ ٤٤». [١٦٩]

١٦٩) يُنظَر: شرح صحيح مسلم، للنووي ٧١-٧٥.

١٥- العِزُّ بن عبدالسلام رحمه الله

هـو: (العـز بـن عبدالسـلام، المعـروف بـ(سـلطان العلـماء) و(بائـع الملـوك))، ولـد في دمشـق سـنة (٥٧٧هـ)، وتـوفيِّ في القاهـرة سـنة (٦٦٠هـ)، ودفـن في المقطـم وحـضر دفنـه السـلطان (الظاهـر ركـن الديـن بيـبرس) وقـد اخترنـا مـن مواقفـه المشـهودة، موقفـين نادريـن يبعثـان عـلى الإندهـاش والحـيرة: [١٧٠]

الموقـف الأول: عندمـا أخـذ الملـك إسـماعيل ابـن الملـك العـادل، المعونـة مـن الصليبيـين ضـد أخيـه (نجـم الديـن) الـذي كان حاكـماً لمصر، أعطـى لهـم مقابِـلَ تلـك المعونـة (صيـدا) عـلى مـا رواه السُّـبكي، أو (قلعـة صفـر) عـلى مـا رواه المقريـزي، وأماكـن، ثـم أَذِنَ للصليبيـين أن يدخلـوا إلى دمشـق، لـشراء الأمتعـة والأسـلحة، فتصـدَّى سـلطانُ العلـماء (العـز بـن عبدالسـلام) لهـذه الخيانـة وأفتـى بحرمـة بيـع السـلاح إلى النصـارى، ثـم رقـى المنبر في الجامـع الأُمـوي الـذي كان خطيبـاً رسـمياً فيـه، وأعلـن مـن هنـاك فتـواه المشـهورة: أن بيـع الأسـلحة حـرامٌ للنصـارى، ولم يـدعُ للملـك إسـماعيل في خطبتـه.

وهـذا كان إيذانـاً بخلـع البيعـة التـي في رقبتـه لـه، ثـم جعـل يدعـو والنـاس يُؤَمِّنـون: «أَللَّهـم أَبـرِم لهـذه الأمـة إبـرامَ رُشـدٍ تُعَـزّ فيـه أوليـاؤك، وتُـذَلُّ فيـه أعـداؤك، ويُعمَـل فيـه بطاعتـك، ويُنهـى فيـه عـن معصيتـك».

وكان الملـك إسـماعيل حينـذاك خـارج دمشـق، ولمـا بَلَغـهُ الخَـبَرُ أَمَـر بِعـزل العِـزّ بـن عبدالسـلام من الخطابـة في الجامـع الأمـوي ومـن سـائر وظائفـه الأخـرى، وأمـر كذلـك باعتقالـه مـع الشـيخ (ابـن الحاجـب المالكـي) الـذي كان ينـاصره ويشـاطره الـرأي.

ولكـن بعـد عودتـه إلى دمشـق أفـرج عنهـا ووضـع (ابـن عبدالسـلام) في بيتـه تحـت الإقامـة الجبريـة.

١٧٠) إعتمدت في كتابة هذين الموقفين للشيخ العز بن عبدالسلام-وقد وردا في مصادر كثيرة- على:
(العز بن عبدالسلام: سلطان العلماء) عبدالمنعم الهاشمي.
(سير أعلام النبلاء) الذهبي ج١٧ ص٣٠-٣٢.
(العلماء وأمانة الكلمة) محمد سرور زين العابدين.

روى العراقي -وكان من تلاميذ العز بن عبدالسلام- أنَّ بعض رجال الدولة سَعَوا غير مرة للمصالحة بين إبن عبدالسلام، والملك إسماعيل وكَلَّفوه أن يذهب إلى الملك، ولكنه أبى ذلك قائلاً: «قرأتُ العلم لأكون سفيراً بين الله وبين خلقه، أأتَرَدَّد إلى أبواب هؤلاء؟!»

وقال له مرَّةً بعضُ المقرَّبين من إسماعيل: لو اعتذرتَ للملك وقَبَّلتَ يَدَهُ، لرجعت إلى منصبك وسابق وضعك!

ولكن العز صاحب العزة قال: «والله ما أرضاه أن يُقَبِّلَ يدي، فضلاً عن أن أُقَبِّلَ يَدَهُ! يا قوم أنتم في واد وأنا في واد آخر، والحمدلله الذي عافاني مما ابتلاكم به!»

ونشبت الحرب بين الشقيقين إسماعيل ونجم الدين، وانتصر الأخير على إسماعيل ومناصريه المسيحيين، وأُفرِجَ عن العز بن عبدالسلام الذي كان محبوساً بالقرب من خِيام إسماعيل، ولكنه لم يَرضَ أن يَمكُثَ بالشام، فشدَّ أَحزِمَةَ التِّرحال إلى مصر.

الموقف الثاني: الموقف الثاني للعز بن عبدالسلام-الذي لم يوهب لقب سلطان العلماء وبائع السلاطين عبثاً- كان بالوصف الآتي:

قال السُّبكي:

لم يكن قد ثبت للشيخ أن رجال الدولة من الأتراك، أحرار، وحيث كان يعتقد أنهم عبيد، فقد كان يعتبرهم مِلكاً[١٧١] لبيت مال المسلمين، وقد أفتى بذلك الشيخ وحذَّرَهم، أنَّ السلطان إذا لم يَشتَرِ هؤلاء من خالص ماله ويعتقهم، فإنَّهم عبيد ليسوا بأحرار، وجميع معاملاتهم تتوقَّف على الحرية، كنكاح الحرائر، والبيع والشراء، والتجارة، وإسنادِ الأعمال الحربية والإدارية إليهم...إلخ. وبالتالي فتعتبر تلك المعاملات باطلة.

١٧١) وذلك لأن الحُكّام أشتروا أولئك المماليك وهم شبابٌ صغار السن، بما في بيت المال، ثُمّ ربّوهم ودرّبوهم ليستخدموهم فيما بعد في إدارة شؤون الدولة، وبالتالي: فهم ملك للمسلمين ما لم يُحَرَّروا!

واستناداً إلى كون الشيخ في منصب (قاضي القضاة) في مصر، في ذلك العهد، فقد كانت جميع شرائح المجتمع وطبقاته ملتزمون بفتاواه، ولذلك فقد أثارت فتواه موجة من المشاكل الكبيرة والمتنوعة في أوساط الناس ومؤسسات الدولة في مصر، فالنساء بدأن بترك بيوتهن وأزواجهن، وأوقف التُّجّارُ معاملاتهم مع المماليك، بل وصلت الحال أنّ الأطفال في الأزقة والأسواق، جعلوا يهتفون بأولئك المسؤولين الذين ملئوهم التكبُّر والتجبُّر وانحطُّوا بين ليلة وضحاها-بفتوى من قاضي القضاة- من قمة السلطة والغرور، إلى هاوية العبودية والرق.

وقد بدأ المُنحَطّون والمُتَمَلِّقون من أهل التزلُّف إلى القصر السلطاني، بالتحرُّك في تحريض السلطان وإثارة خشيته قائلين له: «إعزِلهُ عن الخطابة، وإلاّ شَنَّعَ عليك على المنبر، كما فعل في دمشق».

وقد أرسل السلطان وفداً إليه-باديء ذي بدء- وتكلَّموا معه بقصد رجوعه من تلك الفتوى، ولكن دون طائل، ثم أرسل السلطان إليه نائبه، فكلَّمه بكلام حَسَنٍ مُهَذَّبٍ، ولكن دون أن يُجدي فتيلاً، وعند ذاك بلغ الإستياء بنائب السلطنة مبلغه-وكان هو الآخر من المماليك- فَرَكِبَ في جماعة معه إلى بيت الشيخ عز بن عبدالسلام وهو يقول: «كيف يجرؤ هذا على إهانتنا والفِتيا ببيعنا كالأمتعة، ونحن أمراء هذه البلاد وحكَّامُها؟ لأَضرِبَنَّهُ والله بهذا السيف».

ذهب نائب السلطنة إلى بيت الشيخ وقد جَرَّدَ سَيفَهُ، وطَرَقَ الباب طَرقاً شديداً، فأتى ابنُ الشيخ يفتح الباب، وعندما رأى ذلك المشهد، رجع إلى والده وأخبره بما رأى، ولكن الشيخ لم يَأبَه لذلك ولم يُعِرهُ اهتماماً، وقال: «يا ولدي، أبوك أَقَلُّ مِن أن يُقتل في سبيل الله»، وعندما ذهب إلى الباب، ورآه نائب السلطنة، جعلَت أوصالُهُ تَرتَجِفُ ودموعه تنهمر باكياً، ووقع السيف من يده، وطلب من الشيخ أن يدعو له وجرى بينهما هذا الحوار:

نائب السلطنة: ماذا تنوي أن تفعل يا سيدي؟

الشيخ عزالدين: أَعرِضُكُم في المزاد العلني.

نائب السلطنة: وفي أي شيء تَصرِفُ أثمانَنا؟

الشيخ: في مصالح المسلمين.

نائب السلطنة: ومن سيستلم ذلك المال؟

الشيخ: أنا أستَلِمُهُ.

وعندما عاد نائب السلطنة إلى الديوان السلطاني، حيث كان السلطان مُحاطاً بأُمرائه، سرد له القصة، فاشتدَّ غَضَبَهُم، وقرَّر السُلطان أن يواجِهَ الفتوى بنفسه، دفاعاً عن رجال دولته.

فبعث السلطان إلى الشيخ، بأنه لا يرضى أن يُباع أُمراؤه في المزاد، وإنه أمير المؤمنين وتنفيذ أوامره واجب عليه، وإنه فوق المؤسسة القضائية التي يرأسها الشيخ عزالدين.

وأصرَّ الشيخ على موقفه ولامَ السُلطانَ على تدخُّله في أمور القضاء، وظَلَّ مُصِرّاً على أن هؤلاء الأمراء يجب أن يُحَرّروا، وإلاّ فإنَّ معاملاتهم جميعها تتوقَّف صِحَّتُها على الحرية.

ولما لم يسمع السلطان لكلام الشيخ، اعتزل الشيخ القَضاء والإمامَة والخطابة في جامع عمرو بن العاص، وقرَّر الرحيل عن مصر، وحَمَل متاع بيته على حمار، وخرج مع أهله تاركاً مصر.

وكلما مرّ الشيخ في درب أو زقاق، تبعه الناس صغاراً وكباراً رجالاً ونساءً، وحتى التجار والعُمَّالُ والباعة..، وساروا مع الشيخ حتى قطعوا عدة أميال إلى خارج القاهرة، كانت الدروب صاخبة ببكاء الناس، كأنه منظر من مناظر الحشر.

وعندما رأى السلطان هذا المشهد، هَمَسَ أحدُ المُقَرَّبين في أُذُنِه:

«تَدارَك مُلكك وإلاّ ذَهَب بِذَهاب الشيخ».

فَرَكِبَ السلطانُ فَرَسُهُ من ساعته، وَوَصل إلى الشيخ العز، وارتجل من على فرسه قائلاً:

«أين تريد يا شيخ؟».

فقال الشيخ: «ألم تكُن أرضُ الله واسعة فتُهاجروا فيها؟ ففيم المقام بأرضك وقد استضعفت فيها القضاء بشريعة الله واعتديت على القضاء؟.»

فقال السلطان: لا ينبغي أن تتركنا يا شيخ، وافعَلْ ما بدا لك.

فأعطى السلطانُ فَرَسَاً لسلطان العلماء، ورجع إلى القاهرة وقد ازداد هيبة وعزاً.

وفي يوم من أيام التأريخ المشهودة، جُمِعَ الأُمَراءُ والمسؤولون بأمر القاضي القضاة، وعَرَضَهُم الشيخ في المزاد العَلَني، ووضع عليهم أثماناً باهظةً: بحيث لا يقوى على شرائهم إلا السلطان نفسه، ولذلك اشتراهم السلطان من ماله الخاص وبذلك أصبحوا أحراراً. وقد استلم أثمانهم سلطانُ العلماء وبائع الأمراء، وصَرَفَها في مصالح المسلمين وخدمة العلماء ونشر العلوم الشرعية، ثم أفتى الشيخ بعد ذلك، بأن الأمراء المُباعين باتوا أحراراً وعُقُودُهم باتت صحيحة، وبذلك حُلَّت تلك المشاكل العائلية والإقتصادية والإجتماعية والسياسية التي نجمت عن فتواه.

وأصبح للشيخ بموقفه الجريء هذا، المكانة الأسنى في القلوب والمهابة العظمى عندهم، وغدا موطن ثقتهم وملاذِهِم، حتى إنَّ الناس أيّام الجُمَعِ ما كانوا ليتركوه-من فَرطِ حبهم له- حتى يُؤذَّن لصلاة العصر.

فرحمة الله عليك أيها الإمام، وعلى الأسرة الكريمة الّتي انجَبَتكَ، وعلى تلامذتك المخلصين، والجموع المسلمة التي أيدتك وخَدَمَتكَ وناصَرَتكَ.

نسأل الله جلّ في عليائه، أَن يَرفَعَ هِمَمَ العلماء في هذا العصر، فإن لَم يَسمُوا بأنفسهم إلى الفضاء الذي بَلَغَهُ العِزُّ بن عبدالسلام، لِيُمسِكوا بِخِناق الحكّام، فلا أَقَلَّ مِن ألاّ تَتَدَنَّى نفوسُهُم، ليبيعوا دِينَهُم وأَنفُسَهُم بِعَرَضٍ من الدنيا.

١٦- شيخ الإسلام إبن تيمية رحمه اللّه تعالى

هو: (تقي الدين: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني)، ولِدَ سنة (٦٦١هـ) في حَرّان،[١٧٢] وتُوَفِّيّ في سجن القلعة بمدينة دمشق، سنة: ٧٢٨هـ.

هو أحد أئمة الإسلام وعلمائِهِ العاملين، فقد جمع العلم والحكمة، والعبادة والسياسة والتقوى والتضْحية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعليم والتربية، في نفسه، ولم يتزوَّج طِوالَ حياته.

وقَلَّما وُجِدَ عالِمٌ في جرأته وإقدامه، وقَولَة الحق وطول النَّفَس، كان صاحب علم شامل ومتنوع دقيق واسع،[١٧٣] جزاه الله أحسن الجزاء.

ولكن لاشك بأنه-وكذلك غيره من العلماء- لم يكن، ولن يكونوا، معصومين من الخطأ.

والحقيقة أيها القراء الأحبة! أنَّ الإنسان لتأخذه الحِيرَةُ وهو يَقِفُ أمام سيرة رجل عظيم كابن التيمية، الذي تضافرت حياته بالمواقف الجريئة والبارزة، أيَّها يختار وأيَّها يدع!!

رجل انشغل بقلبه ولسانه وقلمه ويده وسلاحه، في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في ميادين:

١. التعليم.
٢. التدريس.

١٧٢) منطقة في كوردستان سوريا الحالية، ويعتبر كثير من المؤرخين إبن تيمية كوردياً.

١٧٣) إستندتُ لكتابة هذا البحث عن إبن تيمية، على المصادر الآتية:

(سير أعلام النبلاء) للذهبي، ج١٧ ٥٠٣-٥٠٤، فقد سَرَدَ خلاصة شيقة عن حياة إبن تيمية وأخلاقِه وشخصيته، وقد كان معاصراً له.

(رجال الفكر والدعوة) للندوي ج٢.

(العلماء وأمانة الكلمة) ص٣٧-٤٢ محمد سرور زين العابدين.

(البداية والنهاية) لابن كثير، ج١٤.

(الكواكب الدرية).

(مجموع الفتاوى) ج٢٠.

٣. التزكية.
٤. الخطابة والتأليف.
٥. الإفتاء.
٦. الحوار والجدال مع المناوئين.
٧. إفحام الكفرة والكافرين، ونقض أساطير المبتدعة والمنحرفين.
٨. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٩. القتال في سبيل الله.
١٠. وعظ وتعنيف الأمراء المنحرفين والظالمين.

ولم يكن على استعداد -طَرفَةَ عين- أن يتنازل عن مواقفه وعقيدته التي اقتنع بها وتوصَّلَ إليها بعد تَحَقُّقٍ وتَعَمُّق، وقد دفع ثمن جرأته وإقدامه وشجاعته وتَحَرُّرِهِ هنا وهناك، فهو إضافة إلى وقوفه بوجه كافة الكتل والجماعات الكافرة الضالة والمنحرفة في زمانه، من التتار والمغول والنصارى والدروز والنصيرية، وكذلك انتقد الفرق المبتدعة مثل: الرافضة والمُتَمَسِّحين بالصوفية والمذهبية المتعصبة، ذوي العقول الجامدة، والعوام الغافلين، والمتظاهرين بالعلم والإمامة من علماء السلطة والبلاط، وكذلك الحكام الطاغين.

واضطرَّ أن يَشُدَّ أَحزِمَة الهجرة والتِّرحال مرات عديدة، يُيَمِّمُ وجهَهُ شرقاً وغرباً، ولم يتركوه بهذا القدر، بل حَبسوه ظلماً مرات ومرات، ومكث مُدَداً مختلفةً، رَهنَ السجون، ومنع من التدريس والكتابة والفتوى، حيث لقي مَنِيَّته في السجن رحمه الله.

عالم كهذا، أنّى يتيسّر لنا -في صفحات معدودة- أن نُسَجِّل مَواقِفَه المليئة بالعزة والبطولة؟!

عالمٌ تَجَرَّدَ لله تعالى،، وعاش له، وباتت الدنيا من الحقارة والتفاهة في عينه، بحيث لم يأبه بكل ما يُشهِرُه الظلمة الطغاة لإخافة الناس وإرهابهم وتهديدهم: (قتلاً واعتقالاً وتشريداً)، ففوق كون تلك التهديدات كانت عنده بسيطة

وساذجة، بل أصبح يراها أُمنيّاتٍ يَتَمنّاها، وجوائز وهدايا يَحْلُمُ بها! فهو يقول: «ماذا يفعل أعدائي بي، إن قتلي شهادة، وسجني خلوة، ونفيي سياحة».

ولكننا على أية حال، وكما يقول القائل: من كل بستان زهرة، سَنَعرِض في سبعِ وقفات قصيرة، سبعة من المواقف البارزة، لهذا العالم النابغة:

الأولى/ الفهم الجيد للإسلام، والتحقيق الدقيق والشامل، عن القرآن والسنة:

وهذا كان من أهم خصال، إبن تيمية وخصوصياته، حيث التوجُّه مباشرة إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، للإجابة على أي سؤال شرعي، ولإيضاح أي مقصد من مقاصد الشرع: [وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ]النور/ ٥٤.

وإذا أيقن إنسانٌ أن غايته تتحقَّقُ في الموضع الفلاني، فإنه سيجمع قواه ومساعيه للوصول إلى تلك الغاية، يقول إبن تيمية: «أحياناً أَنظر في مئة تفسير لفهم آية واحدة من القرآن، ثم أَتَضَرّع إلى الله أن يهبني فهماً أكثر لها..»

وإن فقه إبن تيمية في الكتاب والسنة، ودقَّته ورحابة أفقه وشموليته، لتبدو واضحة في جميع كتبه ورسائله كالبدر ليلة التمام.

الثانية/ إقدامه وجرأته في الصَّدع بالحق ودَحضِ الباطل:

وهذا-كما أشَرْنا إليها سابقاً- خصلة مباركة وموقف رائع من مواقف إبن تيمية رحمه الله في إظهار الحق ورد الباطل، فلم يكن يتسامح مع أحد قَيدَ شعرة، ولا يتساهل مع مخالفة أي إنسان، ولا يَغُضُّ الطَّرفَ عَمَّن يُخالِفُ الشرع سلطاناً كان أو فقيراً:

١. كتابه: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ردٌّ على النصارى.
٢. كتابه: (دَرءُ التعارض بين العقل والنقل) المكوَّن من عشرة مجلدات ضخمة، وكتابه: (الردُّ على المنطقيين) وهو مجلد ضخم، نقض فيهما آراء الفلاسفة والمتكلمين.

٣. كتابه: (منهاج السُّنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية) وهو مجلدان، مناقشة وكشف لستار الأفكار المنحرفة والخاطئة للشيعة والروافض، والمعتزلة.

٤. في مجلدين كبيرين[١٧٤] من مجموع الفتاوى بعنوان: (التصوف) و(السلوك) يبدي فيهما تأييده للتصوف الموافق للشرع وما كان عليه السلف، ويَشُنُّ فيهما حملة لا هوادة فيها على أدعياء التصوف، وهو يميز بين صالحهم وطالحهم، وخصوصاً فكرة وحدة الوجود التي أيَّدَها وتحدَّث عنها ملياً أمثالُ إبن العربي وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمساني، وخصوصاً إبن العربي الذي يعرف في أوساط المتصوفة بـ(الشيخ الأكبر) والذي تحدث بصراحة وبلا ستار في كتابيه: (فصوص الحكم) و(الفتوحات الربانية) عن فكرة وحدة الوجود. ولكن إبن تيمية، بلا خشية من الألقاب الضخمة، نقض هذه المسألة نقضاً، وأَظهَرَ أنَّ تلك الفكرة، زندقة وكفر وإلحاد ليس إلاّ، وأنها لا تحتمل ترقيعاً ولا تبريراً.

فالكتب التي ذكرناها -ومثيلاتها كثير- تعد دليلاً ينطق بالحق على شجاعة إبن تيمية وجرأته وإقدامه.

الثالثة / الشفافية والقوة المعنوية، والذكر الدائم للّه تعالى:

كان ابن تيمية، كإخوانه من العلماء والأئمة، قد بلغ الغاية في العبادة والتقوى، وكان كثير التفكّر، دائم الذكر لله تعالى، يتمتع بقوة معنوية وتزكية وحالة روحية قلَّ نظيرُها.

وقد روى تلامذته -وبالخصوص إبن القيم- عنه في ذلك الكثير: فمثلاً يروى بأنه كان لا يقوم من مكانه بعد صلاة الفجر بل يَبقى مشتغلاً بالذكر والفكر والتضرُّع والدعاء إلى الله تعالى، إلى أن يحين الضُّحى، وكان يقول: لو أنَّني تركت هذا، لَضَعُفتُ وذَهَبَت قُوَّتي ومقدرتي.

١٧٤) المجلدان: ١٠ و ١١.

وكان يقـول كذلـك: «في أحيـان كثـيرة، عندمـا كان يسـتعصي عـليّ حـلِّ مسـألةٍ شرعيـة، كنـت أقصـد المسـاجد البعيـدة والمهجـورة، أَتَـضرَّعُ إلى الله تعـالى، وأُلِـحُّ في الدعـاء قائـلاً: يـا مُعلِّـمَ إبراهيـم علِّمنـي، حتـى يُنـير الله قلبـي فأَهتـدي إلى حلِّهـا..»

الرابعة/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قـد أشرنـا آنفـاً، أن ابـن تيميـة كانـت حياتـه مليئـة بالأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، ولكنَّـا سنستشـهد بمثـال واحـد فقـط:

كان قـازان الـذي ينحـدر مـن سـلالة (جنگيزخـان) المغـولي حاكـماً للمغـول، وقـد أسـلم وتَسـمَّى بمحمـود، وأسـلَمَ معـه خَلـقٌ كثير مـن التتـار، كان يوجـد في جيشـه الوعّـاظ، بـل كان يُعَلِّـل إعـلان حربـه عـلى الشّـام ومـصر، بانحـراف هـؤلاء الحـكام عـن الإسـلام وحكـم الشريعـة.

وقـد زار وفـدٌ كبـير مـن أهـل الشـام محمـودَ، ويـروي الشـيخ ابـن أبي أبـرك البالـسي -الـذي كان أحد أعيان الوفـد- الحـوارَ الـذي دار بين شيخ الإسـلام وبين قـازان (محمود)، فيقـول مـا مُلَخَّصُـهُ: قـال شـيخ الإسـلام للمترجـم قـل لقـازان: أنـت تعتـبر نفسـك مسـلماً ومعـك المـؤذِّن والقضـاة والأئمـة، ومـع ذلـك تحاربوننـا وتحتلُّـون ديارنـا، لمـاذا؟ ومـع أنَّ أبـاك وجـدَّك (هولاكـو) كانـا كافريـن فَلَـم يُقدِمـا عـلى احتـلال الشّـام ومـصر، بـل كان لهـما عهـد مـع النـاس هنـا، أمـا أنـت فقـد عاهـدت ونقضـت وقُلـت ومـا فعلـت!

يقـول البالـسي: ثـم أحـضروا الطعـام، فـأكل الجميـع إلاّ إبـن تيميـة، قيـل لـه في ذلـك، فقـال: وكيـف آكل مـن طعامكـم وكلُّهـا شـياه النـاس أخذتموهـا قَـسراً، وطَهَيتُمُوهـا بأحطـاب هـي للنـاس أخذتموهـا!

ثـم طلـب منـه قـازان أن يدعـو لـه: فدعـا الشـيخ قائـلاً: «أللهـم إن كان عبـدك هـذا محمـود، إنـما يُقاتـل لتكـون كلمتـك هـي العليـا، وليكـون الديـن كلـه لله، فانـصره وأَيِّـدهُ ومَلِّكـه البـلاد والعبـاد، وإن كان إنـما قـام ريـاءً وسـمعةً وطلبـاً للدنيـا، ولتكـون كلمتـه هـي العليـا، وليُـذِلَّ الإسـلامَ وأهلـه، فاخذِلـهُ وزَلزِلـهُ ودَمِّـرهُ واقطَـع دَابِـرَهُ».

يقول البالسي: فجعل قازان يرفع يديه ويُؤمِّن على دعائه، ونحن نجمع ثيابنا لئلا تتلطخ بالدماء، عندما يؤمر بقتله، وعندما قُمنا من عند قازان وانصرفنا، قال له قاضي القضاة نجم الدين بن الصرصري والآخرون: أَوشَكتَ أن تُودِيَ برأسك ورؤوسنا، فلَسنا نُصاحِبُك بعد اليوم! يقول: فذهبنا نحن في جماعة، وبقي هو في عدد معه، وكان بعض الأمراء والمقرَّبين من (قازان) سمعوا بالشيخ، فجاؤوا إليه يطلبون منه الدعاء لهم، وعندما عاد إلى دمشق، كان معه ثلاثمائة (٣٠٠) فارس، وكنت مِمَّن كانوا معه، أما الذين أَبَوا مصاحبته، خوفاً على أنفسهم، فقد تعرَّضوا لبعض قُطّاع الطرق من التتار، فأَخَذوا ما عندهم.

الخامسة/ إشتراكه في القتال والجهاد:

ومن مواقفه البارزة والمتألِّقة الأخرى، هو إشتراكه بنفسه في القتال ضد التتار والنصارى، والنصيرية، والإسماعيلية!

فمثلاً: يروي لنا محمد بن عبدالهادي-وهو من تلاميذ الشيخ- هذا المشهد الذي جرى بين التتار وأهل الشام، في معركة (شَقحَب)، فيقول:

«كان الشيخ برفقة شقيقه وأصحابه والمقاتلين الذين كانوا معهم، لا يزالون في مواقعهم بكامل أسلحتهم، وكان الشيخ مُنهَمِكاً في دعوة الناس وموعظتهم للصمود والثبات في ساحة المعركة، وكان يَعِدُهم بالنصر والغنيمة، ويُبَشِّرهم بإحدى الحُسنيين، إلى أن أَنجز الله وعده ونَصَرَ جُندَه، وهزم التتار وحده».

وكذلك فإن الشيخ رحمه الله شارك في القتال مع الجماعات الأخرى، وأداء النصح لهم، بتحريض الناس وأمراء الأجناد، أو بمشاركته الفعلية في ميادين القتال.

السادسة/ أخلاقه العالية وتسامُحه ورَحابة صَدره:

بالقدر الذي كان (ابن تيمية) شديداً يغضب لدين الله ويثور له، فقد كان من ناحية أخرى: ذا أخلاق عالية شفيقاً متسامحاً، إذا ظُلم أو هُضم حقُّه، فمثلاً:

عندما اعتُقِلَ وحُبِسَ في مصر، بسبب بعض الحاسدين الذين مَشَوا بالنميمة، وطعنوا في الشيخ، وبَعد أن بقي رَهن الحبس مدة، أُفرج عنه، بعد أن تبيَّن للمسؤولين بأنه حُبِسَ خطأً وظلماً، فاعتذروا إليه، وأبدَوا استعدادهم أن يعتقلوا كلَّ من تسبَّب في دخوله السجن، فقال ابن تيمية: أبداً لا أقبَلُ بِحَبس أحدهم، لأنّنا معاشر العلماء، إخوة..

بل عندما يصاب أحد خصومه بمصيبةٍ، يذهب ابن تيمية إلى أهله وأبنائه ويقول لهم: إذا وقعت لكم حاجة فسأَقضيها لكم في مكان فلان، ولذلك فقد أَقَرَّ أولئك العلماء بفضل إبن تيمية وإحسانه وموقفه، قائلين: أسأنا إليه عندما قَدَرنا على الإساءة! ولكنَّه في مقابل ذلك، أحسن إلينا، وكان ذا موقف أخوي معنا.

السابعة/ أدب إبن تيمية مع العلماء والأئمة:

ومن مواقف إبن تيمية المُوغِلة في الروعة، هو أَدَبُهُ واحترامه لعلماء الإسلام قاطبة، مِمَّن شُهِدَ لهم بالإستقامة، فقد كان يُقَدِّرُهم حق قَدْرهم، بخلاف ما يَتَصَوَّره الكثيرون عنه، بأنه لا يحترم العلماء! وسأكتفي بضرب مثال واحد على ذلك:

لابن تيمية رسالة بعنوان: (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) خَصَّصها لإيضاح وإثبات: أَنَّ العلماء لا يتجادلون ولا يختلفون عبثاً دون مسوِّغ، ولَم يَتَعَمَّد أحدٌ منهم مخالَفة كلام الله ورسوله ﷺ، بل كانوا يسعون لمرضاة الله ورسوله ﷺ ويتحرَّون مَظانَّها.

وهو يبدأ رسالته تلك بهذه العبارة:

«وبعد، فيجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله، موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وليعلم أنه ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين عند الأمة، قبولاً عاماً، يَتَعَمَّد

مُخالَفَة رسولِ الله في شيء من سُنَّتِه، دقيق وجليل، فإنهم مُتَّفِقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتِّباع الرسول، وعلى أنَّ كلَّ أحد من الناس، يُؤخَذُ من قوله ويُترك، إلاّ رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجِدَ لواحدٍ منهم قولٌ، قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلابُدَّ له مِن عُذرٍ في تركه.»(١٧٥)

نعم أيها القاريء الموَقَّر! هذا هو أدب ابن تيمية وإجلاله للعلماء والأئمة، ألَّلهم فزد لابن تيمية قَدراً على قَدره ودرجاتٍ إلى درجاتِه.

وفي ختام هذه الفقرة، حَرِيٌّ بي أن أُوَجِّه نصيحةً إلى شبابنا ومثقفينا، وتحذيراً إلى بعضٍ من علمائنا الأفاضل:

١/ **أيها الشباب الأحبة!** كما تبيَّن لكم، فلقد كان شيخ الإسلام عالماً عاملاً ونادرة زمانه، ولكن أسترعي انتباهكم إلى ثلاثة أمور:

أولاً: أن تَستَقُوا من أخلاق ابن تيميّة وعدالته وصبره، كما تأخذون من علمه.

ثانياً: وألاّ تعتبروه معصوماً من الخطأ، لأن أحداً-غير الأنبياء- ليس معصوماً قط، ففي تصوري-مثلاً- إنَّ الشيخ أُصيب بنوعٍ من الإفراط والمبالغة، في الحديث عن الصفات الخبرية وإعطائها مساحة أكثر مما تستحق، وقد تناولتُ هذا الموضوع في (سلسلة دروس الإيمان والعقيدة)،(١٧٦) ولذلك ترى كثيراً من المتأثِّرين بابن تيمية والواقعين تحت تأثيره، قديماً وحديثاً، يُكثِرون من الحديث حول الصفات الخبرية، ويُعطونَها مساحةً واهتماماً أكثر مما أعطاها القرآن والسنة، وكل ذلك على حساب مواضيع أخرى.(١٧٧)

---

١٧٥) مجموع الفتاوى، ج٢، ص١٢٩.

١٧٦) السلسلة تتكون من (٥٠) درسا مُسَجَّلًا وهي مُعدَّة للطبع.
والآن (٢٣/ ٨/ ٢٠١٨م- ١٢/ ١٢/ ١٤٣٩هـ) أقول: الحمدلله الحميد المجيد، لقد طبعت السلسلة المذكورة بصورة موسوعة في ستة مجلدات، بعنوان: (الإيمان والعقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة).

١٧٧) وعلى أية حال فإنّ موقف إبن تيمية رحمه الله، كان أمثل من موقف الذين يعتبرون أنفسهم أتباعاً له، لأن موقفه إن كان فيه شيء من الغلو، فإنه كان ردّ فعل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إبن تيمية لم يَقصِر الإسلام وعقيدته على تلك المسألة، كما فعلوا هم، وهذا جليٌّ ذلك من مواقفه رحمه الله.

ثالثـاً: وأَوَدُّ أيضـاً أن أُلفِتُ انتباهكـم، إلى أن ابـن تيميـة كأي عـالم وإمـام آخـر، كان متَّقياً يأخذ جانب الحيطة والحذر، وربما كان يُوجَّه إليه السؤال، فيقف عنده ويقـول: لا أعلـم، كـما روى ابـن كثـير عـن الحافـظ أبي عبـدالله الذهبـي في تفسـير قولـه تعـالى: [...وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ]النسـاء-٢٣-،[178] وكان رُبَّـما يكتـب شـيئاً ثـم يَتَبـينَّ لـه خطـاؤُهُ، فَيُعلِـنُ عـن خطئـه عـلى رؤوس الأشـهاد.[179]

٢/ **أيها الأساتذة الكرام!** لقـد قيـل قديماً «لـكل جَـوادٌ كَبـوةٌ، ولـكل حُسامٌ نَبـوَة،» و«ابن حجر الهيتمي» عـالم وإمام قدير، لاشك في ذلك، وهو صاحب كتاب (تحفة المحتاج) المشهور والمنتشر خصوصاً في كوردستاننا، ولكنَّه لا يبلغ أن يكون كابن تيمية، وأنا أرسله إليكم رجاءاً، ألاّ تَحرِمُوا أَنفُسُكم من كتب إبن تيمية ونتاجاته، فَلَعَمـر الحق إنَّها البحر الملِيء بالـدُّرَر، لا تَحرِمـوا أَنفسـكم مـن ذلـك، بسـبب فتـوى مِلؤهـا الشـحناء، وردت في كتـاب ابـن حجـر (الفتـاوى الحديثيـة)[180] حـول: (ابـن تيميـة) ومـا مـن ريـب أَنَّـهُ خَالَـفَ الواقـع والصـواب.

إقـرَؤوا بأنفسـكم كتـب ابـن تيميـة ورسـائِلَهُ، وشـاهدوه بأُمَّهـات أعينكـم، وأنـا مُوقِـنٌ أن الـذي لا يحب إبـن تيميـة منكـم، سـيُغَيِّر رأيـه وموقِفَـه، بعـد أن يعرِفَـهُ عـلى حقيقتـه.

---

١٧٨) يُنظَـر: تفسـير القـرآن العظيـم، ج١ ص٤٩٨، وكذلـك يُنظَـر: (معـالم في طريـق طلـب العلـم) ص٢٧٥-٢٧٦ عبدالعزيـز السرحـان.

١٧٩) يُنظَر: (إقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) ج١ ص٨١١ الذي يقول فيه: «وكنت قد كتبتها في المناسك قبل أن أحج، ثم تَبيّن لنا أنَّ هذا كُلُّه من البِدَع المحدثة التي لا أصل لها في الشريعة.

١٨٠) يُنظَـر: (الفتـاوى الحديثيـة)، ص٨٣-٨٥، حيـث وصـف إبـن تيميـة بأوصـاف لا يليـق بـه مثـل: «خَذَلَـهُ الله وأَضَلَّـهُ وأعـماه وأصمَّـهُ وأذلَّهُ...إلـخ..» والـذي يُلفِـتُ الإنتباه أن (ابـن حجـر) لم يقـرأ كتـب إبـن تيميـة أصـلاً، بـل أعتمـد عـلى كتابـات السـبكي، وأبنـه التـاج، إذ بعـد هـذه الكلـمات النابيـة والبذيئـة يقـول: «فـإنْ صـحَّ مكفِّر أو مُبـدِّع، يعامله الله بِعَدلِـه، وإلاّ يغفـر لنـا ولـه» وأنـا أقـول: فـإن كنـت-يـا أبـن حجـر- لسـت عـلى يقـين أنـه قـال تلـك الأشـياء، فأنّـى قَـدَرتَ عـلى إصـدار هـذه الأحـكام ووصفـه بهـذه الكلـمات النابيـة!!

١٧- الأستاذ مُلاّ سعيد النورسي[181] رحمه الله تعالى

هو: (سعيد بن ميرزا المعروف بـ(بديع الزمان) و (سعيد المشهور))، ولد سنة (١٢٩٤هـ)-(١٨٧٦م)، في قرية (نورس) التابعة لناحية (إسبارته) التابعة بدورها لقضاء (خيزان) ضمن ولاية (بتليس) في كوردستان تركيا، هو أحد علماء الإسلام وأئمته البارزين في القرن الرابع عشر الهجري.

وتوفِّي سنة (١٩٦٠م) في مدينة (أورفة) التابعة لـ(دياربكر)، ومن أجل معرفة مُثلى بهذا الأستاذ القدير، سنتناوله من خلال أربعة محاور:

أولاً: خلاصة عن سيرته التي تَعُجُّ بالأحداث.

ثانياً: صفاته وخصوصياته.

ثالثاً: مواقفه.

رابعاً: بعض الملاحظات حول الأستاذ النورسي وأتباعه.

ثم بعد ذلك نُبدي ثلاثةً من تنبيهاتي وانطباعاتي الخاصة حول الأستاذ مُلاّ سعيد النورسي، ورسائله المعروفة بـ(رسائل النور) والشريحة التي تَسَمَّتْ بالنورسية:

المحور الأول: خلاصة عن حياة الأستاذ مُلاّ سعيد النورسي:

إبتداءً، نحن لا نستطيع أن نُلِمَّ بسيرةٍ تكتظ بالأحداث، لرجل عاش ما بين ٨٥-٨٦سنة، وقد كرس أحد مجلدات رسائل النور لذلك الشأن، ولكننا مضطرون أن نؤرِّخ لأهم أحداث حياته، من خلال إحدى وعشرين (٢١) فقرة، حتى تتكوَّن لدينا صورة عامة عن سيرة هذا الرجل، وبُغيةَ التوسُّع في ذلك، نُحيلَ القُرّاءَ الأعِزاء إلى المصادر التي تقصّت أحداث حياته بالتفصيل، وخصوصاً الجزء التاسع من (كليات رسائل النور) بعنوان: (سيرة ذاتية):

١. كما أسلَفنا: ولد مُلاّ سعيد النورسي في عام ١٢٩٤هـ-١٨٧٦م.

---

١٨١) لكتابة هذه الخلاصة عن سيرة ومواقف الأستاذ النورسي، أعتمدنا على كتاب: (كليات رسائل النور) الجزء التاسع: (سيرة ذاتية).

٢. خطى أُولى خطواته نحو أخذ العلم في سنة (١٣٠٣هـ)-(١٨٨٥م)، حيث بدأ بتلقِّي الدروس في قرية (تاغ).

٣. في سنة (١٣٠٩هـ)-(١٨٩١م)، بدأ بصورة جِدِّية، بتلقِّي الدروس على الشيخ (جلال بايزيد).

٤. في سنة (١٣٠٩هـ)-(١٨٩٢م)، أُنعم عليه بِلَقَبِ (بديع الزمان) من قبل علماء كوردستان، خصوصاً بعد مناظرته في (سعرد).

٥. إعتزل مدة من الزمن في (تيللو) في سنة (١٣٣١هـ)-(١٨٩٤م)، وكان له نقاش مهم مع علماء مدينة (الجزيرة)، وقد ذهب في هذا العام إلى مدينة (ماردين) وبدأت اهتماماته بالسياسة.

٦. في سنة (١٣١٢هـ)-(١٨٩٥م)، أبعد من (ماردين) إلى (تبليس).

٧. في سنة (١٣١٤هـ)-(١٨٩٧م)، ذهب بدعوة من الوالي، إلى مدينة (وان) وبقي هناك عند الوالي، وهناك إضافة إلى حفظ (٩٠) متناً من المتون العلمية، اكتسب عن طريق المطالعة، معرفة جيدة بالعلوم الحديثة.

٨. في سنة (١٣٢٥هـ)-(١٩٠٧م)، ذهب إلى أَسطنبول بقصد تأسيس مدرسة الزهراء وقدم طلباً للسلطان عبدالحميد، يتضمن إجراء الإصلاحات في كوردستان، ثم نُقل إلى (مستشفى المجاذيب) بتهمة اختلاط العقل، ولكنه مع محاورة طويلة مع الطبيب، أُفرِجَ عنه بعد أن تَرَكَ تأثيره على الطبيب.

٩. في سنة (١٣٢٦هـ)-(١٩٠٨م)، في ٢٣ تموز، أعلن السلطان عبدالحميد للمرة الثانية، تشكيل البرلمان (مجلس الحل والعقد) فأبدى النورسي سعادته لذلك، وألقى خطاباً لإيضاح المعنى الحقيقي الذي ينطوي عليه مفهوم الحرية والمشروطية، والتقى في هذا العام، كلاً من الشيخ (محمد نجيب) شيخ الأزهر، و(عمانوئيل قوصو) ممثل اليهود.

١٠. في سنة (١٣٢٧هـ)-(١٩٠٩م) لعب دوراً مهماً في تأسيس (جمعية الإتحاد المحمدي) الذي جاء كرد فعل لـ(جمعية الإتحاد والترقي). وفي هذا العام

أُقتيد إلى المحكمة العسكرية العرفية، بسبب أحداث (٣١) مارس التي تمرَّدت فيها كثير من قوات الجيش، ثم أعلنت براءته وأفرج عنه:

١١. في سنة (١٣٢٨هـ)-(١٩١٠م)، ترك (أسطنبول) ويمّم وَجهَه نحو (وان) وقام برحلة في عشائر كوردستان، حيث كتب رسالته: (المناظرات).

١٢. في شتاء (١٣٢٩هـ)-(١٩١١م)، ذهب إلى الشام وألقى خطبة في (الجامع الأُموي) والتي طبعت ونُشِرَت بعنوان: (الخطبة الشامية)، ثم عاد عن طريق بيروت-أزمير، إلى أسطنبول، وفيما بين (٧-٢٦/ ٦/ ١٩١١) قام برحلة مع السلطان رشاد إلى (روم إيلي) وفي السنة نفسها، وضع الحجر الأساس لمدرسة (الزهراء) في مدينة وان.

١٣. وفي سنة (١٣٣١هـ)-(١٩١٤م)، وقف بوجه قُطّاع الطرق من الأرمن، وكان بالإضافة لإلقائه الدروس على طلاّبه في قرية (خورخور)، مشغولاً بتدريبهم أيضاً.

١٤. وفي سنة (١٣٣٣هـ)-(١٩١٥م)، شكَّل فرقة من القوة الشعبية، وذلك في خِضَمِّ الحرب مع الروس.

١٥. وفي سنة (١٣٣٤هـ)-(١٩١٦م)، وفي خندق القتال، قرأ على تلاميذه كتاب: (إشارات الإعجاز في مظانِّ الإيجاز)، وفي العام نفسه في (٢/ ٣/ ١٩١٦) وقع أسيراً في يد الروس، ثم رُحِّل إلى (قصتورما) وهناك استمر في إلقاء دروسه في الإيمان، وفي مسجد من مساجد التتار، أحسّ بيقظة روحية ظهرت فيه.

١٦. في (١٧/ ٦/ ١٩١٨)، وصل إلى (أسطنبول) بعد أن فَرّ من سجن الروس، وفي العام نفسه في (١٣/ ٨) عُيِّنَ عضواً في (دار الحكمة الإسلامية).

١٧. في (١٣٣٨هـ)-(١٩٢٠م)، عندما احتل الإنكليز أسطنبول في ١٦ مارس، نشر النورسي رسالة (الخطوات الست) باللغتين التركية والعربية ضد سياسة الإنكليز ومخطَّطاتهم، وفي هذه السنة ترك الدوام في (دار الحكمة).

١٨. في سنة (١٣٣٩هـ)-(١٩٢١م)، أجاب عن أسئلة (الكنيسة الأنكلينيكية

واعتزل في (تل يوشع)، حيث حصل فيه انقلاب كبير، حَوّله من سعيد القديم إلى سعيد الجديد.

١٩. في سنة (١٣٤٠هـ)-(١٩٢٢م)، ذهب إلى (أنقرة)، بدعوة من (كمال أتاتورك)، واستقبل في ١٢/ ١١ من قبل (البرلمان) الذي كان يطلق عليه (مجلس المبعوثان)، وتلى هناك بياناً مما أدّى إلى اشتباكه مع أتاتورك.

٢٠. واعتباراً من نفيه من (وان) إلى (بودرو) في ٢٥ شباط (١٩٢٥م)، وإلى الليلة التي تُوفيَ فيها في (٢٣/ ٣/ ١٩٦٠م)، انهمك النورسي رحمه الله بتأليف (رسائل النور) والتي تبلغ إجمالاً (١٣٠) رسالة، بينما حرص النظام التركي العلماني العنصري، على سجنه ونفيه، ومحاكمته، هو وتلاميذه. وقد شاهد هذه المواضع سجيناً ومبعداً ومحكوماً: (بودرو، بارلا، إسبارطة، أسكي شهر، قسطموني، أنقرة، ديزلي، أميرداغ، أفيون، إستانبول).

٢١. وقد توفي-كما مرَّ معنا- في ليلة (٢٣/ ٣/ ١٩٦٠م) في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل في (أورفة) ودفن في ثراها في (٢٤/ ٣/ ١٩٦٠)، إلاّ أن قبره نُبِشَ بعد ذلك، واستخرج جثمانه، ونقل في مروحية إلى (أسبارطه) حيث كان في الطائرة شقيقه مُلاّ عبدالمجيد، ولنستمع إليه يسرد علينا القِصَّة:

«بعد مُضي خمسة أشهر على وفاة أخي، استدعيتُ إلى ديوان الوالي في مدينة (قونيا) وكان مع الوالي ثلاثة جنرالات، قال لي أحدهم: لا يَخفى عليكم أنَّنا نمرُّ بظروف حرجة، وإنَّ زوّار شقيقكم يزدادون يوماً بعد يوم، ونحن نريد-بمساعدة سيادتكم- أن ننقل رفاته إلى وسط (الأناضول)، فهلاّ وقّعت لنا على هذا الطلب من فضلك؟

ثم أخرجوا ورقة فيها الطلب باسمي، وبعد فراغي من قراءتها قلت لهم: ولكنَّني لم أطلُب شيئاً كهذا، إنني أترجّاكم أن تتركوه يهنأ في قبرِه.

ولكنهم أصرُّوا على موقفهم وقالوا: إن هذا الأمر لا يحتمل النقاش، وبعد التوقيع على الطلب، ذهبنا إلى المطار، وحملتنا طائرة عسكرية إلى (أورفة) ووصلنا

إلى المقبرة في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فَنَبَشُوا القبر واستخرجوا التابوت منه.

قلت في نفسي وهم يفتحون التابوت: لابُدَّ أنَّ عظام شقيقي الحبيب قد تَهرَّأت، ولكنّني عندما لَمَستُ كَفَنَهُ، وجدته كأنه مات بالأمس، وكان كَفَنَهُ لا يزال جديداً، إلاّ موضعاً من جانب رأسه مال إلى الإصفرار، وكانت هناك بقعة كالماء، وعندما أَخرَجَ الطبيبُ وَجهَهُ من الكَفَنِ فإنّي رأيته مُبتَسِماً، وجَلَستُ بجانب التابوت –في المروحية– بعينٍ تنهمر منها الدموع تِباعاً، وقَلبٍ يَقطَعُه الأسى إرباً.

واتّجهنا إلى مدينة (أفيون) وهناك نقل الجِثمان بسيارة إسعاف إلى (أسبارطه) ودفن في مكان مجهول، لا يعلمه أحد حتى اليوم.

المحور الثاني: خِصالُه الحميدة وخصوصيّاته الفريدة:

لاريب أنَّ الأستاذ مُلاّ سعيد، كأيّ عالِمٍ من علماء الإسلام، كان على خصالٍ جميلة وأخلاق كريمة، ولكنَّنا –هنا– نريد الإشارة فقط إلى الآداب والخصوصيات التي كانت تُميِّزُ شَخصيَّتَهُ النادرة عن غيره، وهي:

١ – العلم:

لاريب أنَّ العلم شرطٌ أساسيٌّ يجب على العالم أن يكون مُتَحلّياً به، ولكن علم النورسي العميق والشامل، شيءٌ مُحَيِّرٌ حقاً، وبسبب ذلك أنعم عليه عُلَماءُ عصره بلقب (بديع الزمان)، في وقت مبكّر من عمره، وفي ريعان شبابه التقى في المنام برسول الله ﷺ حيث بَشَّره بعلم في القرآن، لا يكون محتاجاً لسؤال أحد.

والجانب المهم الآخر في علم النورسي: أنَّه إضافة إلى إحاطته بالعلوم الآلية والعلوم الشرعية، كان على علم راسخ ودقيق بـ(العلوم الحديثة) أيضاً، مثل: علم الفلك، والفيزياء، والكيمياء، والإحياء، والجغرافيا، وعلوم البيئة والإجتماع والنفس...إلخ، وتُلمس هذه الحقيقة في سلسلة رسائل النور لمس اليد.

٢- التجرُّد:

لاشك أَنَّ الإنسان كلَّما زادت معرفته بالله، وإيمانه به، تجرَّد في عبوديَّته لله تعالى أكثر، والأستاذ مُلاَّ سعيد، كما يبدو في حياته ومعيشته وتعامله ومواقفه، كان على إيمانٍ ومعرفةٍ عظيمة بالله تعالى، ولذلك فقد كان نموذجاً نادراً من التجرُّد والإخلاص قَلَّ نظيرهُ، وكما يقال: «كل إناءٍ بالذي فيه ينضح».

وعندي أن تواضع الأستاذ الشديد والمبالَغ فيه أحياناً، كان من معطيات ذلك التجرُّد، تَأَمَّل جميلَ قوله: «حاصل الكلام أنَّ حقيقة الإخلاص تَمنَعُني عن كلِّ ما يمكن أن يكون وسيلة إلى كسب شهرة، لبلوغ مراتب مادية أو معنوية».

٣- التضحية:

وهذه إحدى الخصال البارزة والخاصة للأستاذ، لأنه مما لا يحتمل شَكّاً ولا جدالاً، أنّ الإنسان لا يمكنه إنجاز عمل عظيم، دون تضحية أو غَضِّ طَرفٍ عن أشياء كثيرة.

وحياة النورسي -بلاريب- حياةٌ تَعُجُّ بالتضحية والفداء، تَأمَّلوا قَولَتَهُ الجريئة الّتي فاه بها أمام محكمة (أفيون) ليتبيّن لكم بطولة النورسي وجرأته:

«كونوا على علم لا يتزعزع، بأنه لو كانت لي رؤوس بعدد شعرات رأسي، وكلَّ يومٍ قُطِعَ مِنِّي رأسٌ، لما أَحنَيتُ هذا الرأس -الذي نَذَرتُهُ لبيان حقائق القرآن- أمام الكفر والزندقة يوماً، ولا أترك هذه الخدمة الإيمانية النورانية أبداً».

٤- الشفقة:

وهذه كانت خصلة رائعة أخرى لهذا الناذر نفسه لربه، ليس على أصدقائه وأقربائه وحسب، وإنما حتى على خصومه وأعدائه، كان رفيقاً شفيقاً حريصاً عليهم، حتى وهم يعذبونه كان يدعو لهم بالهداية، ولاشكَّ أنَّ أخلاقاً وقَلباً كهذا يعتبر انعكاساً لإيمان ومعرفة بالله كبيرة...

٥- الإستغناء والإقتصاد:

ومن خصوصيات الأستاذ مُلاّ سعيد، أنَّهُ لم يَقبَل -قط- هديةً ولا مساعدةً من

أحد، وقد ذكر في ذلك أسباباً وحِكَماً، منها:

١- لأن أهل الضلال يتّهمون علماءَ الإسلام، بأنهم يجعلون العلم وسيلة للكسب، لذا كان لزاماً أن يُكذَّبَ هذا الإدعاء بالعمل.

٢- أنّنا معاشر أتباع الأنبياء، لِزام علينا أن نكون مثلهم، وقد حكى القرآن استغناءَهم عن الناس: [إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ]الشعراء/ ١٠٩. [قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ]ص/ ٨٦.

٣- ومما هو مُقَرَّر في مذهب الشافعي، كما يقول إبن حجر الهيثمي: «ومن أُعطي لوصف يُظنُّ به كفقرٍ أو صلاحٍ أو نَسَبٍ، وهو باطناً بخلافه، حُرِّمَ عليه الأخذُ مطلقاً».

والأستاذ كان يقول: «لو ظننتُ نفسي صالحاً، فذاك الغرور، ولو لم أَظن في نفسي الصلاح، فلا يَحِلُّ لي ذلك ولا أَستَحِقُّه».

ثم إنَّ استغناءَهُ ورَفضَهُ للهدايا، كان بسبب حياته البسيطة وزهده الذي حَطَّمَ فيه (الرقم القياسي).

المحور الثالث: نبذة عن مواقف الأستاذ النورسي:

١- إجراء الصلح العشائري بين العشائر الكوردية:

كان أوّلَ مواقفه ونشاطاته المهمة بعد استقراره في مدينة (وان) التي ذهب إليها، بدعوة من واليها (حسن باشا) عبارة عن إصلاحه بين العشائر والأفخاذ المتنازعة في كوردستان، والتي كانوا أحياناً يُقيمون الدنيا ولا يُقعِدونها بسبب قضيَّةٍ تافهة، وكمثال على ذلك: فقد صالح بين (شكر آغا)، ورئيس عشيرة (ميران) مصطفى باشا، والتي عجزت الدولة العثمانية عن حلِّ نزاعهم.

٢- هجومه على الظلم والإستبداد في عهد السلطات عبدالحميد الثاني:

يقول سعيد النورسي عن تعريف الإستبداد في كتابه (صيقل الإسلام): «الإستبداد عبارة عن فرض الذات والتصرُّف المُتَعَجرِف، أي التجبُّر بسبب القوة والسلطة، أو الدكتاتورية، وهذا مما يَحُطُّ من قيمة الإنسان المكرَّم إلى درجات الإنحطاط والإفتضاح، وقد أدَّى ذلك إلى ذلة الدول الإسلامية، ومن المنطلق ذاته، ظهرت الفرقة والخلاف، وهو الذي عَرَّضَ الأمة الإسلامية -ختاماً- أن يَسري السمُّ الناقع في أَرجاء بدنها».

ثم قال بعد ذلك:

«ثم لا شك أَنَّ الإستبداد المُجحِفَ لا علاقة له بالشريعة المعصومة من الزَّلل، لأن الشريعة جاءت أصلاً لهداية الإنسان وإزالة الظلم والإستبداد.

٣- إلتماسان من السلطان (عبدالحميد):

وجه الأستاذ النورسي طَلَبَين إلى السلطان وهما:

١/ العمل على إصلاح وتطوير وتنمية المعيشة في كوردستان، عن طريق تأسيس مدرسة (الزهراء) والذي اقترح أن تُدَرَّس فيها العلوم الدنيوية إضافة إلى العلوم الدينية.

٢/ إصلاح القصر الذي يعتبر مركز الخلافة وقلبَها النابض، وفي هذا واجَهَ السلطان بقوله:

«قصر (يلدز) الذي غدا كالنجمة الخافتة، سَأرفَعُه إلى العلياء، بتحويله إلى مركز العلوم، وبدل أن تَستَقِرَّ فيه الجلاوزة الماسكين بالسياط، فليستقر فيه ملائكة الرحمة حتى يكون بهيّاً رائعاً كالجنة.

٤ – تأييده لتأسيس مجلس المشروطية:

ومن مواقفه رحمه الله، أنه أيَّدَ بصراحة وجدّية، المشروطية[١٨٢] التي أعلنها السلطان عبدالحميد للمرة الثانية في سنة (١٩٠٨) حيث يقول:

«المشروطية مجسِّدةٌ ومبيِّنةٌ لآيتي: [وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ]آل عمران/ ١٥٩، [وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ]الشورى/ ٣٨، وهي عبارة عن المشورة الشرعية، وهي كذلك عبارة عن إدارة الحكومة وعزة الأمة وعلى الحكومة أن تعمل في خدمتها».

ثم قال في إثر ذلك: «إذاً فأنا أرضى بالمشروطية على أساس الأدلة الشرعية، وليس تقليداً لدعاة المدنيَّة الغربية الذين فَهِمُوها على خلاف الشريعة، وإنَّني لا أتنازل عن الشريعة ولا أتركها لشيءٍ البتة، ولا أدفعها رشوةً لأي شيءٍ».

والخلاصة:

أنَّ الأستاذ النورسي قد قَبِل بتأسيس (مجلس الشورى) الذي كان يُسَمَّى في ذلك العهد (المشروطية) من أجل الخلاص من الحكم الأُحاديِّ المُستَبِدّ، شريطة قيامه على الشريعة الإسلامية وتحقيق أهدافها، لا أن يُتَّخَذ بديلاً عن شرع الله، فيُصبِحُ النَّاسُ كالمُستَجِيرين من الرمضاء بالنار، لأنَّهم تَحَوَّلوا من حكم الدكتاتورية إلى حكم الجاهلية والطواغيت.

١٨٢) المقصود بالمشروطية إعلان نظام البرلماني في الدولة العثمانية، والذي بناءً عليه: تكون الحكومة والوزارات مسؤولة أمام البرلمان وليس السلطان، وكذلك يصبح الإجتهاد للتشريع والتقنين من ضمن حقوق البرلمان.

٥- مطالِبَهُ الثلاثة من جمعية الإتحاد والترقي: [١٨٣]

بعد تسنمُّ جمعية الإتحاد والترقِّي مقاليدَ الحكم، وجّه النورسي إليها هذه المطاليب:

أ/ جَدَّدَ مطالبته ببناء مدرسة (الزهراء).

ب/ الصدق والأمانة وتأمين حاجات علماء الإسلام.

ج/ تكوين مجلس شورى للإجتهاد، لأنَّ شخصاً واحداً بعنوان: (شيخ الإسلام) لا يتدارك بمفرده كلَّ التحقيقات والقرارات والفتاوى.

٦- تكوين الجيش الشعبي للدفاع وورود خندق الجهاد ضد الروس:

والموقف البطولي الآخر للأستاذ مُلاّ سعيد النورسي، هو دخوله كواعظ في صفوف الجيش العثماني في (١٩١٤م) وفي سنة (١٩١٥) شَكَّل جيش (الأنصار)-في جبهة القفقاز- من الكورد المسلمين الفدائيين، وقد دخلوا ميدان الحرب والجهاد بإشرافٍ مباشر منه.

وقمين بنا أن نذكر أنَّه ألَّف تفسيره (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) عندما حمي وطيس المعركة واشتدَّ القصف الروسي، وقد قرأه على طلابه وخصوصاً مُلاّ حبيب، وكانوا بدورهم يُدَوِّنونه عندهم.

وفي تلك المعركة، استشهد نحو عشرين طالباً من طُلابه، ومن ضمنهم (مُلاّ حبيب) وقد جُرح هو أيضاً وكُسِرَت ساقُهُ، وبقي في الأوحال-ينتظر الموت- أربعاً وثلاثين ساعة.

وانتهى به الحال إلى وقوعه أسيراً بيد الروس مع مجموعة من تلاميذه، وقد بقي في الأسر مدة تربو على السنتين والنصف، ولكنّهُ استطاع الفرار ووصل بشق الأنفس إلى أسطنبول.

---

١٨٣) جمعية سّرية تأسست-بقصد الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد- في سنة (١٨٨٩م)، وقد ساندتها الجماعات الماسونية، وكان تواجدهم في تشكيلات الجيش غالباً.

٧- النورسي كان بطلاً مغواراً حتى وهو الأسر:

روى أحد الذين وقعوا في الأسر في الحرب العالمية الأولى عند جبهة القفقاز، وكان من الذين رُحِّلوا مع الأستاذ إلى (سيبريا) وسجن في (باكو) فقال:

«ذات يوم زار (نيقولا نيقولافيج) المعسكر للتفتيش، فتمثَّل له جميع الأسرى قياماً، إلاّ (بديع الزمان) ورغم أنَّهُ يَمُرُّ أمامه ثلاث مرات، فإن النورسي لا يأبَهُ به، وفي المرّة الثالثة يقف عند النورسي، وتقع بينهما هذه المحاورة عن طريق الترجمان:

نيقولا: ألا تعرفني؟

سعيد: بلى أعرفه، هذا (نيقولا نيقولافيج) خال القيصر والقائد العام لجبهة القفقاز.

نيقولا: إذاً لماذا لا يريد أن يحترمني؟

سعيد: أنا عالم مسلم مؤمن، والمؤمن خير ممن لا إيمان له، فلو كنت قُمتُ لَهُ واحترمته، لكان ذلك خَدشَاً لعقيدتي، ولذلك لم أَقُمْ لَهُ. [١٨٤]

نيقولا: مادام هذا يدعوني بالكافر، فقد أَهاننا جميعاً، أنا والجيش والشعب والقيصر أيضاً، ولذلك شَكِّلوا محكمةً عسكرية في الحال وانظروا إلى جوابه؟!

وشُكِّلت المحكمة العسكرية، فجاء الضبّاط الترك والألمان والنمساويون إلى سعيد النورسي، يطلبون إليه أن يعتذر للقائد الروسي، ولكنه قال لهم:

أنا أرغب في السفر إلى الآخرة، وأريد أن أذهب إلى حبيبي محمدﷺ، وأحتاج إلى جواز سفر لآخرتي، ولا يُمكنني أن أفعل ما يتناقض مع إيماني.

وكانت النتيجة أن أصدرت المحكمة عليه حكم الإعدام بتهمة إهانة القيصر والجيش الروسي، فتأتي مفرزة ليذهبوا به إلى ساحة الموت، فيقوم (بديع الزمان) مسروراً ويقول للضابط الروسي:

أَمْهِلُوني خمس عشرة دقيقة لأقوم بواجبي!

١٨٤) لاشكَّ أن قيام المسلم لغير المسلم، وإكرامه إيّاه لا يتناقض مع الإيمان!

فيقوم يَتَوضَّأُ، فيقول له (نيقولا) وهو يُصَلِّي: سامِحني، لقد ظننت أنَّك أَرَدتَ إهانتي بتصرُّفك، ولذلك عامَلتُكَ بالقانون، ولكنِّي الآن أَيقَنتُ أنَّ تَصَرُّفَكَ كان نابعاً من العقيدة والإيمان، ولذلك نَقَضتُ حكم المحكمة، فأنتَ تَستَحِقُّ كلَّ احترام بسبب إحسانك وتقواك، سامِحني لأَنَّني آذَيتُكَ، أطلُبُ الصَّفح مرة أخرى..»

فرحمة الله عليك وعلى أبويك تَترى، هكذا فَليَكُنِ العلماءُ أبطالاً جريئين، ورجالاً صامدين.

٨- تأليف ونشر رسالة (الخطوات الست) لمناهضة الإنكليز:[١٨٥]

ومن مواقفه التي تُحاكي قوَّة الأُسود، أنه بعد احتلال الإنكليز لأسطنبول في سنة (١٩٢٠م) بدأوا في المكائد ووضع الخطط، فَصَنَّفَ الأستاذ رسالَتَهُ تلك لردِّ تلك المكائد على نحورهم ونَقضِ خُططِهِم، وقد أمر القائد الإنكليزي بإعدام سعيد النورسي، عندما وَصَلَتهُ رسالة (الخطوات الست)، ولكنه عندما أُخبِرَ بأنَّ عملاً كهذا، سيبعث على غضب الجماهير وامتعاضهم وسَيُوَلِّد ردَّ فعل قوي، سَحَبَ القائد قرارهُ.

وعندما تسامعت قيادات الحركة التحرُّرية في الأناضول، بهذه المواجهة والموقف من ملاّسعيد، كتبوا إليه يدعونه إلى (أنقرة) ولكنّه أبى وكتب إليهم: «عندما أريد أن أكون في أخطر الأماكن، فذلك حتى أجاهد، لا أن أكون في المؤخَّرة، والخَطَرُ هنا أَشَدُّ من الأناضول».

٩- توحيد القبلة وتَحَوُّل الأستاذ إلى (سعيد الجديد):

في سنتي (١٩٢١)، (١٩٢٢) حصلَت في الأستاذ سعيد النورسي، حالة من الوعي واليقظة الروحية، وأدَّت به يَقَظَتُهُ الروحية تلك، إلى إحداث انقلاب من

١٨٥) النورسي في رسالته تلك، سمّى خطط الإنكليز وحلفائها بـ(خطوات الشيطانية) وعرضها عن طريق ست وساوس شيطانية، ووضع لكل وسوسة وخطوة، جواباً لينقضه.. يُنظَر: كليات رسائل النور، الجزء:٨، صيقل الإسلام، الخطوات الست، ص٥٤٣-٥٧٦، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، نشر: دار سوزلر- أسطنبول.

التغيير الجذري، وبذلك ولَّت مرحلة سعيد القديم، وبدأت مرحلة أخرى تأتي إلى الوجود هي مرحلة (سعيد الجديد).

كانت بداية هذه الصحوة الروحية هو قراءته لكتاب: (فتوح الغيب) لعبدالقادر الجيلاني، رحمه الله، وكذلك قراءة كتاب: (المكتوبات) للسيد أحمد السرهندي، الذي يُعرَفُ بالإمام الرباني.

والجدير بالذكر أن النورسي ظلَّ متَرَدِّداً لفترة من الزمان: أَيَّ الكتابين يختار، وأياً منهما يجعله مرشداً له؟!

إلى أن وقع بصره على سطر من كتاب (المكتوبات) يقول: «وحِّد القبلة»، وشَعَرَ في قلبه بخاطر رباني يقول له:

«إن بداية هذه الطرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلها، وشمس هذه الكواكب السيارة، إنما هو القرآن الكريم، فتوحيد القبلة الحقيقي إذن لا يكون إلاّ في القرآن الكريم، فالقرآن هو أسمى مرشد، وأقدس أستاذ على الإطلاق».

ومما تَجدُرُ بالإشارة أيضاً، أنَّ الفارق الجوهري بين سعيد القديم وسعيد الجديد، هو أن الأخير بدأ يَنسَحِبُ من ميدان السياسة والفعّاليات الإجتماعية والثقافية المختلفة، وينقطع بالكلية للمسائل الإيمانية والعبادية والتقوى والتزكية والأخلاق.

١٠ - الإشتباك مع مصطفى كمال أتاتورك:

في سنة (١٣٣٨هـ)-(١٩٢٢م)، أرسل (أتاتورك) برقيتي دعوة إلى الأستاذ النورسي عن طريق صاحبه (تحسين بك) وبالنتيجة فقد لبَّى الأستاذ دعوته، وعندما وصل إلى (أنقرة)، استقبل بحفاوة من قبل السمؤولين والوزراء وأعضاء البرلمان، وعندما شعر أنَّ أعضاء البرلمان لا يُولُون أهميةً للشعائر الدينية وخصوصاً الصلاة، نشر بياناً من عشرة بنود، على الأعضاء وقرأه بنفسه على (أتاتورك) والجنرال (كاظم قره بكر) وفي أعقاب ذلك بدأ ستون عضواً من أعضاء المجلس

بالصلاة، واستهلَّ النورسي بيانه بقوله: «يا أيها المبعوثون! إنكم لمبعوثون ليوم عظيم، أيها المجاهدون وأهل الحل والعقد!».

وقال له أتاتورك أمام أعضاء البرلمان: «لا شكَّ بأنَّنا في حاجة عظيمة إلى عالم مثلكم، ولذلك دعوناك حتى نستفيد من أفكاركم الصحيحة، وقد لَبَّيت دعوَتَنا، ولكن أوَّل شيءٍ فعلته، أنك كتبت عن الصلاة، فأوقعت بيننا الفرقة والإختلاف».

وبعد أن أَفحَمَهُ النورسي وأغلظ له القول قال: «باشا، باشا، إن أعظم حقيقة في الإسلام -بعد الإيمان- هي الصلاة، والذي لا يُصلِّي خائن وحكم الخائن مردود».

فَتَضَجَّرَ لذلك أتاتورك، ولكنه كظم ذلك على مَضَضٍ، واقترح عليه عضوية البرلمان، وأن يكون الواعظ العام على الولايات الشرقية لكوردستان، وأن يَتَسَلَّم رئاسة الشؤون الدينية، وكذلك أن يكون عضواً في (دار الحكمة)، وأن يتقاضى شهرياً (٣٠٠) ليرة، ولكن الأستاذ رفض كُلَّ ذلك، لأنه كان موقِناً أنَّ ذلك سيكون على حساب دينه وعقيدته، ورفض عرض أتاتوركي كي يتفادى أن يكون جزءاً سليماً من آلةٍ مُعَطَّلة.

المحور الرابع: بعض الملاحظات حول الأستاذ سعيد النورسي وأتباعه:

لاشك أنَّ تقييم شخصية الأستاذ النورسي والجماعة التابعة له، بحاجة إلى فرصة سانحة وتخصيص الوقت الكافي له، وغايتنا هنا، أن نبدي بعضَ الملاحظات بسرعةٍ خاطفة، لا أن نُشبعَ الموضوعَ حديثاً:

الأولى/ إنَّنا بدون مراعاة المرحلة والظروف الخاصة لأية شخصية أو جماعة، حالَ التقييم، وعَرضِها على المِحَكّ، سنكون عُرضَةً لإصدار الأحكام الخاطئة والجائرة.

فمثلاً: من أجل أن نتبيَّن الأسباب التي دعت (أبا حامد الغزالي) إلى ترك إدارة مدرسة النظامية، والتوجُّه إلى الشام وفلسطين، والإنشغال بتصنيف كتاب: (إحياء علوم الدين)، بدل أن يقوم بعمل آخر، أو أن يؤلِّف كتاباً آخر، يجب أن نحيط علماً بالحالة النفسية والأزمة التي كان يمرّ بها الغزالي، والتي حَدَت به إلى أن يقوم بما قام به، وإلاّ أسأنا به الظن وفَسَّرنا الحالة بصورة مغايرة.

والأستاذ النورسي -كأي عالم وإمام آخر- علينا قبل الإقدام على تقييمه وتقييم أعماله، أن نبحث بحثاً مُستفيضاً في البيئة والظروف السائدة آنذاك في كوردستان وتركيا والعالم الإسلامي بِرُمَّتِهِ، وحينئذ سنفهم البواعث التي دفعته إلى إبداء المواقف والخطوات التي خطاها، ولماذا خَالَفَ العالم الفلاني والإمام العلاّني؟

الثانية/ لئن كان النورسي منشغلاً كُلَّ الإنشغال بقضايا الإيمان، فَلَهُ مُبَرِّراته المعقولة لذلك، لكن هذا لا يعني أن لأتباعه نفس المبرِّرات والأعذار.

فعندما نرى الأستاذ مُلاّ سعيد قد كرّس جل (رسائل النور) في المرحلة الجديدة، عن الكتابة في حقائق الإيمان والعقيدة، فلاشك كان للأستاذ عذره في ذلك؛ وهو الوقوف بوجه سيل الزندقة الأتاتوركية المُتَدَفِّقة، فإذا لم يكن بإمكانه الدفاع بمفرده عن الإسلام جملة، فلا أقلَّ من الدِّفاع عن أصله وأساسه القويم، ألا وهو الإيمان والعقيدة، التي كانت هدفاً لهجمات الجاهلية أكثر من غيرها، إضافةً إلى أنَّ كتابة في هذا المبحث الجليل، كتابة عن أصل الإسلام وأساسِهِ.

وفي تلك الظروف السائدة في تركيا، وطبقاً لمكائد والخطط المرسومة لإجتثاث الإسلام من أساسه، كمطلَبٍ يَنُصُّ عليه القانون، فإن الأستاذ النورسي، كان بِشِقِّ الأنفس استطاعَ أن يُدافع عن الإيمان، وعلى ذلك القدر-الذي لم يكن قليلاً قط- اعتُقِل مرات عديدة، وحُكِم عليه أعواماً مديدة، وأُبعد ونُفي ووضع في الإقامة الجبرية مرات ومرات، وكم من مرة جَرَتِ المحاولات لقتله وشَنقِهِ، وقد سُمِّمَ إحدى عشرة مرة.(١٨٦)

إذاً: لو أنه تجاوَزَ في الحديث عن الإيمان والعقيدة والعبادة والأخلاق، إلى الحديث عن الجوانب الأُخرى، لكان يُمنع من إتمام مشروعه قسراً، ويضطر إلى تركه ولما يُكمل، والواضح أنَّ مشروع إنقاذ الإيمان، يَحُوزُ الأهميَّةَ الكبرى عند النورسي، مقارنةً مع الجوانب الأخرى التي كان البحث فيها يؤدي إلى إعطاء الذريعة القانونية للنظام العلماني، وبالتالي: إيقاف المشروع الإصلاحي الأساسي، فتكون المفسدة أكبر من المصلحة.

ولكن أتباع الأستاذ وتلاميذ مدرسته، ليست لديهم المعاذير التي كانت عند أستاذهم في الإقتصار على نفس الجوانب، وذلك لسَبَبَينِ في الأَقَل:

١) إنَّ الذي كان في مقدور الأستاذ النورسي ووسعه، هو: صَدُّهُ الهجمات الكفرية الأتاتوركية التي تستهدف اساس الإسلام، أما وقد زال ذلك الخطر، وبات الأساس-بحمد الله- محفوظاً، فالواجب على أتباع تلك المدرسة الإهتمام بالجوانب الأخرى للإسلام أيضاً.

---

١٨٦) وهذا تفصيل تلك المحاولات:

١/ في أنقرة عن طريق الزرق في سنة: ١٩٢٢م.

٢/ في سجن (أسكي شهر) سنة: ١٩٣٥م.

٣، ٤، ٥/ في (قسطموني) في سنوات: ١٩٣٦- ١٩٤٣م.

٦، ٧، ٨/ في سجن (دنيزلي) في سنتي: ١٩٤٣-١٩٤٤ حيث توفِّيَ (حافظ علي) في المرة الثانية.

٩، ١٠، ١١/ في (أميرداغ) في ١٩٤٥-١٩٤٦، والذي توفي (حسن فيضي) في المرة الثالثة، رحمه الله.

يُنظَر: كليات رسائل النور: ٩، سيرة ذاتية، ص٣٦٠.

٢) لاشك في أنَّ التلميذ يجب أن يكون مواصلاً لمسيرة أستاذه والمشاريع التي قام بها، فالواجب على التلاميذ أن يَبْنُوا الجِدارَ على ذلك الأساس الذي شيَّده أستاذهم، فلا الإسلام مقصور على الإيمان والعقيدة، ولا الأساس المفتقر إلى الجدران، يصلح موضعاً للراحة وحَطِّ الرِّحال!

الثالثة/ الأستاذ النورسي سَئِمَ من السياسة الكفرية المليئة بالخداع واعتزلها، واستجار بالله منها، لا أنه كان لا يُؤمن بالسياسة الشرعية.

كثير من الذين مرّ بمسامعهم قول الأستاذ: (أعوذ بالله من الشيطان والسياسة)، يعتبرونه: هَجرَ السياسة هَجْراً نهائياً، ولَم يَعُد يؤمن بِجَدوى السياسة والفعّاليات السياسية.

ولكن دعونا نستمع إلى الأستاذ نفسه، ماذا يقول في هذا الصدد:

[في أحد الأيام رأيت رجلاً يبدو عليه سيماء العلم، كان يُوَجِّه انتقادات مُغرِضة وبصراحة إلى أحد العلماء الأفاضل، بحيث وصل به الأمر إلى تكفيره، وذلك بسبب اختلافهما حول بعض المسائل السياسية، وفي أعقاب مشاهدتي لهذا الحادث شَعَرتُ بقشعريرة شديدة تَدُبُّ في جسدي، واستجرت بالله تعالى من المصير الذي آلَت إليه السياسة، وقلت: (أعوذ بالله من الشيطان والسياسة) ومن ذلك اليوم انسَحَبتُ من السياسة].

وفي موضع آخر، جواباً على سؤال: لماذا تَركتَ ميدان السياسة ولا تَقرُبُ حِماها؟ قال: [إن السعيد القديم قد ألقى بنفسه عشر سنوات في خِضَمِّ السياسة، لعلَّه يُقدِّمُ خِدمةً للإسلام والعلم بذلك، ولكن جميع جهودي ذَهَبَت أدراج الرياح.

ولذلك تبيّن له أن ذاك الطريق فيه مشاكل كثيرة وهو بالتالي طريق مشبوه، ومن هذا المنطلق، فقد ودَّع السعيد القديم: السياسة والمجالِسَ الدنيوية، وقراءة الجرائد، مع تدخين السگائر، جملةً واحدة].(١٨٧)

١٨٧) سيرة ذاتية، ص٢٢٢، ٢٢٣.

وعلى هذا، فإنَّ الأستاذ النورسي:

١- لم ينقطع عن السياسة إلاّ بعد طروءِ التغيُّر عليها، وطغيان الميكافيلية والإنتهازية فيها، وتجرُّدها من القيم العليا، والخلال الحميدة.

٢- وبعد أن سُدَّ بوجهه ذلك الباب، اضطر إلى اعتزالها وملازمة ركن بعيد عنها.

٣- كما أنه لم يعتزلْها، إلاّ بعد صَرْف جهود مُضنيةٍ في ذلك الميدان، فقد أجرى فيه فرسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، واكتسب خُبرةً مهمةً منها، وعند ذلك ترك السياسة وَوَدَّعها، إذاً: ليس صحيحاً ما يقال: أنَّ الأستاذ النورسي لم يولِ السياسةَ ولا العملَ السياسي أهميةً، بل يبدو أنَّ الظروف لم تُمهِلهُ أكثر من ذلك، فاضطر أن يَتَّجِهَ بعيداً عن السياسة.

تنبيهاتي وانطباعاتي الثلاثة عن الإمام النورسي وجماعته:

الرابعة/ وإنَّني في أعقاب قراءتي لجميع كتب الأستاذ النورسي، والتأمل الدقيق في حياته ومعيشته، تكوَّنَتْ لَدَيَّ ثلاثة تنبيهات وانطباعات، لا يمكننى الإحجام عن ذكرها، رغم ما أُكِنُّهُ للأستاذ من الإحترام والتقدير الكبيرين:

١) إنَّ الأستاذ في أحاديثه عن التوحيد، تراه يؤكِّد كثيراً على توحيد الخالقية والربوبية، وقَلَّما يتطرَّق إلى الحديث عن توحيد الألوهية، والذي لا ريب أنّه هو الأصل الأكبر والأهم للإيمان وتوحيد الله سبحانه وتعالى، ومن أجلهِ هو: اصطدم الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم قاطبة مع الطواغيت والفراعنة ونمرود وأبي جهل وأضرابهم، كما قال الله الحكيم عز وجلّ: [وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ]الأنبياء/ ٢٥.

٢) رغم أن الأستاذ ظلّ مُصِرّاً على ألاّ يَتعلَّق به أَتبَاعَهُ، بل وجَّهَهُم إلى الحَوْمِ حول (رسائل النور) وحسب، ولكن كان عليه أن يذكر حقيقتين مهمتين أُخريين لتلاميذهِ:

١- أنَّ رسائل النور أيّاً كانت، فبالنتيجة ما هي الاّ تفسير الأستاذ للقرآن ولا يَحِلُّ لأحدٍ أن يتصور بأن تلك الرسائل تكون بديلاً عن القرآن والسنة أو تعويضاً عنهما، لذا بالإضافة إلى الإنتفاع من تلك الرسائل-وهي لا تَعدو أن تكون قطرات من بحر الكتاب والسنة- علينا أن نستفيد من المصدر الذي أَلهَمَ الأستاذَ بتلك الرسائل.

إن ذينك المصدرين-بلا شك- تَسُدّان كُلَّ ثغرة في أيّ كتاب أو نتاج للعلماء، ولكن تراث العلماء كُلِّهِ، لا يمكن أن يكون بديلاً عن القرآن والسنة بحال من الأحوال.

٢- إنَّ (رسائل النور) مُخَصَّصَةٌ للقضايا المعنوية كالإيمان والعقيدة، ولكن الإسلام ليس مقصوراً على ذلك الجانب أبداً، لذا كان لِزاماً على الأستاذ أن يُؤَكِّد بصراحة لتلاميذه وأتباعه قائلاً لهم: رسائلُ النور وحدها، ليست كافية لمتطلبات الإسلام بصورة وافية، لأن في الإسلام جوانب مهمة أخرى مثل:

١. الحكم والسياسة وبناء الدولة.
٢. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣. تنفيذ الأحكام والعقوبات والحدود الشرعية.
٤. القتال والجهاد ومواجهة أهل الكفر والنفاق والعصيان...الخ.

٣) يغلب على ظَنّي أن الأستاذ لم يُولِ الأَهمية المناسبة لقضيَّة الشعب الكردي المسلم، الذي كان في ذلك العهد منكوباً ومظلوماً ومُشَرَّداً، وإنَّ عدم مساندته[١٨٨] لثورة الشيخ (سعيد پيران) جزء من ذلك التقصير، عفا الله عنه، ولا يزال أتباعُه وتلاميذه مُقَصّرين، فيما يَخُصُّ الشعب الكردي وقَضيَّتَهُ العادلة.[١٨٩]

١٨٨) يُنظَر: (كليات رسائل النور) ٩ (سيرة ذاتية) ٢٠٦-٢٠٩.

١٨٩) ولا أدَّعي أنَّ الأستاذ لم يكن له ما يسوِّغ صَنيعَهُ، ولكنّني أتصور أنَّ عالماً كبيراً في مستواه، لم يكن يَجمُلُ به الصَّمتُ في مثل تلك الأحداث الأليمة.

١٨- الشيخ أمجد الزهاوي[190] رحمه الله تعالى

هو: (الشيخ أمجد بن الشيخ محمد (فيضي) بن الشيخ محمد سعيد، بن ملا أحمد، بن حسن بك، بن رستم بك بن كيخسرو بك، بن أمير بابا سليمان، بن فقي أحمد الدارشماني الپشدري).[١٩١]

ولد الشيخ في: (١٣٠٠هـ-١٨٨٣م) في مدينة بغداد، من أسرة كريمة معروفة بالعلم، لأن كُلاًّ من الشيخ محمد سعيد، وجدِّه الشيخ محمد فيضي، كانا مفتيين لبغداد حتى وفاتهما.

وتوفِّي الزهاوي ببغداد في (١٤/ شعبان ١٣٨٧هـ-١٩٦٨م).

وليس واضحاً في أي تأريخ انتقلت الشيخ أمجد من قرية (دارشمانة) في (پشدر)[١٩٢] والتي كانت مستقراً لفقي أحمد[١٩٣] إلى السليمانية، ولكن العامل الذي كان سبباً لظهور لقب (الزهاوي) لهذه الأسرة-مع أنهم في الأصل من دارشمانة وپشدر والسليمانية- كان بسبب انتقال (حسن بگ) جد (محمد فيضي) إلى (زهاو) بصورة مؤقتة، وبقائه هناك لفترة من الزمان، جرّاء نزاع وقع بينه وبين الحاكم البابانى.[١٩٤]

ونحن بعون الله تعالى سنتناول الحديث عن مواقف الشيخ وأعماله الجليلة من خلال محورين رئيسيين:

المحور الأول: والذي نَتَحَدَّث فيه عن خصاله الفريدة وأخلاقه الحميدة،

---

١٩٠) إعتمدتُ في كل ما كتبته عن الشيخ هنا، على كتاب: (الإمام أمجد بن محمد سعيد الزهاوي؛ فقيه العراقَينِ والعالَم الإسلامي) لمؤلفه، كاظم أحمد ناصر المشايخي.

١٩١) روى هذه السلسلة، مُلّا عمر ديبگي عن الشيخ نفسه.

١٩٢) قرية تقع خلف مدينة (قلعةدزة) وفي أسفل من قرية (هلشو) في غرب قرية (هيرو).

١٩٣) إن كلًا من أسرتي (البابانيين) في السليمانية و(الميراودليين) في پشدر يعتبرون أنفسهم مُنحَدِرَتَين من نسل (فقي أحمد) ويُرجِعون أصلَهم ومنشأهم إليه، وطبقاً لذلك فأنا والشيخ أمجد، من نسلِ رجلٍ واحدٍ، إذ سلسلتي النَّسبِيَّة هكذا: علي بن باپير بن وتمان بن وتمان بن أحمد بن حمداغا بن ميراودل بن ميربوداغ بن فقي أحمد الدارشماني.

١٩٤) سبب هجرتهم إلى (زهاو)-وهي ناحية في كرماشان- وأختيارهم لها، تعود إلى كون والدة (محمد فيضي)-زوجة مير أحمد أو ملا أحمد- من أهالي (زهاو).

والتي يَتَبَيَّنُ منها: تقواه وزهده وورعه وتواضعه وحياؤه وسماحته، وسنروي بعض الأحداث في هذا المجال.

وأما المحور الثاني: فَسَنُخَصِّصُهُ لبعض المواقف المجيدة له:

المحور الأول: الأخلاق العالية والخصال السامية للشيخ أمجد الزَّهاوي:

١/ **مأكله ومطعمه**: كان الشيخ رحمه الله قنوعاً في مسألة الطعام، يرضى منه البسيط، وفي الوقت ذاته يتحرَّى ويُدقِّق حلالَهُ من حرامِهِ.. فمثلاً:

١) تحكي ابنته (نهال) أن أباها كان لو جَمَعتهُ شراكة مع شخص في أرض، لم يكن يأكل ثمارَهُ، لِئلاّ تقع عنده حِصَّة لشريكه.

٢) يقول (الشيخ علي الطنطاوي) الذي كان رفيقاً له في سفره إلى الهند، وكانوا قد ذهبوا من أجل قضية فلسطين: «قضينا معاً شهرين في سفرنا، وهو لا يأكل غير الخبز والشاي، حتى خَرَّ مريضاً».

٣) وكذلك تروي ابنته (نهال) بأن والِدَهُ عندما كان يُدعى من قبل العشائر، يتضجَّر كثيراً لأنهم يَتكلَّفون صُنعَ الطعام له، وكان يقول لهم: نحن لا نحتاج هذا الطعام، بل نحتاج منكم فقط أن تَستَمِعوا إلينا وتنفذوا ما نقوله لكم.

٢/ وَرَعُهُ وتَوَقِّيهُ من الحرام:

١) عندما كان يبني بيته في (الأعظمية) سَمِعَ أَحَدَ العاملين يَتَفَوَّهُ بكلمة كفرٍ، فاستدعاه وسَلَّمَهُ أُجرَتَهُ كاملةً، وأمره بالإنصراف، ثم أمر بِهَدمِ ما بناه ذلك العامل، وجاء بعامل آخر مَكانَهُ.

٢) إكترى الشيخ أمجد داراً واستقر فيه، وكانت هناك نخلة في البيت، وعندما أتى أوانُ ثِمارِها، قَطَفَ الثَّمر وَوَضَعهُ في كِيسٍ وأرسله مع حمّال، وكتب له: أخي العزيز! هذه تمور النخلة التي في دارك قد قَطَفتُها، وأُرسِلُها إليك، لأن النخلة لم تُذكر في عَقد الإيجار الذي بيننا، فهي ملكك.

٣) في إحدى السنوات ذهب الشيخ الزهاوي برفقة الشيخ محمد محمود الصواف في بعثة إلى أربيل لتفتيش المساجد، وبعد إتمام عملهم باتوا ليلةً في مصيف صلاح الدين وعندما عادا إلى أربيل، سأل الشيخ أمجد مدير الأوقاف عن أجرة السيارة إلى مصيف صلاح الدين، حتى يدفعها من مالِهِ الخاص، لأن السفر إلى هناك لا يدخل ضمن العمل الذي كُلِّفا به، فَحَدَثَ بينهما جدالٌ على هذا، وانتهى الأمر بدفع الأجرة من قبل (محمد صادق المختار) وهو من تلامذة الشيخ رحمه الله.

٤) في إحدى المرّات قصده شخصٌ إلى مكان وظيفته، ليكتب له رسالة لتسهيل عمله، ولكم يكن حينذاك عند الشيخ ورقة ليكتب عليها، فأعطى الرجلَ فَلساً وقال له: اذهب واشترِ ورقةً، فقال الرجل: هذه الأوراق البيضاء أمامك يا شيخ! فقال له: ولدي العزيز! هذه من أموال الدولة وليست من أموالي، فذهب الرجل واشترى للشيخ ورقة ليكتُبَ عليها الرسالة.

٣/ الإلتزام بالشرع والسنة، وعدم الخشية من لوم اللائمين:

١) عندما مات عمُّه الشاعر المعروف (جميل صدقي الزهاوي)، طلب إليه المَلِكُ أن يُصَلِّي على جنازته، ولكن الشيخ أبى أن يُصلِّي على جنازة عمِّهِ، لأنه كان يَشُكُّ في إيمانه، وبعد تشييع الجنازة ورجوعه إلى البيت، عاتبتهُ زوجة عَمِّه قائلة له: لماذا لم تصلِّ عليه؟ أَلَمْ يكن في الشهور الأخيرة من حياته يُكثِر الإستغفار والصلاة؟ فقال لها: لو كنت أعلم هذا سَلَفاً لَصلَّيتُ عليه.

٢) عندما ذهب إليه الشيخ إبراهيم مُمثِّلاً عن جمعية (الشباب المسلمين) وكان مشغولاً بإلقاء الدروس الفقهية في مدرسة (السليمانية)، وكان من عادة الشيخ ألاّ يقطع درسه لأحد، ويظهر أنَّ الشيخ الأيُّوبي كان على عجلة من أمره، لذا استأذنه قائلاً: «المجلس بانتظار سماحتكم، وقد حضر العلماء والوزراء وأرسلوني إليكم لتُقَدِّمَ كلمة هناك، لكن الشيخ استمر في درسه، فكرَّرَ الأيوبيُّ كلامه مرة أخرى، فانتهره الشيخ قائلاً:

«أتريد أن أترك فرضاً وأحضُر بدعةً».

وقد كان الحَفْلُ مقاماً بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الشاعر المعروف (محمد إقبال).

٤/ بسبب الإستغراق في الفكر والذكر، لم يكن يبصر النساء المبتذلات، ولا يسمع الكلام البذيء، أو أَنَّ الله سبحانه كان يُكرِمُهُ بذلك؟!

١) حكى الشيخ الفؤاد الآلوسي، الذي كان في زيارة مع الشيخ لمدينة الأسكندرية، وعندما مرّوا في الشارع الذي بجانب (الكورنيش) والتي أُقيمت المسابِحُ على جانبيه، حيث تُشاهَد النساء شبه العاريات بملابس البحر، فجعل الشيخ فؤاد يُرَدِّدُ (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) و(لا حول ولا قوة إلاَ بالله)، وعندما وصلا إلى مكان راحتهما، قال الشيخ فؤاد للشيخ أمجد: أرأيتَ تلك المناظر التي تَندى لها الجبين في بلد مسلم!

فقال الشيخ أمجد: ماذا تعني يا أفندي؟

فقال الشيخ فؤاد: تلك النساء شبه العاريات التي مَرَرنا بهن في ذلك الشارع.

فقال الشيخ أمجد: والله يا أفندي لَم أَرَ شيئاً.

وأيّاً كان سبب عدم مشاهدته لتلك المظاهر، سواء كان بسبب انشغاله التام بالذكر والتأمل، أو أن الله سبحانه حال بينه وبين تلك المناظر كرامةً له، فإنه يعني -بالضرورة- عُلُوَّ إيمان هذا العالم البارع وعظيم ديانته.

٢) بينما كان الشيخ يلقي الدروس على الشيخ عبدالقادر الخطيب، والشيخ الآلوسي، في مدرسة (السليمانية) ببغداد، إذا برجل يدخل على الشيخ فجأة ويرفع صوته عليه بكلام قبيح، ويَتَّهِمه اتِّهامات عديدة، ولكن الشيخ أمجد لم يُحَرِّك ساكناً، فأراد الشيخ فؤاد والآلوسي معاقبته، ولكنهما حياءً من الشيخ وهيبةً له لا يقولان ولا يفعلان شيئاً، وبعد أن فرغ الشخص من سفاهاته، مضى دون أن يَرُدَّ عليه الشيخ أمجد بكلمة واحدة.

بعد أيام ظهر الشخص ثانية، فَتَعوَّذَ الآلوسي وفؤاد بالله، خشية أن يُكَرِّرَ

فِعلَتَـهُ، ولا يَفجَؤُهمـا إلاّ طَلَـب الرجـل السَّـماح والصَّفـح مـن الشـيخ.

فيقول له الشيخ: ما الذي حصل، وعن أي شيءٍ تطلب الصفح؟

فقـال الرجـل: قبل أيـام تعدَّيـت حـدود الأدب بوجهكـم، وقـد تبيَّن لي أنَّني مُخطيءٌ وظـالمٌ لنفسي.

فقال الشيخ: والله يا ولدي لا أذكر الذي تقوله، يغفر الله لك.

وقـد اندهـش الآلـوسي وفـؤاد مـن كلام الشـيخ، هـل غَـضَّ طَرْفـاً عـن جهلِـهِ، وعامَلـه بالحِلـم ونـسي ذلـك الآن، أم أنَّ الله سـبحانه عَصَـم أُذُنَـهُ مـن سَـماع تلـك الكلـمات النابيـة، كـما حفـظ عينيـه مـن رؤيـة تلـك المناظـر في الأسـكندرية.

٥/ حياؤه وأدبه واحترامه:

١) تحكـي ابنتـه (نهـال) أنَّ أباهـا كان عـلى قـدرٍ عظيـم مـن الحيـاء والهيبـة، وقـد كشـف رجـل عـن ركبتـه لألم طـرأ عليهـا، فـأدار الشـيخ وجهَـهُ حيـاءً كـي لا يراهـا.

٢) رأى الشـيخ ذات مـرة رجلَين متخاصمين يشـتم أحدهمـا الآخـر، فتقـدم الشيخ نحوهمـا قائـلاً: لا تتشـاغبوا لأن هنـاك محكمـة، وعندمـا سـمع الرجـلان كلام الشـيخ، خَجِـلا مـن نفسـيهما ومضيـا لا يلويـان عـلى شيء.

٦/ الشيخ أمجد ينسى أسماء الناس حتى لا يتعرّض لاغتيابهم:

ومـن خصـال الشـيخ أمجـد وخصوصياتـه الخاصـة بـه -في نظـري- أنَّـهُ رغـم الحافظـة القويـة التـي كان يتمتـع بهـا، فإنـه كان ينسـى أسـماء الأشـخاص، وحتـى أقـرب النـاس إليـه، وفي هـذا يـروى عنـه العَجَـب:

وقـد سـئل يومـاً عـن ذلـك فقـال: «في مقتبـل عمـري قـرأت الآيـات والأحاديـث الـواردة في الغيبـة، وحتـى لا أَتَمَكَّـن مـن غَيبَـةِ الآخريـن، تَضَرَّعـتُ إلى الله سـبحانه أن يُنسِيَـني أسـماءَ الأشـخاص، ولم يكـن الشـيخ يسـمح باغتيـاب أحـد في مجلسـه، وكان يُغَـيِّر وجهـة الحديـث عـلى مـن يريـد غيبـة الآخريـن.

٧/ التضامن مع الناس والشفاعة لهم وإنجاز أعمالهم:

كان الشيخ أمجد لا يدَّخِر وسعاً في مدِّ يد العون إلى الناس، والتضامن معهم في أعمالهم الشرعية التي توافِقُ الشَّرعَ والحق، لذلك كان كثير من الناس يلوذون به ليشفع لهم عند المسؤولين، وبالأخص فإنه كان يتعاون مع العلماء الكورد، وكان يذهب معهم لإنجاز أعمالهم في الأوقاف والأماكن الأخرى.

١) حكى مُلاّ عمر الديبكي -وكان صديقاً مقرَّباً من الشيخ- فقال:

«أذكر أنَّ الشيخ رافق مرة جماعة من العلماء الكورد في الذِّهاب إلى مدير الأوقاف آنذاك (أحمد زكي المدرس) وقد نَفَّذَ ما جاء به الشيخ من أجله، وبعد أيّام قليلة جاء وفد آخر من العلماء إلى الشيخ ليتوسَّط لهم أيضاً، وقد انزعجت من ذلك وقلتُ: يا شيخ! لو كتبت لهم رسالة وَوَفَّرتَ على نفسك عَناء الذَّهاب معهم؟ لأنك قبل ثلاثة أيام فقط ذهبت إليه! سكت الشيخُ هُنيَهةَ ثم قال:

هم يَحسبون إن لا أُرافِقُهم، لا تَنحَلُّ مشكلتهم، ويتصوَّرون أنني لا أتعاون معهم، لذا لا يُهمُّني قبولُ المدير أو رفضه، ويجب أن أذهب معهم لأُسعِدَهُم.

٢) كلَّفه أحد أشقائه ذات مرة بأن يرافقه إلى مسؤول عن بعض الدوائر ليتعَيَّن عنده موظفاً، وعندما ذهب الشيخ معه إلى رئيس الدائرة، احتفى به وقَدَّرَهُ غاية التقدير ورَحَّبَ به قائلاً: تفضَّل يا سماحة الشيخ وَأْمُر، فطلب منه الشيخ أن يساعد شقيقه في التعيين، فقال الرجل: نحن في خدمتك وسَنُحَقِّق طَلَبك بعون الله تعالى.. فشكره الشيخ وقال له: آمل أن تُعِينَ شقيقي في حدود ما يسمح به الشرع، وإذا وجدت أحق من شقيقي بالوظيفة، فلا تُقَدِّمُه عليه.

المحور الثاني: مواقف مجيدة للشيخ أمجد الزّهاوي:

١/ موقف جرى للشيخ في أيام محاماته:

في سنة (١٩٢٤م) كان هناك شقيق وشقيقة اسمهما (بيبي وجواد كاب) قدَّما عريضة شكوى إلى محكمة بداءة بغداد، لاسترداد دارهم التي اغتصبها الطائفة البهائية منهما، واتخذوها قبلة لهم، بحجة أن (بهاء الله) الذي يزعمونه نَبِيّهم، كان مستقرّاً فيها، وقد سَلَّم الشقيقان إلى القاضي الأدلة مما جعله يُصدِر القرارَ لصالحهم في ٢٣/ ١١.

فثارت ثائرة البهائيين وأُرسل سَيلٌ من برقيات التنديد بالقرار في أنحاء أوروبا وأمريكا ورفعوها إلى المندوب السامي البريطاني في بغداد، وكان اسمه (السير بيرس كوكس) حيث طلبوا من الحكومة البريطانية التدخُّلَ لصالح البهائيين، فتَحدَّثَ المندوب السامي في ذلك إلى الملك، حيث استصدر منه وَعداً يقضي بإخلاء البيت وتسليم مفاتيحه إلى الحكومة. ويبدو أن الشقيقين كانا من الشيعة، ولذلك بدأ علماؤهم بإظهار موجةٍ من المعارضة وأرسلوا الحاج (محمد جعفر التمن) ممثلاً عنهم إلى الملك فيصل الأول، ليتحدَّث معه في ذلك الصدد وأن يطلب منه إعادة الدار إلى أصحابها.

وقد وقع الملك تحت ضغطين في آن معاً، فمن جهة كان هناك الضغط البريطاني والبهائي، وكانت هناك من جهة أخرى الضغوط التي يُشَكِّلُها الشَّعبُ وفي مقدمتهم العلماء والأئمة.

وقد تحوَّلت المشكلة في نهاية المطاف، إلى أزمة دينية سياسية مُعقَّدة، وحيث كان الشيخ أمجد حينئذ محامياً، ورأى بأُمِّ عينيه إحجام المحامين عن الدفاع عن صاحبي الدار خشية الإنكليز والبهائيين والملك فيصل، في هذه الأثناء تَحرَّكَت الغِيرة الدينية عند الشيخ وقَرَّر أن يترافع في هذه الدعوى، وبالنتيجة في (٨/ ٦/ ١٩٢٤) دافع الشيخ دفاعاً جريئاً دقيقاً ومُعزَّزاً بالأدلة، وصريحاً عن مالكية جواد وشقيقتِه للدّار، وكَسَبَ الدعوى حيث صُدِر القرارُ بإعادة الدار إلى أصحابها.

٢/ الشيخ أمجد لم يكن مستعداً أن يتسَلَّم منصب مفتي العراق:

بعد وفاة مفتي العراق الشيخ قاسم القيسي، تطلَّع الناس إلى الشيخ أمجد لكي يَتَضَلَّع بأعباء الإفتاء على عاتقه، ولهذا الغَرَض ذهب إليه كل من عبدالرحمن خضر ومحمد محمود الصواف وشفيق العاني، وكلَّفوه أن يقوم بهذا العمل، لكنه قال لهم في الجواب: «ما قيمة هذا المنصب والدولة علمانية! إذا قَبِلتُ هذا المَنصِبَ وَجَبَ عليَّ أن أُفتي بكفر هذه الحكومة».

٣/ الشيخ أمجد يدافع عن العلماء المجاهدين من أهل الغيرة:

١) عندما اعتقل الشيخان: عبدالعزيز البدري ومحمد مهدي الخالصي في عهد عبدالكريم قاسم، أجرى الشيخ الزهاوي لقاءً مع عبدالكريم استغرق قرابة الثلاث ساعات من المحادثة معه، فَتَمَخَّض اللِّقاءُ عن الإفراج عنهما.

٢) وعندما أصدر النظام العلماني في پاكستان حكم الإعدام على العلاّمة الكبير أمير لجماعة الإسلامية في پاكستان (أبو الأعلى المودودي) في سنة ١٩٥٣م، أرسل الشيخ أمجد -وكان وقتها رئيساً لجمعية الأُخُوَّة الإسلامية- ببرقية إلى كل من الحاكم ورئيس الوزراء، واستدعى الشيخ محمد محمود الصواف إلى العراق -وكان وقتئذ في الشام- ليتباحثا معاً بهذا الشأن.

٤/ الشيخ أمجد يصدر فتوى مهمة وغريبة حول الدعوة والعلمك الإسلامي:

فيقول: «لو أنِّي كنت قاضياً وأتاني شاهدٌ وعلمتُ أنَّه يواصل العبادة بالليل والنهار، ولا يعمل للإسلام لأعددته فاسقاً ولرَدَدْتُّ شهادته».

٥/ محاولات الشيخ لبناء سدٍّ قوي ضدَّ العلمانية ومنع اختلاطها بالتعليم:

منذ أن عيَّن الملك فيصل، ساطع الحصري -وفق خطة مدروسة- في منصب (المدير العام لوزارة المعارف)، والشيخ أمجد يقوم بمحاولات دؤوبة من أجل

إقصائه وإبعاده، لأنه كان على علم بِخُبث منشئه، ويعلم كذلك أن أهل دمشق قاموا بمظاهرة ضده، يهتفون (لا إلٰه إلا الله، ساطع عدوُّ الله).

وعندما علم الشيخ وباقي علماء المسلمين أنَّ ذلك الشخص يريد-وفق خطة إنكليزية- أن يسير بالتربية والتعليم نحو العلمانية، قاموا ببعض المحاولات لإقصائه، فمن جهة كان للشيخ لقاءان مع الملك، طلب فيهما تنحية المذكور، ووعده الملك بذلك، ومن جهة أخرى كان للعلماء القاطبة لقاء مع الملك، حيث وعدهم في المرة الأولى بتنحيته، ولكنه في المرة الثانية قال لهم بصراحة: إن الإنكليز مُصرُّون على إبقاء ساطع في منصبه في الوزارة.

ومرةً أخرى في عهد (نوري سعيد) جمع الشيخ مجموعة من العلماء ليقوموا بتدبير لتلك الوزارة، فذهبوا ابتداءً إلى وزير المعارف (خليل كنَّه) فكلَّمه الشيخ بصراحة وأجابه الوزير بصراحة مماثلة قائلاً:

«نحن دولة علمانية، فإذا أردت إجراء تغيير فعليك بالسلطات العليا».

فسأله الشيخ من تلك السلطة العليا؟ فقال: رئيس الوزراء (نوري باشا).

فذهبوا إليه وتحدَّثوا معه، فأَحالهم بدوره إلى الوصي على العرش؛ عبدالإله، فحاوره الشيخ أيضاً، فقال الوصي في الجواب: «إن التعليم في بلادنا هو بموجَبِ خطة مدروسة»، فقال الشيخ: «ولكن مَن الذي وضع تلك الخطة، حتى نواجِهَهُ ونُحاوِرَهُ؟!».

٦/ الشيخ أمجد وقضيَّة فلسطين:

الأستاذ مُلاّ أمجد الزهاوي، كان يُولِي القضيَّة الفلسطينية أهميةً الكبرى، وكانت له مشاركات في جميع المؤتمرات التي عقدت في هذا المجال، بَذَلَ فيها ما بوسعه، وبإمكاننا أن نذكر جانباً من مساعيه في ذلك:

١) في سنة (١٩٤٨م) سافر للمرة الأولى إلى مصر بهدف تغيير اسم (الجامعة العربية) إلى (الجامعة الإسلامية) كي تتحوَّل القضية الفلسطينية إلى قضية عامة

وشاملة تتشارك فيها سائر الأطراف، ويكون الدفاع عن أرض فلسطين نابعاً من القلب، وأن يكون هناك دافع عقيدي يشمل جميع المسلمين، وليس حصر القضيَّة في دائرة الأمة العربية والإكتفاء بدافع العاطفة فقط.

لاشك أنَّ نضال الشيخ ومساعيه باءت بالفشل، لأن العرب لم يُصِيغوا إلى كلامه ولا أعاروه أهميةً، بذريعة التواجد النصراني في بعض الدول كلبنان والجزائر.

ومع أن الشيخ أمجد دحض حجَّتهم في حواره مع رئيس الجامعة العربية (عبدالرحمن عزام) بأن اليهود والنَّصارى كانوا في جزيرة العرب وأماكن أخرى، ومع ذلك لم تكن لديهم مشكلة ما مع الكيان الإسلامي، بل عاشوا سعداء تحت راية الحكم الإسلامي، ولكن عبدالرحمن عزام لم تَلِجْ في أُذُنهِ كلمة الشيخ، وكان أقوى أدلَّتهِ هو قوله:

«إننا مُقيَّدون بنظام الجامعة العربية، ولا يمكن الخروج عليه».

ولهذا لايزالون إلى اليوم ماسكين بأذيال اليهود، ينفُخون في قِربةٍ مثقوبة ويضربون الحديد البارد.

٢) وكان سفره الثاني -من أجل قضية فلسطين- إلى دمشق، والقاهرة، والقدس، فقد كانت للشيخ مشاركة في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس من أجل القضية الفلسطينية وانتخب رئيساً للمؤتمر.

٣) وقد ذهب الشيخ أمجد الزهاوي مع أولى تشكيلات مجاهدي العراق إلى فلسطين، وزار الخطوط الأمامية للجبهة في سنة ١٩٤٨م.

٤) وسفره الثالث في هذا الصَّدد كان بعد انتخابه رئيساً للمؤتمر الإسلامي في قدس حيث زار على رأس وفدٍ، دول شرق آسيا، بغية تشجيع المسلمين لتأييد الشعب المسلم في فلسطين والتضامن معهم.

وقد كان معه في ذلك السفر كلٌّ من الشيوخ: محمد محمود الصواف، والدكتور أمين المصري، والشيخ الورتلاني، والشيخ محمد بشير الإبراهيمي، والشيخ علي طنطاوي، ولكن لم يواصل السفر إلى نهايته غير الشيخ علي طنطاوي، حيث سافرا إلى پاكستان والهند وأندونوسيا وماليزيا، واستغرق سَفَرُهم سبعة أشهر.

٧/ الشيخ أمجد وتكوين الجمعيات والمؤسسات الإسلامية:

بعد إحالته على التقاعد والخدمة في المجال القضائي سنة (١٩٤٦م) شرع في تأسيس وتكوين الجمعيات والمؤسسات الإسلامية، وقد أسس في سنوات (١٩٤٦-١٩٥٨م) وبمساعدة العلماء الآخرين، هذه الجمعيات الإسلامية:

١/ جمعية الآداب الإسلامية ١٩٤٦-١٩٤٨م.

٢/ جمعية إنقاذ فلسطين ١٩٤٨م.

٣/ جمعية التربية الإسلامية ١٩٤٩م.

٤/ جمعية الأُخوَّة الإسلامية ١٩٥١م.

٥/ جمعية رابطة العلماء ١٩٥٣م.

٦/ اللجنة العليا لنصرة الجزائر ١٩٥٢م.

وكان يقوم بنفسه على رئاسة هذه الجمعيات والمؤسسات الإسلامية، ويرعى شؤونها، وواضح أنَّ كلاً من تلك الجمعيات، كانت تقوم بأعمال ونشاطات مختلفة في سائر المجالات العلمية والشرعية والفكرية والثقافية والدعوية والتربوية والأخلاقية والإجتماعية والجهادية والسياسية، وكان لهم تأثير بعيد المدى على المجتمع العراقي وخارجه، في توعية المسلمين وإعادتهم إلى الإسلام ونقض الأفكار اللاّإسلامية الشرقية والغربية.[١٩٥]

١٩٥) أرى أن الأستاذ مُلّا أمجد الزهاوي، المنحدر من (پشدر ودارشمانه) كان مُقَصرّاً في القضية العادلة للشعب الكردي واضطهاده وهضم حقوقه واغتصاب أراضيه،...إلخ. وإني لأعجب من كونه لم يُحْكَ عنه شيء في تلك القضية، في الوقت الذي أَجهَدَ نفسَهُ من أجل القضية الفلسطينية، ولَنِعمَ ما فعل، ولكن الشعب الكوردي ليس أقلّ مظلومية من الفلسطينيين، وكلاهما شعب مسلم بصورة عامة!!

١٩- الإمام الشهيد حسن البنّا[١٩٦] رحمه الله

إسـمه: (حسـن بـن أحمـد بـن عبدالرحمـن البَنَّـا)، ولـد سـنة (١٩٠٦م) في قريـة المحمودية التابعـة لمديرية البُحَـيرة القريبـة مـن مدينـة الأسـكندرية بمـصر، ويعتـبره كثير مـن العلـماء والمحققين المعاصريـن أَحَدَ أَنشط العلماء والأئمة النوابغ والمُجَدِّدِين لهـذا الديـن.

هـو مُؤَسِّس جماعـة (الإخـوان المسـلمين) التـي كانـت لهـا الأثـر البعيـد في إنضـاج وتطويـر الصحـوة الإسـلامية في القـرن الرابـع عـشر الهجـري والعشريـن الميـلادي.

في ليلـة (٢١/ ١٣ شـباط ١٩٤٩م- ١٤/ ربيـع الثاني١٣٦٨هـ)، اغتالـه النظـام المـصري بقيـادة الملـك فـاروق، وبمباركـة القـوى العظمـى (أمريـكا والإنگليـز) عـن عمـر يناهـز الثالثـة والأربعـين، في وسـط العاصمـة المصريـة القاهـرة، تَقَبَّلَـه الله في الشـهداء.

وجديـر بالذكـر أنَّ حسـن البنّـا، رغـم حياتـه القصـيرة، إلاّ أنّـه سـجَّل العديـد مـن المواقـف البطوليـة المجيـدة، التـي لا نتمكّـن -ههنـا- مـن إحصائهـا، ولهـذا فنحـن مُضطـرُّون أن نختـار منهـا باقـة عَطِـرَةِ، كـما كان دَأْبنـا مـع العلـماء الآخريـن.

وواضحٌ -كـما ذكرنـا ذلـك مـراراً- أنَّ أحـداً مـن العلـماء ليـس مَلَـكاً معصومـاً، ولا نـوراً لا ظلمـة فيـه، واسـتناداً إلى العمـر القصـير الـذي عاشـه حسـن البنّـا، والأحـداث السياسـية المعقَّـدة التـي كانـت تَمُـرُّ بهـا المنطقـة آنـذاك، وكان تَحـرُّك البَنَّـا أنشـط مـن غـيره، لـذا مـن الطبيعـي أن يكـون أكثـر عُرضـةً للأخطـاء مـن غـيره، وقـد قيـل: مـن فضائـل الرجـال أن تُعَـدَّ معايبهـم.

وسَنُلَخِّصُ حديثنا عن الأستاذ حسن البنا في خمسة محاور:

---

١٩٦) سنشير إلى مصادر هذا البحث في ثنايا الموضوع وعند إيرادنا لمقاطعه، كلّ في محلّه.

المحور الأول: تأسيسه لجماعة الإخوان المسلمين:

إنَّ أهمَّ مواقف حسن البنّا وأعظمها، هو تأسيس الجماعة الإخوان المسلمين في آذار ١٩٢٨م وكان حينذاك في سن الثانية والعشرين.

إنَّ هذا الموقف الذي وقفه الإمام الشهيد في تلك الأيام، كان عملاً عظيماً مُستَغرِقاً لكل عناصر القوة الجرأة والشهامة، لأنه لم يكن مضى على إعلان الإطاحة بالخلافة الإسلامية من قِبَلِ أتاتورك، إلاّ أربع سنوات، حيث أُعلنت الجمهورية التركية العلمانية التي دُبِّرت بدسيسة ومباركة القوى العظمى واليهود والصهاينة، في سنة (١٩٢٤م).

وفي مثل تلك الظروف الأليمة، كان المسلمون جميعاً يشعرون بالهوان والضِّياع، كأنهم قَشَّة تلعب بهم الرياح، كانوا محصورين في فراغ مُوحِشٍ بلا كيان، وفي غربة تذهب النَّفس لها حسرات وآهات.

ولهذا فقد كان تأسيس وتكوين جماعة أو حركة إسلامية غايتها إعادة حكم الشريعة وإنشاء كيان للإسلام، أملاً بدا في الأُفُق، وخطوة نَفَخَت في حَماسِ المسلمين روحاً جديدة، ولذلك فقد نَمَتْ الجماعة وازدادت، وبعد عشرين عاماً من تأسيسها أَلْقَتْ في قلوب الأعداء -في الداخل والخارج- رُعباً جعلهم يقفون صفاً واحداً ضِدَّها، يتعاونون فيما بينهم لوضع الخطط والأحابيل بغية تصفيتها.

والآن آن الأوان أن نُسَلِّطَ الضَّوءَ على المنهج الذي جعله حسن البنا أساساً لنشاطات جماعته الإسلامية وما من شَكٍّ أنَّ ذلك أمر يطول تفصيله، ولكنَّنا سَنَتَعَرَّض للمسألة عبر فقرات مختصرة:

١/ الشمولية في فهم الإسلام والعلم به:

يقول حسن البنا:

«إسمع يا أخي! دعوتنا: دعوة أَجمَعُ ما توصف به أَنَّها إسلامية، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيِّق الذي يفهمه الناس، فإنَّا نعتقد أن الإسلام معنى شاملٌ، يُنظِّم شؤونَ الحياة جميعاً، ويُفتي في كلِّ شأنٍ منها ويضع له نظاماً

مُحكَماً دقيقاً، ولا يقف مكتوفاً أمام المشكلات الحيوية والنُّظُمِ التي لابد منها لإصلاح الناس، فهِمَ بعضُ الناس خطأً أنَّ الإسلام مقصور على ضروب من العبادات، أو أوضاعٍ من الروحانية، وحَصروا أنفسهم وأفهامهم في هذه الدوائر الضيّقة من دوائر الفهم المحصور، ولكنَّنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه، فهماً فسيحاً واسعاً ينتظم شؤون الدنيا والآخرة، ولَسنا ندَّعي هذا ادِّعاءً أو نتوسَّع فيه من عند أنفسنا، وإنَّما هو ما فهمناه من كتاب الله وسيرة المسلمين الأولين، فإن شاء القاريء أن يفهم دعوة الإخوان بشيء أوسع من كلمة (الإسلامية) فَلْيُمسِك بمُصحَفِهِ وليُحَرِّر نَفسَهُ من الهوى والغاية، ثم يَتَفَهَّم ما عليه القرآن، فسيرى في ذلك دعوة الإخوان.

أجلْ دعوتُنا (إسلامية) بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ، فافهم فيها ما شئت بعد ذلك وأنت في فهمك هذا مُقَيَّدٌ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح من المسلمين، فأمّا كتابُ الله، فهو أساس الإسلام ودِعامته، وأما سنة رسوله فهوَ مُبَيِّنة الكتاب وشارحَته، وأما سيرة السلف الصالح، فهم رضوان الله عليهم مُنَفِّذو أوامِره والآخِذون بتعاليمه، وهم المُثل العمليّة والصورة الماثلة لهذه الأوامر والتعاليم..»[١٩٧]

ويقول أيضاً في هذا الصدد:

«الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، فهو:

دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خُلُق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو: نظام وقانون، أو علم وقَضاء، وهو: مادة وثروة، أو كسبٌ وغنىً، وهو: جهاد وعدَّة، أو جيش وفكرة، كما هو: عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء».[١٩٨]

١٩٧) يُنظَر: (مجموعة رسائل الإمام الشهيد)ج١ ص٣٢ (دعوتنا).

١٩٨) يُنظَر: المصدر نفسه، ص٣٥٤ (رسالة التعاليم).

٢/ مراحل العمل والنضال:

قَسَّمَ البنّا رحمه الله مراحل العمل في جماعته إلى ثلاث مراحل:

أ/ التعريف: ويقصد بذلك دعوة الناس إلى الإسلام وتعليمهم وتربيتهم، بكل الوسائل الشرعية.

ب/ التكوين: ويقصد به استخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضَمِّ بعضها إلى بعض.

ج/ التنفيذ: والمقصود بذلك هو المواجهة والقتال والجهاد، وإحراز النصر لإنشاء الكيان الشرعي للإسلام والمسلمين.

وكان حَسَنُ البنّا يرى: أنَّ المجتمع الإسلامي لا يَتَحَقَّق إلاّ بتكوين الفرد المسلم، ثم الأسرة المسلمة، ثم الأمة المسلمة. [١٩٩]

٣/ إستعمال القوة والمواجهة المسلَّحة في وقتها ومرحلتها:

وهذه المسألة وإن كُنَّا أَشَرنا إليها في الفقرة السابقة، إلاّ أننا ارتأَينا أن نُخَصِّص لها فقرة مستقلة، لأن مسألة المواجهة المسلَّحة في أوانِها ووقتها، إضافة إلى وضوحه وعدم حاجته إلى أيِّ نقاش، من منظار الشريعة الإسلامية والسيرة النبوية والتجارب العملية للسلف الصالح، فقد عَدَّها الإمام الشهيد حسن البنّا أيضاً مسألة مهمة، ونقطة ارتكاز بالغة الحساسية في جماعة الإخوان المسلمين في زمانه، ولكن اليوم-يا أسفا- فقد خفَّ الحديث عن الجهاد، من منهج العمل في تلك الجماعة كثيراً!

فياتُرى: ماذا قال حسن البنا في هذا الموضوع: [٢٠٠]

«إنَّ الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يُجدي غيرُها، وحيث يَثِقون أَنَّهُم قد استكملوا عِدَّة الإيمان والوحدة، وهم حين يستخدمون هذه القوة، سيكونون شُرفاء صُرَحاء، سَيُنذرون أولاً، وينتظرون بعد ذلك ويُقْدِمون في كرامة وعزة».

---

١٩٩) يُنظَر: مجموعة رسائل الإمام الشهيد ج١ ص١٩٠-١٩٣ (دعوتنا في طور جديد)

٢٠٠) يُنظَر: رسالة المؤتمر الخامس، في: (منهج التغيير عند الشهيد....) ص٣٠.

المحور الثاني: إعتباره للحكومات والأنظمة في عصره بأنها غير شرعية، وسعيه لتحقيق حكمٍ ونظامٍ إسلامي:

نعم فلقد كان هذا من أَجلِّ مواقف حسن البنّا، وأكثرها جُرأَةً، والّتي أعلنها صريحة في مناسبات عديدة، وعمل لذلك وسعه وجهده وطاقته، ولنتأمل بعض أحاديثه في ذلك، فقد قال في عدم شرعية الأنظمة والحكومات التي لا تعمل بالإسلام:

«ونحن لهذا لا نعترف بأي نظام حكومي، وبهذه الأشكال التقليدية الّتي أَرغَمَنا أهلُ الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها». (٢٠١)

وكما ترون، فإنه بكلمات لا تَنقُصها الصَّراحة، يعتبر الأنظمة غير الإسلامية المفروضة، أنظمةً غير شرعية.

ويقول عن الحكماء والمتسلِّطين العُملاء:

«وأنّى لِحُكّامنا هذا، وهم جميعاً قد تَربَّوا في أحضان الأجانب ودانوا بفكرتهم، وعلى آثارهم يُهرَعون وفي مرضاتهم يتنافسون، ولعلَّنا لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنَّ الفكرة الإستقلالية في تصريف الشؤون والأعمال، لم تَخطُر ببالِهم، فضلاً عن أن تكون منهاج عملهم، إنَّ قوماً فقدوا الإسلام في أنفسهم وفي بيوتهم وشؤونهم الخاصة والعامة، لأَعجَزُ من أن يُفيضوه على غيرهم...» (٢٠٢)

وكما هو واضح: فالبنّا يُعلِنُها صريحةً أيضاً، بأن الحكام الذين تربَّوا في أحضان الأجنبي، لا يُنتظر منهم بحال من الأحوال أن يَبنوا كياناً مستقلاً على أساس عقيدتهم ودينهم.

ويقول في سياق وجوب حكم الشريعة على مجالات الحياة في المجتمع والدولة: «إن مهمتنا في بعض تفاصيلها أن يكون في مصر أولاً بحكم أنَّها في المقدمة، ثم في غيرها كذلك:

---

(٢٠١) يُنظَر: (رسالة إلى شباب)، من كتاب (منهج التغيير عن الشهيد....) ص١٦.

(٢٠٢) يُنظَر: (الإخوان المسلمون تحت راية القرآن) المأخوذ من (منهج التغيير..) ١٦-١٧.

١. نظام داخلي للحكم؛ يتحقَّق به قول الله تبارك وتعالى: [وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ]المائدة:٤٩.

٢. ونظام للعلاقات الدولية، يتحقَّق به قولُ القرآن الكريم: [وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ] البقرة:١٤٣.

٣. ونظام عمل للقضاء؛ يُستمدّ من الآية: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا]النساء/ ٦٥.

٤. ونظامٌ للدفاع والجندية؛ يُحقّق مرمى النفير العام: [ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ]التوبة/ ٤١.

٥. ونظامٌ إقتصادي استقلالي؛ للثروة والمال والدولة والأفراد، أساسه قولُه تعالى: [وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا]النساء/ ٥.

٦. ونظام للفرد في سلوكه الخاص؛ يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى: [قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا]الشمس/ ٩.

٧. وروح عام يهيمن على كل فرد من افراد الأمة من حاكم ومحكوم، قوامُهُ قول الله تعالى: [وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ]القصص/ ٧٧.

نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الدول الإسلامية، وتَضُمُّ شَتاتَ المسلمين وتستعيد مجدَهُم، وتَرُدُّ عليهم أرضهم المفقودة، وأوطانهم المسلوبة، وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل عَلَمَ الجهاد ولواءَ الدعوة إلى الله حتى تسعدَ العالمُ بتعاليم الإسلام..» (٢٠٣)

وواضح أنَّ البنّا يُحدِّد أهدافَهُ وأهداف حزبه في: إنشاءِ كيانٍ ودولةٍ للإسلام في مصر ابتداءً، ثم في باقي الدول، يكون فيها:

٢٠٣) الإخوان المسلمون تحت راية القرآن ٢٤-٢٦.

١. النظام الداخلي.
٢. العلاقات الدولية.
٣. النظام القضائي.
٤. النظام العام المهيمن على الفرد والجماعة.
٥. نظام الدفاع.
٦. النظام الإقتصادي.
٧. النظام السلوكي.

أي: دولة إسلامية، تدار فيها جميع هذه الأنظمة والمؤسسات وفق القرآن والسنة وعلى هدي الشرع الحنيف.

ولا يكتفي بهذا القدر، بل يقول:

«نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة المسلمة التي تُدير الدول الإسلامية، وتَجمع شتات المسلمين، وتُعيد إليهم هَيبَتَهُم وأرضهُم وديارهُم ووطنهم المغتصب، وأن يَرفَع راية الجهاد، وعلم الدعوة إلى الله، حتى يسعد العالم بأسره في ظل القوانين والنظم الإسلامية..»

المحور الثالث: موقفه من القضية الفلسطينية:

لقد أبدى الإمام حسن البنا رحمه الله موقفاً صَلباً جريئاً، فيما يَخُصُّ القضيَّة الفلسطينية، وقد أدى موقفه هذا إلى انعطافةٍ خطيرة في سياسة وموقف النظام المصري والدول المتجبِّرة بوجه جماعة الإخوان المسلمين عموماً، والمرشد العام خصوصاً.

وقد قالت السفارة البريطانية في هذا الصدد:

«في أعقاب التعقيدات والإضطرابات الّتي حدثت في فلسطين في سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩م) دخل الإخوان المعترك السياسي، لأنّهم بذلك لَعِبوا دوراً رئيسياً في إثارة الأوضاع والنشاطات ضِدَّ بريطانيا».[٢٠٤]

والآن لنذكر بعض المواقف ألّتي أبداها المرشد العام (حسن البنّا) وجماعته في حق القضية الفلسطينية والدفاع عن الشعب الفلسطينى المظلوم وتأييده:

١/ إندلعت الثورة العربية الكبرى في فلسطين ضِدَّ اليهود في سنة (١٩٣٦م)، وكان للإخوان المسلمين دور مهم جداً في تلك الثورة، كما أدلت السفارة الأمريكية بقولها:

«إنَّ جماعة الإخوان المسلمين في ذلك الوقت كانوا يرسلون للثوار الفلسطينين الأموال والأسلحة والعتاد، ويَصنَعون لهم القنابل اليدوية، ويَدعُون إلى تأييد ثورتهم، ومعلومٌ أنَّ غالبية النشرات الّتي كانت تُوَزَّع هنا وهناك هي من عمل الإخوان..»

٢/ في ٨/ أكتوبر/ ١٩٤٥م، إقترح حسن البنّا على الجامعة العربية أن يضع تحت تصرُّفها عشرة آلاف من الشباب الفدائيين للمشاركة في تحرير فلسطين.[٢٠٥]

٣/ كتب (إحسان عبدالقدوس) -وهو رجل نصراني- في مجلة (روز اليوسف) العدد (١٢٢٤) الصادرة في ٢٧/ نوفمبر ١٩٥١ عن البُطولات الفدائية لجماعة

٢٠٤) يُنظَر: كتاب (مَن قَتَلَ حسن البنّا؟) ص٢٦٨.
٢٠٥) المصدر السابق، ص٢٦٩.

الإخوان المسلمين فقال:

«الإخوان المسلمون اليوم-كما كانوا بالأمس- هم الملبُّون للدعوة الدينية للقتال والجهاد، وفي ظل دعوتهم، رأت ميادين فلسطين صناديداً وَقَفُوا كالأبطال، وقد رفعوا اسم الله عالياً، وكان كلُّ صنديدٍ منهم بعشرة، وإنَّهُ ليعجز أيُّ ضابطٍ كانت له مشاركة في تلك الحرب-أو أي مراقب لها عن بعد- أنْ يُنكِر الأعمالَ الفدائية الجريئة التي قام بها أبطال الإخوان».

٤/ جاء في مقالة عن مشاركة مقاتلي الإخوان المسلمين في حرب فلسطين في مجلة (الصنداي ميرور) عام (١٩٤٧م)، كتبتها فتاة يهودية مُتَعصِّبة تُدعى (روث كاريف) ما يلي:

«إنَّ اليهود إذْ يطلبون من مجلس الأمن إرسال قوات دولية إليهم، فليس ذلك لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، بل لكي تُواجِهَ تلك القواتُ رجالَ الإخوان المسلمين! وبذلك تَظهَر الخطورَةُ الحقيقية التي تُشَكِّلُها تلك الجماعة على العالم». [(٢٠٦)]

إذاً فبطولات الإخوان المسلمين كانت قد وصلت إلى درجة جعلت اليهود يلوذون بالقوى العظمى لمواجهتها، تلك القوى الّتي دَوماً تَتَّخِذُ من مجلس الأمن والأمم المتحدة سِتاراً لخداع السُّذَّج.

٥/ قال حسن البنّا للنقراشي پاشا عندما قَبِلَ بالهدنة مع اليهود، وحين بدأ تزايد الضغط من قبل الدول العظمى على مصر والدول العربية الأخرى، بسبب الأوضاع المُتردِّية التي وقع فيها اليهود:

«لماذا تَقبَلُ الهُدنَةَ مع يهود فلسطين؟ إنَّ الحرب دائرة بين بعض العصابات القادمة إلى فلسطين حديثاً، وبيننا، حيث نملك نحن أيضاً عصابات فدائية، فَدَعِ العصابات تواجه بعضها، فإذا انتصرنا كان نَصرنا عِزاً لمصر، وإنْ قُتِلنا فلسوف ندخل جنة الله التي حملنا الإشتياق لها إلى فلسطين، دَعنا نواجه اليهود في فلسطين،

٢٠٦) لماذا أُغتيل الإمام الشهيد حسن البنّا؟ ١٢٠-١٢١.

أنت من حقك كسياسي أن تَقبَل الهدنة تحت الضغوط الدولية، ولكن ليس من حقك أن تمنع المجاهدين العرب والمسلمين من الوقوف بوجه الصهاينة، فلا المحاربين اليهود هم من أهل الفلسطين، ولا مقاتلونا من أهل الفلسطين، فَدَعِ الحقَّ يَدُكُّ رأسَ الباطل». [٢٠٧]

ولكن النقراشي الذي كان عميلاً دنيئاً، ومشدود الوثاق بعملاء الداخل والأعداء الكافرين من الخارج، لم تُسعِفهُ جُرأَتُهُ ولا إرادتُهُ أنْ يرضى بذلك.

٢٠٧) المصد نفسه ص١١٨.

المحور الرابع: محاولاته لاستقلال مصر وعداوته للإنكليز:

إن لحسن البنّا تأريخاً طويلاً مُتألِّقاً -لا يعوزه دليل- في مجال السَّعي لاستقلال مصر وطرد الإنكليز والوقوف ضدهم في نصف الأول من القرن العشرين، ولكننا -فقط- سنستدل ببعض الأمثلة:

١/ في ١٠/ أكتوبر ١٩٤٦، طلب حَسنُ البنّا -عبر مجلة الإخوان المسلمين- من الشعب المصري، قَطعَ جميعِ العلاقات الإقتصادية والثقافية والإجتماعية مع الإنگليز حتى يضطروا إلى ترك مصر.(٢٠٨)

٢/ وفي ٢١/ أكتوبر من العام نفسه، وفي المجلة المذكورة -وهي لسان حال الجماعة- هاجم حسنُ البنّا الإنگليز هجوماً عنيفاً وهدَّدَهم -إذا ظلُّوا على احتلالهم وسوءِ فِعالهم- أن تثور ثائرة ثلاثين مليون مصري ابتداءً، ثم يتحوَّل هذا الغَضَب والحِقد -كالبَرق الخاطف- إلى قلوب سبعين مليون عَربي، ثم تصل إلى ثلاثمائة مليون مسلم، حَيثُ سيُثار مسلمو العالم جميعاً.(٢٠٩)

وكان قد طلب -في المجلة نفسها- الأشخاص الذين عندهم كتب ومجلات وجرائد باللغة الإنگليزية، أن يُسَلِّمُوها إلى أقرب مقر للإخوان المسلمين، حتى يَتِمَّ إحراقها في ميادين القاهرة والمدن الأخرى.(٢١٠)

٣/ وحيث إنه كانت للإنكليز مظالم وتعدِّيات -تَعَدَّتْ كل الحدود- وفي المدن المصرية بصورة خاصة فمثلاً:

أ/ كانوا يَدهَسون بسياراتهم الأطفال والشيوخ في الشوارع العامة، وهم سُكارى أو عَبثاً بأرواح الناس.

ب/ وأحياناً كان شخص سكران مُسلَّح منهم، يهاجم فتاةً في بيتها، أو يطاردها حتى يُمسِكُها، وربما يزني بها إذا سَنَحَت له الفرصة.

٢٠٨) المصدر السابق، ١١٨.

٢٠٩) المصدر نفسه، ١٤٨.

٢١٠) يُنظَر: لماذا أُغتيل الإمام الشهيد؟ ص٨٦.

ج/ بـل أحيانـاً كانـوا يقومـون بأعـمال بذيئـة ويُهينـون النـاس في أعراضهـم وكرامتهـم.

نعـم، مـن منطلـق هـذه الأعـمال المُشـينة للإنكليـز، فـإن النـاس عمومـاً وفي مقدمتهـم الإخـوان المسـلمون، قامـوا بالعديـد مـن الإجتماعـات والمظاهـرات والمسـيرات ضـد الإنكليـز الماجنـين، في إثـارة للجماهـير لإجلائهـم، وكانـت لجماعـة الإخـوان في تلـك النشـاطات والتحـركات حصـة الأسـد، وخصوصـاً في صفـوف الطلبـة في جامعـة الأزهـر والجامعـات الأخـرى.[٢١١]

٤/ عندما كان الألمان في حربهم مع دول الخُلفاءِ في الحرب العالمية الثانية، وَقَّعَت اتفاقيـة يتـم بموجِبها وقـف إطلاق النار:

أ/ إتَّخَذَ حسـن البنّـا مـن ذلـك فرصـةً سـانحة، للمطالبـة بجـلاء الإنكليـز دون قيـد أو شـرط.

ب/ كـما أنـه طالـب بالقـروض المصريـة عـلى الإنكليـز، والّتـي كانـت تُقَـدَّر بـ(٤٠٠) مليـون جُنَيـه إسـترليني!

ج/ وطالَـبَ أيضـاً بإنهـاء الإحتـلال التشريعـي، وإحـلال الشريعـة الإسـلامية مَحَلَّ القوانـين الّتـي فرضهـا الإنكليـز في أعقـاب احتلالهـا لمصـر.

د/ وكان مـن ضمـن مطالـب المرشـد العـام، إعـادة الـدور الشرعـي الحقيقـي للمسـاجد في التربيـة والتعليـم والخدمـات الإجتماعيـة والتوعيـة السياسـية للمسـلمين، وألاّ يُقـصَر دَورُهـا في الناحيـة الروحيـة وحسـب.

ه/ وطالـب بتطويـر (الجامعـة العربيـة) وجَعـلِ قراراتِهـا مُلزِمَـة وليـس روتينـاً وحِـبراً عـلى ورق، وأن تكـون جامعـة للشـعوب المسـلمة، تجمـع العـرب وغـير العـرب أيضـاً عـلى هيئـةٍ لا تـرزَحُ تحـت وطـأة التأثـيرات العالميـة.[٢١٢]

وقـد اعتـبر الإنكليـز هـذا الموقـف لحسـن البنّـا وحِزبـهِ الإسـلامي، ناقـوس

٢١١) المصدر نفسه، ٨٧-٨٨.

٢١٢) لماذا أُغتيل حسن البنا؟ ٨٨.

الخطر، وأنه يجب تدارك هذا الخطر بالقوة في أقرب فرصة ممكنة.[٢١٣]

والآن، وبعد عَرضِ المواقف الرئيسية المهمة للإمام حسن البنا، فقد آن الأوان أن نذكر كيفية مَقتَلِهِ، ونهاية العمر القصير المبارك لهذا الرجل الشامخ، حيث لا ريب أنَّ استشهادَهُ، كان ضريبةً لمواقفه المجيدة التي وَقَفها:

٢١٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

المحور الخامس: كيفية مقتل حسن البنّا والعوامل التي أدَّت إلى ذلك:

في الحقيقة: مقتل الإمام حسن البنا، كان طَبيعيّاً ومُنتظَراً لمواقفه البطولية الجريئة الَّتي أَبداها، ابتداء من اعتباره عدم مشروعية الحكومات المصرية والعربية السائرة وفق النظم العلمانية، وتأكيده ومطالبته على إدارة البلاد حسب الشريعة الله، وإنشاء كيانٍ سياسي تكون مِظلَّةً تُظَلِّلُ المسلمين، وحاميةً لأموالهم وكرامتهم وديارهم وأوطانهم، وإلى تأييده وتآزره مع الشعب الفلسطيني المظلوم، وغشيان جماعته لسوح الوغى، ضِدَّ اليهود الغاصبين، المعتدين، وإصراره على طرد الإنگليز، وتحقيق الحرية والإستقلال لمصر والسودان! يقول صاحب كتاب: (لماذا أُغتيل الإمام الشهيد حسن البنا؟!).[٢١٤]

هل عَرَفنا إذاً، لماذا أُغتيل حسن البنا؟!

١. قُتِلَ حسنُ البنّا من أجل إجهاض جمهورية القدس التي كان حاكمها العسكري من الإخوان، ولضمان أمن الكيان الإسرائيلي.
٢. قَتِلَ حسنُ البنّا من أجل القانون الإسلامي.
٣. قُتِلَ الحسنُ البنّا من أجل الخلافة الإسلامية، وإقامة الكيان الإسلامي الصحيح للأمة الإسلامية.
٤. قُتِلَ حسنُ البنّا من أجل إزالة التسلُّط الذي أجاعَ وأذلَّ الشعوب الكادحة في العالم العربي والإسلامي.

وكيفية مقتله-والحديث فيه ذو شجون- ولكنَّه باختصار شديد كان بهذه الصورة:

بعد إعلان (محمود فهمي باشا) رئيس الوزراء المصري حينذاك، رسمياً عن حَلِّ جماعة الإخوان المسلمين، وذلك بالضغوط والأوامر الصادرة من القوى العظمى المُتَمثِّلة آنذاك في أمريكا وبريطانيا وفرنسا، فقد نُفِّذَ القرارُ بِحَلِّ

٢١٤) يُنظَر: (لماذا أُغتيل الإمام الشهيد حسن البنا؟ ١٦٣-١٦٤.

الجماعة في ليلة (٨/ ديسمبر ١٩٤٨م)،[٢١٥] وبدأت مرحلة إعداد الخطة لإغتيال مرشدها.[٢١٦]

ورويداً رويداً سَجَنوا البنّا كالعصفور في قَفَصِهِ، حيث اعتقل -ابتداءً- جميعُ المسؤولين والأعضاء النشطاء في الجماعة، ثم اعتقلوا الحَرَسَ الشخصي للبنّا، وأخذوا منه مُسدَّسهُ المرخَّص رسمياً، إلى أن قطعوا الهاتف أيضاً.

وكانت النهاية أنه في ليلة: (١٢-١٣/ شباط ١٩٤٩م)، وفي الساعة التاسعة ليلاً، عندما كان يُرِيدُ أن يَستَقِلَّ سيارة تكسي مع صِهره الدكتور عبدالكريم منصور، أُطلِقَ عليه وابلٌ من الرصاص من قبل ثلاثة من رجال النظام، وكانوا يَستَقِلُّون سيارةً سوداء للبوليس السياسي برقم (٩٩٧٩).

والذين قاموا بهذه العملية الآثمة النجسة هم:

١/ محمود عبدالحميد (مدير الأمن العام).

٢/ محمد سعيد (جندي).

٣/ أحمد حسين (جندي).

وقد جُرِحَ هو وصِهرُه من جرّاء ذلك، وبتفصيل يطولُ ذكره، وَصَلَ إليهما الطبيب، لكن الأوامر صَدَرَت عن (القصر الملكي) بمنع الأطباء من معالجته، وظلَّت تسيلُ دماؤه الزكية، حتى صَعِدَتْ رُوحه إلى بارئها، وقد كان (الملك فاروق) على اتصال دائم مع المستشفى يسأل السؤال تِلو الآخر: (هل مات حسن البنا؟)[٢١٧]، ولكن الأدهى من ذلك، وما تَتَقطَّع له الأحشاء، أنَّ النظام منع أن يَقرُبَ حِمى جنازة هذا الإمام الذي سبى القلوبَ، أَحَدٌ، إلاّ والده المحروقة أحشاؤهُ عليه، الذي غسله وكفنه، ومنع النظامُ الرجال أن يَحمِلوا جنازته إلى المقبرة، فحُمِلَت جنازتُهُ العزيزة على كَتفِ والده الذي بلغ من السِّنِ مَبلَغَهُ، وثلاثة من

٢١٥) المصدر نفسه، ١٣٤-١٣٧.

٢١٦) للتوسع في معرفة الخطط التي رَسَمَتها القوى الكافرة العالمية والداخلية المصرية، يُنظَر: (من قَتَلَ حسن البنّا؟) ٤٨٠-٥٥٤.

٢١٧) يُنظَر: لماذا أغتيل الإمام الشهيد..؟! ١٦٠-١٦١.

نسـاء بيتـه، إلى مثـواه الأخـير، وكانـت الجـلاوزة المسـلَّحون عـلى أُهْبَـة الإسـتعداد، مُتوزِّعـون في الشـوارع والأزقـة.[٢١٨]

نعـم هكـذا شُـيِّع جُثـمانُ هـذا الإمـام، لأنَّ تلامِذَتَـهُ وأتباعَـهُ كانـوا مـا بـين معتقـل ومُتخـفٍّ،[٢١٩] وكانـت ابنتـه الّتـي رافقـت الجنـازة، تَئِـنُّ مـن كَبِـدٍ حَـرّى تُنـادي:

«قُـرّ عينـاً يـا أبتـاه، فَلَـنْ نَتَخلَّـفَ عـن رسـالتك، ولئـن منعـت الحكومـة مـن يُشَـيِّعَ جِنازتَكَ-وآسـفاه لنذالـة الحـكام- فحسـبنا عَـزاءاً وجَـزاءً، أن أرواح الشـهداء تَمَـشي معنـا، وتُشَـيِّع عـن أهـل السـماء مـا عَجَـزَ عـن تشـييعه أهـلُ الأرض».[٢٢٠]

أَجـزِل اللَّهُـم الثـواب لحسـن البنّـا وارفـع مقامَـهُ ودرجتَـهُ، واحـشره في زمـرة الشـهداء المرزوقـين، الأحيـاء عنـد ربهـم، واهـدِ أتباعَـه واهدنـا، إلى اتِّباعـه في خطواتـه الصائبـة، وأن نأخُـذ العـبرة مـن أخطائـه وأخطـاء جماعتـه.

٢١٨) يُنظَر: من قتل حسن البنا؟ ٥٤٣.

٢١٩) لقـد كان الطريقـة التـي قتـل ودفـن بهـا حسـن البنـا رحمـه الله، عـبرة ودروسـاً للعاملـين للإسـلام، والَّتي لا يَسَـعُ المَجـالُ لذكرهـا هنـا، لأن شـيخاً للطريقـة أو عمـدة قريـة حتـى، مـا كان ليُقتَـل ويُدفَـنَ بهـذه البسـاطة!

٢٢٠) يُنظَر: (من قتل البنا؟) محسن محمد ص٥٤٣.

٢٠- الإمام أبو الأعلى المودودي[221] رحمه الله

هـو: (أبـو الأعـلى المـودودي إبـن السـيد أحمـد حسـن)، ولِـدَ في سـنة (١٩٠٣م) في مدينـة (أورنـك آبـاد) التابعـة لـ(صـدر آبـاد الدكـن).

وهـو مُؤسِّـس (الجماعـة الإسـلامية الباكسـتانية) في سـنة (١٩٤١م) حيـث أسَّـسـها بمسـاندة خمسـة وسـبعين(٧٥) شـخصاً مـن سـائر المناطـق الهنديـة في اجتـماع لهـذا الغـرض، وكان تأسـيس دولـة پاكسـتان مـن ثـمار النضـال الـذي قـام بـه أبـو الأعـلى وجماعتـه في سـنة (١٩٤٧م).

والإمـام المودودي–رحمـه الله– يُعتبر أحـد أبـرز العلـماء والقيـادات العاملـة والبـارزة للمسـلمين في هـذا العـصر، ويَعُـدُّهُ الكثـير مـن أهـل العلـم المعاصريـن، واحِـداً مـن مُجـدِّدي هـذا الديـن.

وهـو صاحـب تفسـير للقـرآن، والعديـد مـن الكتـب والرسـائل النافعـة، والّتـي تُرجِمَـتْ مُعظمُهـا إلى اللغـات الحيـة في العـالم: كالعربيـة والإنگليزيـة والفرنسـية والفارسـية، وتُـوَفِّيَ أبـو الأعـلى المـودودي في (٢٢/ سـبتمبر/ ١٩٧٩م).

وهـذا الإمـام هـو الآخـر، يستعصي علينـا في هـذا المقـام، استقصاء مواقفه لكثرتهـا، فنلـوذ إلى اصطفـاء باقـة عَطِـرة ذات أريـج منهـا، في سـبعة محـاور مختصـرة:

---

٢٢١) لكتابة هذه الخلاصة عن الأستاذ المودودي، أستفدت من:

كتاب: (أبو الأعلى المودودي: حياته ودعوته وجهاده) خليل أحمد الحامدي.

كتاب (أبو الأعلى المودودي: صفحات من حياته وجهاده) أحمد إدريس.

كتاب (المناهج التغييرية الإسلامية خلال القرن العشرين) فتحي يكن.

المحور الأول: تأليفهُ لكتاب (الجهاد في الإسلام) في سنة ١٩٢٨:

نشأ أبو الأعلى رحمه الله في أُسرة مسلمة، في أحضان أبوين مُتَمَسِّكَين بالإسلام، وكان جَدُّه الأول مُؤَسِّساً لـ(الطريقة الجَشتيَّة) الصوفية، وقد كان مولَعاً بدراسة القرآن والسنة منذ وقتٍ مُبَكِّر في حياته، وقد كان في بداية شبابه صَحَفياً نشيطاً، ولكن-كما حكى بنفسه- فقد شكَّل تأليفُهُ لكتاب: (الجهاد في الإسلام) منعطفاً ونقطة تَحَوُّلٍ في حياته، في فهم الإسلام والتصميم على النِّضال والعمل من أجله، وكان الباعث لتأليف الكتاب حادثة، هذه خلاصتها:[٢٢٢]

في أواخر سنة (١٩٢٦م) قَتَلَ أَحَدُ المُسلمين، مُؤَسِّسَ جماعة (هندوسية) كانت تُكرِهُ المسلمين على الإرتداد وضمِّهم لهذه الجماعة، فأحدث الهندوس في أعقاب ذلك اضطرابات وقلاقل كثيرة، وبدؤوا-في جميع وسائل الإعلام- هجمات عنيفة ومُركَّزة على الإسلام والمسلمين، وقد ركَّزوا الهجومَ خصوصاً على الجهاد في الإسلام، وفي هذه الأثناء خَطَبَ (محمد علي الجوهر) خطبة في جامع (دلهي) قال فيها:

«حبَّذا لو كتب أحدُ المسلمين كتاباً عن الجهاد، يَرُدُّ فيه على مزاعم الهندوس».

ومن حينها بدأ أبو الأعلى بالمطالعة والتحقيق، حيث تَمَخَّضَ ذلك ختاماً عن تأليف كتابه المذكور، وقد كان للكتاب تأثير حسن ضدّ الدِّعايات والتلفيقات الّتي يقوم بها المناوئون للإسلام عموماً والجهاد خصوصاً، حتى إن شاعر الهند المشهور (محمد إقبال) اندهش للكتاب قائلاً:

«هذا أحسن كتاب عن الجهاد وأُسسه في الحرب والسلم، أَنصَحُ كلَّ عالِمٍ أنْ يقرأه».

وكما أسلفنا فإنَّ المودودي نَفسَهُ، استفاد من كتابِهِ وفَتَحَ له آفاقاً رحبة، لفهم الإسلام، يقول في هذا الصدد:

«في أثناء تحقيقاتي لمباحث الكتاب، تَبَيَّنَ لي أن الإسلام لم يأت إلى الوجود كي يبقى حُكمُ الكفرِ مُسلَّطاً على البشرية، وأن يعيش المسلمون أذِلَّةً في ظِلِّهِ، بل إنَّ الله تعالى أرسل هذا الدين لتعلو كلمته، وليكون أهل الكفر تحت هيمنته».

---

٢٢٢) يُنظَر: (أبو الأعلى..) أحمد أدريس، ص٣٦-٢٧.

المحور الثاني: إصداره لمجلة (ترجمان القرآن) في سنة: ١٩٣٢ م:

يقول الإمام المودودي: «ما بين أعوام (١٩٢٩-١٩٣٢م)، أَفرَغتُ في رأسي العديد من الكتب والمصادر، لأُعِدَّ نفسي لواجب الدعوة المُهِمَّة والثقيلة، في زمن كان يَعُجُّ بالتصورات والأفكار المختلفة.

وتَجدُرُ بالإشارة أن مجلة (ترجمان القرآن) كان لها تأثيرٌ فعّالٌ وعظيمٌ على مستوى الهند وپاكستان وخارجهما، وكان المودودي في السنوات الأولى لصدورها، يكتب بنفسه غالبيَّة مواضيع الأعداد، وقد استمرَّ صدور المجلة من ١٩٣٢-١٩٧٩، حيث تُوَفِّي المودودي.

وعندما تَعرَّضَ المودودي لأزمة مالية شديدة، حيث لم يكن يعرف كيف يحصل على نفقات إصدار المجلة، فأُشير عليه: أنَّ مدير الشؤون الدينية يرغبُ في زيارتك له، وبالإمكان أنْ تُقدِّم له طلباً ليشتري منك المجلة، ولكن الأستاذ المودودي قال في الجواب على هذا:

«سأتَحمَّل الشدائد، ولكنَّني لن أفضَح الدعوة على أعتاب أهل الدنيا».

وقد استمر أبو الأعلى على هذا المِنوال، يُصدِر مَجلَّتَهُ ويُؤلِّف الكُتُبَ، فمثلاً: صَنَّفَ كُتباً كـ(المصطلحات الأربعة في القرآن) الصغير في حجمه والعظيم في مضمونه، وكتاب: (الحضارة الإسلامة) وكتاب: (نحن والحضارة الغربية) وكتاب: (أُسُس الإسلام) وقد ترجم إلى أكثر من ثلاثين لغة في العالم.

المحور الثالث: تأسيسه للجماعة الإسلامية:

كتب أبو الأعلى المودودي في أحد أعداد مجلَّتِهِ: (ترجمان القرآن) في شهر أبريل ١٩٤١، ما يلي:

إنَّ وجود جماعة أصيلة تدعو إلى الله، واجبة، جماعة تقطع علائِقَها مع كلِّ شيء سوى الله ومنهجه القويم، جماعة تتحَمَّل الإعتقال والتعذيب والإتهامات الباطلة واغتصاب الأموال منها، وأن تكون صامدةً أمام الجوع والظَّمَأِ والحرمان والتَشَرُّدِ، وحتى القتل والتعليق على أعواد المشانق، جماعة تَبذُلُ أرواحَها رخيصة في سبيل الله، وأن يتجاوزوا عمّا لهم، بطيبةِ نفسٍ وراحةِ بالٍ، وأنْ يُضَحُّوا بكلِّ غالٍ ونفيس، من أجل إقامة المجتمع والنظام الإسلامي.

وكتب بعد ذلك:

فعلى الَّذين يرغبون بعمل كهذا، أن يجتمعوا في مدينة لاهور في يوم ٢٥/ أغسطس١٩٤١م، للتباحث لتأسيس جماعة إسلامية منضبطة، وبالنتيجة وفي يوم ٢٤ أغسطس ١٩٤١م، اجتمع (٧٥) رجلاً ليكونوا نواة (الجماعة الإسلامية) وأساسها.

وقد أهدى أحدُ المسلمين واسمه (سيد شودري) قطعة أرضٍ موقوفة، كان قد أهداها إلى أبي الأعلى وبعض إخوانه، وكانوا سَمُّوها (دار الإسلام) سنة ١٩٣٨م، إلى الجماعة الإسلامية المولودة حديثاً، ليستقرُّوا فيها (ما بين سنة ١٩٤٢ وإلى سنة ١٩٤٧م) حيث قُسِّمَتِ الهند، وفُصِلَ پاكستان وبنگلادش عنها.

والآن دعونا-زيادةً للإطلاع والمعرفة حول مخططات أبي الأعلى وجماعته، والمنهج الذي تَوَخَّاهُ في العمل والكفاح- نُقَدِّمُ إيضاحاً في ثلاثة بنود، لتجلية كل من:

١/ الهدف

٢/ القواعد الثلاث المهمة

٣/ الأساليب الخمسة للدعوة.

١/ أهداف الجماعة الإسلامية:

تحدثت الجماعة الإسلامية في پاكستان عن أهدافها فقالت:

«إن غاية الجماعة الإسلامية وذِروَةَ أُمنياتها، وكلَّ نضالها ومساعيها، عبارة عن إقامة دين الله أو إنشاء النظام الإسلامي، والحصول على مرضاة الله تعالى والنجاة يوم القيامة، وليس المقصود من إقامة الدين، إقامة جزءٍ منه، بل الدين بصورته الشاملة، سواء ما يَخُصُّ الفرد أو المجتمع، أو ما يَخُصُّ الصلاة والصيام والحج، أو النواحي الإقتصادية والإجتماعية والمدنية والسياسية، فليس هنالك شيءٌ في الإسلام لا تَمَسُّ إليه الحاجة، مهما بدأ بسيطاً، بل الإسلام كلُّه ضروري ومهم، فالأشياء الّتي يستطيع الفرد القيام بها في حياته الشخصية، عليه تنفيذها، أما الأشياء الّتي لا يمكن إلاّ للجماعة القيام بها، ويتوقَّف أداؤها على جهود الجماعة والعمل الجماعي، فحينذاك يتعيَّن على المؤمنين أن يُحَقِّقوا في ذواتِهم مُسَمَّى الجماعة والتنظيم، للقيام بتلك الأَعباء..»

٢/ القواعد الثلاث المهمة:

بعد عشرة أشهر من تأسيسه لجماعته الإسلامية في مدينة لاهور، ترك هو وجماعته هذه المدينة، ليستقرُّوا في الأرض الموقوفة الّتي سبق وأنْ أشَرْنا إليها، وكانوا يُسَمُّونَها (دار الإسلام)، وكان القصد من اختيار هذا المكان النائي والهاديء، هو إيجاد موضع بعيدٍ عن الأعين يَسودُهُ الهدوء، ليتمكَّن من وضع صيغة وأساسٍ لجماعته، وكذلك لتربية الأعضاء والكوادر الأساسية.

وقد صاغ الأستاذ (أبو الأعلى) أُسُسَ جماعته على هذه القواعد الثلاث المهمة:

١- الإيمان المتين والأخلاق المتكاملة:

القاعدة المهمة الأولى للجماعة الإسلامية، بعد الإيمان والعقيدة الراسخة، أن يكونَ أعضاؤها على أخلاق عالية وآداب سامية متكاملة، يقول الأستاذ المودودي في ذلك:

«تبَيَّنَ لي عن طريق تجربتي أنَّ العامل الذي أدَّى إلى فَشَلِ الحركات والدعوات،

هو: أنَّ أناساً -تَنقُصُهم الأَخلاقُ- لم يتلقَّوا التربية وطَهارة الجانب، انضمُّوا إليهم، وأدَّى ذلك إلى سقوط الجماعة من أعين الناس بسببهم».

ثم قال: «إذاً فليس المهم أن نَضُمَّ أُناساً كثيرين إلى دعوتنا، بل الأهم من ذلك، أن نجمع أناساً يكونون نماذج طيبة من الطهر والعفاف، ويكونون أسوة حسنة لغيرهم، وإذا استودعناهم وديعةً، أمِنَّا أنَّها وقعت في أيدٍ أمينة.

٢- الضبط والربط الحربي:

وهذه كانت القاعدة المهمة الثانية لجماعة الأستاذ المودودي، حيث يقول بنفسه عنها:

«إنَّ عاملاً من أهم العوامل التي تؤدِّي إلى الإطاحة بالدعوات والجماعات، هو ضعف الإنتظام وضَحالة الضبط والربط بينهم، ولذلك قرَّرنا أن نُحكِمَ ضَبطَ جماعتنا، وألاّ نقبل الضعف والخمول بحال من الأحوال، وأن نكون على استعدادٍ أن ينفصل عنّا أَحَبُّ الناس إلينا، على ألاّ نقبل الميوعة والتباطؤَ والفوضى، فلا ريب أنَّ جماعةً صَلبةً متينة متآزرةً قليلة العدد، مُتَحمِّسةً في العمل مع بعضها، تكون أقدر على السيطرة على أكبر المُلِمّات وأفدَح المخاطر.

ولذلك فقد وضعنا ضمن شروط العضوية لجماعتنا، أن يكون الفرد مؤدِّياً للفرائض مُتَّقياً عن غشيان الكبائر، وهذا يعتبر الحدَّ الأدنى الذي بدونه لا يمكن الحصول على عضوية جماعتنا».

٣- الربط مابين العلوم الشرعية والثقافة المعاصرة:

وقد جعل الأستاذ المودودي هذا، القاعدة المهمة الثالثة لعمل وكفاح جماعته الإسلامية، ويعني بذلك ضرورة كون الأعضاء والكوادر في الجماعة الإسلامية، جامعين بين العلوم الشرعية القديمة، والمعرفة الثقافية المعاصرة.

لأن جماعة إسلامية تهدف إلى إزالة الإزدواجية عن ما بين الدين والدنيا، وحلِّ أُسطورة فصل الدين عن الدولة، والسياسة عن العبادة، فمن الضرورة بمكان أن تكون جامعةً بين الفقه في الدين والفقه في الحياة.

ومعلومٌ أن هذه القواعد الثلاث، ضرورية لأيَّةِ حركة أو جماعة إسلامية.

٣/ الأساليب الخمسة للدعوة:

لقد انتهج الأستاذ المودودي هذه الأساليب الخمسة للدعوة، ليُرَبِّي عليها أعضاءَ وكوادر حزبه:

أولا: أسلوب الفلاح:

إعتبر الأستاذ المودودي الداعية كالفلاّح، الّذي يُسَلَّمُ أرضاً كي يُعِدَّها للزراعة، فيقوم بِحَرثها ابتداءً، ثم يُصَفِّيها من الأدغال والحشائش، ثم يبذر فيها البذور، ثم يرويها، ويُسَمِّدها، ويَرُشُّها، ويهتم بها، ويَحرُسها...إلخ، إلى أن يحين وقت ثمارها.

وعليه: فالواجب على الداعية، أن يخطو هكذا خطوة خطوة مع المدعويين.

ثانياً: أسلوب الطبيب:

ومقصود الأستاذ المودودي من ذلك الأسلوب هو: كما أن الطبيب تأتيه أصناف من المرضى، كُلٌّ يشكو من مرضٍ مُعَيَّن، ويحتاج إلى دواءٍ خاص، فكذلك الداعية، مع أيِّ شخصٍ يُحاوره، عليه قبل كلِّ شيءٍ أن يُشَخِّصَ مَرَضَهُ ويَتَفَحَّصَهُ فحصاً دقيقاً، ثم يكتب له العلاج، بِحَسَبِ دائه ومرضه وطبيعته ومزاجه.

ثالثاً: أسلوب التصنيف:

وهذا أحد الأساليب الناجحة للعمل الدعوي في مدرسة الأستاذ المودودي، والمقصود من التصنيف: العمل في شرائح المجتمع المختلفة، كُلٌّ بما يناسبها من طريقة معينة ومُتَخَصِّصَة، ويَتِمُّ هذا عن طريق تكوين الإتحادات المهنية كاتحاد الطلبة واتحاد الأطباء، والمهندسين، والفلاّحين، والعمّال...إلخ. ويجوز أن تُحَدَّد للنساء-بصورة منفصلة أو مع الرجال- الأعمال والنشاطات المناسبة لهن.

رابعاً: أسلوب الإنتقال من الأهم إلى المهم:

ويشمل هذا الأسلوب مجالات متعددة:

١. من جهة تقديم الإسلام والإيمان والعقيدة، على المسائل الأخرى.
٢. من جهة تفهيم الناس للمسائل والمواضع المهمة والجوهرية، فتُقَدَّمُ على المسائل البسيطة والجانبية.

٣. مـن جهـة جـذب النـاس وصياغـة الجماهـير وأهـل الفكـر والثقافـة والسياسـة والأشـخاص المؤثِّريـن عـلى مـن حولهـم، فهـؤلاء يُقَدَّمـون عـلى غيرهـم.
٤. ومـن جهـة اسـتئصال وإزالـة المنكـرات الشرعيـة، حيـث يُقَـدَّم إزالـة (المنكـر الأكـبر) عـلى غـيره، وهـو عبـارة عـن الحكـم بغـير مـا أنـزل الله، لأن المنكـرات الأخـرى كُلَّهـا تعتـبر مـن فـروع وثـمار هـذا (المنكـر الأكـبر)... وهكـذا.

خامساً: أسلوب التأثير في الناس بالعمل قبل القول:

والمقصـود مـن هـذه الطريقـة في العمـل، أن الشـخص الداعيـة، عليـه أن يجعـل دعوتـه مُتَجَلِّيـةً ومُتَجَسِّـدَة في نفسـه، بأفعالِـهِ وأخلاقـه، قبـل خطبـه وأَقوالـه، فَيُريهـم كيـف تكـون عبـادة الله سـبحانه، وكيـف يكـون التقـوى والإنفـاق والشـجاعة والإقـدام والإخـلاص والإحسـان والنَزاهة...إلـخ.

المحور الرابع: المحاولات الدؤوبة لإنشاء كيانٍ إسلامي:

ومن المواقف الجريئة والبطولية الأخرى لأستاذنا الجليل (أبي الأعلى) رحمه الله، هو كِفَاحُهُ المتواصل وسعيه الحثيث، من أجل تحقيق دستورٍ إسلامي وتشكيل كيانٍ إسلامي في پاكستان.

والجدير بالذكر، أن الأستاذ المودودي قد خَصَّصَ كثيراً من جوانب جهاده وكِفاحِهِ وحَظّاً وافراً من سنوات عمره، في ذلك، حتى جعله الميدان الأكبر لأعماله ونشاطاته.

وتتوزَّعُ محاولاتُ الأستاذ الدؤوبة في هذا الجانب، في طريقتين أتَّخَذَ لكل منهما نهجاً:

الأولى: الطريقة النظريّة:

الذي نعنيه بهذه الطريقة والنهج الذي ارتآهُ الأستاذ المودودي لتحقيق دولة إسلامية، هو أنَّهُ رحمه الله صَنَّفَ العديد من الكتب والرسائل في ذلك، وعَقَدَ الندوات، وأَلْقى الخُطَب، لإرشاد الناس، وكمثال على ذلك:

١. الأسس الإقتصادية بين الإسلام والنظم المعاصرة.
٢. نظرية الإسلام وهَدْيه.
٣. أسس الدستور الإسلامي في القرآن.
٤. الخلافة والملك.

الثانية: الطريقة العملية:

المقصود من هذه الطريقة الَّتي انتهجها العلاّمة المودودي، أنَّهُ كان يقوم بجولات في المدن فيُلقي المحاضرات ويُنَظِّم المسيرات والمظاهرات الجماهيرية، ويقوم بكتابة الرسائل، وجمع العلماء...إلخ، والّذي أدّى به إلى حافة الموت مرات عديدة، كل ذلك يحاول مع الحكام والمسؤولين للإقرار بدستورٍ إسلامي لدولة پاكستان المؤسَّسة حديثاً.

ففـي شـهر مـارس ١٩٤٨، عقـدت الجماعـة الإسـلامية اجتماعـاً عامـاً في مدينـة (كراتـشي)، وجـال الأسـتاذ في پاكسـتان، يُحـرِّضُ النـاسَ أن يُوَجِّهـوا إلى الدولـة هـذه المطاليـب الأربعـة ويؤكِّـدوا عليهـا:

١. كون الحكم في پاكستان بيد الله، وليست الحكومة إلاّ مُنفِّذةً لِحُكم الله ومنهجه.
٢. الدستور (القانون الأساسي) للدولة هو الشريعة الإسلامية.
٣. إزالـة كل القوانـين الحاليـة المعمولـة بهـا والمنافيـة للإسـلام، وألاّ يُـشَرَّع في المسـتقبل أيَّـة قوانـين تخالـف الشريعـة الإسـلامية.
٤. كـون سـلطة الحكومـة الپاكسـتانية في حـدود الشريعـة الإسـلامية، وأن تكـون مسـؤولياتها محـدودة ومشروطـة في هـذا الإطـار.

وقـد ثـارت الحكومـة العلمانيـة الپاكسـتانية لجهـود المـودودي ومحاولاتـه، فبـدأت بوضـع الخطـط والمكائـد لاعتقالـه، وبالنتيجـة فقـد اعتقـل في (٤/ اكتوبـر ١٩٤٨م) ونقـل إلى السـجن رغـم ظروفـه الصحيـة المتدهـورة، حيـث كان يعـاني مـن آلام شـديدة في الكليـة، ومنـع في سـجنه مـن المعالجـة.

ثـم نـشرت الحكومـة (اللائيكيـة) في پاكسـتان منشـوراً في أكتوبـر ١٩٤٩ عـلى الأسـتاذ وصاحبيـه: (ميـان طفيـل محمـد، ومولانـا أمـين أحسـن إصلاحـي) وبقصـد تمديـد اعتقالهـم فقـد عَـزَتِ الحكومـة إليهـم هـذه الإتِّهامـات الثـلاث:

١. تهديد سلامة وأمن پاكستان.
٢. المحاولة لزعزعة ثقة ووفاء الشعب بالدولة.
٣. العَمالة لصالح دولة أجنبية.

وعدمـا بلـغ الأسـتاذ المـودودي البيـان، وجَّـهَ رسـالةً إلى الحكومـة جـاء فيهـا: أَتَحَدَّى حكومتكـم، أن يكـون لديهـا معلومـات مـن هـذا القبيـل -عَنِّـي أو عـن أحـد مـن رفقائـي- بأنَّنـا قمنـا بأيـة جريمـة مِمَّـا اتُّهِمْنـا بـه، إن كانـت لديكـم قـدرة عـلى إثبـات ذلـك فأعرضوهـا ولا تُخفوهـا، ولكـن أعطـوني فرصـة الإجابـة والـرد مـن خـلال وسـائل الإعـلام.

ولكن الحكومة لاذَتْ بالصَّمت أمام تَحدِّي الأستاذ وأبقَتهُ في السجن -بلا مُسَوِّغ ودليل- عشرين شهراً، فأكمَلَ في تلك المدة، بعض كتاباته وكتب بعضاً آخر.

وجدير بالذكر أن المودودي بعد خروجه من المعتقل، بقي مُستمرّاً على مطلبه الأساسي، وهو: اعلان دستورٍ إسلامي وتكوين دولةٍ إسلامية، وبالنتيجة في (٢٣/ مارس/ ١٩٥٦م) بعد أن اشتركت (الجماعة الإسلامية) و(جمعية أهل الحديث) و(جمعية الطلبة العربية) وخمسمائة من العلماء وشيوخ الطريقة، أعلنوا جميعاً: مَطلَب دستورٍ إسلامي للدولة، وقد أُعلِنَ في هذا التأريخ رسمياً عن توثيق الدستور الإسلامي للدولة.

فقال الأستاذ المودودي في رسالةٍ إلى الشعب:

نبدأ اليوم حياتنا كشعب حُرٍّ، شعب يُقِرُّ في دستوره أنَّ الحكم والتشريع لله وحده، وإنَّ الحُكام يأخذون سلطة الحكم أمانةً من الله، ويمارسون الحكم في دائرة شريعة الله وحدودها.

وبعد تحقيق المودوي للهدف الأول، وهو إقرار الدستور الإسلامي لپاكستان، وإلى آخر لحظة من حياته، ظلَّ يسعى ويحاول لتحقيق الهدف الثاني: وهو إقامة دولةٍ إسلامية، دون أن يَهدأ بالُهُ أو يعرف الونى إلى نفسه سبيلاً.

المحور الخامس: موقفه الجريء في الوقوف بوجه القاديانية، وصدور حكم الإعدام عليه:

الحركة القاديانية الّتي أسَّسها الميرزا غلام أحمد، جماعة خارجة عن الإسلام، لأنهم يَعُدُّون الميرزا رجلاً يوحى إليه، ولهم طوامٌ أخرى كثيرة.

ففي سنة (١٩٥٣م) وفي إقليم البنجاب، بدأ المسلمون بإِظهار موجَةٍ من الرفض والمظاهرات، حيث وقعت فتنة واقتتال شديد بين المسلمين والقاديانيين الذين كانت لهم أشخاص ورجالات ذَوْوُا مناصب كبيرة في الدولة، وكما يقول الكورد: (السيف الأصيل لا يَتحمَّل المَكثَ في الغمد).

ففي تلك الظروف الصعبة، انبرى الأستاذ المودودي كالليث الخارج من عرينه، وكتب رسالَةً وجيزةً ولكنها مهمة، بعنوان: (ختم نبوت) وقد ترجم بعنوان: (المسألة القاديانية) وكتب فيها بصراحة: إنَّ كتلة القاديانية أقَلِّيةٌ غير مسلمة، لأنهم لا يؤمنون بأنَّ النبوة ختمت بمحمدﷺ، وقد نُشِرَت من الرسالة المذكورة–في غضون شهرين– مائة ألف نسخة.

ومن جرّاء ذلك اعتقلت الحكومة العلمانية في پاكستان الأستاذ المودودي في (٢٨/ مارس ١٩٥٣م) بذريعة إحداث فتنة، وأصدرت أمرَ الإعدام عليه بعد محاكمة صورية، وعندما جاء الضابط المُتَخَصِّص وبَلَّغَ الأستاذ قرار الإعدام قال مبتسماً: الحمدلله على كل حال، وقال له الضابط: يا شيخ! بإمكانك أن تكتب استرحاماً خلال أسبوع، فاحمرّ وجهُ الأستاذ قائلاً: «لا أَستَرْحِمُ من أحدٍ أبداً، لأن أحكام الحياة والموت لا تصدر من الأرض، بل تصدر من السماء، فإن كان حكم موتي قد صدر من السماء، فلا أَحَدٌ يُنجيني، وإنْ لم يكن الحكم قد صدر هنالك، فلا أحد يمكنه أذيَّتي قيد شعرة».

وبِسَماعِ هذا الخبر، غَضِبَ المسلمون غضباً شديداً في پاكستان وخارجها، ومنهم من مات من وقع الخبر كـ(السيد أحمد حكيم) وهو أحد المؤَسِّسين للجماعة الإسلامية.

وبدأ سَيلُ الرسائل والبرقيات الرافضة تنهال على الحكومة الپاكستانية، من جميع الشخصيات والجماعات والمؤسسات الإسلامية، ونذكر على سبيل المثال:

١. الشيخ أمجد الزهاوي إمام أهل السنة في العراق.
٢. الشيخ محمد الخالصي إمام الشيعة ومجتهدها الأكبر.
٣. الشيخ أمين الحسيني مفتي فلسطين الأكبر.
٤. الإخوان المسلمون في مصر.
٥. عيسى الأنصاري بالنيابة عن الأحزاب الإسلامية في أندونوسيا.
٦. الشيخ محمد بشير الإبراهيمي الجزائري.

إضافة إلى كثير من الخطب والكتابات والمظاهرات...إلخ.

ولذلك وبعد يومين فقط، خُفِّفَ حكم الإعدام على الأستاذ المودودي إلى السجن المؤبَّد، ومدته في پاكستان واحد وعشرون عاماً، ثم بعد خمسة وعشر شهراً من السجن، طَعَنَتْ المحكمة العليا في لاهور في حكم المحكمة العسكرية ونَقَضَت حُكمَهُ، مُخلِيةً سبيلَ الأستاذ.

بشرى سارة: روى (ميان رحيم بخش):

عندما بلغني نبأ حكم الإعدام على الأستاذ المودودي، رأيت فيما يرى النائم: شخصيَّةً عظيمة عالية المقام، فأُلقي في قلبي أَنَّهُ رسولُ الله ﷺ، فجعلتُ أتأَمَّلُهُ، وكان رافعاً رأسه نحو السماء، فمكث غير بعيد حتى امتلأت السماء نوراً، وجاء صوت ينادي: ماذا تريد يا محمد؟ فَسَجَدَ النبيُّ ﷺ، ثم رفع رأسه وقال: رحمتك يا ربي، المودودي يدافع عن دينك والمسلمون في حاجة إليه، وفجأة رأيت اختلاجاً عظيماً وجاء صوت ضخمٌ مُدَوٍّ يقول: يا محمد! قد قَبِلنا دُعاءَكَ، فاستيقظت من نومي على أذان الفجر، الذي ملأ سمعي واعتراني البكاء والخوف وبقيت واجماً لبرهة.

وعندما أُفرِج عن الأستاذ المجاهد، أُستُقبِلَ بمسيرة وإقبالٍ جماهيرى عارم، وحشود ضَمَّتْ كافَّة طبقات المجتمع وشرائحه للترحيب بالأستاذ، وعقد عديد من الجلسات والمحاضرات وحفلات الإبتهاج فَرَحاً بنجاته.

المحور السادس: المنع من العبث بشعائر الإسلام:

ومن المواقف الجريئة للأستاذ المودودي رحمه الله، أنَّ عيد رمضان صادف يوم الجمعة في سنة (١٩٧٥م)، وقد كان أيوب خان رئيس النظام آنذاك، يؤمن بالأسطورة التي مفادها: إذا أُلقِيَتْ خطبتا العيد والجمعة في يوم واحد، فذلك شؤم ونذير بانتهاء الحكومة في ذلك البلد، ولذلك أصدر أيوب الأومر بجعل يوم الخميس عيداً، وأنَّ على الناس أن يُفطِروا في هذا اليوم.

ولكنَّ المودودي -كَدَأْبِهِ عشرات المرات- انبرى مُعلِناً أنَّ العيد لا يكون إلاّ برؤية الهلال، وطالما لم يُرَ هلال الليلة الأولى، فلا يزال رمضان قائماً، ولكن (أيوب) الدكتاتور لم يُعجِبْهُ هذا الموقف الشرعي للمودودي، ولذلك اعتقله، ولكن جميع المسلمين اعتبروا يوم الجمعة عيداً.

ومكث الشيخ المناصر للحق في السجن، ثم زال حكم أيوب بعد شهور من ذلك، وصار عبرةً للمعتبرين.

المحور السابع: كلمتان جريئتان في وقتين حرجين:

الأولى: عندما جاء أيوب خان إلى سُدَّةِ الحكم، إثر انقلاب في (١٩٦٠م)، زار مدينة لاهور وطلب أن يلتقي بالأستاذ المودودي، فزاره الأستاذ على أمل أن تكون زيارته نافعة، وهناك مدحه أيوب وأثنى عليه وعلى خدماته قائلاً:

«أيها الأستاذ العزيز! إنَّني أَقتَرِحُ عليك أن تَتَجَرَّدَ للعمل الدعوي وتعليم الناس، وأن تَرْبَأَ بنفسك من الولوج إلى مستنقع السياسة وأوحالها، أَتصوَّر أنَّ هذا أنفع لشعبك ووطنك..».

ولكن الأستاذ وصاحب الحكمة والجرأة، قال له بأدب:

«يا سيادة الرئيس! السياسة اليوم -كما تفضَّلتُم- باتت أوحالاً ومستنقعات آسنة، ولم أدخُلها إلاّ لأُطَهِّرها من تلك الأوحال والأرجاس، بحيث لا يُلَطِّخُ جانِبَ أحد! وأن تكون خيراً وبركة على الوطن وساكنيه».

فياليت كل أستاذ وإمام للمسلمين، يعلمون ويَقدِرون، أن يردُّوا على مزاعم الحُكام بمثل هذه الإجابات.

الثانية: في سنة (١٩٧٣م)، بعد أن فرض أيوب دستوراً قمعياً على پاكستان، عَقَدَتْ الجماعة الإسلامية في شهر أكتوبر اجتماعاً عاماً، ومع أن النظام كان مُستاءً منهم وواضعاً أمامهم العوائق وعراقيل كثيرة، مثل: منع استعمال مُكَبِّرات الصوت، ولكن الأستاذ صاحب العزيمة، وجماعته، أَصَرُّوا على إجراء ذلك التَجَمُّع والحفل الجماهيري، وبعد دقائق من بدء الأستاذ بإلقاء خُطبة الإفتتاحية، أُطلِقَ عليه وابلٌ من الرصاص من قبل جواسيس النظام، لكن الأستاذ لم يُصَبْ وقُتِلَ أحدُ الذين كانوا بالقرب منه، وأَلَحَّ الناسُ بعد ذلك عليه أن يُلقِيَ خُطبَتَهُ جالساً، ولكنه -دون أن يقطع حديثه أو يجلس- قال:

«إذا جلست أنا، فمن يَظَلُّ واقفاً؟!».

أمطر الله جَدَثَك بشآبيب رحمته أيها الأستاذ، صَدَقتَ، فإذا ترك القائدُ الميدان وقعد في الخفاء، فأَنَّى للناسِ البقاءُ فيه، أو لَيسَ الإمامُ جعل لِيُؤتَمَّ به!!

٢١- الأستاذ سيد قطب(٢٢٣) رحمه الله

هو: (سيد قطب بن إبراهيم)، جاء جَدُّهُ السادس من الهند-كما ذكر بنفسه-.

وسَنُلَخِّصُ مراحل حياته في البنود الأحد عشر الآتية:

١. ولد في (٩/ ١/ ١٩٠٦م) في قرية (موشة) التابعة لمحافظة أسيوط في مصر.

٢. في سنة (١٩١٢م) دخل المدرسة الإبتدائية وقطع المراحل بتفوق، إلى أن دخل كلّية دار العلوم في (١٩٢٩م)، وفي سنة (١٩٣٣م) حصل على شهادة البكالوريوس في الآداب، وتعيّن مدرِّساً في وزارة المعارف في (٢/ ١٢/ ١٩٣٣م).

٣. كَتَبَ أَوَّل كُتُبِهِ الإسلامية سنة (١٩٤٨م) بعنوان: (التصوير الفنّي في القرآن).

٤. في (٣/ ١١/ ١٩٤٨م) تَوَجَّهَ في الباخرة إلى أمريكا موفداً من قبل وزارة المعارف لدراسة المناهج التعليمية، وبعد أقل من سنتين، عاد في طائرة إلى مصر في (٢٠/ ٨/ ١٩٥٠م).

٥. كان سيد قطب متضامِناً مع الثورة-قبلها وبعدها- أي ثورة (١٩٥٢م) التي قام بها الجيش على الحكم الملكي، وحتى سنة (١٩٥٣م) وكان له فيها دورٌ فاعل.

٦. انتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين في شباط (١٩٥٣م).

٧. أُعتقل في بداية سنة (١٩٥٤م) مع المسؤولين الآخرين لجماعة الإخوان المسلمين، وبقي في السجن ثلاثة أشهر ثم أُفرِج عنه.

٨. أُعتقل ثانية في (٢٦/ ١٠/ ١٩٥٤م)، ضمن آلاف المعتقلين من الإخوان

---

٢٢٣) لكتابة هذه الخلاصة عن حياة (سيد قطب إبراهيم) والمجموعة المختارة من مواقفه، أستفدت من الكتب الآتية وخاصة الكتاب الأول:

(سيد قطب من الميلاد إلى الإستشهاد) د.صلاح عبدالفتاح الخالدي.

(سيد قطب من القرية إلى المشنقة) عادل حمودة.

(الفكر الإسلامي المعاصر: دراسات وشخصيات: سيد قطب)د.أحمد صلاح الدين الموصللي.

(لماذا أعدموني؟) وهي عبارة عن الإعترافات الّتي أدلى بها إلى المحكمة قبل إعدامه، وقد وضع عنوان الرسالة بعد إعدامه رحمه الله.

المسلمين، بتهمة الضلوع في محاولة اغتيال (جمال عبدالناصر) في حادث (المنشية) الّتي لم تكن سوى مسرحية قام بها النظام ليَتَّخِذَها ذريعة لاعتقالهم.

٩. في سنة (١٩٥٥م)، رفعت قَضيَّتهُ للمحكمة وحكم عليه بخمسة عشر عاماً، ولكنه أفرج عنه بعفو صحي أثر تكليف من الرئيس العراقي عبدالسلام عارف.

١٠. في (٩/ ٨/ ١٩٦٥م)، أُعتقل مرة أخرى، بعد إعلان عبدالناصر في موسكو عن كشفه خطة لاعتيالِهِ والإنقلاب على نظامه من قبل الإخوان المسلمين بقيادة سيد قطب.

١١. في (٢١/ ٤/ ١٩٦٦م)، بدأت محاكمةُ سيّد، وحُكِمَ عليه بالإعدام مع صاحبيه: محمد يوسف هواش، وعبدالفتاح إسماعيل، في (٢١/ ٨/ ١٩٦٦).

نسأل الله الحَكَمَ العَدلَ أن يتقبَّل الأستاذ الغيور على دينه شهيداً مع صاحبيه، وأنْ يَجزِلَ لَهم الثَّواب وأن يعامِلَهُم بفيض كَرَمِهِ وإحسانه ورحمته.

هذا، ويُعتبر الشهيد سيد قطب الشخص الأكثر فعّالية وتأثيراً -بعد أبي الأعلى المودودي- على الصحوة الإسلامية في القرن العشرين؛ وذلك بسبب مواقفه العظيمة والجريئة، وعن طريق كتبه ونتاجاتِهِ، خصوصاً تفسير: (في ظلال القرآن) وكتاب: (معالم في الطريق)، الذى يعتبر من أشهر كتب الشهيد وأكثرها تأثيراً من بين مؤلَّفاتِهِ البالغة (٢٦) كتاباً، ألَّف بعضها قبل اهتدائه ورجوعه إلى الله.

وقبل أن نختار مجموعة من مواقف الشهيد، ارتأيت أن أُسَلِّطَ الضوء على مسألَتَين مُهِمَّتَين في حياته وهما:

الأولى: مرحلة ما قبل اهتدائه (فترة الضِّياع):

من المعلوم أنَّ سيد قطب عاش مدة من حياته في تِيْهٍ وعدم اهتداءٍ، وأشار إلى ذلك في عدة مواضع من (في ظلال القرآن)، فمثلاً: في المجلد السادس صفحتي: (٣٣٥٢-٣٣٥٣)، تحدَّث عن ذلك الماضي، بأن الحالة النفسية التي كان يعيشها،

والإحساس بالضِّياع والقلق الذي كان يستشعره في مرحلةٍ من مراحل عمره، زالَ واختفى بعد أن عاش في (ظلال القرآن)، وأنَّهُ عبَّر عن ذلك الإحساس في حينه شعراً:

وقف الكون حائراً أين يمضي	ولماذا كيف لو شاء، يمضي؟
عَبَثٌ ضائِعٌ وجهد غَبِين	ومصير مُقَنَّع ليس يُرضي

نعم، لقد عاش سيد قطب عدداً من سني حياته ما قبل (١٩٤٠م)، في حالة ارتياب وقلق وحيرة، ولكن أصدقاءَه الذين كتبوا عن سيرته وحياته، اتفقت كلمتهم على أن تِيهَهُ وضِياعَهُ، كان فكريّاً فقط، ولم يكن سلوكيّاً، وإن كان انحرافُ سيّد قطب -وأيُّ إنسان آخر- أيّاً كانت صورتُهُ، لا تأثير له، مادام قد تَبِعَهُ الإيمانُ والتقوى، كما قال النبي ﷺ لعمرو بن العاص: ((أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسلام يَهدِمُ ما كان قَبلَهُ؟!)) رواه مسلم:١٧٣.

الثانية: سبب عدم زواجِهِ:

واضحٌ أن الأستاذ سيد قطب واحد ضمن العلماء والأئمة والعاملين الذين لم يتزوجوا في حياتهم، ولَم يكوِّنوا أُسَراً.

والعامل الذي أدَّى إلى عدم زواج سيد قطب هو هكذا اختصاراً:

وقع (سيّد) مرتين في حُبِّ النساء وعشقهن:

١- المرة الأولى كانت في القرية، لكن فَشِلَتْ تجربته هذه بسبب ابتعاده إلى القاهرة، وقد ألَّفَ كتابه: (طِفلٌ من القرية) حول تلك التجربة.

٢- أما المرة الثانية فكانت في أواخر الثلاثينيات بعد تخرُّجه من الكلية، أَحَبَّ فتاةً قاهريَّةً وخَطَبَها، لكن عندما عَلِمَ بأنَّها أَحَبَّتْ قَبلَهُ شخصاً آخر، تَغيَّر رأيُهُ، وبقيت المسألَة مُعَلَّقَةً لسنوات، وقد كتب في تجربته هذه، كلاً من كتاب: (الأشواك) وقصيدة (الكأس المسمومة) التي جاءت تعبيراً عن معاناته وتألُّمه في تلك التجربة الفاشلة في حُبِّه، وقد نشر النتاجان في سنتي (١٩٤٣م) و (١٩٤٧م)

وكانت النتيجة أن رجع عن تلك الخِطبَةِ وتَرَكَها.

وعندما عاد من أمريكا، أَزْمَعَ أن يتزوَّج، ولكن حال دون ذلك قيامُ الثورة؛ فانشغل بها، وكان بعد ذلك أنْ وَظَّفَ جميعَ أوقاته وقُدُراتِهِ لأعمال تنظيم الإخوان المسلمين.

وفي سنة (١٩٥٤م) قبل اعتقاله أوشك أن يتزوَّج من فتاة كانت صالِحةً ونجيبة، وقد خطا في ذلك الطريق بعض الخطوات، ولكنَّ اعتقالَهُ حال دون نجاح تلك المحاولة أيضاً.

أمّا المحاولة الأخيرة للزواج، فقد كانت في سنة (١٩٦٤م)، حيث أُفرِجَ عنه بعفو صِحّي والتماسٍ من عبدالسلام عارف، فَفَكَّرَ قبل كلِّ شيء أن يَتَزَوَّج، ولكنه قبل التقدم لخطبة الفتاة التي اختارها، دخل السجن دخولَهُ الأخير، وذهب بهذه الأُمنيّة -مع أمنيّاتِهِ الأخرى- إلى عالم البرزخ، وسيُجزى عند ربه -إن شاء الله- الجزاء الأوفى ويُعَوِّضُهُ الله بِعَدَمِ زواجِهِ في الدنيا، بالحور العين في الجنة.

والآن -وبعد أن سلَّطنا الضوء على حياة هذا النابغة وشخصيته إلى حدٍّ ما، سنختارُ ثُلَّةً من مواقفه المجيدة، في عشرة محاور:

المحور الأول: رجوعه إلى الإسلام، متى، وكيف كان؟!

قد أسلفنا أنَّ سيّد قطب عاش مرحلة الضِّياع من عمره ما بين (١٩٢٥-١٩٤٠م)، ولكنَّه كان ضياعاً فكريّاً ونفسياً، وليس انحرافاً أخلاقياً، لأنه انحدر من عائلة دينية محافظة، وقد تلقَّى سيد منذ البداية تربية دينية، ففي مرحلة الدراسة الإبتدائية، كان يدرس في (الكُتَّاب) على رغبة وأمر والده الحاج قطب، وقد بدأ حفظ القرآن ولَهُ ثمان سنوات، وكان يحفظ كلَّ سنةٍ عشرة (١٠) أجزاء، فحفظ القرآن في ثلاث سنوات، أي عندما بلغ العاشرة من عمره، وكان في الصف الرابع الإبتدائي.

وعودة سيد قطب إلى القرآن والإسلام، وخَلاصِهِ من ضِياعِهِ، جاءت خطوة خطوة، حيث جعل ابتداءً-بدافع التحقيق الأدبي- يُجري بحثاً في القرآن، وقد نشر في سنة (١٩٣٩م) مقالاً في مجلة (المقتطف) بعنوان: (التصوير الفني في القرآن الكريم) والَّذي تطوَّر فيما بعد في سنة (١٩٤٥م)، حيث نشره كأول كتاب ونتاج إسلامي له ضمن سلسلة: (مكتبة القرآن الجديدة).

وفي سنة (١٩٤٧م)، نشر ضمن السلسلة المذكورة، كتابه الثاني: (مشاهد القيامة في القرآن) ويمكن القول: أنَّ عودة سيد قطب إلى الإسلام عن طريق الأدب والبحوث القرآنية الرصينة، شكَّلَت المرحلة الأولى من رجوعه.

وتبدأ المرحلة الثانية، اعتباراً من (١٩٤٧م)، وإلى (١٩٥٣م)، الذي انخرط فيها ضمن صفوف جماعة الإخوان المسلمين، وبإمكاننا تسميتها بالمرحلة الفكرية، وقد ظَهَرَتْ له في هذه المرحلة النتاجات التالية:

١. (العدالة الإجتماعية في الإسلام) وهو أول نِتاج له في المرحلة الفكرية، كتبه سنة (١٩٤٧م)، وطبع في (١٩٤٩م)، عندما كان في أمريكا.
٢. (معركة الإسلام والرأسمالية) وقد طبع بعد عودته من أمريكا.
٣. (السلام العالمي الإسلام) وقد طبع في أواخر سنة (١٩٥١م).
٤. (دراسات إسلامية) والَّتي ضَمَّت ثلاثين مقالة من مقالاته الّتي نشرت في مُختلف المجلات سنة (١٩٥٣م).

٥. (في ظلال القرآن) وقد شرع في نشره تِباعاً من أكتوبر (١٩٥٢) وإلى يناير (١٩٥٤م)، وأكمل منه ستة عشر جزءً.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة من عودة سيد قطب إلى الإسلام، فقد كانت في سنة (١٩٥٣م)، حيث ابتدأت بانضمامِهِ إلى صفوف الإخوان المسلمين، وانتهت باستشهاده سنة (١٩٦٦م).

وبإمكاننا تسمية هذه المرحلة من عودة سيد قطب إلى الإسلام، بمرحلة الإسلام الحركي.

وفي هذه المرحلة إضافة إلى مراجعة وتنقيح تفسيره إلى منتصف (القرآن الكريم) فقد ألّف سائِرَ كتبه ونتاجاته الإسلامية الأخرى، مثل:

١. (هذا الدين) كَتَبَهُ في السجن وطبع سنة (١٩٦٠م).
٢. (المستقبل لهذا الدين) كَتَبَهُ في إثر الرسالة السابقة، وطُبع أيضاً في نفس الفترة.
٣. (خصائص التصور الإسلامي) طبع سنة (١٩٦٢م)، وكان مُعدّاً قبل ذلك.
٤. (الإسلام ومشكلات الحضارة) وقد نشر أيضاً في (١٩٦٢م).
٥. (مُقَوِّمات التصوّر الإسلامي) وهو الكتاب الوحيد الذي نشر بعد عشرين عاماً من استشهاد صاحبه، حيث طُبع ونُشر في (١٩٨٦م).

وقد كتب شقيقه الأستاذ (محمد قطب) شيئاً عجيباً عن هذا الكتاب، فقال ما معناه: «هذا الكتاب الذي نُقدِّم له اليوم، والذي أتمَّ مؤلِّفُهُ كتابَتَهُ في أواخر أيام حياته في السجن، قَبل تنفيذ حكم الإعدام عليه، وقد كتب قِسمَهُ الأخير على الأوراق الّتي سَلَّمَتْها إليه المحكمة ليكتب عليها اعترافاته».

أرأيتم؟ لقد أتمَّ الشهيد العزيز كتابَهُ هذا، قبل أيّام من ارتقائه إلى أعواد المشنقة، وهو ينتظر الموت المحتَّم، ولذلك كان ذلك الكتاب -كما قال شقيقه محمد قطب- في القِمَّة السامقة من الأسلوب والتعبير.

هذا، فيما يخص نتاجاته الفكرية في هذه المرحلة، أما بالنسبة للنشاطات العملية:

قُلنا إنّه انضَمَّ في سنة (١٩٥٣م) إلى جماعة (الإخوان المسلمين) وأُسنِدَ إلَيهِ مُباشرة الأعمال والنشاطات الثقافيه والإعلامية، وفي تلك الأثناء زار كُلاًّ من سورية والأردن والقدس، بأعمال حزبية، حيث شارك في عدة مؤتمرات واجتماعات مهمة ممثلاً عن الإخوان.

وعندما كان في المعتقل قبل الإفراج عنه في (١٩٦٤م)، ترأَّس -فكرياً ونظرياً- تنظيم الإخوان المسلمين، وبعد خروجه تَرَأَّس عملياً ذلك التنظيم، وقد دفع -ختاماً- الضريبة الباهظة على الواجب العظيم والخطير الذي تولاّه في تلك المرحلة الصعبة، حيث كان الموت والتعليق على أعواد المشانق.

المحور الثاني: عِزَّتُهُ وأستغناؤه، ورفضه للجوائز والهدايا المشكوكة فيها:

كان الأستاذ (سيد قطب إبراهيم) كَدَأب الأئمة والعلماء الكبار، عزيز النفس، زاهداً عن الدنيا، لا يَحسِبُ لها ولا لأطماعها حساباً، وإليكم هذه الحادثة مِصداقاً لذلك:

حكى الأستاذ صلاح عبدالفتاح الخالدي صاحب كتاب: (سيد قطب من الميلاد إلى الإستشهاد) عن الأستاذ (أحمد عبدالغفور عطا) أَنَّهُ اتصل به الأستاذ سيد قطب ذات يوم وطلب حضوره إلى داره بسرعة، وطلب منه -في حياء- أن يَجلِبَ له معه عِدَّة جُنيهات كَدَينٍ، وذلك لتكاليف معالجة نفسه، لأنه كان مريضاً ولا يملك ثمن الدواء، فذهب مُسرِعاً وبِحَوزَتِهِ المالُ الذي طلبه.

وعندما دخل غرفة الإستقبال رأى مشهداً، أقسم أنه تعجَّب واندهش منه: رأى في الغرفة مُوظَّفَاً ديبلوماسياً في سفارة إحدى الدول العربية الغنية بالنفط، جالساً وأمامه حقيبة مملوءة نقوداً تبلغ آلاف الجنيهات.

وكان الرجل يِلِحُّ عليه ويَتَرجَّاهُ بِحرارةٍ أن يقبل هذه الحقيبة هَدِيَّةً من دولته، لأن تلك الحكومة تُقَدِّر مقامَهُ وتَعلَم عِظَمَ الواجب الذى يقوم به، ولذلك رَغِبَتْ أَنْ يستعمل سيد قطب هذه المبالغ، في إدارة أمور حياته ومشاريعه الأدبية والفكرية.

وقد لاحظ الأستاذ أحمد عبدالغفور، أنَّ الأستاذ كان مريضاً يجلس حزيناً، ثم رفض الهدية في غضب قائلاً:

«أنا لا أبيعُ نفسي وتصوّراتي بأموال الدنيا، ضَعْ نقودك في حقيبتك».

ثم التفت الأستاذ سيد إلى صديقه قائلاً: «هل جَلَبْتَ لي الذي طَلَبْتُهُ منك؟

فقال له: نعم، وأعطاه المبلغ في حيرةٍ ووجوم.

نعم أيها القراء الأحبة!

هكذا يكون رجالُ الإسلام وأئمته، أمام مطامع الدنيا وزينتها، إنَّهم يعتبرونَها أتْفَه وأحقَر ما تكون، ألم يَقُل إمامهم محمدﷺ: ((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ)) رواه الترمذي عن سهل الساعدي: ٢٣٢٠ وقال: حسن صحيح، والبيهقي في الشعب: ٣٢٥/ ٧، وابن ماجه: ٤١١٠.

المحور الثالث: الإنخراط في صفوف جماعة الإخوان المسلمين زمن شدَّتِها:

من الناس من يكون إمَّعَةً يدور -كزهرة عباد الشمس- حيث تدور مصالحهم، أولئك وإن ظهروا بمظهر الإنسان، ولكنَّني -في الحقيقة- لا أرى كبير الفرق بينهم وبين الحيوان، فالبهائم تبحث عن المراعي الخصبة، ولا تضع اعتباراً للحلال والحرام و لا تهُمُّها إلاّ إشباع بطنها، كما يقول تعالى: ((وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ))محمد/ ١٢.

ومن الناس من هم على طرفي نقيض مع هؤلاء، لأنهم يدورون حيث يدور الحق ومصالح المسلمين ورضا رب العالمين، دون يُلقوا بالهم لِضَررٍ ولا ألَمٍ ولا خشية، وفي عملهم ذاك، لا يشعرون بقَلَقٍ ولا تَرَدُّدٍ أبداً.

وكان الأستاذ الشهيد من هذا الصنف الأخير، وله عشرات المواقف مِصداقاً على ذلك، وهاك مثالاً:

لاشك أنَّ سيد قطب -قبل انضمامه إلى الجماعة الإخوان المسلمين- كان يتمتع باحترام وتقدير كبيرين، من قبل قيادة الثورة، وكان سيد يعلم جَيِّداً ما تُكِنُّهُ هذه الكتلة العسكرية من حِقدٍ وضَغينَةٍ لجماعة الإخوان، وأنَّهُم مُنهَمِكُون دائماً في وضع الخطط والمكائد لهذه الجماعة.

في هذه الظروف أعرَض الأستاذُ عن طموحه ومصالحه، وألقى بالخوف والخشية جانباً، في وقت كانت الجماعة تسير نحو البلاء والإمتحان سيراً حثيثاً، في هذا الوقت الحَرِج انضَمَّ إلى هذه الجماعة الإسلامية، لأنه كان يؤمن بأن هذه الجماعة في ذلك الحين، هي الأمل الوحيد -بعد الله سبحانه وتعالى- للإسلام والمسلمين في (مصر).

أما الدافع الذي تَسبَّب في انضمامه إلى جماعة الإخوان المسلمين، كان يكمن في شيئين:

١) عندما أُغتيل مرشد ومُؤسِّسَ حركة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا،

بتحريض من الإمبريالية وتنفيذٍ من النظام الملكي في مصر سنة (١٩٤٩م)، كان سيد قطب آنذاك في أمريكا، وقد تَعَجَّبَ ولَفَتَ نَظَرهُ بشدة، ما أَبْدَتهُ الصحف الأمريكية وكذلك الإنگليزية الّتي كانت تصل إلى أمريكا، من اهتمام بالغ بالإخوان ومن شَماتةٍ وفرحةٍ واضحة في حَلِّ جماعتهم وضربها وفي قتل مرشدها، ومن حديث عن خطر هذه الجماعة، على مصالح الغرب والمنطقة وعلى ثقافة الغرب وحضارته.

٢) المحاولات الدؤوبة التي قام بها معه الجاسوس التابع للمخابرات البريطانية (جون هيورث دن) بأن لا يقرب حِمَى جماعة الإخوان المسلمين، وكان هذا الجاسوس يتحدث كثيراً عن هذه الجماعة، وقد قرأ عليه مجموعة تقارير مُفَصَّلة عنهم، من يوم تأسيسه في (١٩٢٨م) في الإسماعيلية وإلى حَلِّه في (١٩٤٨م) واغتيال مرشدهم في (١٩٤٩)، وكان قد سَجَّلَ في هذه التقارير كُلَّ حركاتهم ونشاطاتهم، حتى خُطَبَ المرشد حسن البنا.

وقد قال (جون هيورت دن) لسيد قطب:

«إذا حدث واستولَتْ تلك الجماعة على مقاليد السلطة في مصر، فَسَيَحِلُّ بتلك البلاد خَطَر عظيم وبلاء مستطير، والأملُ الوحيد في نَجاة مصر من شرِّ هؤلاء، هم المثقفون من أمثال سيد قطب.

وعندما اطَّلَعَ الأستاذ سيد قطب-وهو الغيور الواعي- على تلك الأحقاد والأغراض، والإحساس بالخشية الذي يجده الأمريكان والإنگليز من جماعة الإخوان المسلمين ومرشده البنّا، وقعت في قلبه الأهمية البالغة لهذه الجماعة.

كما يقول بنفسه:

«وقد لَفَتَ نظري بشدَّةٍ ما أَبْدَتهُ الصحف الأمريكية وكذلك الإنگليزية الَّتي كانت تصل إلى أمريكا من اهتمام بالغ بالإخوان، ومن شماتةٍ وراحَةٍ واضحة في حَلِّ جماعتهم وضَربَها، وقتل مرشدها، ومن حديثٍ عن خطر هذه الجماعة على مصالح الغرب في المنطقة، وعلى ثقافة الغرب وحضارته فيها.

وصَـدَرَتْ كتـبٌ بهـذا المعنـي سـنة (١٩٥٠م)، أذكـر منهـا كتابـاً لـ(جيمـس هيـوارث دن) بعنـوان: (التيـارات السياسـية والدينيـة في مـصر الحديثـة) كلُّ هـذا لفـت نظـري إلى أهميـة هـذه الجماعـة عنـد الصهيونيـة والإسـتعمار الغـربي».

وتحـدَّث في موضـع آخـر عـن إعجابـه بجهـاد الإخـوان المسـلمين وكفاحهـم فقـال: «لقـد تَلَفَّتَـتْ مـصر، فلـم تجـد إلاّ الإخـوان حاضريـن للعمـل، مُهيَّأيـن للبـذل، مُسـتَعِدِّين للفـداء، مُدَرَّبِـين للكفـاح، معتزمـين الإستشـهاد». [٢٢٤]

«وهـي الحركـة التـي ليـس لهـا في نظـري بديـل يكافئهـا للوقـوف في وجـه المخططـات الصهيونيـة والصليبيـة والإسـتعمارية الّتـي كنـت قـد عَرَفـتُ عنهـا الكثـير، وخاصـة في فـترة وجـودي في أمريـكا». [٢٢٥]

إنَّ دخـول الأسـتاذ سـيِّد إلى جماعـة الإخـوان في تلـك الظـروف الصعبـة، الّتـي ذكرناهـا بتلـك الدوافـع التـي شَـجَّعَتهُ، يعتـبر موقفـاً رجوليـاً عظيـماً من مواقفـه اللامعـة.

٢٢٤) دراسات إسلامية، لسيد قطب، ص٢٤٣.

٢٢٥) لماذا أعدموني؟! ص١١.

المحور الرابع: تكفُّل مسؤولية تنظيم الإخوان المسلمين في أخطر الظروف:

رغم أن سيّد قطب كان يُشرِفُ على قيادة تلك المجاميع في سجن (القناطر) منذ سنة (١٩٦٢م)، وحسب المنهج الّذي كان مُقتنعاً به، إلا أنّه لم يَتَسلَّم مسؤولية الإشراف على تنظيم الإخوان المسلمين، إلاّ في سنة (١٩٦٤م) وكان ذلك بإجازةٍ رسميّة من المرشد العام حسن الهضيبي.

فنحن إذا تأمَّلنا الحالة الجسمية للأستاذ سيد آنذاك، والظروف الصَّعبة والأزمة الّتي كانت الجماعة تَمُرُّ بها، فَسَيَتَبَيَّن لنا -حينئذ- أيَّ موقف جريء مشحونٍ بالتجرُّد والتضحية، كان تَصَدِّيهُ لمسؤولية تنظيم الإخوان المسلمين.

فبالنسبة للوضع البدني والصِّحّي لسيد قطب، فقد كان منذ بداية عمره، ذا بَدَنٍ ضعيف وسقيم، مصاب بعدة أمراض، وبَدَل أن تكون أمراضُهُ مَدعاةً لرعايته، كانوا -على العكس من ذلك- يَستَغِلُّونَها للتشديد في إيلامه وتعذيبه.

وقد أورد (جابر رزق) في كتابه: (مذابح الإخوان المسلمين في سجون عبدالناصر): أنَّ سيد قطب كان قد بلغ السِّتّين من عمره في السجن، وكان قد أُصيب بالذَبْحة الصَّدرية، إضافةً إلى مرض الكلية وأمراض المعدة، ولكن لم يُقبل يُكن في السِّن ولا مَرَضُهُ شفيعاً له، بل كانوا يَستَغِلُّونَ أمراضَهُ وسيلةً للمبالغة في تعذيبه.

وقد ربطوه بكرسي -ذات مرة- لمدة أربعة أيام، ومنعوه الطعام والشراب، حتى أنهم لم يكونوا يُعطونه الماء، وكانوا يريقونه أمامه على الأرض، مع أنَّ الشخص المريض في كليته، يحتاج إلى الإكثار من شُربِ الماء، كما هو معلوم، وقد أوشك الأستاذ أنْ يَفقِدَ بَصَرَهُ جرَّاء هذه الأساليب في تعذيبه.

إنَّ الظروف التي كانت تَمُرُّ بها جماعة الإخوان المسلمين آنذاك، والّتي تَوَلَّى فيها الأستاذ سيد قطب مسؤوليَّةَ التنظيم والتعليم والتوجيه والتربية فيها، حَقّاً كانت ظروفاً صعبة شديدة التعقيد، فَمِنْ جِهةٍ: كان معظمهم رهن الإعتقال، ومن جهةٍ

أخرى: فقد كان وجودُهُم رسمياً، يعتبر ممنوعاً ويعاملون كجماعة منحلَّة.

وفوق قيام حرب نفسية، ومحاولات لغَسل الأدمغة تُمارَسُ معهم، فقد كانوا أنفسهم -من الوجهة الفكرية والمنهجية إلى حَدٍ بعيد- مُتَشَتِّتين مُتَشَرْذمين، لا رابط لهم.(٢٢٦)

نعم، لقد كانت مسئولية الإشراف على تنظيم الإخوان المسلمين، أمانةً ثقيلةً جداً تَقبَّلها، وواجباً عظيماً حَمَلَها على عاتقه الأستاذ سيد، وفي ظروف تَشُوبُها حَلكَةٌ وتَسودُها مآسي، لقد كان ما قام به تلك الآونة -في نظري- موقِفاً شامخاً في القِمَّة من الفداء، ولا أعتقد أنَّ بإمكان أحدٍ القيام بهذا الموقف، إلاّ شخصاً تَجَرَّدَ لله تعالى بكُلِّيته، ولم يبق فيه -حَظٌّ غير الله- ولو مثقال حبة من خَردَلٍ، وعندي قناعةٌ أنَّ الأستاذ سيد كان نموذجاً من هؤلاء ولا أُزَكِّي على الله أحَداً.

---

٢٢٦) للتعرّف على حال الإخوان المسلمين في تلك الآونة، وما تعرَّضوا له من أنواع التعذيب، يمكنك الرجوع إلى:

(أيام من حياتي) لزينب الغزالي.

(البوّابة السوداء).

(سراديب الشيطان) لأحمد رائف.

(مذابح الإخوان في سجون عبدالناصر) لجابر رزق.

(الموتى يتكلمون) لسامي جوهر.

المحور الخامس: سيد قطب بعد قضاء سنين من حياته في السجن، لم يكن مُستعدّاً لترك مصر وتَسَلُّم منصب رفيع في وزارة التربية العراقية آنذاك، بدعوة من حكومتها:

وهذا موقف آخر يضاف إلى المواقف الرائعة للأستاذ:

فبعد أن طلب الرئيس العراقي (عبدالسلام عارف) من دكتاتور مصر: الطاغوت عبدالناصر، بأن يُفرِجَ عن الأستاذ (سيد قطب) وذلك بتكليف من علماء العراق وبالأخص: فضيلة الشيخ أمجد الزهاوي، وقد أُفرِجَ عنه فعلاً في آذار (١٩٦٤م)، أثناء عقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة، حيث جاء عبدالسلام إلى القاهرة لحضور المؤتمر وأرسَلَ بهدية إلى الأستاذ سيد قطب، وردَّ عليه الأستاذ ببرقية شكرٍ مع نسخة من جميع كُتُبِهِ، وجَلَّدَها تجليداً فاخِراً.

وبعد فترة أصبح السفير العراقي لدى القاهرة، وزيراً للتربية والتعليم في العراق، وقد زار الأستاذ سيد قطب في القاهرة، واقترح عليه أن يقبل العمل في العراق بوظيفة (خبير مناهج التربية والتعليم)، وأخبره بأنه سيَلقى احتراماً وتقديراً لائِقاً في العراق.

ولكن سيد قطب اعتذر من قبول تلك المسؤولية، قائلاً: بأنَّ مكانه الطبيعي هو مصر وهناك يؤدِّي ما عليه من واجبات، نعم، فقد كانت لسيد مثل هذه المواقف العظيمة، ولذلك غدا أستاذاً وإماماً يُحِبُّهُ كل مسلم غيور على دينه.[٢٢٧]

---

٢٢٧) يقول عمر التلمساني (ثالث مرشد للإخوان): عندما خرج سيد قطب من السجن، أرسل إليَّ يسألُني -كُنتُ حينذاك سجيناً-: هل أذهب إلى العراق أم لا؟ وكان رأيي أن يذهب، ولكنه فضَّلَ أن يبقى في مصر.. يُنظَر: ذكريات لا مذكرات، عمر التلمساني، ص٢٨٠-٢٨١.

المحور السادس: مراجعة منهج العمل في جماعة الإخوان المسلمين:

وهذا موقف آخر من مواقفه المتألِّقة، سنحاول توضيحه في هذه الفقرات الثلاث:

١/ بعد استقراره في سجن (ليمان طرة)، بدأ بتحليل وتأمل وتقييم الأحداث والمصائب الّتي حَلَّتْ على جماعة الإخوان المسلمين، اعتباراً من اغتيال المرشد العام في (١٩٤٩م)، وحتى السيناريو الّذي دَبَّرَهُ عبدالناصر لحادث (المنشية) المصطنع في (١٩٥٤م)، حيث اتُّخِذَ ذريعةً وتمهيداً لاعتقال الآلاف من الإخوان المسلمين، ثم الحقدُ والعداء والخطط الّتي مارستها القوى العظمى من الصهيونية والصليبية والشيوعية والإمبريالية، في عدائها للإسلام والمسلمين، وكذلك الدَّمار الأخلاقي الذي رافق اعتقال وتقتيل الإخوان في مصر...إلخ. وقد استغرقت هذه التقييمات والتحليلات والتأمُّلات سبع سنين، من (١٩٥٥م)، إلى (١٩٦٢م)، كما كتب بنفسه هذا.[٢٢٨]

٢/ وبعد أنْ تأكَّد من ذلك العداء المستحكم والمخططات الّتي تُحاك لجماعة الإخوان المسلمين، التي كانت مُمَثِّلة للإسلام وحاميةً له، ورأى انهيار الأخلاق والقيم الذي ابتُلِيَ به الناس، وكلُّ ذلك مرتبط مباشرة بخطط وأهداف الإمبريالية؛ وصل إلى قناعةٍ مفادها: أنَّ الحكومة المصرية مهما تَفعَلْ من حلِّ الجماعة رسمياً، واعتقالٍ وقتلٍ وتشريدٍ لأبنائها: يجب أن تستمرَّ الحركة الإسلامية، وإنَّ القضاء عليها في مثل تلك الأحوال، لَيُعَدُّ عملاً فظيعاً جداً، يصل إلى حَدِّ الجريمة، وإن الأخطاء الحركية يمكن أن تُستَبعَد، ويمكن الإستفادة من التجربة في تَجَنُّبها.

٣/ وختاماً توصل الأستاذ سيد قطب إلى قناعةٍ -فيما يَخُصُّ كيفية وأسلوب العمل الإسلامي، سواء في مصر وغيرها، وفي تلك الظروف والأوضاع السائدة-آنئذٍ- وردت في سياق اعترافاته في رسالة: (لماذا أعدموني؟) هذه خلاصتها:

٢٢٨) (لماذا أعدموني؟!) ص٢٦، ٢٧.

إن جماعة الإخوان المسلمين قد وقعت في ظروف هي أشبه بظروف الحركة الإسلامية في عهدها الأول، بقيادة الرسول ﷺ، فيما يخص غفلة الناس وجهلهم عموماً بالإيمان والعقيدة الإسلامية، وبُعدٍ عن الأخلاق الإسلامية، وليس البُعد عن الحكم والنظام الإسلامي فَحَسبُ، وفي نفس الوقت فإن القوى الكبرى الصهيونية والصليبية وسائر الأنظمة الطاغوتية في المنطقة، دائبون في وضع الخطط والمكائد، لذا فليس من المعقول أن تَنشَغِلَ الحركات الإسلامية ببعض النشاطات الصَّغيرة، وأنْ تُفَوِّضَ أمر الحكم بالشريعة وإرساء الأحكام الشرعية في المجتمع إلى الحكام، بل على الجماعات الإسلامية في مثل هذه الظروف أن تبدأ بما بدأ به الرسول ﷺ والجماعة الأولى من: إيضاح المعنى والمفهوم الحقيقي للإيمان والعقيدة في عقول وقلوب الناس، وتربية جماعة مختارة على التربية الإسلامية المستقيمة، وعليهم ألاّ تَسعَى بأي صورة من الصور للإستيلاء على الحكم، مادام المجتمع لايزال جاهلاً بالإسلام، ولاتزال القاعدة لم تَتكَوَّن، ولكن يجب أن تكون هناك قوة دفاعية متزامنة مع العمل، على وفق المنهج التربوي، تَرُدُّ الإعتداء على تلك الجماعة التي لا تريد تَسلُّمَ مقاليد السلطة بالقوة، حتى لا يتكرَّر ما حدث في سنتي (١٩٤٨م) و(١٩٥٧م) على الإخوان المسلمين، أو الذي حدث للجماعة الإسلامية في پاكستان، وإنَّ الدفاع عن الحركة الإسلامية، يجب أن تقوم به مجموعاتٌ فدائية مرتبة، لكن عليهم قبل أن يَتَلَقَّوا التدريبات العسكرية، تَلَقِّي التربية الإسلامية الكاملة في العقيدة والعبادة والأخلاق.

والخلاصة: بإمكاننا اختصار تصوُّر الأستاذ سيد وقناعته حول طريقة وأسلوب وكيفية العمل الإسلامي، في نقطتين اثنتين:

١. مع كون الإستحواذ على الحكم، يُشَكِّل الهدف والغاية النهائية المرجوَّة من العمل الإسلامي،[٢٢٩] إلّا أنه من الخطأ: محاولَةُ الحصول على ذلك من

٢٢٩) لكنّي أرى أنَّ العملَ الإسلامي أجَلُّ وأعظَم من أن يُحْصَرَ هَدَفُهُ النهائي في الوصول إلى الحكم،

القِمَّة، بل يجب أن يُعمَل لها ابتداءً من خلال تربية وتكوين الأفراد من الأساس وإيجاد قاعدة إسلامية متينة.

٢. لا يجوز أن يُفسَحَ الطريق للأعداء أن يَقضُوا على الحركة الإسلامية ويُبيدوها، بل يجب أن تُثبِتَ وجودها في السّاحة، وأن تكون لها قوة وشوكة، وإلاّ تَمَكَّنَتْ الطواغيت -متى شاؤوا- أن يُحيلوا أعمالَهم ونشاطاتهم هباءً منثوراً!

والآن بُغية تسليط الضوء على منهج الأستاذ الشهيد في العمل الإسلامي، نَعرِضُ خلاصة، الخُطوات الست التي حدَّدها بنفسه وكتبها بيده:

١. بالإستناد إلى أن المجتمعات ليس فقط ابتعدت عن الأخلاق والنظام الإسلامي، بل ابتعدت عن الإسلام نفسه، وعن مفهوم الحقيقي للإيمان والعقيدة والعبودية، لذا لابدَّ من البدءِ بالعمل، من تفهيم الناس الإسلام والإيمان والعبودية، وليس غير ذلك.

٢. الذين يَتَلَقَّون مثل هذا الفهم الصحيح، يجب أن يَتَلَقَّوا التربية في جوانب: العقيدة والعبادة والأخلاق.

٣. لا يجوز الشروع في التنظيم وبناء المجتمع، إلا بعد الإطمئنان إلى تربية عميقة للأفراد من جهة الإيمان والعقيدة والعبادة والأخلاق والوعي.

٤. ليست بداية العمل الإسلامي، هي المطالبة بإقامة الحكم الإسلامي، بل نقل المجتمع حكاماً ورعيّةً إلى الفهم الصحيح للإسلام، وإنشاء قاعدة، إن لم تكن تشمل جميع شرائح المجتمع، فلا أقَلَّ أنْ تَشمُلَ الذين لهم تأثير في توجيه المجتمعات والسَّير بهم نحو الإقتناع والعمل لإقامة النظام الإسلامي وتنفيذ شريعته.

٥. وعليه: لا يجوز الوصول إلى الحكم عن طريق الإنقلاب، بل عن طريق التغيير وتصحيح الإعتقادات والتصورات لدى المجتمع، أو على الأقل

بل الحكم شيءٌ جزئي من الغاية الكبرى التي هي: جعل الناس يعبدون الله وحده لا شريك له بالمعنى الشامل الحق للعبادة: ((يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ)).

لدى الشرائح المُؤَثِّرة في المجتمع، بأنَّ الإسلام لابدَّ أن يكون حاكماً في كل مناحي الحياة، وبذلك يسهل الوصول إلى الهدف.

٦. ولكنه في الوقت ذاته، يجب أنْ تكون هناك قوةٌ رادِعَةٌ تُدافِعُ عن مسيرة العمل الإسلامي، عندما تَتَعَرَّض للإعتداء والصَّدِّ، فمادامت الحركة الإسلامية لا تَفرِضُ نَفسَها بالقوة، فلا يجوز منعها، وإذا حصل ذلك، فمن حَقِّها الدفاع عن نفسها، وأن تستعمل القوة والسلاح بالقدر الذي يُفسَحُ مَجالُ العمل لها.

رأيي حول هذا الموضوع الحسّاس:

إنَّ الذي يُدَقِّقُ في نصوص القرآن والسنة وسيرة النبي ﷺ، يؤمن بأحقية وصوابية هذه الأسس الستة، التي ذكرها الأستاذ سيد، ولذلك فإنَّ موقف صاحب كتاب: (سيد قطب من الميلاد إلى الإستشهاد) موقف خاطيء في تخطئته لسيد قطب في الأساس السادس، بقوله: «الجماعة الإسلامية مهما يفعل بها ومعها، من قِبَلِ الأنظمة الطاغوتية الشرسة والمتسلِّطة، فإن عليها أن تلوذَ بالصَّبر ولا تُبدي أيَّ ردِّ فعلٍ حتى يُفرِج الله عنها».

والذي استشهد به المؤلف لإثبات رأيه-وإن كان صحيحاً من حيث الواقِعُ- ولكِنَّها لا يَنهَضُ دليلاً لتعضيد دعواه: إذْ صحيح أنَّهُ فيما بين عامي (١٩٦٥-١٩٦٦م) في مصر، وبداية الثمانينيات في سوريا، أَلْحَقَ النظامان الناصري والبعثي النصيري، ضربات مُوجِعَةً بالمسلمين الَّذين كانوا يؤمنون بالمواجهة، نعم هذا صحيح، ولكن:

أولاً/ إنَّ عدم تكلُّلِ عمل بالنجاح، أو فَشَلِ خُطوةٍ مُعَيَّنَةٍ لوحدها، ليس دليلاً على الخطأ ومخالفة الشرع، كما أنَّ النصر والوصول إلى الهدف، لا يعني بالضرورة الصوابيَّة وموافقة الشرع.

إذْ أَوَلا يمكن القول: إنَّ خُطة الإخوان في: (١٩٦٥-١٩٦٦م)، والمحاولات

التي قام بها مسلمو سوريا، كان فشلها بسبب أخطاء وتقصير وخلل في مراعاة الأسباب، كالتسرُّع وعدم نضوج الأفراد، وقِلَّة التجربة والوعي السياسي، وعدم الحذر والتجربة المتكاملة الوافية من الناحية العسكرية المخابراتية...إلخ؟!

ثانياً/ ماذا نفعل مع النصوص الواردة في القرآن والسنة، والتي تتحدَّث بإطلاق عن وجود المواجهة وردِّ الضَّيْم والدفاع عن المظلومين...إلخ.

ومن تلك النصوص:

١. [أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ]الحج/ ٣٩.

٢. [فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ]البقرة/ ١٩٤.

٣. [وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ]البقرة/ ١٩٣.

ثالثاً/ المسلمون سواء عليم أكانوا مدافعين وواقفين بوجه الظلم وعدوان الطواغيت، أم لا، لا يكونون-ولن يكونوا- بمنأىً عن الضرر، أَلَمْ يَقُلِ الله ﷻ: [وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟]البقرة/ ٢١٧.

فإذا كانت السلامة والعافية دليلاً على صدق المنهج وتكامله، فلاريب معنى ذلك أَنَّ المسلمين لم-ولن- يمتلكوا يوماً منهاجاً قوياً لعملهم وكفاحهم، عدا الذين سَلَّمُوا أنفسهم للأحزاب والأنظمة الجاهلية والطاغوتية ووظَّفوا أَنفُسَهُم لها!!

رابعاً/ وجَليٌّ أنّي لا أقول، ولا أُصدِّق بأن قاعدة (ردِّ الإعتداء) تؤخذ بإطلاقها، دون قيد ولا شرط، فتطبيق هذه القاعدة-كأي قاعدة وقانون ومبدأ آخر- يجب أن تتوافر لها الخبرة والمعرفة، ودراسة الواقع، وأخذ الحيطة والحذر، وإلاّ فكثير من القوانين الصائبة والمستقيمة، تَنتُجُ عنها بلايا ورزايا بسبب خطأٍ وخللٍ في التطبيق.

المحور السابع / كتابة سيد قطب لكلِّ ما رآهُ حقاً ضمن اعترافاته الَّتي أدلى بها في السجن، دون أن يَأبَهَ بالمصير الذي كان مُوقناً أنَّهُ سَيَحِلُّ به:

نعم أَيُّها القراء الأعزاء!

قولة الحق والصدق، بالصراحة التي أدلى بها سيد قطب، دون أن يُعَرِّض أحداً من أصحابه إلى أذى، موقف آخر من مواقفه البطولية الشامخة.

كتب الأستاذ الشهيد سيد قطب -ضمن اعترافاته- الكلمة الختامية التي جاء فيها:

«هذا أَهَمُّ ما يحضرني الآن عن أوجه نشاطي في الحركة الإسلامية، منذ انضمامي لصفوف الإخوان، فإن كانت هناك تفصيلات أو جوانب أخرى، فيمكن تذكيري بها بسؤال عنها.

ويبقى بعد ذلك كله كلمة ختامية أقولها؛ سواءٌ فُهِمَتْ على وجهها، أم لم تُفهم، فمن واجبي التبليغ بها، وهي تتلخَّص في النقاط المختصرة الآتية:

١. إنَّ العُنف الذي عومل به الإخوان سنة (١٩٥٤م)، بناءً على حادثٍ مُدَبَّرٍ لهم وليس مُدَبَّراً منهم -وهو حادث المنشية- والَّذي عوملوا به وحدهم، دون سائر الأفراد أو الطوائف الذين اتّهموا بمؤامرات بِقَلب نظام الحكم، أو التجسُّس أو غير ذلك، العنف الذي يتضمَّن التعذيب والقتل والتشريد وتخريب البيوت؛ هذا العنف هو الذي أنشأ فكرة الرَّدِّ على الإعتداء، إذا تكرر بالقوة؛ ولو كُنّا نعلم أنَّ الإعتقال مُجَرَّد اعتقالٍ، ينتهي بمحاكمة عادلة وعقوبات قانونية -حتى على أساس القوانين الوضعية المعمول بها- لما فَكَّرَ أحد في رَدِّ الإعتداء بالقوة، وأنا أعرف أَنَّهُ ليس هناك قيمة عملية الآن لتقرير هذه الحقيقة، ولكنَّها حقيقة يجب أنْ أُسَجِّلُها في كلماتي الأخيرة.

٢. مما لا شك فيه أنَّ تدمير حركة الإخوان المسلمين والحركات الإسلامية المماثلة في المنطقة، هدفٌ صهيوني وصليبِيٌ استعماريٌّ، وهو وسيلة من وسائل تدمير العقائد والأخلاق في المنطقة، وإنَّهُ تُبذَلُ جهودٌ، والمؤامراتُ

مُستمرَّة لتحقيق هذا الهدف، وإنَّهُ لو استُخدِمَ في معاملة حركة الإخوان، أسلوبٌ آخر، غير ما حدث، سواء في سنة (١٩٥٤م)، أو في هذه المرة، لأمكن تدمير المخططات الصهيونية والصليبية الإستعمارية في المنطقة، بَدَلاً من تدمير الحركة الإسلامية الّتي مهما قيل في أخطائها، فإنّها وقفت في وجه حركة الإلحاد المادي والإنحلال الأخلاقي التي كانت قد أخذت في المَدِّ، بعد حركة أتاتورك اللادينية في تركيا وتأثيرها في منطقة الشرق الأوسط.

٣. إنّهُ أعقبت ضرب الإخوان في سنة (١٩٥٤م)، موجةٌ من الإنحلال الأخلاقي والإتجاه الإلحادي، وسَتَعقُب ضَربَهم الآن، موجَةٌ أشَدُّ لا يعلم إلاّ الله مداها، لحساب من هذا الإنهيار؟ إنَّهُ قطعاً ليس لحساب هذا البلد، ولا حتى لحساب النظام القائم على المدى الطويل والنظرة البعيدة، فكل نظام في الدنيا، وخصوصاً النظام الناشيء في طَورِ التجربة، يحتاج إلى الأخلاق ويحتاج إلى عناصر متماسكة العقيدة والخلق، لِتَنصُرَهُ وتَحرِسَهُ، ولا يحتاج فقط إلى مُجرَّد القوة، فَضلاً على أنَّ أعداء المنطقة الحقيقيين، هم الذين سيجدون طريقهم سهلاً في النهاية، في وجه مجتمع مُنحَلٍّ عقيدياً وخُلُقياً، ومهما كانت الآذان الآن غير مستعدة لِسَماع هذا الكلام، فإن من واجبي إبلاغَهُ وتبرئة ذمتي بقوله.

٤. لقد سَمِعتُ عِدَّةَ مرَّات مَنْ يقول: وهل أنتُم وحدكم مسلمون؟ أَوَلاَ يكفيكم (المؤتمر الإسلامي) و(برنامج نور على نور) و(المساجد تقام فيها الصلاة) و(الناس يذهبون إلى الحج)...إلخ؟! فمِنْ واجبي أن أُعلِنَ: أنَّ الإسلام أكبر من كل هذا، الإسلام منهج متكامل للحياة، ولا يُقام هذا الدين إلا عن طريق تربية الأفراد تربية إسلامية صحيحة، ثم بإقامة شريعة الله في حياة الناس، وليس الإسلام عبارة عن بعض العلوم والمعارف تُنشرُ دون تنفيذها وتجسيدها، بل يجب تجسيدها ابتداء بالتربية وانتهاءً بالحكم.»

وقد كتب الأستاذ سيد-رحمه الله- في آخر كلمته الختامية يقول: «إنَّ الإسلام

لا يقـوم ولا يوجـد في بلـد ليسـت فيـه حركـة تربيـة، ثـم قيـام نظـامٍ إسـلامي، يَحكُـمُ بشريعـة الله في النهايـة.

هـذه في النهايـة كلـمات رَجـلٍ يسـتقبل وجـهَ الله، يُخلِـصُ بهـا ضمـيرَهُ ويُبَلِّـغُ بهـا دعوتَـهُ إلى آخـر لحظـة.

والسلام على من اتبع الهدى

السجن الحربي في ٢٢/ أكتوبر ١٩٦٥

سيد قطب.»

هكذا أيها القراء الأحبة!

بينـما كان الأسـتاذ الشـهيد ينتظـر أنْ يلتَـفَّ حَبـلُ المشـنقة حـول رقبتـه، في ذلـك الوقـت الحـرج والصعـب، يقـول مـا يعتقـده حقـاً -ولاشـك أنَّ كلَّ عـارفٍ بالقـرآن والسنة يعتبر ذلـك حقاً- صريحاً دون لَفٍّ ودوران، ولا دون أن يَأبَـه بـشيء، كـما قـال بنفسـه بأنَّهـا كلـماتُ رجـلٍ يسـتقبل وجـه الله، يُخلِـصُ بهـا ضمـيرَهُ ويُبَلِّـغُ بهـا دعوتـه إلى آخـر لحظـة.

المحور الثامن: موقفه الرائع أثناء التحقيق والمحاكمة:

لقد ظلَّ سيد قطب محافظاً على موقفه الصلب في قول الحق، سواء في أوقات التحقيق معه أو عند محاكمته، ولم يتنازل عن ذلك قيد شعرة، ولا يَسَعُ المَوضِعُ لِذِكر كلِّ ما قالَهُ الأستاذ سيد، من الحق الصُّراح والحديث الممتلىء حقّاً والمُفعَم بالشجاعة، في كلتا حالتي التحقيق والمحاكمة، لذلك فسنكتفي بإيراد بعض النماذج من كلتا الحالتين:

أولاً: في أثناء التحقيق معه:

١/ سؤال: إن بعض المُتَّهَمين لا يزالون يعتبرون حَسَنَ الهضيبي مرشداً، ما رأيُكَ في هذا؟

جواب: الحقيقة إنَّ هذا هو الشعور العام لدى سائر الإخوان، وأنا أيضاً أَعتَبِرُ الهضيبي لايزال مرشداً يحتفظ بمكانته.

٢/ سؤال: ماهي السبيل المتوخّاة للوصول إلى الهدف النهائي، وما الهدف النهائي في تصوركم؟

جواب: إنَّ الهدف الذي اجتمعت عليه كلمتنا، هو إنشاء نظام إسلامي يحكم بشريعة الله، ويسير على هُداهُ، وليس بالقوانين الوضعية، والسبيل عبارة عن تربية إسلامية طويلة الأَمَد تَتَمَتَّع بالشمولية.

٣/ سؤال: هل كان التنظيمُ سِرِّياً أو عَلَنياً؟

الجواب: كان سِرِّياً.

٤/ سؤال: وما هو المغزى من سِرِّيَّتِهِ، إن كانت الغاية هي التربية الدينية الأخلاقية؟

جواب: من منطلق أَنَّنا قد تَشَكَّلَتْ لدينا قناعةٌ استنبطناها من التجارب السابقة، وخبرتنا بالمخططات والمكائد النصرانية والشيوعية والصهيونية في المنطقة، الذين يناصبون العداء لأية تربية إسلامية ناشطة، تسير نحو إنشاء كيان ودولة إسلامية، ويقفون بوجهها ما أمكنهم ذلك.

٥/ سؤال: ما هو رأيُك بالنظام الحالي؟

جواب: أنا أعتبرهُ نظاماً جاهلياً.

٦/ سؤال: إذن أنت تعتقد ضرورة تغييره؟

جواب: نعم، أعتقد ذلك عندما يَتَسَنَّى وجودُ كيانٍ ونظامٍ إسلامي.

٧/ سؤال: ماهو الطاغوت في نظرك؟

جواب/ الطاغوت كلُّ منهج غير منهج الله سبحانه وتعالى.

٨/ سؤال: ألا تعلَم أنَّ تكوين تنظيم كهذا، مُخالِفٌ للقانون ويُعَرِّضُك مع جماعتك لعقوبة القانون؟

جواب: أعرف هذا، ولكنّي مُضطر لانتهاج تلك السبيل، لأنّها الأسلوب الوحيد لتربية إسلامية ناجحة، على رغم منع القانون لذلك.

٩/ سؤال: وكيف يكون مخالفة القانون والقيام بالجريمة أُسلوباً للتربية؟ وهل ترضى بذلك الشريعة الإسلامية؟ والحال أنَّ الإسلام هو دين الدولة الرسمي؟

جواب: طالما بقي القانون يمنع المسلم من القيام بواجبات دينه، من إفهام الناس وتوضيح طريق الهداية لهم، إذاً: فالتقصير والخَلَلُ في القانون نفسه، لأنه يُعادي أَحَدَ الأسس الإسلامية.

١٠- سؤال: وهل يوجد في القوانين الحالية -في نظرك- ما يَمنَعُ المسلم من القيام بواجباته الدينية وتوضيح الدين للناس؟

جواب: في اعتقادي أنَّ القرار الخاص الذي أُوقِفَ عَمَلُ الإخوان ونشاطاتهم بموجَبِهِ، وهم يُنَفِّذُون الواجبات الدينية بطبيعة الحال، مُخالِفٌ لأمر من الأوامر الدينية.

ثانياً/ في أثناء المحاكمة:

شَكَّلَ الدكتاتورُ الغاشم جمال عبدالناصر محكمة عسكرية، لمحاكمة سيد قطب وزملائه الإثنين والأربعين، بقيادة ضابط (دُمية) وضيع وجبان، بذيءُ اللِّسان، يُدعى (أحمد فؤاد الدجوي)، وقد بدأ بمحاكمة سيد قطب في (٩/ ٤/ ١٩٦٦م).

ويجدر بالذكر أنَّ المحاكمة كانت ظالمة وتافِهَة، حتى بمقياس القوانين الوضعية، وكانت مثارَ نقدٍ ولوم، واعتبرت المحاكمة في حينها بأنها غير قانونية، كما أصدرت مُنظَّمة العفو الدولية في (١٥/ ٤/ ١٩٦٦م)، بياناً للصحف والرأي العام العالمي، وفيه يَتَّهِم محكمة (مصر) بشأن انتقادات قانونية في تلك المحاكمات.

وهذه باقة مختارة من إجابات سيد قطب المُتَقاطِرَةِ جُرأةً وشجاعةً، أثناء محاكمته من قبل الدمية الغبي: (فؤاد الدَّجوي)؛ بعد مناقشة بين الدجوي وسيّد قطب حول تنظيم الإخوان، وتوضيح حقيقة: أنَّ سَيِّد عندما رأى وسَمِعَ بأنَّ جماعة الإخوان مُزمِعُون على الإنتقام لإخوانهم سنة (١٩٤٥م)، وأنَّهُ أوضَحَ لَهُم بأن ذلك العمل مَخاوِفُهُ أكبر من منافِعِهِ، وأنّهُ: أحدث انعطافةً في أسلوب عملهم، وذلك بتوجيههم إلى منهج تربوي -بعد تلك المناقشة- جرى هذا الحوار:

⇐ سيد: وقد بَدَأتُ بإفهامهم حقيقة: أنَّ الإنتقام هَدَفٌ صغير.

- الدجوي: وما هو الهدف الكبير؟

⇐ سيد: الهدف الكبير هو تنشئة جيل من الشباب المسلم الواعي المُتَفَهِّمِ لدينه، الواعي بشؤون مجتمعه، كي يصبحوا النواة الأساسية لتكوين مجتمع إسلامي.

- الدجوي: والحكم؟

⇐ سيد: الحكم كما أفهمتهم، في تَصَوُّري، يجب أن يكون التغيير من الأساس، وليس من البداية، والأساس هو تكوين جيل من الشبّان.

- الدجوي: في رأيك يبدأ من الأساس ليصل إلى أين؟ يصل إلى القمَّة، أو يقف في منتصف الطريق؟ أنت تحدثت عن مكان القيام، ولم تَتَحَدَّث عن مكان الوصول.

⇐ سيد: لاشك ليصل إلى الحكم، والسلطة الإسلامية تتكوَّنُ من هؤلاء.

- الدجوي: أي تتسلمون مقاليد الحكم.

⇐ سيد: نعم إنَّني أُفصِحُ عن حديثٍ ورأيٍ يُكتَبُ للتأريخ.

نعم يا إخوتي القراء!

هـذا مـا كان مـن موقـفٍ دونـه الشَّـمُّ الـرواسي، أبـداه أسـتاذُنا الشـهيد، عنـد استجوابه مـن قبـل المُحَقِّقـين وأمـام المحكمـة، كـما نـرى فالإعتقـادات والتصـوُّرات نَفسَـها كَتبَهـا وعَرَضَهـا الأسـتاذ في تفسـيره: (في ظـلال القـرآن) وباقـي كتبـه، خصوصـاً في كتابـه: (معـالم في الطريـق)، وَلَمْ يَطـرَأْ عـلى تلـك التصـورات، تَغيـيرٌ عـلى الإطـلاق، بـل ربـما كان عَرضُهـا هنالـك، أَشَـدُّ وضوحـاً، وأحسـن بيانـاً، وأكثـر تسـليطاً للضـوءِ عليـه.

المحور التاسع: موقفه العظيم في فترة انتظار الحكم:

مضى أربعةُ أشهرٍ على محاكمة (سيد قطب) وهو ينتظر صدور حكم الإعدام المتوقَّع عليه، وفي تلك الآونة سُمِعَتْ منه كلماتٌ، تُنَبِيءُ عن المقام الرفيع لهذا الخليفة الأصيل للنبيﷺ:

١. حكى أحمد رائف، أنَّهُ التقى ذات مرة بسيد في طريق المطبخ، فقال له: ماذا تنتظر؟ فأجاب بابتسامة واثقةٍ من صدرٍ مِلؤُه السّكون، قائلاً: «أَنتَظِرُ الوفودَ إلى رَبِّي».

٢. وقال في تلك المدة أيضاً: إنه آن أنْ يُقَدِّمَ إنسانٌ مُسلمٌ، رأسَهُ ثمناً لإعلان وجود حركة إسلامية.

٣. وقال في رسالة له كتبها إلى أحمد عبدالغفور عطار-إضافة إلى رسالة أخرى أرسلها إليه- وقد نُشِرَ نَصُّ الرِّسالة بخط الأستاذ سيد، في مجلة (كلمة الحق) في مكة العدد/ ٢ في مايو (١٩٦٣م)، جاء فيها: «لقد وَجَدتُ الله كما لم أَجِدهُ من قبل قطُّ، لقد عَرَفتُ مَنهَجَهُ وطريقه كما لم أعرفه من قبل قط، ولقد اطمأْنَنتُ إلى رعايته ووثقت بوعده للمؤمنين، كما لم أطمَئِنُّ من قبل قط، وأنا بعد ذلك-على ما عَهِدتَني- مرفوع الرأس لا أَحنيهِ إلاّ لله، واللهُ يفعل ما يشاء، (وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ)».

المحور العاشر: موقفه المُفعَمٌ بالإيمان الدالّ على إمامته، بعد صدور الحكم، وقبل تنفيذ الإعدام:

وقد جَرَتْ محاولاتٌ عديدة مع (سيّد قطب) قبل إعدامه، كي يُبدي تنازلاً من جماعة الإخوان والتنظيم الجديد، وطُلِبَ منه أن يكتب إلى عبدالناصر سَطراً واحداً، أو جملة واحدة، يعتذر فيها، لكي يُفرِجَ عنه، ويُعطيه مَنصباً مرموقاً.

وقد استمرت تلك المحاولات، حتى الليلة التي أُعدِم فيها، ولْنَستَمِع إلى شقيقته (حميدة) تحكي لنا القصة، كما جاء في كتاب: (أيام من حياتي): [٢٣٠]

«إستدعاني حمزة البسيوني إلى مكتبه، وأراني حكم الإعدام، والتصديق عليه، ثم قال لي: إنَّ الحكومة مُستَعِدَّةٌ أن تُخَفِّف هذا الحكم، اذا كان شقيقي يُجيبهم إلى ما يطلبون، ثم أَردَفَ قائلاً: إنَّ شقيقك خسارة لمصر كُلِّها، وليس لكِ وحدكِ، إنَّني غيرُ مُتَصَوِّرٍ أن نَفقِدَ هذا الشخص بعد ساعات، إنَّنا نُريد أن نُنقِذَهُ من الإعدام، بأي شكلٍ وبأي وسيلةٍ، إنَّ بِضعَ كلماتٍ يقولُها سَتُخَلِّصُهُ من حكم الإعدام، ولا أحد يستطيع أن يُؤَثِّر عليه إلاّ أنتِ، أنتِ وَحدَكِ مُكَلَّفَةٌ بأن تقولي له هذا، أنا مُكَلَّفٌ بأن أُبَلِّغَهُ هذا، ولكن لا أحد أفضل منكِ في تبليغه هذا الأمر، بضع كلمات يقولها، وينتهي كُلُّ شيءٍ.

نريد أن يقول: إن هذه الحركة كانت على صلة بجهةٍ ما، وبعد ذلك تنتهي القضية بالنسبة لك، أمَّا هو فَسيُفرَجُ عنه بعَفوٍ صِحِّي!

قلت له: ولكنَّك تعلم كما يعلم عبدالناصر، أنَّ هذه الحركة ليست على صلةٍ بأيّ جِهةٍ من الجهات!

قال حمزة البسيوني: أنا عارف وكلُّنا عارفون: أنَّكُم الجهة الوحيدة في مصر التي تعمل من أجل العقيدة، نحن عارفون أنَّكُم أحسن ناسٍ في البلد، ولكنَّنا نُريدُ أن نُخَلِّصَ (سيد قطب) من الإعدام.

قلت له: إذا كان سيادتك عاوز تبليغه هذا، فلا مانع..

فنظر إلى صفوت وقال: خُذها يا صفوت إلى أخيها.

٢٣٠) (أيام من حياتي) لزينب الغزالي ١٨٣-١٨٤.

وذَهَبتُ إلى شقيقي وسَلَّمتُ عليه، وبَلَّغتُهُ ما يريدون منه، فنظر إليّ ليرى أثَرَ ذلك على وجهي، وكأنه يقول: أَأَنتِ الّتي تطلبين أم هم؟ واستطعت أنْ أُفهِمَهُ بالإشارة: أنَّهم هم الذين يقولون ذلك، فنَظَرَ إليَّ قائلاً: والله لو كان هذا الكلام صحيحاً، لَقُلتُهُ ولما استطاعت قوةٌ على وجه الأرض أن تَمنعني قَولَهُ، ولكنَّهُ لَم يَحدث، وأنا لا أقول كَذِباً أَبداً.

سألَ صفوت: يعني ده رأيك؟

أجاب بقوله: نعم.

فَتَرَكَنا صفوت وقال: على العموم تَقدِروا أنْ تَقعدوا مع بعض شويه.. وانصرف وأَفهَمتُ أخي الحكاية من أَوَّلِها، وقلت له: إنَّ حمزة استدعاني وأراني تنفيذ حكم الإعدام، وطلب مِنِّي أن أطلب منك هذا الطلب.

سأل: وأنتِ تَرضَين ذلك؟

قلت: لا.

قال: إنهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرّاً ولا نَفعاً، إن الأعمار بيد الله، وهم لا يستطيعون التَحَكُّمَ في حياتي، ولا يستطيعون إطالة الأعمار أو تقصيرها، كُلُّ ذلك بيد الله، والله من ورائهم محيط». [٢٣١]

وقد رُوي عن الأستاذ سيد قطب بعض الكلمات، وذلك قبل إعدامه بيوم واحد، ونحن نختار منها سبعاً:

١. سألَهُ أحد إخوانه: لماذا تَحَدَّثتَ بهذا الوضوح والصراحة، في المحكمة الّتي تَملِكُ رقبتك؟

فأجاب: لأن التورية لا يجوز في العقيدة، والقائد لا يَحِقُّ له أن يعمل بالرُّخَص، بل عليه أن يعمل بالعزائم.

٢. وعندما تُلِيَ عليه حكمُ الإعدام قال:

«الحمد لله، لقد عَمِلتُ خمسة عشر عاماً لنيل الشهادة».

---

٢٣١) (أيام من حياتي) لزينب الغزالي ١٨٣-١٨٤.

٣. وقال لشقيقته (حميدة) عندما قابَلَتْهُ:

«إذا رأيتِ المرشد الوالد، فبَلِّغهُ سلامي وقولي له: لقد تحَمَّلَ سيد أقصى ما في مقدور الإنسان أن يَتَحَمَّلَهُ، كي يبقى هو بعيداً عن الأذى».

٤. وعندما طُلِبَ منه أن يكتب اعتذاراً، مقابِلَ الإفراج عنه، قال:

«لَنْ أَعتَذِرَ عن العمل مع الله».

٥. وعندما طُلِبَ منه أن يَكتُبَ بعض الكلمات للطاغية عبدالناصر، وأنْ يَطلُبَ فيها الإشفاق عليه، قال:

«إنَّ أُصبُعَ الشهادة التي يشهد بالوحدانية في الصلاة، ليأبى أن يكتُبَ حَرفاً يُقِرُّ به حُكمَ طاغيةٍ».

٦. وعندما طُلِبَ منه أن يكتب استرحاماً، قال:

«لماذا أستَرحِمُ! إن سُجِنتُ بحقٍ، فأنا أقبل حكمَ الحق، وإن سُجِنتُ بباطلٍ، فأنا أكبر من أن أسترحم الباطِل».

٧. ويُحكى أنَّ شيخاً من أتباع الحكومة لَقَّنَهُ الشهادة، قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه، فقال: «في سبيل الشهادة أُعدَمُ».

ختاماً:

في ختام هذه الباقة العطرة الّتي اخترناها من مواقف الأستاذ سيد قطب رحمه الله، وجدت من الضروري إبداء هاتيك الإيضاحات:

١. ما من ريب أنَّ سيد قطب واحد من العلماء الأعلام والأئمة الكرام، لكنّهُ مع نبوغه وعلمه ومكانته -كغيره- لم يكن معصوماً من الخطأ والزلل، وخصوصاً أنَّهُ لَم يَتَسَنَّ له التحقيق في مصادر التراث الإسلامي، ولم تَسنَح له الفرصة لأسبابٍ ليست خافية.

٢. ولكن أحداً يملك ذَرَّةً من ضمير، لا يستطيع إنكار فهم الأستاذ سيد قطب العميق والصحيح للعقيدة والشريعة، وكثيرٍ من قضايا السياسية الشرعية، وهو في نظري في هذا المجال، كان مجتهداً بارِعاً.

٣. وما يُعزى إلى الأستاذ من أنَّهُ كفَّر المجتمعات، لا يَمُتُّ إلى الحقيقة بصِلَةٍ، لأنه ذكر عن هذا الموضوع كلاماً صريحاً دون مواربة في رسالته: (لماذا أعدموني؟) والتي جاء فيها:[٢٣٢]

«وقد قلت له: أنَّنا لَمْ نُكَفِّرَ الناسَ، وهذا نَقلٌ مُشَوَّهٌ، إنما نحن نقول: إنَّهُم صاروا من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة، وعدم تصور مدلولها الصحيح، والبعد عن الحياة الإسلامية، إلى حال تُشبِه حالَ المجتمعات الجاهلية، وإنَّهُ من أجل هذا، لا تكون نقطة البدء في الحركة الإسلامية، هي قضية إقامة النظام الإسلامي، ولكن تكون إعادة زرع العقيدة والتربية الأخلاقية الإسلامية، فالمسألة تَتَعَلَّق بمنهج الحركة، أكثر مما تَتَعَلَّق بالحكم على الناس».

٤. وهناك مَن سَوَّدَ الحِقدُ البغيض قلوبَهُم، نحو هذا الإمام الداعية، فتراهم كالذُّباب الذي لا يقعُ إلاّ على كلِّ خبيثٍ نَجِس، ليس لهم عملٌ إلاّ البحث وراء زلاّته -أو ما يعدُّه هم من الأخطاء والزلاّت-، وليس من إنسان مُبَرَّء من العيب والنقص، ويتصاممون ويتعامون عن تلك المواقف العظيمة للأستاذ سيد، ويُقَلِّلون من شأنِ الكتابات الرصينة، والعلم النافع الصحيح الذي ورد في كتاباته وتفسيره للقرآن، ومنهم مَنْ يَعُدُّ نفسه عالِماً، فتراه يُضَيِّع أَدَبَ العالم، فَيُوَجِّه إلى سيد قطب وابلاً من الكلمات النابية والكلام المُتَدَنِّي،[٢٣٣] فهؤلاء يجب أنْ ندعو الله أنْ يُزيلَ الغشاوة عن أبصارهم، وأنْ يُنَجِّيهم من آفة التقليد والتعصُّب، وأنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُم مما عَلَّقَ بها من أدران البغض والحقد.

---

٢٣٢) يُنظَر: الرسالة المذكورة، ص ٣٦-٣٧، وكذلك: (شبهات في الفكر الإسلامي المعاصر) لمستشار علي البهنساوي، ص٣١١-٣٢٤، و يُنظَر: (ذكريات لا مذكِّرات) للأستاذ عمر التلمساني.

٢٣٣) ومن هؤلاء، شيخ ذو لسانٍ بذيء من اليمن، يقول عن تفسير: (في ظلال القرآن) (في ضلال)، غافلاً عن أن كلامَهُ هذا مع كونه إساءة أدب مع رجل كسيد قطب، فإنه إساءة أدب مع القرآن أيضاً، لأنّه ليس في كتاب الله، ضلال!

٥. ومع أنْ المساحة المخصصة لإظهار مواقف الأستاذ كانت أرحب من العلماء الآخرين، ولكن الأستاذ الشهيد له من الحق الكثير الكثير على كاهلي؛ استفدتُ كثيراً على كتاباته وخصوصاً تفسيره: (في ظلال القرآن) عندما كنت أسعى لفهم الإسلام، في مقتبل عمري، وكذلك فإنَّ مواقف الأستاذ جديرة بأن تُخَصَّص لها هذه المساحة في كتاب يَتَحَدَّث عن مواقف العلماء، وإنَّ أيّاً من مواقف هذا الفارس المغوار، في ميدان العمل الإسلامي، -كحال إخوانه العلماء- مَعلَمٌ من المعالم البارزة، يُضيء دَربَ الإسلام والعبودية الحقة لله، والقتال والجهاد في سبيل الله تعالى.

آخر ما أُريدُ قَولَهُ
حول المواقف المجيدة للعلماء

١. قد أسلفنا القولَ فيما مضى، بأنَّ العلماء والأئمة الذين قُمنا باختيار باقةٍ من مواقفهم، لنتحدَّث عنها، ليسوا وحدهم، بل هناك الكثير من غيرهم، والذين ذكرناهم، هم نماذج من هؤلاء.

٢. حتى لا نكون عُرضَةً للخطأ والحَيف، ونحن نُقيِّم ونُثمِّنُ مواقِفَ العلماء والأئمة، يَنبَغي أن نتعرَّف جيداً إلى الظروف البيئية التي عاش فيها كلُّ من هؤلاء، وحينذاك سَتَتَبَيَّنُ لنا الحكمة، وراء بعض مواقفهم، وقد أحسَنَ الأستاذ سعيد النورسي بقوله:
«لو عاش (عبدالقادر الجيلاني) و(سيد أحمد السرهندي) في زمني، لكتبا: (رسائل النور)، ولو كنت في زمنهم لكتبت: (الفتح الرباني) و(المكتوبات)».

٣. إنَّ العلماء وإن كانوا موضع اقتداء لنا، نقتفي أثَرَهُم ونأخذ منهم العِبَر، ولكن يجب أن نكون حَذِرين، لأنه نادراً ما يمكن تكرار تجربة عالِمٍ أو إمام طبق الأصل، بسبب الإختلاف الحاصل في الظروف والأوضاع والبيئات المتنوِّعة، وخصوصاً في مجال العمل والكفاح السياسي الشرعي.

٤. لا يجوز أن يتحوَّل حُبُّنا وتقديرنا للعلماء والأئمة، إلى مُسَوِّغ لعدم إعمال عقولنا والإكتفاء بتراث هؤلاء ونِتاجاتهم، لأنَّنا بذلك نُعَرِّضُ أنفُسَنَا ودِينَنَا إلى الجمود، ونكون أسوأ شاهد على خير دين.

٥. حصل لدى بعضٍ من أهل العلم سواء مِمَّن ذكرناهم، أو من غيرهم، جرّاء عوامل ذاتية وموضوعية، وفي الأغلب نتيجة ردِّ الفعل، شيءٌ من الغلو أو الإفراط في تضخيم جانبٍ ما، على حساب الجوانب الأخرى من الإسلام، فعلى سبيل المثال:

١) ضَخَّمَ أبو حامد الغزالي جانب الزُّهد والروحانية، في كتابه: (إحياء علوم الدين) كثيراً، بحيث أخَلَّ بحالة الإتزان الدقيق بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة... في الإسلام!

٢) ضَخَّمَ كلّ من: (أبي الأعلى المودودي) و(سيد قطب) جانب الحكم والسياسة وتكوين الدولة الإسلامية والتغيير السياسي كثيراً، على حساب الجوانب الأخرى، وكأنَّ تنشئة الكيان السياسي في الإسلام، هي الغاية القصوى أو غاية الغايات في الإسلام.!!

الفصل الخامس

تقشيع لضباب تهمة:
أن التيّار الإسلامي
لا يُحِبُّ العُلماءَ ولا يُجِلُّهُم !

تمهيد

أحبتي القرّاء!

لقد خَصَّصنا هذا الفصل للردِّ على حديث مسموم ودعايةٍ مُغرِضة، ولا تَعدو -في الواقع- أكثر من كونها تهمةً مجرَّدةً، وقد كان -ولا يزال- إضلال الناس وتمويههم والتشنيع على أهل الحق وتحقيرهم في أعين الناس، ونَبزِهم بالألقاب المُنَفِّرة، هو السلاح الأمضى بيد الفراعنة والطواغيت -قديماً وحديثاً- ضد أنبياء الله عليهم السلام وحاملي مشاعل النور بعدهم.

أنظروا إلى فرعون الطاغية المُتألِّه الذي ادَّعى الألوهيّة، أيّ تهمة باطلة عزاها إلى موسى عليه السلام، كي يُلَطِّخ بها سُمعَتَهُ وشخصيتَهُ، ويُثير عليه الدَّهماء:

[وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ]غافر/ ٢٦.

هذا هو إخلاص الفراعنة وحرصهم على دين الناس وحياتهم، إلى درجة لا يبالون بالخالق العظيم بالةً، وهم مُستعدُّون -من أجل دين الناس وحياتهم- أنْ يقتلوا أنبياء الله عليهم السلام! فيا له من إخلاص فرعوني للدين!

ولكن بربكم! من يُصَدِّقُ بالأحاديث البَرَّاقة الجوفاء للفراعنة -إلاّ من بلغ ذروة الغفلة والجهالة- بأن ما يعلنونها من حرب لا هوادة فيها ضد جبهة الحق، هي من أجل الله وليست من أجل الدنيا؟!

مَنِ الذي يجهل أنَّ الفراعنة داسوا بأرجُلِهم دينَ الناس وحياتَهم وحياءَهم وكرامتهم؟!

إنَّ شخصاً -أو جهةً- يَدَّعي الرّبوبية: [أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ] النازعات-٢٤-، والألوهية: [لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ]الشعراء-٢٩-. ليت شعري كيف يمكن أن يُصَدَّق أنَّها تُدافِعُ عن دين الناس ومعاشهم، وأنَّ نيَّتَهُ خالصةٌ لله؟!

وهل أبقى لله والناس شيئاً، يُدافعُ عنه؟

والواقع المُرُّ يشهد أنَّ دين الله بأسوَءِ حالٍ، وحال الناس إلى تدهور وضياع تحت ضغوط الفراعنة والطواغيت المعادية لدين الله تعالى.

إنَّ الجماهيرة المضطهدة لتعلو آهاتُها مِن قِلَّة الدين وسوء المعيشة، فهل يَتَصَوَّر مَن أُعطِيَ حَظّاً من العقل والتحقيق -والحالة هذه- أن ثرثرة الفراعنة وضوضاءَهم في الدفاع عن دين الله، ليست إلاّ تضليلاً وتمويهاً؟!

وعلى كلِّ حال فَسَنَسعَى جاهدين في هذا الفصل، أن نُقَشِّعَ -بنور الحقيقة- ضَبابَ تُهمة تُعزى إلى الإسلاميين، وهي عبارة عن أنَّ: (الإسلاميين لا يُحِبُّون علماء الإسلام، ولا يُجِلُّونَهُم).

ولنتأمل إلى أي مدىً تَصِحُّ هذه التهمة، أمْ أنَّها -على العكس تماماً- تُهمةٌ جوفاء، كالقَشَّة في ميزان الدليل والتقييم.

فدونكم سبعة مباحث، أُشبِعَ فيها الحديث، واحداً في إثر آخر، لإزالة ذلك الغَبَش.

المبحث الأول

الإنتقاد للشيء والإهتمام به، دليل على الحرص عليه

لئن كانت التُهمة قد بُنِيَتْ على أساسٍ: توجيه الإسلاميين اللَّومَ إلى العلماء، على تقصيرهم، فتُهمتَهُم على هذا الأساس تُهمة باطلة، لأن الإنسان لا يُعيرُ شيئاً اهتمامه، ولا يَصرِفُ فيه جهودَهُ، ولا يكون دائِمَ الذِكر له، إلاّ اذا كان ذلك الشيء، قَد أَخَذَ مَأخَذاً مُهِمّاً في حياته، إذَن: فتوجيه النقد وإبداءُ الملاحظات -على العلماء والأئمة- إنْ لم يَكُنْ باعِثَةُ العِداءُ وعدم الإحترام- ليس لا يعتبر دليلاً على عدم احترامهم وحُبِّهُم وتقديرهم فَحَسْبُ، بل على العكس من ذلك، فهو دليلٌ ساطِعٌ يُثبِتُ حِرصَهُم وصفاءَ وُدِّهُم وإخلاصهم لهؤلاء العلماء، والنبي ﷺ يقول فيما رواه البيهقي عن أنس[٢٣٤]: ((مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَم لِلمُسْلِمِين فَلَيسَ مِنْهُم)).

وعليه: فالإهتمام بالأئمة والعلماء والحرص عليهم، بأيّة صورة، يَصُبُّ في مصلحتهم ويكون باعثاً على إنعاش قدراتهم وتقدُّمهم في مجال عملهم، وذلك من أوجب الواجبات الشرعية على جميع المسلمين، وفي مقدّمتهم التيّار الإسلامي بجميع أطيافِهِ ومكوناته.

٢٣٤) يُنظَر: (كشف الخفا ومزيل الإلباس) ج٢ ص٣٦٨.

المبحث الثاني

إن القرآن والسنة والتأريخ الإسلامي، والواقع المشاهَد للعيان، شاهدٌ ودليلٌ على أن العلماء كان فيهم - وسيكون- الفاضل والأفضل والمحسن والمسيء

إنطلاقاً من كون العلماء بشراً كالآخرين، والإنسان-بنص الحديث- ليس مُنَزَّهاً عن الأخطاء-قليلهِ وكثيرهِ-: ((كَلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاء، وَخَيْرُ الخَطّائِينَ التَّوَّابون)) أخرجه الترمذي: ٢٤٢٣، وابن ماجة: ٢٤٣١ وسنده قوي.

ولأن العلماء أبناء بيئاتهم ومجتمعاتهم، وهم واقعون تحت تأثير المحيط الذي يعيشون فيه إيجاباً وسلباً-على تفاوتٍ- فَتَوقُّع العصمة منهم، تَوَقُّعٌ في غير محلِّهِ، أيّاً كان ذلك العالِمُ، كما أسلفنا ذلك مراراً.

وبالتأمل واستقراء التأريخ القديم والواقع المعاصر، يَتَّضح ما قلنا، وضوح الشمس في رابعة النهار، فالعلماء حالُهُم حالُ الطبقات الأخرى للمجتمع، فلا غَروَ فيهم الحَسَنُ والسَّيِّء، والأحسن والأسوأ، وهذه الحقيقة، من الوضوح والجلاء بحيث لا يُحوِجُها مِنّا الإستدلال لها والحديث حولَها، وكل ما عُنِيتُهُ هنا: أن يعلم الجميع أنَّهُ مادام العلماء والأئمة فيهم الصالح وغير ذلك، فَيَتَعَيَّن فيهم المَدح والذم كلٌّ بِحَسبِهِ، ولا غُبار على ذلك البَتَّة، وهي حقيقة شهد لها القرآن ونَطَقَت بها السنة وتضافرت عليها أحداث التأريخ كالبَدرِ ليلة التمام.[٢٣٥]

---

٢٣٥) أورد الإمام الغزالي في الجزء الأول من (إحياء علوم الدين)، مبحثاً بعنوان: (علماء الآخرة وعلماء السوء).

المبحث الثالث

التشنيعُ على علماء السوءِ وانتقادهم وبُغضهم، فيه تقديرٌ واحترامٌ للعلماء من أهل الفضل وليس العكس

إنَّ من نافلة القول أنَّ الناس يُشيدون بالمحاسن ويَمدَحُونَها، ويكرَهُون المساويء ويذُمُّونَها، وقَلَّما يخطيء الحِسُّ العام للناس، بسبب الفطرة الَّتي فطرهم الله عليها.

وبالنظر إلى أنَّ الله جَلَّت حكمته، ورسولُهُ الودود الشفيقﷺ قد امتدحا أهلَ الصلاح من العلماء، وذَمَّا أهلَ السوء منهم، فلذلك يَحِقُّ لنا -إن لم يكن مفروضاً علينا- أن نمدح -في ظِلِّ وحي الله، مُحسِنَهُم، ونَذُمَّ مُسيئَهُم، حتى لا يحترق المُحسِنُ بِنارِ المُسيء، ولا يُخفي المُسيء مساوئَهُ بجانب المُحسِنِ.

والحقيقة أنَّه إذا فُرِّقَ بين محاسنِ العلماء ومساوئهم، كما يُفرَّقُ بين الحشيش والحَبِّ، وَوضِعَتِ الأعمال في الغربال، ففوق أنَّ أيَّةَ إساءة لِلأَدَب، لَن يُمارَس مع العلماء، بل على العكس تماماً، سَيُحتَرَمُون ويُقَدَّرون حَقَّ قَدرِهِم، فإذا تَبَيَّنَ للناس: أنَّ فُلاناً الذي باعَ دِينَهُ، ليس من ضمن العلماء، بل هو شخص غريب معدود في صفوفهم ظُلماً، فآنئذٍ، سيكون ما صَدَرَ مِن لَومٍ وتقريعٍ وملاحظات للناس على الذي باع دينه، يكون مُختَصَّاً به وحده دون الصادقين من العلماء، ويكونُ مردوداً عليه كالنقد المزوَّر يُعاد إلى صاحبه، لا أن تُعَمَّمَ تلك المساويءُ على سائر أهل العلم، ويُقال لذلك الدَّعيِّ: إنَّ هذه التُرَّهات[٢٣٦] من عند نفسك، وليس من توجيهات الإسلام، ولا من تراث العلماء وأئمة الإسلام!

---

٢٣٦) أي: الأفعال والتصرفات والمواقف المُشينة الّتي سَبَّبَت أمتعاض الناس وأنتقادهم ولومهم. والترَّهات: في أصل اللغة هي الطرق الصِغار التي لا توصِلُ سالكيها للهدف، القول الخالي من النفع، والباطل. يُنظر: المعجم الوسيط، ص٨٥.

لـذا، فليـس للعلـماء وأهـل الصـلاح، أن يَسـتاؤوا مـن النقـد والتقريـع واللَّـوم الموجَّـه إلى الحُثالـةِ المُختَبئـة في ثيـاب العلـماء،[٢٣٧] بـل يجُـدُرُ ببائـع دينـه، أن يكـون مسـتاءً ومُغتاظـاً: (وعـلى نفسـها جَنَـت براقـش) و(الخائـن خائـف) كـما يقـول المثـل.

٢٣٧) شريطة أن يكونوا كذلك، لا أن يحُرَقَ الأخضر واليابس، ويُذكَر المُحسِنُ والمُسيء معاً!

المبحث الرابع

لا يَصِحّ توجيهُ النَّقد إلى العلماء وحدهم، وليسوا هم الملومين دون غيرهم

إنَّ الأمة -عن بكرة أبيها- مسؤولة عن الحالة المُتَرَدِّية التي وقعت فيها، وليس عَدلاً أنْ يُعزى التقصير إلى العلماء والأئمة وحدهم، ولذا فإن الذي يُجري تحقيقاً دقيقاً وعميقاً مُستَنِداً على بَيِّنات الواقع، لِيُعايِنَ هذه الحالة المُزرية للأُمّة التي يُرثى لها، لَيُضطَرُّ أن يُنحِيَ باللائمة على كافة شرائح المجتمع وطبقاته: رؤساءَ ورعية، علماء وعواماً، شيوخاً وشباباً، أثرياءَ وفقراء...إلخ، ولكن المسؤولية تَزداد وتَتَضخَّم، كُلَّما كان المَنصِبُ أرفَعَ، والقدرة أوسَعَ والكلمة أَنفَذ.

وكما قلنا في الفصل الثالث، فإنَّ تقويم الإنحراف وإصلاح الظروف والواقع المُرّ، لابُدَّ أن يبدأ شروعُهُ من العلماء والأئمة والأساتيذ، ونسألُ الله تعالى ألاّ نكون مِمَّن قال فيهم: [وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم]محمد/ ٣٨.

وإنَّ الذي يُلقي بالمسؤولية عن هذه الأوضاع على عاتق العلماء وحدهُم ويُبَرِّيءُ غيرَهم منها، فذلك أُتِيَ من جانِبِ ضَميره من جهة، وهو جاهلٌ بالواقع من جهة أخرى، وليس معقولاً في الوقت نفسه، أن تُبَرَّأَ ساحَةُ العلماء ويخرجوا من هذه الطوام أبرياء، كأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد!

وفي قصة موسى عليه السلام، بَيِّناتٌ ورشاد، لمن أراد أن يَعتَبِرَ، وذلك عندما تَأَخَّرَ رُجوعُ موسى عليه السلام من جبل الطور بالتوراة، فَعَبَدَت بنو إسرائيل العِجلَ بتزيين السامري ذلك لهم وصُنعِهِ العجل لهم من الحُليِّ الذي كان معهم:

١. فقد ألقى موسى عليه السلام باللائمة ابتداءً على الناس أنفسهم، واعتبرهم المسؤولين عمّا حَدَث: [فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا]طه-٨٦-.

٢. ثـم تَوجَّـه مباشرةً إلى أخيـه هـارون عليه السلام وانتقـده بِشِـدَّةٍ، وأخَـذَ برأسـه ولِحيَتِـهِ: [قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى]طـه:٩٢-٩٣.

٣. ثـم بـدأ في تقريـع الـذي هـو كالنـار تحـت الهشـيم: (سـامري) الـذي وَلِـهَ بعبـادة العجـل: [قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ]طـه-٥-.

إذاً:

١. فالجماهـير مسـؤولة قبـل كلِّ أحـد، وعليهـم أن يكونـوا عـلى وعـيٍ وحَـذَرٍ عظيـم، ولا يُخالِفُـوا أَمـرَ علمائِهـم وأئمتهـم، لِئَـلاَّ يقعـوا فريسـة في أحابيـل المخادعـين والكائديـن.

٢. والعـالم مُرشِـدٌ ومسـؤول، وعليـه أن يكـون راعيـاً ورقيبـاً واعيـاً، يَحمِـلُ هَـمَّ قومِـهِ، حتـى لا يميلـوا عـن الجـادة ويقعـوا في الهاويـة.

٣. وخِتاماً: يُلام ويوبَّخُ أهلُ السوءِ والعداء، ويُحاسَبون ويُعاقبون.

المبحث الخامس

وللإسلاميين -كذلك- أخطاء وهفوات،
وليسوا جميعاً على تصور واحد

في الوقت الذي نرفض أن يُعزى إلى الإسلاميين قاطبةً، التُهمة التي مفادُها أنهم لا يَحترمون العلماء، ولكن كي لا يُساء فَهمُنا، فهنا حقيقتان يجب علينا أن نعرضهما:

١) من الجور اتّهام الإسلاميين جملة -بما أشرنا إليه آنفاً- لأَنَّها تُهمة لا مُستَنَدَ لها، فأنّى لمن عَدَّ نَفسَهُ إسلامياً، ألاّ يقف للعلماء إجلالاً وتبجيلاً؟ فإن كان لا يُحِبُّ علماءُ الإسلام ولا يُكِنُّ لهم توقيراً، فَمَن هو -ياتُرى- مُرشِدُهُ وإمامُهُ!!

ثم إنَّ الإسلاميين أنفُسَهُم، منضوون تحت راية أهل العلم والمعرفة وإشرافهم، وهل يقومون بِعَمَلٍ أو حركة، دون الرجوع إلى الأئمة والعلماءِ: الموجِّهين المُنَظِّرين.

فتلك مقولة مجافية للصواب إذاً، بأنهم عن بكرة أبيهم لا يُجِلُّون العلماءَ، ولكن:

ولكن: لاشكّ أنَّ الإسلاميين أيضاً ليسوا ملائكة معصومين، ولا أنواراً لا ظُلْمَةَ فيها، فلهم أخطاء وزَلاّت، ومخالفات وهفوات، وما من جماعة على وجه الأرض تَصدُقُ عليها العصمة، فلا غَروَ أن يكون في صفوف الإسلاميين، ليس فقط تقصيرٌ في احترام العلماء، بل وفي جوانب أخرى كثيرة، بل قد يكون من بينهم من هو مدسوسٌ، له أعمالٌ دون ذلك يَعمَلُها.

٢) ليس الإسلاميون جماعة واحدةً، على منهج واحد، في التصور والتعامل الإجتماعي والمواقف، والسياسة الشرعية!

لأن المفهوم الحقيقي للإسلاميين أن يقال:

«الإسلاميون هم الذين يؤمنون بالإسلام كعقيدة صحيحة ومنهج مُتكاملٍ

يشمل سائر مجالات الحياة للفرد والمجتمع، ويَعمَلون وُسعَهُم لإقامة حكم الشريعة في حياة الناس».

فالإسلاميون -وفق هذا التعريف- أكثر عدداً من أن يَنحَصِروا في دائرة: جماعة إسلامية مُعَيَّنةٍ، أو تنظيم إسلامي محدَّد، بل وجودُهم يشمل سائر طبقات المجتمع ذكوراً وإناثاً، مثقفين وأميين، أهل مُدُنٍ، وأهل أرياف، شيوخاً وشباباً، علماء وعواماً، ...إلخ.

وليس معقولاً إذا ما صدر من شخص في شريحةٍ من تلك الشرائح، ما يتنافى مع الأدب، أو أخطأ خطأً، أن يُحسَب ذلك على جميع الإسلاميين، وكأنه لسانُ حالِهِم أو المُتحدِّث باسمهم!

فإنِّي بصفتي مُنخَرِطاً مع كافة طبقات وشرائح المجتمع، ولي علاقات صداقة معهم، أحياناً يُوجَّه إليّ العتابُ من قبل (إمام) أو (شيخ طريقة) أو شخص من العشائر، على كلامٍ أو تعاملٍ خطأٍ -أو ظَنَّهُ هو خطأً- من أحد الشباب، وعندما يبدأ بالحديث، يَتبَيَّنُ أنَّ ذلك المُتَّهَمُ ليس فقط غير منتمٍ إلى (الجماعة الإسلامية) حتى نُحاسِبَهُ على خَطئِهِ، بل لا ينتمي إلى أية جماعة أو تنظيم إسلامي أصلاً، بلْ ولَرُبَّما يعتبر تلك التنظيمات خطأً وبِدعةً!! إذن: فمِن الإجحاف والظلم البَيِّن أن يُلام الإسلاميُّون على أخطاء غيرهم، أو على انحرافات من لا يلتزم بتوجيهاتهم!

ثم لا ينبغي أن نَغفُلَ عن حقيقة أخرى، وهي: أنَّ العلماء أيضاً ليسوا سواسيةً كأسنان المشط، يَصدُقُ عليهم حُكمٌ واحدٌ دون تصنيف، وبالتالي: متى قيل: أخطأ (العالم) الفلاني، يُعَدَّ ذلك عِداءً وانتِقاصاً للعلماء أجمعين!

فالله تعالى يقول: [أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ]القلم/ ٣٥-٣٦.

المبحث السادس

على العلماء والأساتذة ألاّ يَحتَفِلوا باحترام وتأييد وتضامُن غير الإسلاميين معهم

هذه حقيقة مُجَرَّبَة، لا مجال لإنكارها، أنَّ الذي لا يؤمن بالدين منهجاً، لا يحترم أَتباعَهُ ولا علماءَهُ أصلاً، بل إذا وافَتْهُ الفُرصةُ، عاداهم ووقف بوجههم.

لابُدَّ أن تكون هذه الحقيقة جَليَّةً عند العلماء والأساتيذ، فالعلمانيون[٢٣٨] وإنْ أبدَوا في الوجه: تقديراً واحتراماً وتأييداً، فَليَكُنْ يقيناً لدى أهل العلم، أنه لا يَعدو أن يَكون (دبلوماسية) ومداراة ومجاملاتٍ، لا غير، ومبتغاهم من وراءِ ذلك: الخديعة والإستغلال والطَّعن في الظَّهر.

والمِحَكُّ لتلك التصرُّفات والأقوال: أن يقول العلماءُ الأفاضل لهؤلاء الناس:

أيها السادة!

نَحنُ نُحِبُّ الله أكثر من أَنفُسنا، ونُضحِّي بحياتنا في سبيل ديننا، فإن كنتم تَحترمونا -حقاً وصدقاً- من أجل إسلامنا، وتُقَدِّمُونا على أنفسكم، وتَضَعون الأَكُفَّ على الصدور، فنحن لا تُهِمُّنا أنفُسنا مقابِلَ ديننا وشريعة ربنا، لذلك وبَدَل تقديم لنا على أنفسكم ووقوفكم احتراماً لنا، قَدِّمُوا دينَ الله وشريعته على نفوسكم، وبَجِّلُوها وقِفوا لها قياماً، لأن احترامَنا ومقامَنا ومنصبَنا، إنما هو نابع من شريعة الله تعالى وعائدة إلى أَنَّنا نُعَرِّفُ بالآخذين بتركة الرسول ﷺ وميراثه: (إن العلماء ورثة الأنبياء).

---

٢٣٨) في الفصل الرابع من كتابنا: (العاطفة الوطنية والفكر الناشيونالي) كتبنا تعريفاً دقيقاً للعلمانية. وتحدثنا عن (العلمانية) تفصيلاً في كتاب (التيار الإسلامي والتيّار العلماني: نقاط الوفاق والفراق)، وكذلك في كتابنا: (مسائل عصرية رائجة)، خَصَّصنا فصلاً كاملاً للحديث عن العلمانية، كما وتطرّقنا للحديث عنها في كتاب: (العلمانية والديمقراطية في تجربة كوردستان).

فـإذا نَفَّـذَ أولئك هـذا المطلب العـادل للعلـماء الأفاضـل، فقـد صدقـوا في تقديمهـم الشـيوخ عـلى أنفسـهم واحترامهـم والوقـوف لهـم قائمـين، وإلاّ فـلا يَغـتَرَّن أحـدُ الشـيوخ بتلـك التصرفـات، ولا يَبنِـيَنَّ عليهـا بنـاءً، بـل عليهـم أن يَضَعُـوا علامـات الإسـتفهام بجانبهـا.

نعـم، إن مـن واجـب النـاس جميعاً -وخصوصـاً العلـماء-، أن يعلمـوا أنَّـهُ لا يَحـتَرِمُ أهـل العلـم ولا يُقدِّرُهُـم، إلا أهـلُ الدّيـن، وبإمـكان الإسـلاميِّين المجاهديـن وحدهـم، أنْ يكونـوا ظهـيراً حقيقيـاً قويـاً للعلـماء، والـدِّرعَ الَتـي تَقِيهِـم، لِـذا: فإيّاهـم إيّاهـم أن يُسَرُّوا بغـير مـا قلنـا، وإيّاهـم أن ينتظـروا تحقُـق الأباطيـل وصـدق الأضاليـل.

والله تعـالى قـال لنبيه -الـذي يعتـبر العلـماءُ أنفسَـهم ورثـةً لـه-: [وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ]الأنفـال/ ٦٢.

والخلاصة:

عـلى العلـماء أن يكونـوا كـما كان متبوعهـمﷺ، لا يفرحـون إلاّ بتأييـد الله وقُوَّتـهِ، ثـم بالمؤمنين الصادقين، ثـم لا يتوقَّعـون بعـد ذلـك شـيئاً مـن أحـدٍ، إلاّ فـلا يجنـون إلاّ اليـأسَ وسَـتَحُلُّ بهـم النَّدامـة، ويَعُضُّـون أصابعهـم يـوم لا ينفـع النـدم شـيئاً.

كما قال الله تعالى:

[وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا]الفرقـان-٢٧، ٢٨، ٢٩.

المبحث السابع

العبد الفقير، وتهمة عدم تقدير العلماء
وعرض جملة من الحقائق الساطعة

تَرَدَّدتُ كثيراً قبل الإقدامِ على كتابة هذا المبحث، ولكنَّني -بعد لأيٍ- قَرَّرتُ الكتابة فأقول مستعيناً بالله تعالى:

أولاً: إنّ تلفيق تهمةٍ لشخصٍ ما، لا يستدعي أكثر من إجراء حركات يسيرة في اللسان، وفيصل التفرقة بين الصدق والكذب هو الدليل، ولذلك يقول الله تعالى: [قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ]النمل/ ٦٤. وعلى هذا: فكُلّ تُهمةٍ أو دعوى مُجَرَّدَة عن الدليل، تُعتبر كذباً وصاحِبه كذّاباً.

ثانياً: لله الحمد والثناء، أقول متحدثاً بنعمة الله تعالى: منذ أن وعيتُ ما يدور من حولي، لا أقول لم أُبغض أستاذاً أو عالِماً صالحاً وحَسبُ، بل لَم أُبغِض حتى من يغلب على الظن أنه صالح، بَل حتى المسلم الذي عَلِمتُ، أو رأيتُ أو سَمِعتُ أنه يُبغِضُني بلا وجهِ حَقٍّ، أو كان له معي حقدٌ، أو اغتابني أو حتى بَهَّتَني، فقد برَّئتُ ذِمَّتَهُ -في أوقات تَضَرُّعي الخاصة- ودعوت له، ولازِلتُ كذلك وسأبقى على هذا السلوك والموقف أبداً إن شاء الله، لأن الله تعالى يقول: [وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]النور/ ٢٢.

ثالثاً: ومنذ أن أَجرَيتُ فَرَسي في ميدان العمل الإسلامي، فَقَد هَاجَمتُ أيّ فردٍ وجماعةٍ أو شريحةٍ، ظَننتُ أنها على الباطل ونَأَت عن الإسلام، ولَم أُخَصِّص العلماء دون غيرهم في ذلك، بل عَمَّمتُ ما رأيتهُ حقاً في ذلك، على سائر القوم من القائد إلى الفقير، والعامي حتى العالم.

ولئـن كانـت حِصَّـةُ العلـماءِ والشـيوخ كبـيرةً في ذلـك، فَلِـما غَلَـبَ عـلى ظَنّـي أنَّ أخطاءَهـم أسـوأُ أثـراً في النفـوس مـن غيرهـم، ثـم إنَّـني كنـت حريصـاً عـلى الفصـل بـين المُحسِـن منهـم والمسيء.

أجَـل، إنَّ مـن إخـلاصي للعلـماء الصادقـين، وحِـرصي عـلى سُـمعتهم، هاجَمـتُ أدعيـاءَ العلـم والمفسـدين، ولئـن لم أُشـكَر عـلى هـذا، فـلا أقـلَّ ألاّ أُتَّهـم أو أُخَطَّـأَ.

رابعـاً: إنَّنـي في خِضَـمِّ دفاعـي عـن الإسـلام-كما أشرت إلى ذلـك في الفقـرة الماضيـة- وَجدتُني مضطراً أن أُبَيِّنَ أيَّ انحراف عايَنتُهُ في شخصٍ أو شريحةٍ، وأن أضع بذلك النقاط على الحروف، حتى لا تذهب الظنون بأحدٍ شاهَدَ ذلك الإنحراف، أنَّه من الإسلام، وأن يعلم أنَّ ذلك الفرد أو الجهة التي انحرفت، هي المسؤولة عن انحرافها وسوءِ فِعالها.

إذاً: فالحديث والكتابة عن العلماء والأئمة والشيوخ وغيرهم، حَلَقَةٌ في سلسلة، وجزءٌ من إستراتيجية عامة، لا علاقة لها من قريب أو بعيد، بعدم تبجيل العلماء واحترامهم.

خامسـاً: إنَّنـي وإن كنـت بعـد هدايـة الله تعـالى، أجـدني مثقـلاً دون أفضـال العلـماء والأئمـة المعاصريـن والقدمـاء بأصنافهـم؛ سـواء المفسريـن منهـم كالطـبري والـرازي والقرطبي وابـن كثير والزمخشري والآلـوسي وسيد قطب، أو شُرّاحِ السُّنة؛ كالنووي والبغـوي وابـن تيميـة وابـن القيـم وابـن حجـر العسـقلاني وسـيد سـابق والألبـاني، وسـائر الفقهـاء والمُختَصّـين في مجـال التزكيـة...إلـخ. فقـد قضيـت شـطراً مـن عمـري- ولله الحمـد- في خدمـة تلـك النتاجـات العظيمـة والكتـب النافعـة، ولكنَّـني وَجَـدتُ مـن واجبي-وفـاءً وتقديـراً- أن أشـير-ولو بذكـر الأسـماء- إلى العلـماء والأسـاتذة الأفاضـل في كوردسـتان الَّذيـن اسـتفدت منهـم علميّـاً وعمليّـاً، إمّـا دراسـةً عندهـم، أو بسـبب قُـربي منهـم ولقائـي بهـم:

١. الأستاذ مُلاّ أحمد السكتاني، المعروف بـ(القاضي) وهو أول أُستاذ لي درست عنده العلوم الشرعية في المعهد الإسلامي، في سنة (١٩٧٤م)، في قضاء رانية.

٢. الأستاذ مُلاّ أمين إبن الشيخ مصطفى البنجويني.
٣. الأستاذ مُلاّ عبدالله الحلبجي.
٤. الأستاذ مُلاّ عبدالله الخيال.
٥. الأستاذ مُلاّ عبدالرحمن.

وقد تلقيت الدروس على هؤلاء الأفاضل الأربعة في السليمانية.

٦. الأستاذ مُلاّ حسين الدَّشتيوي، الذي دَرَستُ عاماً في حجرته، في مسجد المَولَوي في السليمانية، واستفدتُ من علمهِ وأَخلاقهِ كثيراً.
٧. الأستاذ مُلاّ أحمد القاضي، الشاعر والمُتَصَوِّف، الذى كنت أَتَرَدَّدُ عليه أحياناً في السليمانية، وقد استفدتُ منه معنوياً.
٨. الأستاذ مُلاّ (محمد البردرشي) الذي درست عنده للمرة الأخيرة، عِدَّة شهور ما بين (١٩٨١-١٩٨٢م)، في قرية (بردرش) التابعة لمدينة (بانه) الإيرانية.

وكذلك فقد استفدت من الأساتذة الآتية أسماؤهم، وإنْ كانت بدرجةٍ أَقَلَّ من الذين ذكرتهم آنفاً:

١. الأستاذ مُلاّ عبدالكريم المدِّرس.
٢. الأستاذ مُلاّ عثمان عبدالعزيز الپريسي.
٣. الأستاذ مُلاّ محمد طه الباليساني.
٤. الأستاذ مُلاّ مجيد الشقلاوي.
٥. الأستاذ مُلاّ سيد محمد پيرداودي.
٦. الأستاذ مُلاّ عبداللطيف الواژي.
٧. الأستاذ مُلاّ محمد النورالديني.
٨. الأستاذ مُلاّ سيد أحمد النولچكي، المعروف بـ(ملا پوله).
٩. الأستاذ مُلاّ سيد نجم الدين العَنَبي.
١٠. الأستاذ مُلاّ صديق سرگتي.

١١. الأستاذ مُلاّ محمد صادق البالكي (سلمان پاكي).

أللَّهُم أجزِل الثواب لجميع هؤلاء الشيوخ الكرام، واغفر للذين قَضَوا أَنحابهم وأعلي درجاتِهم ونَقِّهم من ذنوبهم، كما يُنقَى الثوبُ الأبيض من الدَّنَس، أللَّهُم وارحم الأحياء منهم، وسَلِّمهم وَوَفِّقهُم لما تُحِبُّ وتَرضى.

وأقولُ خِتاماً

إنَّ الذي لا يعترف بفضل العلماء والأساتذة المخلِصين الأفاضل في كوردستان، الذين كانوا منهمكين في أحلَكِ الظروف الصعبة وأشَدِّها خطورةً، في ظِلِّ النِزاعات وعدم استقرار البلاد، في نشر العلوم الشرعية وتنشأة الطلبة، إنَّ الذي لا يَعترفُ بكلِّ هذا، فهو إمّا غافلٌ ساهٍ، وإمّا ناكرٌ للفضل مُجَرَّدٌ من الضمير.

وفي الوقت عينه: لاريب أن التقصير متضافر من هنا وهناك، فليس كلُّ من سُمّي عالِماً، كان عالماً، بل هناك مَن يُنسَبُ إلى زُمرةِ العلماء، وهو -في الحقيقة- بَلاءٌ، وحِملٌ ثقيل على الإسلام والمسلمين، يَعمَلُ تَشويهاً في هذا الدين، وتَنفيراً للناس منه، ويَطعن المسلمين طعنة نجلاءَ، مُتَّخِذاً من الخديعة والتضليل أُسلوباً، وما من أحدٍ بإمكانه أن يخدم أهل الكفر والنفاق، كما يخدم هذا الدّعيُّ(٢٣٩)، ولا حول ولا قوة ألاّ بالله.

وندعو الله كما قال بعض أساتذتنا، فنقول:

ألَّلهم وفِّق الصالحين لمزيد من الصَّلاح، واهدِ العاصين إلى زمرة الصالحين، وطَهِّر الأرض ممن يأبى أن يسلُكَ طريق المسلمين.

وسبحانك اللَّهم وبحمدك، أَشهد ألاّ إله إلاّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

١/ ذي الحجة/ ١٤٢١هـ ٤/ ٢/ ٢٠٠١

مراجعة الطبعة الثانية

١٥/ ذي الحجة/ ١٤٣٩هـ

٢٦/ ٨/ ٢٠١٨م

أربيل/ كوردستان العراق

---

٢٣٩) الدَّعيّ من العلماء، هو الذي لا يحمِلُ من دين العلماء وأخلاقهم، إلا الإسم، وكذلك أدعياء العمل الإسلامي والسلفية والصوفية وغيرهم.

www.youtube.com/alibapir١

قائمة بكل الإنتاج الفكري

للشيخ علي باپـير

كتباً وكتيبات وباللغتين العربية والكوردية

www.alibapir.net

أ - باللغة الكوردية (بعد ترجمة عناوينها إلى العربية)

القرآن والسنة

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١	خلاصة عن الإسلام في ضوء سورة الفاتحة	ط الأولى/ ١٩٨٤ ط الثانية/ ٢٠٠٦	
٢	لنكن في خدمة القرآن	ط الأولى/ ٢٠٠٨ ط الثانية/ ٢٠١٥	
٣	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الأول، سورتي: (الفاتحة) و(البقرة)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
٤	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثاني، سورة: (آل عمران)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
٥	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثالث، سورة: (النساء)	ط الأولى/ ٢٠١٣	
٦	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الرابع، سورة: (المائدة)	ط الأولى/ ٢٠١٤	
٧	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الخامس، سورة: (الأنعام)	ط الأولى/ ٢٠١٥	
٨	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد السادس، سورة: (الأعراف)	ط الأولى/ ٢٠١٦	
٩	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد السابع، سورة: (الأنفال)	ط الأولى/ ٢٠١٦	
١٠	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثامن، سورة: (التوبة)	ط الأولى/ ٢٠١٧	
١١	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد التاسع، سورة (يونس)	ط الأولى/ ٢٠١٨	
١٢	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد العاشر، سورة: (هود)	ط الأولى/ ٢٠١٨	
١٣	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الحادي عشر سورة: (يوسف)	ط الأولى/ ٢٠١٩	
١٤	تفسير القرآن العلي المبارك، المجلد الثاني عشر سورة: (الرعد، إبراهيم، الحجر)	ط الأولى/ ٢٠١٩	
١٥	إتباع سنة النبي ﷺ بين التفريط والإفراط	ط الأولى/ ٢٠١٥	
١٦	طريقة النبيِّ ﷺ: تعريفها، أهمِّيتُها، ضرورتها	ط الأولى/ ٢٠١٧	

العقيدة والفكر الإسلامي

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١٧	صراع الإسلام والإيدولوجيات	ط الأولى/ ١٩٨٥ ط الثالثة/ ٢٠٠٦	
١٨	ماهي طريق النبي «صلى الله عليه وسلم»؟!	ط الأولى/ ١٩٨٩	أدخل فيمل بعد في كتاب (المسلم الكامل: القسم الأول: عقيدة المسلم)
١٩	مشروع: المنهج الفكري للعمل الإسلامي	ط الأولى/ ١٩٩٦	
٢٠	شرح الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية	ط الأولى/ ٢٠٠١ ط الثالثة/ ٢٠١٤	ترجم للعربية
٢١	مسائل عصرية رائجة: نظرة واقعية وتقييم شرعي	ط الأولى/ ٢٠٠٢ ط السادسة/ ٢٠١٦	ترجم للعربية والتركية والفارسية
٢٢	معرفة الله، الإيمان، الدين، حقائق الإسلام تتبلور، وأباطيل السُّبُل تتدهور	ط الأولى/ ٢٠٠٢ ط الثانية/ ٢٠٠٩	
٢٣	أسماء الله الحسنى «سبحانه وتعالى»	ط الأولى/ ٢٠١٣	
	موسوعة: الإيمان والعقيدة الإسلامية في ضوء القرآن والسنة، في ستة مجلدات	الأولى/ ٢٠٠٦-٢٠٠٨ ط الثانية/ ٢٠١٦	
٢٤	**المجلد الأول**: ماهو الإيمان والعقيدة الإسلامية؟		
٢٥	**المجلد الثاني**: توحيدالله في الخالقية والربوبية		
٢٦	**المجلد الثالث**: توحيدالله في الأسماء والصفات والألوهية		
٢٧	**المجلد الرابع**: الإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله		
٢٨	**المجلد الخامس**: الإيمان باليوم الآخر وبالقضاء والقدر		
٢٩	**المجلد السادس**: خصائص وآراء أتباع الطريق الحق		
٣٠	المسلم الكامل/ عقيدة المسلم	ط الأولى/ ١٩٩٧	أدخل فيما بعد في كتاب: (الإيمان والعقيدة الإسلامية)
٣١	التيار الإسلامي والعلماني، نقاط الوفاق والإختراق	ط الأولى/ ٢٠٠٨ ط الثالثة/ ٢٠١٥	نشر معظمها ب(٢٤) حلقة في أسبوعية (المواطن) والبقية (٩) حلقات في أسبوعية (المرآة)
٣٢	شرح الأصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية	ط الأولى/ ٢٠١٤ ط الثاتية/ ٢٠١٥	

٣٣	الترجمة الكوردية لمتن العقيدة الطحاوية	ط الأولى/ ٢٠١٤	
٣٤	شرح العقيدة الطحاوية	ط الأولى/ ٢٠١٥ ط الثانية/ ٢٠١٧	
٣٥	العلمانية والديمقراطية في تجربة كوردستان (مناظرة العام)	ط الأولى/ ٢٠١٦	ترجم للعربية
٣٦	موسوعة: لَئَلَئَةُ الإيمانِ وَزَيْفُ الإلحادِ في ضَوْءِ: **الفِطْرَةِ والعَقْلِ والعِلْمِ والوَحي**	ط الأولى/ ٢٠١٩ ط الثانية/ ٢٠٢٠	
	موسوعة: التفكير الإسلامي بين الوحي والواقع		
٣٧	**الكتاب الأول:** توضيح: مفهوم وقصته وأسس وأهمية التفكير الإسلامي	ط الأولى/ ٢٠١٨	
٣٨	**الكتاب الثاني:** الخطوط العامة لمنهج جمهور المسلمين	ط الأولى/ ٢٠١٨	
٣٩	**الكتاب الثالث:** التيارات الفكرية في تأريخ المسلمين	ط الأولى/ ٢٠١٩	
٤٠	**الكتاب الرابع:** أصول التفكير الإسلامي	ط الأولى/ ٢٠١٩	
٤١	**الكتاب الخامس:**مسائل فكرية عصرية متنوعة	ط الأولى/ ٢٠١٩	
	سلسلة: لنتَعرَّف على الإسلام أكثر!		
٤٢	**الحلقة الأولى:** إثبات وجود الله تعالى		
٤٣	**الحلقة الثانية:** الأنبياء «عليهم الصلاة والسلام»	ط الأولى/ ١٩٩٨ ط الثانية/ ١٩٩٩	
٤٤	**الحلقة الثالثة:** اليوم الآخر		
٤٥	**الحلقة الرابعة:** الدين		

الفقه الإسلامي

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
	موسوعة: العبادة الإسلامية (٤ مجلدات)	ط الأولى/ ٢٠٠٠ ط الثانية/ ٢٠٠٩	
٤٦	**المجلد الأول:** العبادة بصورة عامة، المسائل الخلافية، الطهارة		
٤٧	**المجلد الثاني:** إقامة الصلاة أُولى شعائر العبادة		
٤٨	**المجلد الثالث:** الزكاة والإنفاق		
٤٩	**المجلد الرابع:** الحج والعمرة، ذكر الله		

٥٠	قواعد مهمة في التعامل الشرعي الحكيم مع المسائل الفرعية الخلافية	ط الأولى/ ١٩٩٩	ترجم للعربية
٥١	الأعياد والمناسبات: تقييم شرعي وعقلي	ط الأولى/ ٢٠١٣	
٥٢	موضوعات فنية في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/ ٢٠٠٩ ط الثانية/ ٢٠١٥	ترجم للفارسية
٥٣	أصول مهمة في مجال الإنفاق في سبيل الله	ط الأولى/ ٢٠١٣	

تزكية النفس والأخلاق والسلوك

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
٥٤	ذكر الله تعالى، أهمية ذكر الله في حياة الإنسان	ط الأولى/ ١٩٨٧	
٥٥	طريق الصلاح والسير الى الله: تزكية النفس في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/ ١٩٩٠ ط الخامسة/ ٢٠١٢	ترجم للعربية والفارسية
٥٦	مساجد كوردستان بين التعمير والتدمير	ط الأولى/ ١٩٩٩	
٥٧	التوبة الى الله: الإقبال على الله، وترك الذنوب، والمعاصي، والتغيير الجذري في الذات	ط الأولى/ ٢٠٠١ ط الخامسة/ ٢٠١٠	
٥٨	من هو الشهيد وماهي منزلته؟	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٥٩	بحث حول رؤية الله «عز وجل» في الدنيا والآخرة	ط الأولى/ ٢٠١٥	
٦٠	حياة الروح: إحسان العبادة والتزكية	ط الأولى/ ٢٠١٥	
٦١	موسوعة: الخلق، والسلوك الإسلامي في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/ ٢٠١٦	

الدعوة والعمل الإسلامي

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
٦٢	حزب الله	ط الأولى/ ١٩٨٨	
٦٣	من هو البيشمركة المسلم، أو المسلم المجاهد؟	ط الأولى/ ١٩٨٨ ط الثالثة/ ١٩٩٨	
٦٤	داء ودواء الحركة الإسلامية	ط الأولى/ ١٩٩٠	
٦٥	الحركة الإسلامية بين البقاء والفناء	ط الأولى/ ١٩٩٣	
٦٦	الحركة الإسلامية ومرحلتها الجديدة	ط الأولى/ ١٩٩٤	
٦٧	توجيهات لإسلاميي كوردستان	ط الأولى/ ١٩٩٧	
٦٨	الحركة الإسلامية وأفق مشرق: الأصول الشرعية والأسس الأخلاقية	ط الأولى/ ١٩٩٧	

٦٩	الإسلام والقضايا الراهنة	ط الأولى/ ١٩٩٨	
٧٠	علماء الإسلام من هم وماهي صفاتهم؟	ط الأولى/ ٢٠٠٢ ط الثالثة/ ٢٠١١	ترجم للعربية
٧١	الجماعة الإسلامية: أهدافها ومواقفها	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٢	كيف نتعامل مع الناس؟	ط الأولى/ ٢٠٠٢	ترجم للعربية
٧٣	كيف نفهم الجهاد؟	ط الأولى/ ١٩٩٨	
٧٤	ملاحظات وتنبيهات حول الجهاد في سبيل الله	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٥	لكيلا نتضرّر من جهادنا!	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٦	ماهو الجهاد في سبيل الله، هدفُه وكيفته	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٧	توجيهات لإخوتنا في المهجر	ط الأولى/ ٢٠٠٢	
٧٨	الإسلام والتدين والعمل الإسلامي في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/ ٢٠٠٦	
٧٩	التحالف في ضوء القرآن والسنة	ط الأولى/ ٢٠٠٩	
٨٠	المشاركة في الإنتخابات والبرلمان / تقييم شرعي وعقلي	ط الأولى/ ٢٠٠٩ ط الثانية / ٢٠١٣	
٨١	نقض أفكار وتصرّفات داعش المتطرفة	ط الأولى/ ٢٠١٥ ط الثانية/ ٢٠١٧	ترجم للفارسية
٨٢	لايجوز أن تشككّنا إنحرافات وجرائم داعش في الإسلام	ط الأولى/ ٢٠١٥	ترجم للفارسية
٨٣	التطرف: التعريف، وعلامات المتطرفين، أسباب التطرف، آثار التطرف، علاج التطرف	ط الأولى/ ٢٠١٥	ترجم للفارسية
٨٤	القواعد الشرعية والأسس العامة للجماعة الإسلامية الكوردستانية		
٨٥	مراجعة للعمل الإسلامي	ط الأولى/ ٢٠١٩	

سلسلة: الأصول الشرعية للجماعة الإسلامية

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
٨٦	الحلقة الأولى: الأدلة الشرعية لتأسيس الجماعة الإسلامية	ط الأولى/ ٢٠٠١	
٨٧	الحلقة الثانية والثالثة: حكم عزل الخليفة والحكام المسلمين عند الظلم والإنحراف	ط الأولى / ٢٠٠١	
٨٨	الحلقة الرابعة: الشيخ أبو بصير وفتواه: تقييم شرعي وعقلي	ط الأولى / ٢٠٠١	

خطب مؤتمرات الجماعة الإسلامية

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
٨٩	العمل والمشروع الإسلامي (خطبة المؤتمر الأول للجماعة الإسلامية)	ط الأولى/ ٢٠٠٥ ط الثانية/ ٢٠٠٦	
٩٠	التقرير الإيماني والفكري والسياسي للجماعة الإسلامية (خطبة المؤتمر الثاني)	ط الأولى/ ٢٠١٠	
٩١	نظرة الى واقعنا الداخلي والخارجي (خطبة المؤتمر الثالث)	ط الأولى/ ٢٠١٦	

القومية ومسألة الكورد

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
٩٢	لماذا دُمّرت كوردستان وكيف تُعَمّر؟	ط الأولى/ ١٩٨٩	
٩٣	حكم العودة إلى نير الطاغوت	ط الأولى/ ١٩٩٠ ط الثانية/ ٢٠٠٥	
٩٤	العاطفة القومية والفكر الناسيونالي في ميزان الإسلام	ط الأولى/ ١٩٩٠ ط الرابعة/ ٢٠١٨	
٩٥	حلّ قضية الكورد بين الإيمان والبرلمان	ط الأولى/ ١٩٩٢	

السياسة والحكم

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
٩٦	موضوعات سياسية راهنة في ضوء العقل والوحي	ط الأولى/ ٢٠١٠	
	موسوعة: الإسلام والدولة (٤ مجلدات)	ط الأولى/ ٢٠١٤-٢٠١٦	
٩٧	**المجلد الأول**: الكيان السياسي في الإسلام: أدلة وجوبه، كيفية تأسيسه، طبيعته وأساسه الفكري، تعريف مصطلحات	ط الأولى/ ٢٠١٦	
٩٨	**المجلد الثاني**: أُسس نظام الحكم في الإسلام	ط الأولى/ ٢٠١٤	
٩٩	**المجلد الثالث**: السلطات الثلاث: التشريع، التنفيذ، القضاء	ط الأولى/ ٢٠١٥	
١٠٠	**المجلد الرابع**: غير المسلمين في المجتمع والدولة الإسلاميين	ط الأولى/ ٢٠١٥	
١٠١	نظرة إسلامية حول واقعنا المعاصر	ط الأولى/ ٢٠١٦	
١٠٢	القرآن والتطهير والإصلاح في إقليم كوردستان	ط الاولى/ ٢٠١٨	
١٠٣	أهمية الأخلاق في السياسة	ط الأولى/ ٢٠١٩	

المرأة والأسرة

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١٠٤	المرأة الكوردية المسلمة: حقوقها الشرعية ووظائفها المهمة	ط الأولى/ ٢٠٠٣	.
١٠٥	موسوعة: المرأة والأسرة في ظل الشريعة	المجلد الأول: طالأولى/ ٢٠٠٢ المجلد الأول والثاني: ط الثالثة/ ٢٠١٣	

التأريخ

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١٠٦	خلاصة سيرة رسول الله «صلیالله علیه ةسلم» عبرها ودروسها	ط الأولى/ ٢٠٠٩ ط الثالثة/ ٢٠١٣	
١٠٧	باقات من بيدر عمري (ذكرياتي) القسم الأول: ١٩٦١-١٩٩١	ط الأولى/ ٢٠١٥	
١٠٨	خلاصة أحداث حياتي ونشاطاتي الفكرية والسياسية (١٩٦١-٢٠١٧)	ط الأولى/ ٢٠١٨	ترجم للعربية والأنجايزية

الحوارات والمقابلات

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١٠٩	لاتتجاوزوا الحدود (مقابلة د. حسين محمد عزيز)	ط الأولى/ ٢٠٠١ ط الثانية/ ٢٠٠٤	
١١٠	التعذيب والسجن، بيشمركة أمضى اثنين وعشرين شهراً في سجن المحتل	ط الأولى/ ٢٠٠٥ ط الثالثة/ ٢٠٠٩	ترجم للعربية والفارسية والإنجليزية
١١١	الشباب في المفاهيم المعاصرة	ط الأولى/ ٢٠١٠	

سلسة: الموضوعات الراهنة

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١١٢	شبابنا بين الأصالة والتقليد (١)	ط الأولى/ ٢٠٠٦	ترجم للفارسية
١١٣	الإنهيار الأخلاقي يهوي بمجتمعنا، فالحذر الحذر! (٢)	ط الأولى/ ٢٠٠٢ ط الثانية/ ٢٠٠٦	
١١٤	الأضرار التي نجنيها بإبعاد المرأة عن الإسلام (٣)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٥	كيف نكون قدوة وكيف نبني القاعدة الجماهيرية؟ (٤)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٦	توضيحات عن السياسة الإسلامية (٥)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١١٧	أسس مهمة لكيفية إلقاء الخطبة (٦)	ط الأولى/ ٢٠٠٦	ترجم للفارسية
١١٨	طلبة العلم الشرعي، ملاحظات وإرشادات (٧)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١١٩	(٨) الأخلاق الفاضلة معيار الإلتزام بالإسلام	ط الأولى/ ٢٠٠٧	
١٢٠	الدعوة الى الله، ماهيتها وكيفيتها، والهدف منها، ومن يقوم بها؟ (٩)	ط الأولى/ ٢٠٠٧	ترجم للفارسية
١٢١	(١٠) كيف ينبغي أن يكون الطلاب في هذا الواقع، وماهي واجباتهم؟	ط الأولى/ ٢٠٠٨	
١٢٢	واقع إقليم كوردستان: نظرة إسلامية (١١)	ط الأولى/ ٢٠٠٨	
١٢٣	طبيعة الأسرة وأركانها، ومسالة تعدد الزوجات في ميزان الشرع والعقل (١٢)	ط الأولى/ ٢٠٠٩	
١٢٤	العمل الإسلامي وتقشيع ضباب الشكوك (١٣)	ط الأولى/ ٢٠١١	
١٢٥	تقييم قضية الإرتداد عن الإسلام (١٤)	ط الأولى/ ٢٠١١	
١٢٦	تفسير الملاّ الكبير الكوي، نظرات سريعة (١٥)	ط الأولى/ ٢٠١١	
١٢٧	تقييم وجود النسخ أو عدمه في القرآن (١٦)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
١٢٨	ابتلاء الله لعباده، ماهو وكيف يكون؟ (١٧)	ط الأولى/ ٢٠٠٣ ط الثانية/ ٢٠١٢	
١٢٩	إرشادات لإخواننا وأخواتنا في المهجر (١٨)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
١٣٠	أم محمد: إمرأة كفوءة وزوجة نادرة (١٩)	ط الأولى/ ٢٠١٢	
١٣١	الشباب والأزمة الروحية (٢٠)	ط الأولى/ ٢٠١٧	
١٣٢	الحياة في ظلِّ الإيمان ودحض الشبهات (٢١)	ط الأولى/ ٢٠١٧	

ب/ الكتب العربية

ت	الكـتـب	التأريخ والطبع	ملاحظة
	موسوعة: الإسلام كما يتجلّى في كتاب الله	ط الاولى/ ٢٠١٥	• كانت في الطبعة الأولى في ثمانية مجلدات، وستكون في الطبعة الثانية اثني عشر كتاباً بالصورة الآتية
١٣٣	**الكتاب الأول**: الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق عز وجل والخلق	ط الثانية/ ٢٠١٦	
١٣٤	**الكتاب الثاني**: تعريف الإيمان	ط الثانية/ ٢٠١٧	
١٣٥	**الكتاب الثالث**: الإيمان بالله تبارك وتعالى: الخالق الرب المالك الإله ذي الأسماء الحسنى والصفات العلى	ط الثانية/ ٢٠١٧	
١٣٦	**الكتاب الرابع**: الإيمان بالملائكة و بالجن	ط الثانية/ ٢٠١٧	
١٣٧	**الكتاب الخامس**: الإيمان بكتب الله الحكيم	ط الثانية/ ٢٠١٧	
١٣٨	**الكتاب السادس**: الإيمان برسل الله تعالى وأنبيائه الكرام	ط الثانية/ ٢٠١٧	
١٣٩	**الكتاب السابع**: خاتم النبيين محمد صلى الله علية وسلم: موجز سيرته وبراهين نبوّته	ط الثانية/ ٢٠١٨	
١٤٠	**الكتاب الثامن**: الإيمان باليوم الآخر وموجز عن القدر	ط الثانية / ٢٠١٨	
١٤١	**الكتاب التاسع**: إهتداء الإنسان بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله	ط الثانية / ٢٠١٩	
١٤٢	**الكتاب العاشر**: إلتزام المجتمع بشريعة الله تعالى	ط الثانية / ٢٠١٩	
١٤٣	**الكتاب الحادي عشر**: تطبيق المجتمع للشريعة و معالم الدولة في الإسلام	ط الثانية / ٢٠١٩	
١٤٤	**الكتاب الثاني عشر**: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس وتعامل صحيح معهم	ط الثانية / ٢٠١٩	
١٤٥	نقض فكرة التطرف	ط الاولى/ ٢٠١٦/ لندن ط الثانية/ ٢٠١٧/ القاهرة (نقض التطرف ودحض أفكار المتطرفين)	

ت	الكتب	التأريخ والطبع	ملاحظة
١٤٦	ضيف و قضية (مقابلة مع قناة العربية)	ط الاولى/ ٢٠٠٦	جمعت مع مقالات وكلمات أخرى في كتاب: (نظرات فاخصة في قضايا شاخصة)
١٤٧	لقاء خاص (مقابلة مع قناة العالم)	ط الاولى/ ٢٠٠٦	
١٤٨	حديث مختصر حول مايجري على الساحة العراقية	ط الاولى/ ٢٠١٦	
١٤٩	طريق الصلاح والسير الى الله: تزكية النفس في ضوء القران والسنة	ط الاولى/ ٢٠١٢	
١٥٠	أمير وراء القضبان	طالأولى/ ٢٠٠٦ ط الثانية/ ٢٠٠٩	
١٥١	مسائل عصرية رائجة	ط الثانية/ ٢٠١٤	
١٥٢	قواعد مهمة في التعامل الشرعي الحكيم مع المسائل الفرعية الخلافية	ط الاولى/ ٢٠١١	
١٥٣	علماء الإسلام من هم وماهي صفاتهم؟	ط الاولى/ ٢٠٠٥ ط الثانية/ ٢٠١٩	
١٥٤	الاصول الشرعية والخطوط العامة للجماعة الإسلامية	ط الاولى/ ٢٠١٢	
١٥٥	كيف نتعامل مع الناس؟	ط الأولى / ٢٠٠٢	
١٥٦	حوارات ساخنة حول قضايا راهنة، في ميادين الفكر والفقه والدعوة والسياسة	ط الأولى و الثانية/ ٢٠١٨	
١٥٧	الديموقراطية والعلمانية في تجربة كوردستان	ط الأولى/ ٢٠١٨	
١٥٨	خلاصة أحداث حياتي ونشاطاتي الفكرية والسياسية (١٩٦١-٢٠١٧)	ط الأولى/ ٢٠١٨	
١٥٩	نظرات فاحصة في قضايا شاخصة: الإسلام والأمة، القضية الكوردية، الوضع العراقي	ط الأولى/ ٢٠١٩	

الكتب التي تحت الطبع

١٦٠	تفسير القرأن العلي المبارك إلى سورة (غافر)، والعمل فيه مستمر بإذن الله إلى آخر القرآن		
١٦١	موسوعة: أيها المسلمون! نحو فهم ونضج أكمل، وهي مكوّنة من (١٢) كتاباً		
١٦٢	الأخلاق والآداب الإجتماعية في ضوء الوحي والعقل		

الفهرست

الفصل الرابع

www.youtube.com/alibapir١

محطات من السيرة الذاتية للمؤلف

www.alibapir.net



محطات من السيرة الذاتية للشيخ علي باپــيـر

- الشيخ علي باپير من مواليد: ١٩٦١م في قضاء بشدر التابع لمحافظة السليمانية.
- بعد إكماله الإبتدائية، دخل المعهد الإسلامي عام: ١٩٧٤، وتخرج من ثانوية المعهد الإسلامي عام: ١٩٨٠، وأتمَّ حفظ القرآن العظيم في العام نفسه.
- دخل كلية العلوم والشريعة الإسلامية، وفي المرحلة الثانية من الكلية اضطر لترك الدراسة والهجرة عام: ١٩٨١ بسبب صدور الأمر بالقبض عليه من قبل النظام البعثي البائد.
- في سنة: ١٩٨٣ عاد إلى كوردستان العراق وأدّى امتحان الإمامة في مديرية أوقاف أربيل، وبعد نجاحه المتفوِّق، تعيَّن بصفة إمام في مسجد النورسي في مدينة رانية.
- ألّف أول مؤلفاته باللغة الكوردية سنة: ١٩٨٣ بعنوان: (خلاصة عن الإسلام) ثم تتابعت مؤلفاته والتي جاوز عدَدُها المائة (١٠٠) بين موسوعةٍ وكتابٍ وكُتَيْب، باللغتين الكوردية والعربية، في مجالات: الفكر الإسلامي، والإيمان والعقيدة، والفقه، والحكم والسياسة، وتزكية النفس، والأخلاق، ونقض الأفكار المستوردة...الخ، وتُرْجِمَ بعضُ مؤلّفاته إلى اللغات: الفارسية، والتركية، والإنجليزية.
- في سنة: ١٩٨٧ دفاعاً عن مظلومية الشعب الكوردي من قبل النظام البعثي البائد، انخرط في العمل الجهادي المسلّح في صفوف (الحركة الإسلامية السابقة، والتي كان الشيخ من أبرز قادتها، وذلك بعد سنوات من النِّضال

الفكـري والدعـوي المخفـي والعلنـي مـع نـوعٍ مـن الإرتبـاط بـ(حركـة الرابطـة الإسـلامية) والتـي تأسَّسـت نواتهـا التنظيميـة في نهايـة السـبعينيات مـن القـرن المـاضي.

وكانـت للحركـة آنـذاك مقـرات عسـكرية في مناطـق عـدة مـن كوردسـتان، ضـد نظـام حـزب البعـث، وأسَّـس الشـيخ قـوة: سـيد الشـهداء حمـزة في سـفوح جبـال قنديـل.

- في سنة: (١٩٨٨)م أصبح عُضْوَ المكتب السياسي في الحركة الإسلامية.
- وكان لـه دور بـارز في انتفاضـة آذار (١٩٩١)م، وتَوْعِيَـةِ جماهـير كوردسـتان حـول أهـداف الإنتفاضـة الشـعبية، والتعريـف بالحركـة الإسـلامية.
- واسـتمرَّ في العمـل داخـل الحركـة الإسـلامية، ثـم حركـة الوحـدة الإسـلامية، إلى سـنة: (٢٠٠١)م والتـي أعلـن فيهـا بتأريـخ: (٣١/ ٥/ ٢٠٠١)م مـع الأغلبيـة السـاحقة لمراكـز وكـوادر ومجاهـدي الحركـة، وذلـك مـن جـرّاء أسـباب منهجيـة عـن: الجماعـة الإسـلامية الكوردسـتانية، وانتخـب هـو أمـيراً للجماعـة.
- في: ١٠/ ٧/ ٢٠٠٣ اعتقـل الشـيخ مـن قبـل القـوات الأمريكيـة وبقـي في سـجن كروبـر قـرب مطـار بغـداد (٢٢) شـهراً في زنزانـة انفراديـة، وألَّـف أثنـاء تلـك المـدة، موسـوعة: (الإسـلام كـما يتجـلى في كتـاب الله)، في أكثـر مـن أربعـة آلاف (٤٠٠٠) صفحـة، وفي اثنـي عـشر كتابـاً في طبعتهـا الثانيـة، وأطلـق سراحـه في: ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٥، واسـتقبل بحفـاوة مـن قبـل الآلاف مـن مختلـف شرائـح المجتمـع.
- كتـب إلى حدِّ الآن أكثر مـن (١٠٠) مائـة مؤلَّـفٍ مـن موسـوعة وكتـاب وكتيـب في مجـالات: الفكـر الإسـلامي والعقيـدة والفقـه والحكـم والسياسـة وتزكيـة النفـس والأخـلاق والـرد عـلى الأفـكار المناوئـة للإسـلام و...الـخ.
- شـارك في انتخابـات مجلـس النـواب العراقـي (٢٠١٤-٢٠١٠) كمرشـح للجماعـة الإسـلامية في دائـرة محافظـة أربيـل، فـكان الفائـز الأول عـلى القوائـم كلهـا، وكسـب أكثـر مـن (٦٠٠٠٠) صـوت.

- عقدت الجماعة الإسلامية إلى حدِّ الآن، ثلاث مؤتمرات في سنوات: (٢٠٠٥)و (٢٠١٠)و (٢٠١٥) وأعيد انتخابه أميراً فيها جميعاً.
- والآن هو مستمر في الأنشطة الفكرية والسياسية والإجتماعية المختلفة، وخاصة في الكتابة والتأليف لاسيما: مشروع تفسيره للقرآن الكريم، بعنوان: (تفسير العليِّ المبارك)، والذي طُبِعَتْ منه لحدِّ الآن، عدة مجلدات.

للمزيد من الإطلاع على السيرة الذاتية للؤلف يراجع الرابط الآتي:

www.alibapir.net

هذا الكتاب

- تعريف بالعلمـاء ورثة النبيِّ الخاتم ﷺ مـن خلال أوصافهم ووظائفهم ومواقفهم.
- إسداءُ اثنتي عشرة توصياتٍ، نصيحةً إلى طلبة العلم خصوصاً وأهل الثقافة الإسلامية عموماً.
- تقديم اثني عشر مُقْتَرحاً، إلفاتاً لنظر العلماء وأئمة المسلمين في مجالاتٍ شتّى.
- إبراز مواقف مُهمة لواحدٍ وعشرين عالماً، من أكثر علماءِ الأمة وأئمتها شُـهرةً وتأثيراً، بحيث أصبح كلٌّ منهم نِبْراساً يُضيءُ دروب الحياة للناس، وَيُجَسِّدُ في ذاته حقائق الإسلام الكبرى وقِيَمَهُ العُلْيا.
- تقشيعٌ لِضَباب تهمة: عَـدَمِ إكـرام العلماء من قِبَـلِ التيّار الإسلامي، الساعي لتغيير المجتمعات المسلمة وإصلاحها.

ISBN: 978-9933-586-46-1
9 789933 586461

دار المعراج
تلفاكس: +963112247242
ص.ب: 31429 ـ سورية ـ دمشق
E-mail: meraj.press@gmail.com